الإسرائيليات والموضوعات

في كتب التفسير

للشيخ العلامة
الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة
أستاذ علوم القرآن والحديث بجامعة الأزهر وأم القرى
رحمه الله تعالى

مكتبة السنة

الطبعة الأولى ـ ١٣٩٣ هـ ـ مجمع البحوث الإسلامية
الطبعة الثانية ـ ١٤٠٢ هـ ـ المؤلف (رحمه الله تعالى)
الطبعة الثالثة ـ ١٤٠٥ هـ ـ مجمع البحوث الإسلامية
الطبعة الرابعة ـ ١٤٠٨ هـ ـ مكتبة السنة

« طبعة منقحة ومصححة »

مكتبة السنة
الدار السلفية لنشر العلم

القاهرة ـ ٨١ شارع البستان ، ناصية شارع الجمهورية ـ عابدين ـ تليفون : ٣٩٠٠٣١٨
EL SONNA BOOKSHOP — CAIRO — 81 AL BUSTAN ST., ABDIN — TEL: 3900318

﴿ وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ . وَزَهَقَ البَاطِلُ . إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ .

[قرآن كريم]

عن ابن عباس قال : « **كيف تَسأَلون أَهل الكتاب عن شيءٍ وكتابكم الذى أُنزل على رسول الله ـ ﷺ ـ أَحدث ، تقرؤُنه محضاً لم يشب ؟ ! [وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب . وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ، لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذى أنزل عليكم** »]*

---

* من الزيادات الكثيرة والمهمة التى تركها المؤلف رحمه الله ـ فى ثنايا نسخته الخاصة ـ والتى قدَّمها لنا ولده : الدكتور عمر بن محمد أبو شهبة ـ حفظه الله ووفقه ـ ، وتجدها فى طبعتنا هذه بين قوسين [ــــ] . وانظر على سبيل المثال صفحة ٥ ، ١٥ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٩ وغيرها ـ وهذه إحدى مزايا طبعتنا هذه فضلاً عن التصويبات الكثيرة وغيرها مما سيراه القارىء إن شاء الله . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

« **الناشـــر** »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أَنزل على عبده محمد الكتاب ، ولم يجعل له عِوَجا ، قَيِّمًا ، لا تزيغ به الأَهواء ، ولا تلتبس به الأَلسنة ، ولا يتطرق إِليه تحريف ولا تبديل ، ولا يميل به عن الجادة الباطل ﴿ **وإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يأْتيه البَاطِلُ مِن بَيْن يَدَيْه وَلا من خَلْفِه . تنزِيلٌ من حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ (١) .

والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا : محمد ، المؤيد بالقرآن معجزة عظمى ، وآية باقية على وجه الدهر ، وَوُكِّلَ إِليه بيانه وتفسيره فقال سبحانه : ﴿ **وأَنزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِم ولَعَلَّهُمْ يَتفكَّرُونَ** ﴾ (٢) .

وعلى آله وأَصحابه ، والمهتدين بهديه ، ما بقى مسلم على وجه الأَرض .

أَما بعد :

فقد رغب إِلىَّ فضيلة الأُستاذ الدكتور الشيخ : عبدالحليم محمود ، الأَمين العام لمجمع البحوث الإِسلامية بالجامع الأَزهر المعمور بالعلم والعلماء ، أَن أُؤَلِّف كتابا أُبيِّن فيه الإِسرائيليات المبثوثة فى كتب التفاسير ، مع تزييفها وبيان بطلانها ، وقد صادف هذا البحث المفيد هوى فى نفسى .

١ ـ لأَنى أعلم شدة حاجة المسلمين إِلى مثل هذا المؤَلَّف الذى يَذُبُّ عن كتاب الله ـ تعالى ـ ما علق بتفسيره من الأَباطيل ، والخرافات والأَكاذيب التى كادت تطغى على التفسير الصحيح لكتاب الله ـ تعالى ـ ، وتخفى الكثير من جلاله ، وجماله ، وهدايته التى هى أَقوم الهدايات : ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ** ﴾(٣) ، وعقائده التى هى أَسمى العقائد وأَحقها بالقبول ، وأَليقها بالفطر البشرية ، وأَقربها إِلى العقول ، وأَمسُّها

---

(١) سورة فصلت : آية ٤١ ، ٤٢ .

(٢) سورة النحل : آية ٤٤ .

(٣) الإسراء : آية رقم ٩ .

بالقلوب ، وتُظِهر الإسلام أَمام الباحثين ، ولا سيما فى العصر الأَخير : عصر تقدم العلوم الكونية ، والمعارف البشرية ، بمظهر الدين الذى يشتمل على الخرافات والترهات ، لأَن كتابه الأَكبر هو : القرآن الكريم ، وهذه هى : تفاسيره ، فيها كثير مما يخالف حقائق العلم ، وسنن الله الكونية ! ! ومؤلفوها هم : من علماءِ الإسلام ، بل ومن كبارهم ، فهى صورة للإسلام ، ولتفكير المسلمين ، وذلك مثل : ما روى فى عمر الدنيا من الإسرائيليات وأَن عمرها سبعة آلاف سنة ، ومثل : ما روى فى بدءِ الخليقة ، وأَسرار الوجود ، وتعليل بعض الظواهر الكونية ، مثل : الرعد ، والبرق ، والخسوف ، والكسوف ، وبرودة مياه الآبار فى الصيف ، وحرارتها فى الشتاء ، ومثل : ما روى فى تفسير : ﴿قٓ﴾ وأَنه الجبل المحيط بالأَرض وتفسير قوله ـ تعالى ـ : ﴿نٓ﴾ وأَنه الحوت الذى على ظهره الأَرض وما روى فى قصص الأَنبياءِ والمرسلين من إسرائيليات باطلة لا تليق بمقام الأَنبياء ، وعصمتهم إلى نحو ذلك ، وما أكثره فى كتب التفاسير .

وطالما رغب إلىَّ الكثيرون فى تأليف كتاب يحقُّ الحق ، ويبطل الباطل ، ويزيح عن تفسير كتاب الله ـ تعالى ـ هذا الركام من الموضوعات والإسرائيليات ، والأَباطيل ، ولأَنى عنيت من عهد طلب العلم بتتبع الدخيل فى كتب التفسير ونحوها ، والرد عليها ، فقد كانت ـ ولا زالت ـ مثار شبه ، وتشكيك ، واعتراضات ، وتجنيات على الإسلام ، والقرآن ، والنبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ .

وقد حمل كبر هذا الإثم [القساوسة]، والمستشرقون ، فقد وجدوا فى هذه الإسرائيليات والمختلقات ما يشبع هواهم ، ويرضى تعصبهم الممقوت ، ويشفى نفوسهم المريضة الحاقدة على الإسلام ونبيه ، والقرآن ، هذا الحقد والضغن الذى يعتبر امتداداً للحروب الصليبية التى شنوها على الإسلام والمسلمين ، والتى لا تزال إلى عصرنا هذا تتخذ أَشكالاً شتى ، ومظاهر متعددة .

والعجب من هؤُلاءِ المبشرين ، والمستشرقين : أَنهم فى سبيل إرضاءِ صليبيتهم الموروثة ، والتى رضعوها فى لبان أُمهاتهم ، يصححون الموضوع ، والمختلق المنحول ، على حين نراهم يحكمون بوضع كثير من الأَحاديث الصحيحة ، حتى ولو كانت فى الصحيحين اللذين هما أصح الكتب البشرية على الإطلاق وذلك مثل : ما روى زوراً وكذباً فى قصة زواج النبى ـ ﷺ ـ بالسيدة زينب بنت جحش ، وما روى فى : قصة الغرانيق ، مما هو

من صنع زنادقة اليهود والفرس ، وأضرابهم ، ونحو ذلك مما طبل له المستشرقون والمبشرون ، وزمّروا ، وزادوا فيه ، وأعادوا .

ومما يؤسف له غاية الأسف : أن بعض المتعلمين ، والمثقفين الذين تثقفوا بثقافة غير إسلامية ، ولا سيما مَنْ صنعتهم أُوروبا على عينيها ، وربتهم على يديها ، ويتَسمَّوْنَ بأسماء المسلمين ، قد تابعوا سادتهم المستشرقين فيما زعموا ، وصاروا أبواقاً لهم ، يرددون ما يقوله هؤلاءِ ، لأَنهم ينظرون إِليهم على أَنهم قمم فى العلم والمعرفة ، والشأن فى المغلوب ـ كما قال واضع أَساس علم الاجتماع : العلامة ابن خلدون أَن يقلد الغالب ، وتماع شخصيته فى شخصيته ، وبذلك ساعدوا على نفث هذه السموم بين المتعلمين من شباب المسلمين ! !

ولقد كان ضرر هؤلاء أشد من ضرر سادتهم المبشرين والمستشرقين لأَن القارىءَ المسلم حذر ـ ولو بعض الحذر ـ مما يقول هؤلاءِ أَو لا يركن إِليهم الركون كله ، أَما الكاتب المسلم : فالأَمنة من جانبه أَكثر ، والاغترار بما يقوله أَكبر .

وقد كانت المدة المحددة لهذا المؤلف ثلاثة أَشهر ، ولكنى اشترطت ستة أَشهر ، وقَبِلَ الأَمين العام للمجمع ، ولكن ماذا تكفى ستة أَشهر ؟! وأَنا أتـولى عمادة كلية أُصول الدين ـ بجامعة الأَزهر فرع أَسيوط ـ وإِن شئت الحقيقة فأَنا أَقوم بتأْسيس فرع للجامعة بعاصمة الصعيد أَسيوط .

وأقوم ببعض المحاضرات فى الكلية وخارجها ، وفى بعض الشهور كرمضان ، والمحرم ، وربيع الأَول ، قد تَستوعب المحاضرات العامة الشهر كله ، وهو جهد ينوءُ به الشاب ، فضلاً عن الشيخ المثقل بشتى المسئوليات والأَعباء ! ! فلا عجب إِذا كانت الأَشهر الستة قد تضاعفت . ولما تولى فضيلة الأُستاذ الدكتور الشيخ : محمد عبدالرحمن بيصار أَمانة المجمع ، بعد أَن تولى سلفه الجليل وكالة الأَزهر ، كرر الرغبة فى إِنجاز هذا الكتاب النافع المفيد ، لذلك لم يكن لى بد من أَن أُضاعف الجهد ، وأَتابع السهر ، وأُواصل البحث حتى أَفرغ من هذا المؤَلف الذى أَعتقد أَنه من أَوجب الواجبات على علماءِ المسلمين ، حتى أَفى بما وعدت .

وهذا الموضوع (١) ليس بالأَمر الهين الذى يقوم به فرد واحد ولكنه يحتاج إِلى جهود

(١) هذه كلمة حق لا مرية فيها فإذا كان المشرفون جادين فليعدوا العدة لهذا العمل كاملة : من مراجع وموظفين .. إلخ .

متعاونة متضافرة من جماعة متخصصين فى الأَصلين الشريفين : القرآن والسنة ، وعلومهما وغيرهما من العلوم الإسلامية ، ولهم إلمام وعلم بالتقدم العلمى فى الطب ، والفلك وعلم سنن الله الكونية ، وعلم الاجتماع البشرى ، وعلم النفس وعلم الأَجناس ونحوها ، حتى يؤيدوا بطلان الإسرائيليات ، وتهافتها بما جد من نظريات علمية مستقرة ، وبذلك : يتم لهم نقدها نقداً خارجياً : نقد السند ، ونقداً داخلياً : نقد المتن ، من جهة النقل والعقل والعلم ، ويكونون قد أَضافوا إلى ما ذكره الأَقدمون فى نقدها جديداً من النقد ، وجديداً من العلم .

ولكن لو أَننا انتظرنا حتى تتكون هذه الجماعة ، وتبدأُ فى العمل لمضت السنون ، ولم ننجز عملاً ، بل قد لا تتفق الجماعة على رأى فى كثير من الإسرائيليات ، والموضوعات ، إذ التكوين الثقافى ليس واحداً ، والأَنظار ليست واحدة ، وهذه طبيعة البشر . والنقاد فى كل عصر ، منهم المتشدد ، ومنهم المتساهل ، ومنهم المتوسط المعتدل ، لذلك رأَيت ألا أُحجم عن الكتابة فى هذا الموضوع الضخم الخطير الجليل ، وأَن أُؤدى عن علماء المسلمين فرضاً مفروضاً فى هذا المضمار واستعنت بالله ـ تعالى ـ ، وسأَلته التوفيق ، والسداد ، والرشاد .

وهأَنذا أَفى بما وعدت ، وأقدم ما أَنجزت ، فإن كان ما وصلت إليه صوابا فمن الله ـ تبارك وتعالى ـ . وإن كان خطأً فمن نفسى ومن الشيطان ، وبحسبى أَنى اجتهدت ، وبذلت غاية الوسع فى الاجتهاد فلن أَخلو من الأَجر ، وصدق المبلغ عن رب العالمين ـ ﷺ ـ حيث يقول : « **إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أَصاب فله أَجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أَخطأَ فله أَجر** » رواه البخارى ومسلم .

وقد كان اقتراح عنوان الكتاب أَن يكون : « الإسرائيليات فى كتب التفسير » ، ولكنى رأَيت أَن أَضم إلى الإسرائيليات الموضوعات أَيضاً فى كتب التفسير ، فإن فيها موضوعات ذات خطر على الإسلام والنبى ، وذلك مثل : ما وضعه الزنادقة وأَعداءُ الإسلام من يهود ، ومجوس ، ونصارى ، وغيرهم ، من قصص وروايات تقدح فى عصمة النبى ، وتظهر الإسلام بمظهر الدين الساذج الذى يشتمل على الخرافات .

ومنها : ما كان من أَثر الخلافات السياسية ، والدينية ، والمذهبية ومنها ما وضعه قوم زعموا ـ وبئس ما زعموا ـ أَنهم يخدمون الإسلام ، ويُرغِّبون فيه ، وذلك مثل : الأَحاديث التى وضعت فى فضائل القرآن وفى فضائل السور ، وفى فضائل الأَشخاص

والأَزمنة ، والأَمكنة فقد استباح بعض الزهاد وبعض المتصوفة الوضع فى باب الترغيب والترهيب ، وزعموا ــ جهلاً وزوراً ــ أَن ذلك حسبة إلى الله ، ومن المؤْسف أَن بعض أَهل العلم لا يزالون يرددون أَمثال هذه المرويات ويستولون بسببها على قلوب العامة والسذج ، مع أَنها قد نصَّ على وضعها واختلاقها كثير من الحفاظ ، وأَئمة النقد.

وبهذا وذلك : يكون الكتاب فائدته أَعظم ، وثمرته أَعم وأَشمل ولا يفوتنى فى هذا المقام : أَن أنوه بما قام به بعض زملائنا من جهاد مذكور مشكور فى هذا الباب ، وهو أَخونا الأَستاذ الدكتور الشيخ محمد حسين الذهبى الأُستاذ بكلية أُصول الدين ، فى كتابه « التفسير والمفسرون » ، وفى الكتيب القيم الذى نشره له مجمع البحوث الإسلامية بالأَزهر الشريف.

* * *

ماذا يمكن فى هذا الموضوع
وآراء الناس وأفكارهم متباينة فى معالجة هذا الموضوع الخطير؟!!

١ ــ فمنهم من يرى الاستغناءَ عن كتب التفسير التى اشتملت على الموضوعات والإسرائيليات التى جنت على الإسلام والمسلمين وَجَرَّت عليهم كل هذه الطعون والهجمات من أَعداءِ الإسلام ، وذلك بإبادتها أَو حرقها ، حتى يحال بين الناس ، وبين قراءَتها ، والاكتفاءِ بالكتب الخالية أَو المقلة منها ، وتأْليف تفاسير أُخرى خالية من هذه الشوائب والمناكير. وهو رأْى فيه إسراف وغلو ، إذ ليس من شك فى أَن هذه الكتب فيها بجانب الإسرائيليات علم كثير ، وثقافة إسلامية أَصيلة ، وأَن ما فيها من خير وحق أَكثر مما فيها من شر وباطل ، فهل لأَجل القضاءِ على الشر نقضى على الخير ، ولأَجل الإجهاز على الباطل نجهز على الحق أَيضاً؟! أَعتقد أَن هذا لايجوز عقلاً ، ولا شرعاً.

ثم إن هذا الرأْى غير ممكن تنفيذه عملياً ، فنحن إذا أعدمنا ما يوجد من هذه التفاسير فى المكاتب العامة ، فكيف يمكن ذلك فى المكاتب الخاصة؟! ، ومن أَصحابها من يضن بها ضنه بنفسه ، وليس من حق أَحد أَن يغتصب مال غيره ، ويعدمه تعللاً بهذه التعلة.

الحق : أَن هذا رأْى فيه إسراف وغلو ، وغير ممكن تنفيذه عملياً وفى الحق : أَن هذه الكتب التى اشتملت على الموضوعات والإسرائيليات لو وجد فى عصر طبعها من تنبه لما فيها ، وكان من أَهل التمييز بين الصحيح والضعيف ، وما هو من قبيل الإسرائيليات ، وما ليس منها وعلق على هذه الكتب عند طبعها ، لوقانا شر هذه الإسرائيليات

والأكاذيب ، ولما تسممت بها العقول والأفكار ، ولكفانا ما نقوم به اليوم ، ولكن « لو » لا تجدى الآن .

٢ ـ وهناك فريق آخر يرى أن نجمع ما طبع من هذه الكتب ونخفيها عن أعين الناس ، ثم نعيد طبعها بعد تنقيتها من الإسرائيليات والموضوعات ، ولكن أية قوة فى العالم الإسلامى يمكنها أن تفعل هذا ؟! ثم هو إن أمكن فى المكاتب العامة ، فكيف يمكن فى المكاتب الخاصة المخفية فى بيوت أصحابها ؟! ، الحق أن هذا الرأى وإن كان أقل إسرافاً وغلوا من الرأى الأول ، فهو غير ممكن أيضاً من الناحية العملية .

وأيضاً : فهذه الإسرائيليات والموضوعات ، وإن لم تكن لها قيمتها الدينية والتشريعية فى نسبتها إلى النبى ـ ﷺ ـ أو إلى الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لأنها مختلقة عليهم ، منتحلة ، لكن لها فى نظر بعض الباحثين والمؤلفين فى الحياة العقلية فى الإسلام قيمتها العلمية ، فهى تدل على ثقافة العصر ، وأفكار أهله ، وتلاقح الثقافات وتأثير بعضها فى بعض ؛ لأن الذى وضعها ونسبها لهؤلاء لم يكن خارجاً عن البيئة ، ولا منعزلاً عن روح العصر ، وإنما كان مؤثراً ، ومتأثراً وهذا الرأى قد ردده بعض الباحثين فى كتبه [1] ، ولكنى لست منه على ثلج [2] ، ولا على اتفاق مع قائله ، لأنها سممت الأفكار ، وتجنت على التفسير والحديث ، وكان لها آثارها السيئة فى كتب العلوم الإسلامية فضررها أعظم بكثير من نفعها المزعوم .

٣ ـ فلم يبق إلا الطريق الثالث : وهو رأى القائلين بالتنصيص على هذه الإسرائيليات والموضوعات وردها من جهة العقل والنقل وبيان أنها دخيلة على الإسلام ، ومدسوسة على الرواية الإسلامية وبيان من أين دخلت عليه ، وذلك بتأليف كتاب ، أو كتب فى هذا ، ونشرها نشراً موسعاً ، بحيث يستفيد منها كل مثقف ، وكل متعلم ، بل وكل من يحسن القراءة ، وبذلك نقضى على ما فى بعض كتب التفسير من شرور الإسرائيليات وسمومها التى أفسدت عقول كثير من الناس ، ولاسيا العامة ، وصاروا يتناقلونها على أن لها أصلاً فى الرواية الإسلامية ، وما هى منها فى شىء .

---

(١) هو الأستاذ أحمد أمين ـ رحمه الله ـ فى كتابيه : (فجر الإسلام) ص ٢٥١ و (ضحى الإسلام) ج ٢ ص ١٤٣ .

(٢) على ثلج أى على اطمئنان . نهاية .

منهجى فى هذا الكتاب

أَما منهجى فى هذا الكتاب : فسأُقدم للبحث الأَصلى بمقدمات أُبين فيها معنى التفسير والتأْويل ومعنى الإِسرائيليات ، وما المراد بالموضوعات ؟ وما المنهج الذى يجب أَن يتبع فى تفسير القرآن ، والكلام عن التفسير بالمأْثور ، وأَقسامه ، والتفسير بالرأْى والاجتهاد المقبول منه والمردود ودخول الوضع والإِسرائيليات فى التفسير بالمأْثور ، وأَسباب ذلك وما وجه إِلى هذا النوع من التفسير من نقد ، والآثار السيئة التى خلفتها هذه الإِسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير وغيرها .

ثم أَعرِضُ لما قام به حفاظ الحديث ، وأَئمة النقد ، والتعدِيل والتجريح من جهاد مشكور فى التنبيه إِلى الموضوعات والإِسرائيليات فى كتب التفسير ، ثم أَعرض لأَشهر كتب التفسير بالمأْثور ، مبيناً بإِيجاز قيمة كل كتاب من جهة الرواية ، ولأَشهر كتب التفسير بالرأْى المقبول ، من حيث اشتمالها على الموضوعات والإِسرائيليات قلة أَو كثرة ، أَو عدم اشتمالها من غير تعرض لما فيها من جوانب كمال أَو جوانب نقص أُخرى ، فليس ذلك من غرضى ، ولا مما يتصل بالغرض الذى وضع له الكتاب ، إِلى غير ذلك مما عرضت له .

وهذه المقدمات أَو التمهيدات على طولها لابد منها ، حتى يكون القارىءُ لهذا الكتاب على بينة من أَمر هذه المباحث ، التى ستسلمه إِلى المقصد الأَصلى من الكتاب فى غير اقتضاب .

ثم بعد ذلك آخذ فيما إِليه قصدت ، وهو : الإِبانة عن الإِسرائيليات والكشف عن الموضوعات فى كتب التفسير ، سواء منها ما اختص بالتفسير بالمأْثور ، أَو ما جمع فيها بين المأْثور وغيره ، أَو ما غلب عليها التفسير بالرأى والاجتهاد ، ومما ينبغى أَن يعلم ، أَن هذه الكتب الأَخيرة لا تخلو من التفسير بالمأثور قط ، ولا يمكن أَن تخلو منه .

وليس من غرضى فى هذه الدراسة وهذا البحث أَن أَتناول الكتب كتاباً كتاباً ، فهذا أَمر يطول ، ويلزم منه التكرار ، أَو الإِحالة على ما فات .

ولكنى سأَعرض لهذه الإِسرائيليات والموضوعات ، وأَردها من جهة العقل والنقل ،

متأسياً فى ذلك بأقوال جهابذة العلماء من حفاظ الحديث ، وأئمة النقد الذين إليهم المرجع فى التصحيح والتضعيف والتمييز بين الغث والسمين ، والمقبول والمردود ، وجمعوا بين المعقول والمنقول ، وكذلك غيرهم ممن ليسوا من حفاظ الحديث ، ولكنهم تناولوا إبطال بعض هذه الإسرائيليات ، والموضوعات ، من جهة العقل والنظر ، وأزيد على ما ذكروه ما استفدناه من العلوم الحديثة ، وما استجد من نظريات علمية مستقرة لم تكن معروفة فى عصورهم وما مَنَّ الله به علىّ من دراساتى القرآنية ، والحديثية ، ثم أُنبه على مواضعها وأماكنها فى كتب التفسير التى ذكرتها ، من غير رد لها ونص على بطلانها وتهافتها ، أو التحذير منها ، حتى يكون القارىء لهذه التفاسير على بينة من حقيقة هذه المرويات ، وعلى حذر من الاغترار بها وتصديقها .

والله أسأل أن يلهمنى الصواب والرشد ، وأن يمدنى بروح من عنده إنه سميع مجيب .

كتبـــه

أبو السادات

محمد بن محمد أبو شهبة

من علماء الأزهر الشريف

والمتخصص فى الأصلين الشريفين :

القرآن والسنة

المحرم ١٣٩١ هـ

مارس ١٩٧١ م

معنى :
إسرائيليات .. ، وموضوعات .. ، وتفسير ..

يقتضينا منهج البحث التحليلى أن نبين معنى كلمة : « إسرائيليات » والمراد من « الموضوعات » و« التفسير » والتأويل ، حتى يكون القارىءُ على علم بها نقول :

(أ) الإسرائيليات :

جمع إسرائيلية ، نسبة إلى بنى إسرائيل ، والنسبة فى مثل هذا تكون لعَجُز المركب الإضافى لا لصدره ، وإسرائيل هو : يعقوب ـ عليه السلام ـ أى عبد الله ، وبنو إسرائيل هم : أبناء يعقوب ، ومن تناسلوا منهم فيما بعد ، إلى عهد موسى ومن جاءَ بعده من الأنبياءِ ، حتى عهد عيسى ـ عليه السلام ـ وحتى عهد نبينا محمد ـ ﷺ ـ .

وقد عُرفوا ـ « باليهود » أو « بيهود » من قديم الزمان ، أما من آمنوا بعيسى : فقد أصبحوا يطلق عليهم اسم « النصارى » ، وأما من آمن بخاتم الأنبياءِ : فقد أصبح فى عداد المسلمين ويعرفون بمسلمى أهل الكتاب »[1] .

وقد أكثر الله من خطابهم ببنى إسرائيل فى القرآن الكريم تذكيراً لهم بأُبوة هذا النبى الصالح ، حتى يتأسوا به ، ويتخلقوا بأخلاقه ، ويتركوا ما كانوا عليه من نكران نعم الله عليهم وعلى آبائهم وما كانوا يتصفون به من الجحود ، والغدر ، واللؤْم ، والخيانة وكذلك ذكرهم الله ـ سبحانه ـ باسم اليهود فى غير ما آية ، وأشهر كتب اليهود هى : التوراة ، وقد ذكرها الله فى قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ اللهُ لا إِلَه إِلَّا هُوَ الحَىُّ الْقَيُّومُ . نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ والإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ . وَأَنْزَلَ**

---

(١) أهل الكتاب يطلقون على اليهود والنصارى ، ولكنهم فى مثل هذا يراد بهم اليهود غالباً لأنهم الذين كانوا يسكنون بالمدينة وما جاورها .

ولأن الكثرة الكاثرة من الإسرائيليات دخلت عن طريق اليهود .

الفُرْقَانِ ﴾[1] . وقال : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَآءَ .. ﴾[2] والمراد بها التوراة التى نزلت من عند الله قبل التحريف والتبديل ، أَما التوراة المحرفة المبدلة ، فهى بمعزل عن كونها كلها هداية ، وكونها نوراً ، ولا سيما بعد نزول القرآن الكريم ، الذى هو الشاهد والمهيمن على الكتب السماوية السابقة ، فما وافقه فهو حق ، وما خالفه فهو باطل .

ومن كتبهم أيضاً : الزبور وهو كتاب داود عليه السلام ، وأسفار الأنبياء ، الذين جاؤُا بعد موسى ــ عليه وعليهم السلام ــ وتسمى التوراة وما اشتملت عليه من الأسفار الموسوية وغيرها (بالعهد القديم) .

وكان لليهود بجانب التوراة المكتوبة التلمود ، وهى التوراة الشفهية ، وهو مجموعة قواعد ووصايا وشرائع دينية وأَدبية ، ومدنية وشروح ، وتفاسير ، وتعاليم ، وروايات كانت تتناقل وتدرس شفهياً من حين إلى آخر .. وقد اتسع نطاق الدرس والتعليم فيه إلى درجة عظيمة جداً ، حتى صار من الصعب حفظه فى الذاكرة ، ولأَجل دوام المطالعة ، والمداولة ، وحفظاً للأَقوال والنصوص ، والآراء الأَصلية المتعددة والترتيبات ، والعادات الحديثة ، وخوفاً من نسيانها وفقدانها ، مع مرور الزمن ، وخصوصاً وقت الاضطهادات ، والاضطرابات ، قد دَوّنها الحاخامون بالكتابة سياجاً للتوراة ، وقُبلت كسنة من سيدنا موسى ــ عليه السلام ــ[3] .

ومن التوراة وشروحها ، والأسفار وما اشتملت عليه ، والتلمود وشروحه ، والأَساطير والخرافات ، والأَباطيل التى افتروها ، أَو تناقلوها عن غيرهم : كانت معارف اليهود وثقافتهم ، وهذه كلها كانت المنابع الأَصلية للإسرائيليات التى زخرت بها بعض كتب التفسير ، والتاريخ والقصص والمواعظ ، وهذه المنابع إن كان فيها حق ، ففيها باطل كثير وإن كان فيها صدق ، ففيها كذب صراح ، وإن كان فيها سمين ففيها غث كثير ، فمن ثم انجر ذلك إلى الإسرائيليات ، وقد يتوسع بعض الباحثين فى الإسرائيليات ، فيجعلها شاملة لما

---

(١) آل عمران ١ـ ٤ .   (٢) المائدة ٤٤ .

(٣) من التلمود ص ٧ ، ٨ .

كان من معارف اليهود ، وما كان من معارف النصارى التى تدور حول الأناجيل وشروحها ، والرسل وسيرهم ، ونحو ذلك ، وإنما سميت إسرائيليات لأن الغالب والكثير منها إنما هو من ثقافة بنى إسرائيل ، أو من كتبهم ومعارفهم ، أو من أساطيرهم وأباطيلهم (١) .

والحق : أن ما فى كتب التفسير من المسيحيات أو من النصرانيات هو شىء قليل بالنسبة إلى ما فيها من الإسرائيليات ، ولا يكاد يذكر بجانبها ، وليس لها من الآثار السيئة ما للإسرائيليات ، إذ معظمها فى الأخلاق ، والمواعظ ، وتهذيب النفوس ، وترقيق القلوب ، وأما :

(ب) الموضوعات :

فهى جمع موضوع ، اسم مفعول ، وهو فى اللغة مأخوذ من وضع الشىء يضعه وضعاً ، إذا حطه وأسقطه . أو من وضعت المرأة ولدها إذا ولدته (٢) ، وأما فى اصطلاح أئمة الحديث فالموضوع : هو الحديث المختلق (٣) المصنوع ، المكذوب على رسول الله ـ ﷺ ـ أو على من بعده من الصحابة والتابعين ، ولكنه إذا أُطلق ينصرف إلى الموضوع على النبى ـ ﷺ ـ ، أما الموضوع على غيره : فيقيد ، فيقال مثلاً : موضوع على ابن عباس ، أو على مجاهد مثلاً ، والمناسبة بين المعنى اللغوى والاصطلاحى ظاهرة ، أما على المعنى اللغوى الأول : فلأنه منحط ساقط عن الاعتبار ، وأما على الثانى : فلما فيه من معنى التوليد ، والتسبب فى الوجود والموضوع من حيث مادته ونصه نوعان :

١ ـ أن يضع الواضع كلاماً من عند نفسه ، ثم ينسبه إلى النبى ـ ﷺ ـ أو إلى الصحابى ، أو التابعى .

٢ ـ أن يأخذ الواضع كلاماً لبعض الصحابة أو التابعين ، أو الحكماء ، والصوفية ، أو ما يروى فى الإسرائيليات ، فينسبه إلى رسول الله ، ليروج وينال القبول ، مثال ما هو من قول الصحابة : ما يروى من حديث « أحبب حبيبك هوناً ما ، عسى أن يكون

---

(١) التفسير والمفسرون ج ١ ص ١٦٥ .
(٢) انظر القاموس والمصباح المنير مادة (وضع) .
(٣) الاختلاق أعم من أن يكون ابتدع كلاماً لم يسبق إليه . أو أخذ كلام الغير ثم نسبه إلى النبى فيكون الاختلاق فى نسبته إليه .

بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما » ، فالصحيح أنه من قول سيدنا عليٍّ ـ كرم الله وجهه ـ ، ومثال ماهو من قول التابعين : حديث : «كأنك بالدنيا لم تكن ، وبالآخرة لم تزل .. » فهو من كلام عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ ومثال ماهو من كلام الحكماء . « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء » ، فمن قول الحارث بن كلدة طبيب العرب .

[ومثال ما هو من كلام المتصوفة ما يروى «كنت كنزاً مخفياً ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق ، فعرفتهم بى فعرفونى »] .

ومثال ما هو من الإسرائيليات : « ما وسعنى سمائى ولا أَرضى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤْمن » . قال الإمام ابن تيمية : هو من الإسرائيليات ، وليس له أَصل معروف عن النبى - ﷺ - .

[ومثل ذلك ما روى عن ابن عباس « من أن عمر الدنيا سبع آلاف سنة » فهو من الإسرائيليات] .

وقد نسب إلى النبى وإلى الصحابة والتابعين كثير من الإسرائيليات فى بدءِ الخلق والمعاد وأَخبار الأُمم الماضية ، والكونيات ، وقصص الأَنبياء ، وسأذكر الكثير من ذلك فيما بعد ، وبعضها من الخطورة على الدين بمكان .

حكم الكذب على رسول الله :

جمهور العلماء سلفاً وخلفاً على أَن الكذب على رسول الله ـ ﷺ ـ من الكبائر ، ولا يكفر من فعل ذلك إلا إذا كان مستحلا الكذب عليه وبالغ الإمام أَبو محمد الجوينى (١) والد إمام الحرمين ـ من أَئمة الشافعية ، فقال : « يكفر من تعمد الكذب على رسول الله ـ ﷺ ـ » نقل ذلك عنه ابنه إمام الحرمين وقال : إنه لم يره لأَحد من الأَصحاب ، وأَنه هفوة من والده .

ووافق الجوينى على هذه المقالة : الإمام ناصر الدين أَحمد بن محمد بن المنير

---

(١) هو أبو محمد عبدالله بن يوسف بن محمد بن حيوية الفقيه الشافعى والد إمام الحرمين المتوفى فى ذى القعدة سنة ثمان وثلاثين وقيل : أربع وثلاثين وأربعمائة بنيسابور والجوينى ـ نسبة إلى جوين ـ بضم الجيم ، وفتح الواو ، وسكون الياء ـ ناحية من نواحى نيسابور تشتمل على قرى مجتمعة

المالكى[1] وغيره من الحنابلة ، ووافقهم الإمام الذهبى فى تعمد الكذب فى الحلال والحرام ، ولعل مما يشهد لهم قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ** ﴾[2] فقد نفت الآية الإيمان عمن يفترى الكذب على الله ، والكذب على الرسول كذب على الله ، قال تعالى : ﴿ **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى** ﴾[3] .

وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **إن كذبا على ليس ككذب على أحد ، فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار** » رواه البخارى ومسلم وغيرهما ، وقد روى من طرق متكاثرة ، حتى قال العلماءُ : إنه متواتر ، ففى قوله : إن كذبا على ليس ككذب على أحد ما يشعر بأن حكم الكذب عليه ليس كحكم الكذب على غيره ، والكذب على غيره كبيرة ، فيكون الكذب عليه أكثر من كبيرة ، أو أكبر الكبائر .

وفى معنى الكذب على النبى – صلى الله عليه وسلم – : الكذب على الصحابة والتابعين ، ولا سيما فيما لا مجال للرأى فيه مما لا يعرف إلا من المشرع لأن له حكم المرفوع إلى النبى كما نبّه على ذلك أئمة الحديث[4] وأيضاً فبعض الفقهاء يعتبر قولهم حجة فى التشريع ، إلا أنى لم أقف على من قال : إن الكذب عليهم كفر ، وإنما الذى قاله الجوينى : إنما هو فى الكذب على النبى – صلى الله عليه وسلم – .

ولا يدخل فى الكذب الرواية بالمعنى ، لأنها إنما أجازها العلماءُ لعارف بالألفاظ ومدلولاتها معرفة دقيقة عالم بالشريعة ومقاصدها خبير بما يغير المعانى ويفسرها ، فهى لم تخرج عند التحقيق عن مدلول اللفظ الأصلى .

هل تقبل رواية من كذب فى الحديث وإن تاب ؟ :

ولما للكذب على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من إفساد فى الشريعة وإبطال فى الدين : ذهب

---

(١) هو الإمام أحمد بن محمد بن المنير الإسكندرى المالكى قاضى الإسكندرية وعالمها المشهور المتوفى سنة ٦٨٣ هـ وصاحب كتاب « الانتصاف » على تفسير الكشاف .

(٢) النحل ١٠٥ .

(٣) النجم ٣ ، ٤ .

(٤) هذا بالنسبة إلى ما يروى عن الصحابى ، أما ما روى عن التابعين فهو مرفوع مرسل وهناك شرط آخر ، وهو ألا يكون الصحابى أو التابعى معروفا بالأخذ عن أهل الكتاب الذين أسلموا ، وإلا احتمل أن يكون من الإسرائيليات (نزهة النظر فى شرح نخبة الفكر للحافظ ابن حجر ، التدريب للسيوطى ص ٦٣ ، ٦٤) .

جمهور المحدثين إلى أَن من كذب فى حديث واحد فُسق ، وردت روايته ، وبطل الاحتجاج بها ، وإن تاب وحسنت توبته ، ومن هؤُلاءِ الأَئمة : أَحمد بن حنبل ، وأَبوبكر الحميدى والصيرفى ، والسمعانى (١) .

قال أَبوبكر الصيرفى : « كل من أَسقطنا خبره من أَهل النقل بكذب وجدناه عليه لم نعد لقبوله لتوبة تظهر » ، وقال أَبوالمظفر السمعانى : « من كذب فى خبر واحد وجب إسقاط ما تقدم من حديثه » .

وخالف فى ذلك الإمام النووى ، فقال : والمختار القطع بصحة توبته فى هذا ، وقبول رواياته بعدها ، إذا صحت توبته بشروطها (٢) . والحق : أَن ما ذهب إليه النووى قوى من جهة الاستدلال ، ولكن مذهب الجمهور أَحوط للأَحاديث ، وأَبعد من الريبة فى الرواية ومن ثم نرى : أَن أَئمة الحديث احتاطوا له غاية الاحتياط ، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيراً .

حكم رواية الموضوعات والإسرائيليات الباطلة :

قال العلماءُ سلفا وخلفا : لا يحل رواية الحديث الموضوع فى أَى باب من الأَبواب ، إلا مقترناً ببيان أَنه موضوع مكذوب ، سواء فى ذلك ما يتعلق بالحلال والحرام ، أَو الفضائل ، أَو الترغيب والترهيب أَو القصص والتواريخ (٣) ومن رواه من غير بيان وضعه فقد باءَ بالإثم العظيم ، وحشر نفسه فى عداد الكذابين ، والأَصل فى ذلك : ما رواه الإمام مسلم فى صحيحه ، بسنده ، أَن رسول الله - ﷺ - قال : « **من حدَّث عنى بحديث يرى أَنه كذب ، فهو أَحد الكاذبين** » (٤) وفى حكم الموضوعات : الإسرائيليات التى أُلصقت بالنبى زوراً ، وكذباً عليه .

---

(١) علوم الحديث لابن الصلاح ص ١٢٨ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١ ص ٧٠ .

(٣) علوم الحديث لابن الصلاح ص ١٠٩ والتدريب للسيوطى ص ٩٨ .

(٤) روى « يُرى » بضم الياء بمعنى يُظن ، وبفتح الياء بمعنى يعلم فيشمل الوعيد من علم أو ظن ورُوى « الكاذِبَيْن » بصيغة المثنى - بفتح الباء وكسر النون - أى من وضعه ومن رواه ، لأنه أذاعه وبصيغة الجمع بكسر الباء وفتح النون أى صار فى عدادهم وواحداً منهم لإشاعته الكذب على رسول الله - ﷺ - .

تحذير من يروى الموضوع المكذوب :

وقد حكم كثير من علماء الحديث وأئمته على من روى حديثاً موضوعاً من غير تنبيه إلى وضعه وتحذير الناس منه ـ بالتعزير والتأديب ، قال أبو العباس السراج : شهدت محمد بن إسماعيل البخارى ، ودفع إليه كتاب من ابن كرَّام يسأله عن أحاديث ، منها حديث الزهرى عن سالم عن أبيه[1] مرفوعاً : « الإيمان لا يزيد ولا ينقص » فكتب محمد بن إسماعيل على ظهر كتابه : « من حدث بهذا استوجب الضرب الشديد ، والحبس الطويل » .

بل بالغ بعضهم ، فأحل دمه ، قال يحيى بن معين ـ وهو من كبار أئمة الجرح والتعديل ـ لما ذكر له حديث سويد الأنبارى : « من عشق ، وعف ، وكتم ، ثم مات ـ مات شهيداً » .

قال : هو حلال الدم[2] ! ! .

وقد سئل الإمام ابن حجر الهيثمى عن خطيب يرقى المنبر كل جمعة ، ويروى أحاديث ، ولم يبين مخرجيها . ودرجتها ، فقال :

ما ذكره من الأحاديث فى خطبه من غير أن يبين رواتها ، أو من ذكرها فجائز ، بشرط أن يكون من أهل المعرفة بالحديث ، أو ينقلها من مؤلف صاحبه كذلك .

وأما الاعتماد فى رواية الأحاديث على مجرد رؤيتها فى كتاب ليس مؤلفه من أهل الحديث ، أو فى خطب ليس مؤلفها كذلك ؛ فلا يحل ومن فعل عزر عليه التعزير الشديد ، وهذا حال أكثر الخطباء فإنهم بمجرد رؤيتهم خطبة فيها أحاديث حفظوها ، وخطبوا بها من غير أن يعرفوا أن لتلك الأحاديث أصلا أم لا ، فيجب على حكام كل بلد أن يزجروا خطباءها عن ذلك .

* * *

---

(١) هو عبدالله بن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ .

(٢) من المؤسف المحزن أن بعض أهل الهوى والغرام ، وبعض الكتاب الهدامين للأخلاق لا يزالون يرددون هذا الحديث المكذوب ، فمن لهم بمثل يحيى بن معين يحل دماءهم ؟!

ما أشبه الليلة بالبارحة :

أَقول : لا يزال بعض الخطباءِ ، ومقيمى الشعائر الدينية الذين ليس له علم بالحديث رواية ودراية ، ولا سيما من لم يتأَهلوا التأَهل اللازم لمن يتولى الإمامة والخطابة ، والذين لا يزالون يخطبون من الدواوين ، أَو يعتمدون فى خطبهم على الكتب التى لا يعتمد عليها فى معرفة الأَحاديث والتمييز بين صحيحها ، وضعيفها ، وموضوعها والذين جعلوا غايتهم استرضاء الجماهير ، فيذكرون لهم أَحاديث فى الترغيب والترهيب ، وحكايات وقصصاً مثيرة عجيبة ، أَغلب الظن أَنها من وضع القصاص ، وجهلة الزهاد الذين استباحوا ذلك ، وكان جل همهم تملق الجماهير ، واستمالتهم بذكر المبالغات ، والتهاويل والعجائب ، والغرائب وما أَجدر هذه الفئة بأَن يحال بينها وبين الخطابة ، والوعظ ، والتذكير ، حتى لا يسمموا أَفكار الناس ويفسخوا القيم الدينية والخلقية الصحيحة ، وتكون حجة على الإسلام لا حجة له ، وأَحب أَن أَقول لهؤُلاءِ وأَمثالهم : إن فى الأَحاديث الصحاح والحسان ، والقصص الثابت الصحيح غنية عن الأَحاديث الموضوعة أَو الضعيفة والقصص المكذوب لمن يريد أَن يرقق القلوب ويستولى على النفوس ، فليتق الله هؤُلاءِ فى الناس ، وفى أَنفسهم .

ومن الحق فى هذا المقام أَن أَقول أَيضاً : إن الكثيرين من المدرسين الأَزهريين والوعاظ ، والمرشدين ، والدعاة إلى الله ، والأَئمة والخطباءِ المؤَهلين تأْهيلاً علمياً سليماً ، فى الأَزهر ، وجامعته والجامعات الإسلامية الأُخرى لهم من علمهم ، ووعيهم الدينى والثقافى وسعة اطلاعهم ما يعصمهم من الوقوع فى رواية الموضوعات والقصص الباطلة ، والإسرائيليات الزائفة ، وتحرى الصدق والحق فى رواية الأَحاديث ، وذكر الأَقاصيص ، وأَخذهم أَنفسهم بالرجوع فى ذلك إلى كتب العلماء الثقات الحفاظ للحديث ، أَو الذين لهم علم به ودراية ، وهو أَثر من آثار النهضة العلمية الحديثة من يوم أَن أُنشئت الدراسات العليا التخصصية فى كليات الجامع الأَزهر الشريف ـ عمرّه الله بالعلم والعلماءِ ـ .

فقد كان من شعب هذه الدراسات : « شعبة التفسير والحديث » منذ ما يقرب من نصف قرن ، وقد أَتى على هذه الشعب حين من الدهر كان الطلاب فيها يستوعبون كل ماكتب وأُلف فى العلم الذى تخصصوا فيه ، وكذلك كان هناك تخصص فى « الدعوة

والإرشاد » ويا ليت هذه التخصصات تعود كما كانت مناهج ، ودراسة .

وكذلك كان من أسباب هذه النهضة الحديثة : إنشاء دور « للحديث فى مصر ، وفى الحجاز وغيرهما من الأقطار الإسلامية شرقاً وغرباً وظهور علماء فى كل قطر إسلامى أحبوا دراسة الحديث وعلومه » وإنا لنرجو أن يعود للحديث وعلومه سيرته الأولى ، ومجده الغابر فاللهم حقق .

متى نشأ الوضع فى الحديث ؟ :

كان من أثر اتساع رقعة الإسلام : دخول كثير من أبناء الأمم المغلوبة فيه ومنهم الفارسى ، ومنهم الرومى ، ومنهم المصرى ، ومنهم المخلص للإسلام ، ومنهم المنافق الذى يكن فى نفسه الحقد على الإسلام ويتظاهر بحبه ، ومنهم الزنديق الذى يسعى بشتى الوسائل لإفساده وتشكيك الناس فيه ، ومنهم اليهودى الذى لا يزال مشدوداً إلى يهوديته ، ومنهم النصرانى الذى لا يزال يحن إلى نصرانيته .

وقد انتهز أعداء الإسلام من المنافقين ، والزنادقة ، واليهود سماحة السيد الحيي : عثمان بن عفان ــ رضى الله عنه ــ ودماثة خلقه ، فبذروا البذور الأولى للفتنة ، فكان بن سبأ اليهودى الخبيث يطوف فى الأقاليم ، ويؤلب عليه الناس ، وقد أخفى هذه السموم التى كان ينفثها تحت ستار التشيع ، وحب سيدنا على ، وآل البيت الكرام فصار يزعم أن عليا ــ رضى الله عنه ــ هو وصى النبى ، والأحق بالخلافة حتى من أبى بكر ، وعمر ــ رضى الله عنهما ــ ، ووضع على النبى ــ ﷺ ــ حديثاً « **لكل نبى وصى ، ووصيى على** » ، لم يقف الأمر عند حد هذه الدعوة ، بل ادعى ألوهيته ، وقد طارده سيدنا عثمان ، فهرب فلما كان عهد سيدنا على طارده وأحل دمه ، فما كان ليرضى بهذه الدعوات الخبيثة التى يشنها هذا المغيظ المحنق على الإسلام والمسلمين .

ومما يؤسف له : أن دعوته وجدت آذانا صاغية من بعض الأمة وبخاصة أهل مصر ، وقد نجح هذا اليهودى الماكر فى إثارة الفتنة التى أطاحت برأس الخليفة الثالث : عثمان ــ رضى الله عنه ــ وما إن تولى الخلافة سيدنا على حتى وجد التركة مثقلة بالخلافات ، فقد ناصبه أنصار عثمان العداوة من أول يوم ، واستفحلت الفتنة ، ووقعت حروب طاحنة ، فنى فيها كثيرون من خيرة المسلمين ، وظهرت طائفة أخرى وهم الخوارج الذين لم يرتضوا

التحكيم بين على ، ومعاوية ، وكانت النهاية : أَن أَطاحت الفتنة ركنا آخر من أَركان الإسلام ، وهو الخليفة الرابع ، وأَضحت الأُمة الإسلامية فى فرقة واختلاف ، ودب إليها داءُ الأُمم قبلها ، وتمخضت الفتنة عن شيعة[١] ينتصرون لسيدنا على وعثمانية ينتصرون لسيدنا عثمان ، وخوارج[٢] يعادون الشيعة وغيرهم ومروانية ينتصرون لمعاوية وبنى أُمية ، وقد استباح بعض هؤلاء لأَنفسهم أَن يؤيدوا أَهواءهم ومذاهبهم بما يقويها ، وليس ذلك إلا فى الحديث بأنواعه من أحكام ، وتفسير ، وسير ، وغيرها .

وكان ذلك حوالى سنة أربعين للهجرة ، ومازالت حركة الوضع تسير ، وتتضخم حتى دخل بسببها على الحديث بلاء غير قليل ، وهذا العصر هو ما يعرف بعصر صغار الصحابة وكبار التابعين .

روى الإمام مسلم فى مقدمة صحيحه بسنده عن طاوس ، قال : « جاء هذا إلى ابن عباس – يعنى بُشَيْر بن كعب – فجعل يحدثه ، فقال له ابن عباس : عُد لحديث كذا ، وكذا . فعاد له ، ثم حدثه ، فقال له : عد لحديث كذا وكذا ، فعاد له ، فقال له : لا أدرى أعرفت حديثى كله وأنكرت هذا ، أم أنكرت حديثى كله ، وعرفت هذا ، فقال له ابن عباس : إنا كنا نحدث عن رسول الله – ﷺ – إذا لم يكن يُكذَب عليه ، فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه » .

وابن عباس توفى سنة ثمان وستين للهجرة .

وروى بسنده عن مجاهد ، قال : « جاء بُشير العدوى إلى ابن عباس فجعل يحدث ، ويقول : قال رسول الله – ﷺ – . فجعل ابن عباس لا يأذن[٣] لحديثه ، ولا ينظر إليه ، فقال : يا ابن عباس : مالى لا أراك تسمع لحديثى أُحدثك عن رسول الله –

(١) هم أنصار سيدنا على ، وهم طوائف وفرق كثيرةوأخبث هذه الطوائف وأبعدهم عن الإسلام الرافضة الذين رفضوا إمامة الشيخين : أبى بكر ، وعمر ، بل وكفروهما وأعدل طوائف الشيعة وأقربهم إلى الإسلام الزيدية وهم يفضلون عليا على غيره ، ولكنهم يجوزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل .

(٢) هم الذين خرجوا على علىٍّ – رضى الله عنه – بعد قبوله التحكيم بينه وبين معاوية وقالوا : لا حكم إلا لله وقالوا بصحة خلافة أبى بكر ، وعمر ، وعثمان فى سنيه الأولى قبل أن يغير ويبدل ، وصحة خلافة على قبل الرضا بالتحكيم ، وهم من أصلب الطوائف فى عقيدتهم وأكثرهم عبادة .

(٣) أى لا يسمع .

ﷺ ـ ولا تسمع ، فقال ابن عباس : إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلا يقول : قال رسول الله ـ ﷺ ـ ابتدرته أبصارنا ، وأصغينا إليه بآذاننا ، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف » .

وروى بسنده عن طاوس ، قال : « أتى ابن عباس بكتاب فيه قضاء على ـ رضى الله عنه ـ فمحاه إلا قدر »[1] وأشار سفيان بن عيينة بذراعه وروى بسنده عن أبى إسحاق قال : « لما أحدثوا تلك الأشياء بعد على ـ رضى الله عنه ـ قال رجل من أصحاب على : قاتلهم الله ، أى علم أفسدوا » قال الإمام النووى : أشار بذلك إلى ما أدخلته الروافض ، والشيعة فى علم على ـ رضى الله عنه ـ وحديثه ، وتقولوه عليه من الأباطيل وأضافوه إليه من الروايات ، والأقاويل المفتعلة ، والمختلقة[2] .

وذكر الإمام الذهبى فى « التذكرة » : عن خزيمة بن نصر ، قال : « سمعت علياً بصفين يقول : قاتلهم الله ، أى عصابة بيضاء سودوا وأى حديث من حديث رسول الله ـ ﷺ ـ أفسدوا »[3] .

وروى الإمام مسلم بسنده ، عن سفيان بن عيينة ، قال : سمعت رجلا سأل جابرا[4] عن قوله عز وجل : ﴿ **فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى . أو يحكم الله لى . وهو خير الحاكمين** ﴾ فقال جابر : لم يجىء تأويل هذه ! ! قال سفيان : وكذب ، فقلنا لسفيان : وما أراد بهذا ؟ فقال : إن الرافضة تقول : إن علياً فى السحاب ، فلا نخرج مع من خرج من ولده ، حتى ينادى مناد من السماء ـ يريد عليًّا ـ أنه ينادى : اخرجوا مع فلان .

يقول جابر : فذا تأويل هذه الآية ، وكذب ، كانت فى إخوة يوسف ـ ﷺ ـ[5] وهذا لون من ألوان الدس ، والوضع فى التفسير ، وسيأتى من ذلك أمثلة لا تحصى .

---

(١) أى قدر أى ذراع بدليل تفسير سفيان ، والظاهر أنه كان درجاً مستطيلاً .

(٢) صحيح مسلم بشرحه ج ١ من ص ٨٠ ـ ٨٣ .

(٣) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١١ ترجمة سيدنا على [ولعل مراده ما وضعه محبوه فى مدحه ،وماوضعه مبغضوه فى ذمه] .

(٤) اى بن يزيد الجحفى الشيعى الغالى قال فيه الإمام أبوحنيفة : « ما رأيت أكذب من جابر الجحفى » والشيعة يعتبرونه من شيوخهم .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووى ص ١٠٢ .

وروى بسنده عن ابن سيرين[1] قال : « لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا : سموا لنا رجالكم ، فينظر إلى أهل السنة ، فيؤخذ حديثهم ، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم » وروى بسنده عن ابن المبارك قال : « بيننا وبين القوم القوائم » ، يعنى الإسناد[2] .

قال الإمام النووى : ومعنى هذا الكلام : إن جاء بإسناد صحيح قبلنا حديثه ، وإلا تركناه ، فجعل الحديث كالحيوان لا يقوم بغير إسناد ، كما لا يقوم الحيوان بغير قوائم .

إلى غير ذلك من الروايات التى تدل على ظهور الوضع بعد عصر الفتنة ، وأن كبار أئمة الحديث ، والجرح والتعديل كانوا للحركة بالمرصاد .

* * *

عرض سريع لحركة الوضع :

فى عصر التابعين ومن جاء بعدهم ضعفت الخاصية التى كانت فى العصر الأول وهى : التثبت والتحرى فى الحديث ، فكثرت الرواية وانتشر الحديث ، وفشا الكذب على رسول الله - ﷺ - وبعض صحابته ، وبعد أن كان الخلفاء الراشدون المهديون يدعون إلى التحوط ، والتثبت فى المرويات ، أضحى الأمراء والخلفاء فى شغل عن ذلك بالملك والسياسة .

وقد اشتدت الخصومة بين الأحزاب السياسية ، وجاءت الدولة العباسية فتقرب إليها ضعفاء الإيمان بالاختلاق فى فضائلها ، والحط من شأن أعدائها ، بل بلغ من بعضهم أنه كان يضع الأحاديث ، أو يتزيد فيها ، إرضاء لما يهوى بعض الخلفاء ، وذلك . كما حدث من أبى البَخْتَرى الكذاب : فقد دخل - وهو قاض - على الرشيد ، وهو يطير الحمام ، فقال له : هل تحفظ فى هذا شيئاً ، فروى حديثاً : « أن النبى كان يطير الحمام » ، وقد أدرك الرشيد كذبه ، وزجره ، وقال : لولا أنك من قريش لعزلتك[3] ! ! وكما حدث من

---

(١) ابن سيرين ولد لسنتين من خلافة عثمان وتوفى سنة ١١٠ وهو من خيار التابعين .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١ ص ٨٤ ، ٨٨ .
(٣) ويا ليته عزله لينزجز ، ويرعوى غيره .

غياث ابن إبراهيم أنه دخل على المهدى وهو يلعب بالحمام ، فروى له حديث : « لا سبق إلا فى نصل أو حافر ، أو جناح » ، فزاد « أو جناح » إرضاء للمهدى ، وقد روى أن المهدى قال له وهو خارج : أشهد أن قفاك قفا كذاب ، وأمر بذبح الحمام ، والكذب هو اللفظ الأخير فحسب ، أما أصل الحديث فثابت ، رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة .

وكذلك كان لنشأة الفرق الكلامية وغيرها من أهل السنة ومعتزلة ، ومرجئة ، وجبرية ، وجهمية ، وكرامية و . و . و أثر كبير فى إذكاء حركة الوضع ، فقد حاول ضعفاء الإيمان ، وأرقاء الدين منهم أن يؤيدوا بعض مذاهبهم وآرائهم بالأحاديث ، وقد وضعت أحاديث فى نصرة بعض هذه المذاهب ، أو فى الرد على بعضها الآخر ، بحيث لا يشك الناظر فيها أنها مختلقة موضوعة ، وذلك مثل : ما روى « الإيمان قول وعمل ، ويزيد وينقص » ، ومثل : « الإيمان قول ، والعمل شرائعه لا يزيد ولا ينقص » ومثل : ما روى أن رسول الله — ﷺ — قال وقد سئل عن الإيمان : هل يزيد وينقص ، فقال : « لا ، زيادته كفر ، ونقصانه شرك » ، وإن أصبع الإرجاء لتظهر واضحة فى مثل ما روى : « كما لا ينفع مع الشرك شئ ، كذلك لا يضر مع الإيمان شئ » ، إلى غير ذلك من الأحاديث التى يظهر عليها أثر الصنعة والاختلاق[1] وكذلك كان للخلافات الفقهية أثر فى إذكاء حركة الوضع ، فوضعت أحاديث فى فضائل بعض الأئمة ، كما وضعت أحاديث أخرى فى ذم بعضهم ، وكذلك وضعت أحاديث فى الاستشهاد لبعض الفروع الفقهية ليس عليها شئ من نور النبوة ، وإنما أقرب إلى قواعد الأصوليين والفقهاء ، وكتب التخاريج لبعض كتب الفقه فيها من ذلك شئ غير قليل .

وكذلك وجد القصاص وأمثالهم من جهلة المتصوفة الذين استجازوا وضع الأحاديث حسبة لله — تعالى — (وسنرد عليهم فيما يأتى إن شاء الله تعالى) ، وقد كان القصاص فى كل عصر سبب شر كثير .

وكذلك جدت أحداث استغلت للوضع كفتنة خلق القرآن وكحركة الشعوبية[2] ،

---

(١) اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة للإمام السيوطى ج ١ ص ٢٢ وما بعدها .

(٢) الشعوبية : هم الذين يفضلون العجم على العرب ، وقد نشأت فى آخر العهد الأموى ، وقويت فى عهد الدولة العباسية .

والتعصب للجنس ، أو اللون ، أو اللغة ، أو المكان ، فوضعت أحاديث فى تكفير من قال بخلق القرآن ، وتفضيل العجم على العرب ، وفى فضائل بعض الشعوب ، وفى فضائل بعض الأقاليم والبلدان .

وقد استمرت حركة الوضع إلى عصور متأخرة ، فابن الجوزى يذكر فى كتبه ما كان من قصاص زمانه ، وهذا هو : « الرتن الهندى » يدعى الصحبة فى المائة السادسة للهجرة[1] ، ويضع الأحاديث المكذوبة والسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ . يذكر ما ناله من بعض قصاص زمانه لما أنكر عليه رواية أحاديث موضوعة يدعى أنه سمعها ، والشيخ اللكنوى الهندى يذكر : أنه إطلع على رسالته فى : « تحريم التنباك » وقد ، استدل فيها مؤلفها ببعض الأحاديث التى وضعها ، مثل : «كل دخان حرام » .

ومهما يكن من استمرار سوق الوضع قروناً فقد ناهضها العلماء ولا سيما أئمة الحديث وجهابذته ، الذين ألفوا الكتب ، ودونوا الدواوين : وميزوا فيها بين الصحيح ، والحسن ، والضعيف ، والموضوع وكذلك وضعوا فى التنصيص على الأحاديث الموضوعة كتباً لا يحصيها العد ، وكشفوا عن عوارها ، وحذروا الناس من الاغترار بها ، فجازاهم الله أعظم ما جازى علماء أمة .

(جـ) التفسير

التفسير لغة : مصدر فَسَّره بتشديد السين ـ مأخوذة من الفسر بمعنى البيان يقال فَسَرْت الكتاب بتخفيف السين ـ أُفسره فسراً وفسَّرته ـ بالتشديد ـ أُفسره تفسيراً وقيل هو مقلوب من السفر ـ بتقديم الفاء على السين ـ مثل الجذب ، والجبذ ـ والمعنى واحد يقال أسفر الصبح إذا أضاء ففيه معنى الكشف والتوضيح ، وقيل : مأخوذ من التفسرة وهى : اسم لما يعرف به الطبيب المرض .

وأما فى الاصطلاح : فقد اختلفت أساليب العلماء فى تعريفه .

فمنهم من أطال فى تعريفه فقال : هو علم نزول الآيات ، وشئونها وأقاصيصها ، والأسباب النازلة فيها ، ثم ترتيب مكيها ، ومدنيها وبيان محكمها ، ومتشابهها ، وناسخها ،

---

(١) إقرأ ما كتب عنه فى كتب الرجال لترى العجب العجاب . انظر « ميزان الاعتدال » للذهبى و « لسان الميزان » للحافظ ابن حجر .

ومنسوخها ، وخاصها ، وعامها ، ومطلقها ، ومقيدها ، ومجملها ، ومفسرها ، وحلالها وحرامها ووعدها ، ووعيدها ، وأمرها ، ونهيها ، وعبرها ، وأمثالها ونحو ذلك (١) .

ومنهم من توسط ـ كأبي حيان فى البحر المحيط ـ فقال فى تعريفه : علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ، ومدلولاتها ، وأحكامها الإفرادية ، والتركيبية ، ومعانيها التى تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك ، ثم أخذ فى شرح تعريفه (٢) .

وهذا التعريف غير جلى ، ولا واضح ، وكذلك لم يصرح بالغرضين الأهمين اللذين نزل لهما القرآن : وهما : كونه كتاب الهداية البينة التى هى أوضح الهدايات ، وأقومها ، والتى لو اتبعها البشر لحققت لهم السعادتين : الدنيوية والأُخروية .

والكتاب السماوى المعجز ، فهو المعجزة العظمى ، والآية الكبرى الباقية على وجه الدهر لنبينا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ .

وقال الزركشى فى البرهان : التفسير : علم يفهم به كتاب الله المُنزَّل على نبيه محمد ـ ﷺ ـ ، وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه ، وحكمه ، واستمداد ذلك من علم اللغة ، والنحو ، والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات . ويحتاج لمعرفة أسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ (٣) .

وهذا التعريف أوضح ، وأيسر من التعريفين السابقين ، وأدل على الغرضين الأهمين ، اللذين ذكرناهما آنفا .

ومن العلماء من أوجز فى التعريف ، فقال : هو علم يبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم ، من حيث دلالته على مراد الله ـ تعالى ـ بقدر الطاقة البشرية (٤) .

[وأزيد فى التعريف فأقول ومن حيث كونه المعجزة العظمى لنبينا محمد ﷺ] .

والمراد بأحوال القرآن الكريم من حيث كونه كتاب الهداية الأقوم ، وكتاب العربية الأكبر ، والمعجزة الخالدة لنبينا محمد ـ ﷺ ـ .

[ويدخل فى ذلك كل ما يتوقف عليه معرفة ذلك من العلم بأسباب النزول ، ومناسبات

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن ج ٢ ص ١٧٤ .
(٢) البحر المحيط ج ١ المقدمة .
(٣) البرهان ج ١ بحث التفسير .
(٤) منهج الفرقان فى علوم القرآن ج ٢ ص ٦ ، مناهل العرفان فى علوم القرآن ج ١ ص ٤٠٦ ط الأولى .

الآيات ، والمكى والمدنى ، والمحكم والمتشابه ، والناسخ والمنسوخ وغيرها] .

وكل ما يحتاج إليه المفسر من العلوم فهى وسائل لتحقيق هذين الغرضين الأكبرين ، ثم إن المفسر حينما يفسر القرآن الكريم ـ سواءٌ أكان بالتفسير بالمأثور ، أم بالاجتهاد والرأى المقبول ـ لا يمكنه الجزم والقطع بأن هذا مراد الله ـ تبارك وتعالى ـ فمن ثم كان الجزء الأخير فى التعريف : « بقدر الطاقة البشرية » احتراساً لا بد منه ، ولا يتأتى هذا القطع إلا لنبي مرسل يوحى إليه من ربه ، وأما غيره فلا .

والمناسبة بين هذه التعاريف الاصطلاحية ، والمعانى اللغوية للكلمة ظاهرة ، ولاسيما على المعنيين اللغويين الأولين . فإن التعاريف تدور على معنى التبيين ، والتوضيح والظهور بعد الخفاء .

وأما على المعنى الثالث : فلأن المفسر كأنه يسبر المعانى بمسبار(١) الطبيب الماهر ، ويختبرها بمخباره العلمى ، حتى يتضح له المراد .

التـأويـل :

التأويل لغة : أصله من الأول ، وهو الرجوع ، فكأن المؤول للآية رجع بها إلى ما تحتمله من المعانى .

وقيل : مأخوذ من الإيالة وهى السياسة ، كأن المؤول للكلام ساسه ، وتناوله بالمحاورة والمداورة حتى وصل إلى المراد منه .

أما معناه فى الاصطلاح : فقد قال أبو عبيد القاسم بن سلام ، وطائفة من العلماء : هما بمعنى ، وعلى هذا : فيُعَرَّف بما عرف به التفسير .

وقد أنكر ذلك بعض العلماء ، بل بالغوا فى الإنكار .

وقال الراغب الأصفهانى فى « مفرداته » : التفسير أعم من التأويل وأكثر استعمالاته فى الألفاظ ومفرداتها ، وأكثر استعمال التأويل فى المعانى والجمل ، وأكثر ما يستعمل فى الكتب الإلهية ، وأما التفسير فيستعمل فيها وفى غيرها .

[وقال غيره : التفسير بيان لفظ لا يحتمل إلا وجهاً واحداً . والتأويل : توجيه لفظ

(١) شيء من فتيل ، أو آلة توضع فى الجرح ليتعرف غوره ، وقد توسع فيها حتى شملت كل ما يتعرف به على الخفى الغامض : داء أو غيره .

متوجه إلى معان مختلفة إلى واحد منها ، بما ظهر من الأدلة .

وقال الماتريدى : التفسير : القطع على أن المراد من اللفظ هذا ، والشهادة على الله أنه عنى بهذا اللفظ هذا ، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح ، وإلا فهو تفسير بالرأى ؛ وهو المنهى عنه . والتأويل : ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله] .

وقال أبوطالب التَّغلبى : التفسير : بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً ، كتفسير الصراط بالطريق ، والصيب بالمطر ، والتأويل : تفسير باطن اللفظ مأخوذ من الأول ، وهو الرجوع لعاقبة الأمر ، فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد ، والتفسير : إخبار عن دليل المراد ، لأن اللفظ يكشف عن المراد ، والكاشف دليل ، مثاله : قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد** ﴾ تفسيره : أنه من الرصد ، يقال رصدته إذا رقبته ، والمرصاد : مفعال منه ، وتأويله : التحذير من التهاون بأمر الله ، والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه . [وقواطع الأدلة تقتضى بيان المراد منه على خلاف وضع اللفظ فى اللغة] .

وقال بعض العلماء : التفسير : يتعلق بالرواية ، أى التفسير بالمأثور ، والتأويل : يتعلق بالدراية أى التفسير بالرأى والاجتهاد(١) .

ومهما يكن من شىء فقد شاع واشتهر أن التفسير أعم من أن يكون بالمأثور ، أو بالرأى والاجتهاد ، وأعم من أن يكون متعلقاً باللفظ أو بالمعنى ، وقد أصبح فى ذلك حقيقة عرفية ، وهذا ما سأسير عليه فى هذا الكتاب إن شاء الله ـ تعالى ـ .

الحاجة إلى علم التفسير :

علم تفسير القرآن من العلوم المهمة التى يجب على الأُمة تعلمها وقد أوجب الله على الأمة حفظ القرآن ، وكذلك أوجب عليهم فهمه وتدبر معانيه ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ **أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفاً كثيراً** ﴾(٢) وقال : ﴿ **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاه إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابُ** ﴾(٣) وقال : ﴿ **أَفَلاَ يَتَدَبرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوب أَقْفَالُهَا** ﴾(٤) ، فقد دلت الآية الثانية على أنه أُنزل للتدبر ، وحثت الآيتان الأُخريان على تدبره . وتدبر القرآن بدون فهم معانيه غير ممكن ، وفهم معانيه إنما يكون بمعرفة تفسيره ، فتفسير القرآن فرض على الأمة ، ولكنه فرض كفائى بمعنى : إذا قام

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن ج ٢ ص ١٧٣ . (٢) النساء ٨٢ .
(٣) سورة ص ٢٩ . (٤) محمد : ٢٤ .

به أهل العلم المتأهلون له من الأمة الإسلامية سقط عن الباقين .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما يخاطب كل قوم بما يفهمونه ، ولذلك أرسل كل رسول بلسان قومه ، وأنزل كتابه بلغتهم ، وقد نزل القرآن بلسان عربى مبين ، فى وقت بلغ فيه العرب الغاية فى الفصاحة والبلاغة وكانوا يعرفون ظواهره وأحكامه ، وأما دقائق معانيه وحقائق تأويله : فإنما كان يظهر لهم بعد البحث ، والنظر ، والتأمل ، وماكان يخفى عليهم منه ، أو يشكل ، كانوا يسألون عنه النبى ـ ﷺ ـ ، وذلك كسؤالهم له لما نزل قوله تعالى : ﴿ **الذينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُم بِظُلْم أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وهُم مُهْتَدُونَ** ﴾[(١)] فقالوا : وأينا لم يظلم ؟ وفزعوا إلى النبى ـ ﷺ ـ ، فبيَّن لهم أن المراد بالظلم الشرك ، واستدل عليه بقوله تعالى : ﴿ **إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عظيمٌ** ﴾[(٢)] وكبيانه للسيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن المراد بالحساب اليسير فى قوله تعالى : ﴿ **فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسيرًا** ﴾[(٣)] : العرض أى : استعراض الأعمال من غير مناقشة ، وكقصة عدى بن حاتم فى الخيط الأبيض ، والخيط الأسود ، وظنه أن المراد الحقيقة ، حتى بين له النبى ـ ﷺ ـ أن المراد بالخيط الأبيض بياض النهار ، وبالخيط الأسود سواد الليل ، إلى نحو ذلك مما خفى عليهم ، ونحن محتاجون إلى مثل ماكانوا محتاجين إليه ، بل وزيادة عما كانوا محتاجين إليه ، لقصورنا عنهم فى العلم باللغة ، وأساليبها ، والبلاغة وأسرارها ، والعلم بأسباب النزول ، والفقه فى الدين ، ومعرفة الحلال والحرام ، والناسخ والمنسوخ ، والمحكم والمتشابه .

وقد بين لهم النبى معانى القرآن ، كما بين لهم ألفاظه . قال تعالى : ﴿ **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعلهُمْ يَتَفكرُونَ** ﴾[(٤)] فمن ثم حفظوا ألفاظه ، وفهموا معانيه ، وفقهوا أحكامه .

قال أبو عبد الرحمن السلمى[(٥)] : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلَّموا من النبى ـ ﷺ ـ عشر آيات ، لم

---

(١) الأنعام ٨٢ . (٢) لقمان : ١٣ . (٣) الانشقاق : ٨ . (٤) النحل : ٤٤ .

(٥) هو عبد الله بن حبيب بن ربيعة ـ بضم الراء وفتح الباء وتشديد الياء المكسورة ـ السلمى ـ بضم السين ـ الكوفى التابعى الجليل .

يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن ، والعلم ، والعمل جميعاً ، وهذا النص يبين لنا منهج المسلمين الأولين فى موقفهم من القرآن ، وأنهم كانوا يجمعون إلى الحفظ : العلم ، والعمل .

ولذلك : كانوا يبقون مدة طويلة فى حفظ السورة الواحدة وهذا هو السر فى أن ابن عمر - رضى الله عنهما - أقام على حفظ البقرة ثمانى سنين ، أخرجه مالك فى الموطأ ، وروى عن أنس ، قال : «كان الرجل منا إذا قرأ البقرة وآل عمران جد[1] فى أعيننا» رواه أحمد فى مسنده[2] .

وكذلك جاء عن السلف الصالح : الصحابة فمن بعدهم ، فقد أخرج ابن أبى حاتم وغيره من طريق ابن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **يُؤْتِى الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾[3] قال فى تفسير الحكمة : المعرفة بالقرآن : ناسخه ، ومنسوخه ومحكمه ، ومتشابهه ، ومقدمه ، ومؤخره ، وحلاله ، وحرامه ، وأمثاله .

وأخرج أيضاً عن أبى الدرداء فى قوله : ﴿ **يؤتى الحكمة** .. ﴾ - قال : قراءة القرآن والفكرة فيه ، وأخرج ابن أبى حاتم عن عمرو بن مرة قال : « ما مررت بآية فى كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنتنى ، لأنى سمعت الله يقول : ﴿ **وتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا العَالِمُونَ** ﴾[4] .

وأخرج أبو عبيد عن الحسن ، قال : « ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيما أنزلت ، وما أراد بها » .

فالواجب على الأمة الإسلامية حفظ القرآن ، وفهم معانيه ، ومعرفة تفسيره معرفة لا تشوبها الإسرائيليات ، ولا الموضوعات والأباطيل ، والتزامه سلوكاً وعملاً من الأفراد والجماعات فى كل شأن من شئون الحياة ، وبذلك يستعيدون مجدهم الغابر ، وعزتهم التى

---

(1) أى عظم وجل .
(2) رسالة فى أصول التفسير ص ٦ .
(3) البقرة : ٢٦٩ .
(4) العنكبوت : ٤٣ .

نوه الله بها فى القرآن الكريم حيث قال : ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (١) وأرضهم السليبة ، وسلطانهم المرهوب فى الأرض .

التفسير من أشرف العلوم :

والعلم بالتفسير من أشرف العلوم الشرعية ، وأجلها ، فالشيءُ إنما يشرف إما بشرف موضوعه وإما من جهة غايته والغرض منه ، وإما من جهة الحاجة إليه .

وموضوع علم التفسير هو : كلام الله ؛ أشرف الكلام ، وأصدقه ، وهو أصل الدين ، ومنبع الصراط المستقيم ، وينبوع كل حكمة ، ومعدن كل فضل .

وغايته هى : الاعتصام بالعروة الوثقى ، والوصول إلى السعادتين : الدنيوية والأخروية .

وأما شدة الحاجة إليه : فلأن كل كمال دينى أو دنيوى ، عاجل ، أو آجل ، مفتقر إلى العلوم الشرعية ، والمعارف الدينية وهى : متوقفة على العلم بكتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

العلوم التى لابد منها للمفسر :

وهاك ما قاله الإمام السيوطى فى الإتقان : مع زيادة التوضيح ، وحسن التصرف :

قال بعض العلماء : اختلف الناس فى تفسير القرآن : هل يجوز لكل أحد الخوض فيه ؟ فقال قوم : لا يجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شيء من القرآن ، وإن كان عالماً ، أديباً ، متسعاً فى معرفة الأدلة ، والفقه ، والنحو ، والأخبار ، والآثار وليس له إلا أن ينتهى إلى ما روى عن النبى ـ ﷺ ـ فى ذلك .

ومنهم من قال : يجوز تفسيره لمن كان جامعاً للعلوم التى يحتاج المفسر إليها ، وهى خمسة عشر علما :

« أحدها » : اللغة ، لأن بها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع ، قال مجاهد : « لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم فى كتاب الله ، إذا

---

(١) المنافقون : ٨ .

لم يكن عارفاً بلغات العرب » ، قال الإمام مالك : « لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا » ، أقول : والمراد : العلم باللغة الواسع ، المتعمق ، ولا يكتفى باليسير منه ، فقد يكون اللفظ مشتركا ، وهو يعلم أحد المعنيين ، ويكون المراد الآخر ، وكذلك العلم بالفروق اللغوية ، والعلم باللغة : نثرها ونظمها من الأسباب التى مكنت لابن عباس أن يكون حبر القرآن ، ورأس المدرسة المكية التى هى أَصَلُ المدارس التفسيرية .

« الثانى » : النحو لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب : فلابد من اعتباره .

أخرج أبو عبيد ، عن الحسن أى البصرى : أنه سئل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ، ويقيم بها قراءته ؟ فقال : حسن فتعلمها فإن الرجل يقرأُ الآية فيعيي بوجهها ، فيهلك فيها .

أقول : ومن لم يعرف النحو فربما يقع فى أخطاء فاحشة ، قد تؤدى إلى الكفر ، ومثل ذلك الرجل الذى قرأ قوله تعالى : ﴿ **إن الله برىءٌ من المشركين ورسوله** ﴾ بجر « رسوله » ، فكاد يقع فى الكفر وهو لا يعلم فكان هذا من الأسباب الحاملة على وضع علم النحو(١) .

« الثالث » : علم التصريف ، لأن به تعرف أبنية الكلمات والصيغ قال ابن فارس : ومن فاته علمه فاته المعظم ، لأن وجد مثلا كلمة مبهمة فإذا صرفناها اتضحت بمصادرها ، فإنها تستعمل فى العثور على الدابة وفى الحصول على المطلوب ، وفى الغضب ، وفى الغنى ، وفى الحب ، وإنما تتميز بالمصادر ، يقال : وجد ضالته وجدانا ـ بكسر الواو ـ ، ومطلوبه وجوداً ـ بضمها ، وفى الغضب موجدة ـ بكسر الجيم ـ وفى الغنى وجدا بضم الواو ـ ، وفى الحب وجدا ـ بفتح الواو ـ(٢) .

وقال الزمخشرى فى تفسيره : من بدع التفاسير قول من قال : إن الإمام فى قوله

---

(١) تفسير روح المعانى للالوسى ج ١٠ ص ٤٧ .

(٢) نقله ابن الصلاح فى مقدمته ص ١٦٧ عن المعافى بن زكريا النهر وانى ، وقد بين العراقى فى تعليقاته على المقدمة أن هذه المصادر ليست موضع اتفاق وهو الحق ، كما يعلم ذلك من مراجعة « القاموس » و« لسان العرب » فلعل مراد هذا القائل ؛ أن ذلك هو الغالب ، والكثير فى الاستعمال .

تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾[1] أنه جمع أُم ، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم . قال : وهذا جهل أوجبه جهله بالتصريف ، فإن أما لا تجمع على إمام ، وصدق الزمخشرى ـ رحمه الله ـ ، فهذا من بدع التفاسير حقاً .

« الرابع » : علم الاشتقاق لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف المعنى باختلافهما ، كالمسيح[2] : أهو من السياحة ، أو المسح ، فمن الأول يسمى المسيح مسيحاً لكثرة سياحته ، وأما من الثانى : فلأنه كان لا يمسح على ذى عاهة إلا برأ بإذن الله ـ تعالى ـ ومثل ذلك أيضاً النبى ، أهو من النبأ بمعنى الخبر ، فهو مخبر ـ بكسر الباء ـ عن الله ، أو مخبر ـ بفتح الباء ـ منه أو هو من النَّبْوة بمعنى الرفعة ، وليس من شك فى أن المعنى يتغير بتغير أصل الاشتقاق .

« الخامس ، والسادس ، والسابع » : علوم المعانى ، والبيان والبديع ، لأنه يعرف بالأول خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعانى ، وبالثانى خواصها من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها ، وبالثالث وجوه تحسين الكلام ، وهذه العلوم الثلاثة هى علوم البلاغة ، وهى من أعظم أركان المفسر ، لأنه لا بد له من أن يعلم ما يقتضيه الإعجاز ، وإنما يدرك بهذه العلوم .

وقال السكاكى : اعلم أن شأن الإعجاز عجيب ، يدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها ، وكالملاحة ، ولا طريق لتحصيله لغير ذوى الفطرة السليمة إلا التمرن على علمى المعانى والبيان .

أقول : وتعلم البلاغة بالطريقة التى وضعها السكاكى وأمثاله ممن قعَّدوا القواعد ، وفلسفوها ، لا تكون ملكة ، ولا تربى ذوقاً ، وكثير ممن درس البلاغة على هذا النحو الجاف لا يستطيع أن يكتب صحيفة ، أو يحبر مقالاً رائقاً مشرقاً ، يأخذ بمجامع القلوب ، ويستولى على النفوس ، فضلاً عن كتاب .

وإنما الذى يجدى فى تكوين الملكة ، وتربية الذوق البلاغى ، وإرهاف الحس الأدبى ، هو : مزاولة الجيد من القول ، والبليغ من كلام العرب نثراً ونظماً .

---

(١) الإسراء : ٧١ .

(٢) فهو على الأول فعيل بمعنى فاعل ، وعلى الثانى فعيل بمعنى مفعول .

والمقارنة ، والموازنة بين الأساليب ، وطرق البيان ، وكثرة المدارسة والممارسة لكلام البلغاء والفصحاء ، وهى طريقة الإمام عبدالقاهر الجرجانى ومدرسته ، وذلك كما صنع فى كتابيه الجليلين : « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » ، حينئذ يتسهل على المفسر لكتاب الله إدراك ما فيه من فصيح الكلام ، وبليغ المعانى وأسرار الإعجاز ، وما أحسن ما قاله ابن أبى الحديد فى هذا ، قال : اعلم أن معرفة الفصيح والأفصح . والرشيق والأرشق من الكلام أمر لا يدرك إلا بالذوق ، ولا يمكن إقامة الدلالة عليه . وهو بمنزلة جاريتين : إحداهما بيضاء مشربة بحمرة ، دقيقة الشفتين ، نقية الثغر ، كحلاء العين ، أسيلة الخد . دقيقة الأنف معتدلة القامة ، والأخرى دونها فى هذه الصفات والمحاسن ، لكنها أحلى فى العيون والقلوب منها ، ولا يدرى سبب ذلك ، ولكنه يعرف بالذوق والمشاهدة ، ولا يمكن تعليله ، وهكذا الكلام ! ! نعم يبقى الفرق بين الوصفين . إن حسن الوجوه . وملاحتها ، وتفضيل بعضها على بعض يدركه كل من له عين صحيحة . وأما الكلام : فلا يدرك إلا بالذوق ، وليس كل من اشتغل بالنحو ، واللغة . والفقه ، يكون من أهل الذوق ، وممن يصلح لانتقاد الكلام ، وإنما أهل الذوق هم الذين اشتغلوا بعلم البيان . وراضوا أنفسهم بالرسائل ، والخطب ، والكتابة والشعر ، وصارت لهم بذلك دراية . وملكة تامة فإلى هؤلاء ينبغى أن يرجع فى معرفة الكلام وفضل بعضه على بعض .

وقال الزمخشرى : من حق مفسر كتاب الله الباهر ، وكلامه المعجز أن يتعاهد بقاء النظم على حسنه ، والبلاغة على كمالها ، وما وقع به التحدى سليما من القادح .

أقول : والزمخشرى من خير- إن لم يكن خير- من له فى إدراك إعجاز القرآن باع طويل ، وخير من أفصح عن أسرار إعجاز القرآن الكريم بطريقة العرب الفصحاء البلغاء ، لا بطريقة أهل الفلسفة والكلام .

« الثامن » : علم القراءات ، لأن به يعرف كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم . وبالقراءات يترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض .

« التاسع » : علم أصول الدين ، ليعرف وهو يفسر القرآن ما يجب لله وما يستحيل عليه ، وما يجوز له ، وليعرف الفرق بين العقائد والشرائع ، وماهو من أصول الدين ، وماهو من فروعه .

« العاشر » : علم أصول الفقه ، لأن به يعرف وجه الاستدلال على الأحكام ، وطريقة استنباطها من النصوص .

« الحادى عشر » : علم أسباب النزول ، وعلم القصص والأخبار ، لأن بمعرفة سبب النزول يعرف المعنى المراد من الآية ، كما أنه يزيل الإشكال عن بعضها ، ويبين بعض حكم الله فى التشريع ، وبعلم القصص يعلم ما هو من الإسرائيليات التى دست فى الرواية الإسلامية ، وما ليس منها وما هو حق ، وما هو باطل .

« الثانى عشر » : علم الناسخ والمنسوخ ، وهو مهم للمفسر ، وإلا وقع فى خطأ كبير .

« الثالث عشر » : علم الفقه إذ به يعرف مذاهب الفقهاء ، ومن احتج منهم بالآية ومن لم يحتج بها ، وطريقة كل منهم فى فهم الآية والأخذ بها ، أو الإجابة عنها .

« الرابع عشر » : علم الأحاديث والسنن والآثار المبينة لتفصيل المجمل ، وتوضيح المبهم ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، إلى غير ذلك من وجوه بيان السنة للقرآن .

« الخامس عشر » : علم الموهبة ، وهو علم يورثه الله ـ تعالى ـ من عمل بما علم ، وإليه الإشارة بحديث النبى ـ ﷺ ـ : « **من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم** »(1)، قال ابن أبى الدنيا : وعلوم القرآن ، وما يستنبط منه بحر لا ساحل له .

فهذه العلوم التى هى كالآلة للمفسر لا يكون مفسراً إلا بتحصيلها فمن فسر القرآن بدونها كان مفسرًا بالرأى المنهى عنه ، وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسرًا بالرأى المنهى عنه ، والصحابة والتابعون كان عندهم علوم العربية بالطبع لا بالاكتساب ، واستفادوا العلوم الأخرى من النبى ـ ﷺ ـ .

قال الإمام السيوطى : ولعلك تستشكل علم الموهبة ، وتقول : هذا شىء ليس فى قدرة الإنسان ، وليس كما ظننت من الإشكال ، والطريق إلى تحصيله : ارتكاب الأسباب الموجبة من العمل ، والزهد .

قال الزركشى فى البرهان : اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معانى الوحى ، ولا يظهر له أسراره وفى قلبه بدعة ، أو كبر ، أو هوى ، أو حب الدنيا ، أو وهو مصر على ذنب ، أو

---

(1) رواه أبو نعيم عن أنس .

غير متحقق بالإيمان ، أو ضعيف التحقيق ، أو يعتمد على قول مَفسر ليس عنده علم ، أو راجع إلى معقوله ، وهذه كلها حجب ، وموانع بعضها آكد من بعض .

قال السيوطى : ويدل على هذا المعنى : قوله تعالى : ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ** ﴾ (١) قال سفيان بن عيينة : يقول : « أنزع عنهم فهم القرآن » أخرجه ابن أبى حاتم (٢) .

أقول : وعلم الموهبة ثمرة من ثمرات التقوى ، والتقوى لها معنيان : معنى نفسى وهو : خشية الله ومراقبته فى السر والعلن ، وهذا هو ما أراده النبى - ﷺ - حينما قال : « **التقوى هٰهنا** » ثلاثا ، وأشار إلى صدره ، رواه مسلم ، ومعنى ظاهرى ، وهو : الاستقامة على الدين ، وذلك بامتثال المأمورات ، واجتناب المنهيات ، وقد تسمو بصاحبها ، فتصل به إلى حد فعل النوافل والمستحبات أيضاً ، واتباع مكارم الأخلاق ، وتوقى الشبهات ، خشية الوقوع فى المآثم والمحرمات ، والتقوى بمعنييها لا بد منها لمن يتصدى لشرح كتاب الله ، وفى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً** ﴾ (٣) أى معنى فى القلب يفرق به بين الحق والباطل .

وليتمثل المفسر لكتاب الله أنه يفسر كلاماً لا ككلام الناس ، وأنه قائم بين يدى الله الواحد ، الأحد ، الجبار ، الكبير ، المتعال ، المنتقم وأن أى تقصير ، أو تساهل فيه ، يعتبر كذباً على الله ، وافتراء عليه .

وسلوا بطانات الملوك ، والرؤساء ، والأمراء ، والوزراء ينبئوكم بأن الواحد منهم محسوب عليه كل كلمة ، بل كل حرف ينطق به ومؤاخذ على كل ما يصدر منه مهما قل ، وأن كلمة يقولها ، ربما تطيح بعنقه ، أو تقصيه عن منصبه ، فما بالكم بمن يفسر كلام رب الأرباب وملك الملوك ؟ ! ! ويقول : مراد الله كذا ، أو عنى الله كذا ؟ !

وهذا هو السر فى أن بعض كبار الصحابة ، والتابعين ، ومن بعدهم كان يتحرج غاية

---

(١) الأعراف : ١٤٦ .
(٢) الاتقان ج ٢ ص ١٨٠ - ١٨٢ .
(٣) الأنفال : ٢٩ والفرقان : مصدر كالرجحان والغفران .

التحرج ، من القول فى تفسير القرآن الكريم ، مع ما كانوا عليه من العلم الغزير ، والعقل المستنير ، والقلب المستضىء .

علوم أخرى لا بد منها للمفسر :

وقد جاء الأستاذ الإمام : الشيخ محمد عبده ، فزاد هو وتلميذه السيد محمد رشيد رضا بعض العلوم الأخرى ، كالعلم بتاريخ البشر ، وعلم السيرة والعلوم الكونية ، وقد زدت ــ ولله الحمد والمنة ــ كما زاد غيرى بعض العلوم ، وها أنذا أجمل ذلك فيما يأتى :

١ ــ أن يكون عالما بالأحاديث : صحيحها ، وحسنها ، وضعيفها ولئن عز ذلك فى عصرنا هذا فليكن واقفاً على ما قاله العلماء ، وجمعه الأئمة فيما يتعلق بتفسير القرآن الكريم ، وبيان فضائل آياته وسوره ولو أن المفسرين جميعهم كانوا من حفاظ الحديث ونقاده المميزين لغثه من سمينه ، وأئمته الذين جمعوا بين الرواية والدراية ، لما وقع فى كتب التفاسير كل هذا الدخيل ، من الإسرائيليات ، والأحاديث الضعيفة والموضوعة ، ولما عانى المسلمون ما يعانونه اليوم من الآثار السيئة ، التى ترتبت على وجود هذه الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير .

٢ ــ أن يكون عالماً بالسير ، ولا سيما سيرة النبى ــ ﷺ ــ وسير أصحابه النبلاء ــ رضوان الله عليهم ــ وعالما بالتواريخ ، وأحوال الأمم الماضية ، ولا سيما تاريخ الأنبياء السابقين ، والملوك الغابرين ، فإن ذلك يعين المفسر على إصابة وجه الحق والصواب .

[ففى القرآن كثير من الآيات لا يمكن تفسيرها إلا لعالم بالسير كالآيات المتعلقة ببدر وأحد والخندق والحديبية والفتح وتبوك ، وكثير من الآيات المتعلقة بقصص الماضين وأولياء الله الصالحين والملوك الغابرين لا يمكن تفسيرها إلا بمعرفة التواريخ وذلك كقصة أصحاب الكهف وقصة ذى القرنين وقصة الخضر مع موسى عليه الصلاة والسلام] .

٣ ــ أن يكون على علم بعلم الاجتماع البشرى ، وعلم النفس ، فإن هذين العلمين يعينان المفسر على فهم المراد من بعض الآيات ، وتفسيرها تفسيراً علمياً صحيحاً ، والكشف عما فيها من أسرار اجتماعية ، ونفسية ، وقارىء التفسير اليوم تستهويه التفاسير المدعمة بالمباحث النفسية والاجتماعية .

وكيف يتأتى للمفسر الذى يجهل قواعد هذين العلمين الصحيحة أن يفسر هذه الآيات

وأمثالها ، كقوله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ . وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (٣) وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٤) وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٥) إلى نحو ذلك من الآيات .

٤ ـ أن يكون على علم بتاريخ الأديان السماوية السابقة ، كاليهودية والنصرانية ، وما دخلها من تحريف وتبديل ، حتى يستطيع أن يفسر مثل قوله تعالى : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ (٦) والمذاهب الدينية غير السماوية : كالبرهمية ، والبوذية ، والمزدكية ، والمانوية ونحوها وبذلك يستطيع المفسر أن يصل إلى الحق والصواب حينما يعرض للآيات التي جادلت أهل الكتاب ، ولا سيما النصارى في عقيدتي التثليث والصلب والفداء ، وكيف تأثروا في هاتين العقيدتين بالديانات والنحل القديمة وإلى ذلك أشار الله ـ تبارك وتعالى ـ في قوله : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٧)

فإذا كان من يتعرض لتفسير كتاب الله على علم بهذه العلوم كلها ـ ما ذكرها الإمام السيوطي وغيره ، وما ذكرناه ، فقد استأهل أن يفسر القرآن الكريم ، وإلا فليرحْ نفسه ، وليرحنا معه ، ولا يخبط في كتاب الله خبط عشواء (٨)

---

(١) البقرة : ٢١٣ . (٢) هود : ١١٨ ، ١١٩ . (٣) الرعد : ١١ . (٤) آل عمران : ١١٩ .
(٥) محمد . ٣٠ . (٦) المائدة : ٤١ . (٧) التوبة : ٣٠ .
(٨) هذا الفصل وما يعقبه من بحوث من الأهمية بمكان ، ولا بد من ذكرها قبل المقصود لأنها تعين على معرفة الحق من الباطل ، والإسرائيليات من غيرها ؛ والموضوع من غيره ؛ والمقبول من المردود .

ما يجوز الخوض فى تفسيره وما لا يجوز :

من التفسير ما هو ظاهر واضح ، يعلمه العالم باللسان العربى ، ومنه ما لا يعذر أحد بجهالته ، ومنه ما لا يجوز التكلم فيه إلا للعلماء الراسخين فى العلم ، ومنه ما لا يجوز الاشتغال به ، لأنه مما استأثر الله بعلمه ، فلا يخرج منه الباحث بطائل .

وقد أثرت عن الصحابى الجليل حبر القرآن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ مقالة ـ فى هذا ، يستحسن أن نذكرها ، فقد أخرج ابن جرير وغيره من طرق ، عن ابن عباس ، قال : « التفسير أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير تعرفه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله ـ تعالى ـ » ثم رواه مرفوعاً[1] بسند ضعيف ، بلفظ : « أنزل القرآن على أربعة أحرف أى أوجه : حلال ، وحرام لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير العرب وتفسير تفسره العلماء ، ومتشابه لا يعلمه إلا الله ـ تعالى ـ ومن ادعى علمه سوى الله ـ تعالى ـ فهو كاذب ؛ وفى إسناده محمد بن السائب الكلبى ، وهو متهم بالكذب[2] وقد وضح لنا كلمة ابن عباس ، وشرحها الإمام الزركشى فى البرهان فقال :

هذا تقسيم صحيح ، فأما الذى تعرفه العرب فهو : الذى يرجع فيه إلى لسانهم ، وذلك : اللغة والإعراب فعلى المفسر معرفة معانيها ، ومسميات أسمائها ، ولايلزم ذلك القارىء ، ثم إن كان ما يتضمنه ألفاظها يوجب العمل دون العلم ، كفى فيه خبر الواحد ، والاثنين والاستشهاد بالبيت والبيتين ، وإن كان يوجب العلم لم يكتف بذلك ، بل لا بد أن يستفيض ذلك اللفظ ، وتكثر شواهده من الشعر ، وأما الإعراب : فما كان اختلافه محيلا للمعنى : وجب على المفسر والقارىء تعلمه ، ليتوصل المفسر إلى معرفة الحكم ، ويسلم القارىء من اللحن ، وإن لم يكن محيلا للمعنى : وجب تعلمه على القارىء ليسلم من اللحن ، ولا يجب على المفسر لوصوله إلى المقصود بدونه[3] .

وأما ما لا يعذر أحد بجهله : فهو ما تتبادر النصوص إلى معرفة معناه من النصوص

---

(١) المرفوع : ما نسب إلى النبى ـ ﷺ ـ من قول ، أو فعل ، أو تقرير أو وصف خلق أو خلق .

(٢) تفسير ابن كثير والبغوى ج ١ ص ١٥ ط المنار .

(٣) مثال ذلك قول الله تعالى : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فسواء أعرب لفظ السماء مبتدأ أو جعل فاعلاً لفعل محذوف فالمعنى لا يختلف لكن الرفع لازم للقارىء ، ولو قرأ بالنصب يعتبر لاحناً .

المتضمنة شرائع الأحكام ، ودلائل التوحيد ، وكل لفظ أفاد معنى واحدًا جلياً يعلم أنه مراد الله تعالى : فهذا التقسيم لا يلتبس تأويله ، إذ كل أحد يدرك معنى التوحيد من قوله تعالى : ﴿ **فَاعْلَمْ أَنه لاَ إِلَهَ إلا اللهُ** ﴾[(١)] وأنه لا شريك له فى الإلهية ، وإن لم يعلم أن « لا » ـ موضوعة فى اللغة للنفى ، و« إلا » للإثبات ، وأن مقتضى هذه الكلمة الحصر ، ويعلم كل أحد بالضرورة أن مقتضى قوله تعالى : ﴿ **وأقيموا الصلاَةَ ، وآتوا الزكَاةَ** ﴾ ونحوه ، طلب إيجاب المأمور به ، وإن لم يعلم أن صيغة « افعل » للوجوب فما كان من هذا القسم لا يعذر أحد يدعى الجهل بمعانى ألفاظه ، لأنها معلومة لكل أحد بالضرورة .

وأما ما لا يعلمه إلا الله تعالى : فهو ما يجرى مجرى الغيوب ، نحو الآى المتضمنة لقيام الساعة ، وتفسير الروح ، والحروف المقطعة فى أوائل السور[(٢)] ، وكل متشابه فى القرآن عند أهل الحق ، فلا مساغ للاجتهاد فى تفسيره ، ولا طريق إلى ذلك إلا بالتوقيف بنص من القرآن أو الحديث ، أو إجماع الأمة ، على تأويله .

وأما ما يعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم ، فهو : الذى يغلب عليه إطلاق التأويل ، وذلك استنباط الأحكام ، وبيان المجمل ، وتخصيص العموم ، وكل لفظ احتمل معنيين فصاعدا فهو الذى لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه ، وعليهم اعتماد الشواهد والدلائل دون مجرد الرأى ، فإن كان أحد المعنيين أظهر ، وجب الحمل عليه ، إلا أن يقوم دليل على أن المراد هو الخفى ، وإن استويا والاستعمال فيهما حقيقة لكن فى أحدهما حقيقة لغوية أو عرفية ، وفى الآخر شرعية : فالحمل على الشرعية أولى[(٣)] إلا إن دل دليل على إرادة الحقيقة اللغوية ، كما فى قوله ﴿ **وَصَلِّ عَلَيْهِم إِن صَلاَتَك سَكَنٌ لَهُمْ** ﴾[(٤)] ولو كان فى أحدهما حقيقة عرفية ، وفى الآخر لغوية ، فالحمل على العرفية أولى[(٥)] ، وإن اتفقا فى ذلك أيضاً : فإن تنافى اجتماعها ، ولم يمكن إرادتها باللفظ

---

(١) محمد : ١٩ . (٢) مثل : الم ، والمص ، وحم ، وطس .

(٣) وذلك مثل لفظ الصلاة ، والزكاة ، فإن الصلاة معناها فى اللغة الدعاء ، والزكاة معناها النماء والطهارة لكن لها معنى شرعى ، وهو فى الصلاة : الأقوال والأفعال المبتدأة بالتكبير المختتمة بالتسليم ، والزكاة : إخراج جزء من المال بشروطه لفقير وغيره من مصارف الزكاة ، فالكلمتان عند الإطلاق تنصرفان إلى المعنى الشرعى .

(٤) أى ادع لهم وهم الذين يأتون بزكاة أموالهم تطيباً لقلوبهم ، وشرحاً لصدورهم .

(٥) وذلك مثل لفظ المسجد ، فإن معنى لغويا وهو مكان السجود ، ومعنى عرفيا وهو المكان المعد للعبادة فلفظ مسجد ينصرف عند الإطلاق إلى الحقيقة العرفية .

الواحد ، كالقرء للحيض ، والطهر ، اجتهد فى المراد منهما بالأمارات الدالة عليه ، فما ظنه فهو مراد الله تعالى فى حقه ، وإن لم يظهر له شىء : فهل يتخير فى الحمل على أيهما شاء . ويأخذ بالأغلظ حكما ، أو بالأخف ؟ أقوال ، وإن لم يتنافيا : وجب الحمل عليهما عند المحققين ، ويكون ذلك أبلغ فى الإعجاز ، والفصاحة ، إلا إن دل دليل على إرادة أحدهما[1] . وقال ابن النقيب : اعلم أن علوم القرآن ثلاثة أقسام :

« الأول » : علم لم يطلع الله عليه أحداً من خلقه ، وهو ما استأثر به من علوم أسرار كتابه من معرفة كنه ذاته ، وغيوبه التى لا يعلمها إلا هو ، وهذا لا يجوز لأحد الكلام فيه بوجه من الوجوه إجماعا .

« الثانى » : ما أطلع الله عليه نبيه من أسرار الكتاب ، واختصه به وهذا لا يجوز الكلام فيه إلا له ـ ﷺ ـ ، أو لمن أذن له ، وأوائل السور من هذا القسم ، وقيل من القسم الأول .

« الثالث » : علوم علمها الله نبيه ، مما أودع فى كتابه من المعانى الجلية والخفية ، وأمر بتعليمها ، وهذا ينقسم إلى قسمين :

١ ـ منه ما لا يجوز الكلام فيه إلا بطريق السمع ، وهو أسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ والقراءات واللغات ، وقصص الأمم الماضية وأخبار ما هو كائن من الحوادث ، وأمور الحشر ، والمعاد .

٢ ـ ومنه ما يؤخذ بطريق النظر ، والاستدلال ، والاستخراج من الألفاظ وهو قسمان :

١ ـ قسم اختلفوا فى جوازه وهو تأويل الآيات المتشابهة فى الصفات[2] .

---

(١) الإتقان ج ٢ ص ١٨٢ .

(٢) الآيات المتشابهة مثل : «الرحمن على العرش استوى» ، «وجاء ربك» ، «ويبقى وجه ربك» ، «يد الله فوق أيديهم» . والعلماء فى هذا على فريقين : السلف وهؤلاء يؤمنون بالآيات المتشابهة كما وردت من غير تأويل ولا تشبيه ، ولا تكييف مع اعتقاد تنزيه الله عن ظواهرها المعروفة لنا ، والخلف : هؤلاء أولوا هذه الآيات على حسب المعروف من اللغة ، وقواعد الشرع ، والعقل ، والأول هو الذى كان عليه النبى ـ ﷺ ـ والصحابة ، والتابعون والسلف. وقد قالوا : إن مذهب السلف أحكم ، ومذهب الخلف أسلم ، فلنكن على ما كان عليه السلف ـ رضوان الله عليهم ـ.

٢ ـ وقسم اتفقوا عليه وهو : استنباط الأحكام الأصلية والفرعية والإعرابية[١] لأن مبناها على الأقيسة ، وكذلك فنون البلاغة ، وضروب المواعظ والحكم والإشارات لا يمتنع[٢] استنباطها منه ، واستخراجها لمن له أهلية .

وروى عن الإمام الشافعي ـ رضى الله تعالى عنه ـ أنه قال : لا يحل تفسير المتشابه إلا بسنة عن رسول الله ـ ﷺ ـ أو خبر عن أحد من أصحابه ، أو إجماع العلماء ، ومن هذه النصوص الجيدة التى تدل على العمق فى البحث ، والأصالة فى الرأى ، والدقة فى التفكير نعلم أن من القرآن ما لا يجوز الخوض فيه قط ، وأن منه ما الأولى عدم الخوض فيه ، لأنه لا يؤدى إلى أمر تركن إليه النفس ، ويطمئن إليه القلب ، وأن هذا وذاك لم يرد فيه عن المعصوم ـ ﷺ ـ روايات صحيحة ثابتة ، وإنما الكثرة الكاثرة منها روايات ضعيفة أو واهية أو مكذوبة مختلفة .[٣]

وما ورد فيهما عن الصحابة والتابعين فمعظمه لم يصح عنهم ، لأنهم ما كانوا يخوضون فى مثل هذا والكثير منه من قبيل الإسرائيليات والأخبار الباطلة التى تلقوها عن أهل الكتاب الذين أسلموا ، واتخذت فى ظاهر الأمر شكل الرواية الإسلامية ، وما هى منها فى شىء .

* * *

---

(١) أى استنباط وأخذ القواعد النحوية ، فإن القرآن الكريم هو أوثق المصادر التى يعتمد عليها فى إثبات اللغة ، وقواعد النحو .

(٢) التعبير بلا يمتنع غير دقيق . فإن القرآن هو أصل الفصاحة والبلاغة ، والبيان المعجز ، هو المصدر الأول الذى تعرف منه فنون البلاغة ، والفصاحة ، والأساليب الفحلة الجزلة «نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين» .

(٣) الإتقان ج ٢ ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

أقسام التفسير

التفسير المعتد به عند جمهور العلماء ـ سلفا وخلفا ـ ينقسم إلى قسمين :

الأول : التفسير بالمأثور .

الثانى : التفسير بالرأى السديد ، والاجتهاد الصحيح المبنى على العلوم والمعارف التى سقناها آنفا .

وكتب التفسير بالمأثور منها ما هو خالص فيه ، ومنها ما فيه زيادة توجيه الأقوال والآراء ، والتفسير بالرأى والاجتهاد لا ينفك عن المأثور فى الجملة أيًّا كانت ألوانه ، واتجاهاته .

ولم نقف على تفسير بالاجتهاد خلا عن المأثور قط .

ولذلك : رأيت التعريف بكلا القسمين : وأشهر ، الكتب المؤلفة فيها ، حتى يكون القارىء لهذا الكتاب على بينة من كتب هذا العلم ، التى سنعرض لبيان ما فيها من موضوع ، وإسرائيليات ، فأقول وبالله التوفيق :

ـ ١ ـ
التفسير بالمأثور

المأثور[١] : اسم مفعول من أثرت الحديث أثراً من باب قتل نقلته والأثر بفتحتين : اسم منه ، وحديث مأثور أى منقول .

فالتفسير بالمأثور أى بالمنقول ، سواء أكان متواتراً أم غير متواتر .

وعلى هذا : يشمل المنقول عن الله ـ تبارك وتعالى ـ فى القرآن الكريم والمنقول عن

(١) المصباح المنير مادة أثر .

النبي - ﷺ - والمنقول عن الصحابة - رضوان الله عليهم - والمنقول عن التابعين - رحمهم الله - وعلى هذه الأنواع الأربعة يدور التفسير بالمأثور.

* * *

(أ) تفسير القرآن بالقرآن :

هو تفسير بعض آيات القرآن بما ورد فى القرآن نفسه ، فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً . فما أجمل فى مكان قد فسر وبين فى مكان آخر ، وما أوجز فى موضع قد بسط وبين فى مكان آخر ، ولذلك أمثلة .

أمثلة من تفسير القرآن بالقرآن :

قوله تعالى فى سورة الفاتحة : ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِينَ** ﴾ .

فقد فسر المنعم عليهم بقوله - سبحانه : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرسولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النبيِّن والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا** ﴾[(1)] .

وقوله تعالى : ﴿ **فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنه هُوَ التوابُ الرحِيمُ** ﴾[(2)] فقد فسرت الكلمات فى آية أخرى ، قال تعالى : ﴿ **قَالَا : رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾[(3)] وقد روى هذا عن كثير من التابعين[(4)] .

وقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِن اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ** ﴾[(5)] .

فقد فسر قوله : ﴿ **إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُم** ﴾ بقوله بعد : ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُم الْمَيْتَةُ وَالدم**

---

(١) النساء : ٦٩ .

(٢) البقرة : ٣٧

(٣) الأعراف : ٢٣

(٤) تفسير ابن كثير والبغوى جـ ١ ص ١٤٦ ، ١٤٧

(٥) المائدة : ١

وَلَحْم الْخِنْزِير وَمَا أُهِلَّ لِغَيْر اللهِ بِهِ والْمنْخَنِقَةُ والْمَوْقُوذَةُ وَالْمتَرَدِّيَةُ وَالنطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السبع إِلا مَا ذكيْتمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصبِ ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً ﴾ فقد فسر بما بعده : ﴿ فَأَصْحَاب المَيْمَنَةِ ما أَصْحَابُ الميْمَنَة وأَصْحَاب المَشْأَمَةِ مَا أَصْحَاب المَشْأَمَةِ والسابِقُونَ السابقُونَ أُولَئِكَ المقَربونَ ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ إِن الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ ، فقد فسر بما بعده ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً . وَإِذَا مَسهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾[٣] إلى غير ذلك .

(ب) تفسير القرآن بالسنة :

فإن لم يوجد تفسير للقرآن فى القرآن ، فليبحث عما ثبت وصح فى السنه ، والأحاديث ، فإنها شارحة للقرآن ، ومبينة له ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلعَلَّهُمْ يَتفَكَّرُونَ ﴾[٤] . وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيين رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِم ويُعَلِّمُهُم الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾[٥] .

وعن المقدام بن معد يكرب : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « **ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه**[٦] **ألا يوشك رجل شبعان متكىء على أريكته**[٧] **يقول عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه . وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ، ولا كل ذى ناب من السباع ، ولا لقطة معاهد ، إلا أن يستغنى عنها صاحبها ، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقْروه ، فإن لم يقروه فعليه أن يعقبهم**[٨] **بمثل قراه** » . رواه أبوداود فى سننه .

قال الإمام الخطابى ـ رحمه الله ـ : قوله : ﴿ **أوتيت الكتاب ومثله معه** ﴾

(١) المائدة : ٣ (٢) الواقعة : ٧ ـ ١١ (٣) المعارج : ٩ ـ ٢١
(٤) النحل : ٤٤ (٥) الجمعة : ٢ . (٦) هى السنن والأحاديث
(٧) المراد أنه من أهل الترفه والدعة الذين لزموا البيوت ولم يطلبوا العلم من مظانه .
(٨) روى مشدداً ، ومخففاً من المعاقبة أى يأخذ من أموالهم بقدر الضرورة وهو يدل على منزلة التكافل الاجتماعى فى الإسلام .

وجهين : أحدهما : أن معناه : أنه أوتى من الوحى الباطن غير المتلو مثل ما أعطى من الظاهر المتلو .

والثانى : أنه أوتى الكتاب وحيا يتلى ، وأوتى من البيان مثله ، أى أُذن له أن يبين ما فى الكتاب ، فيعم ويخص ، ويزيد عليه ، ويشرح ما فى الكتاب ، فيكون فى وجوب العمل به ، ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن .

وقوله « يوشك رجل .. » : يحذر بهذا القول من مخالفة السنن التى سنها مما ليس له فى القرآن ذكر ، على ما ذهبت إليه الخوارج والروافض ، فإنهم تمثلوا بظاهر القرآن ، وتركوا السنن التى قد ضمنت بيان الكتاب ، فتحيروا ، وضلوا[1] .

وفى حديث معاذ حين بعثه رسول الله – ﷺ – إلى اليمن قال له : « بم تحكم » ؟ .

قال : بكتاب الله ، قال : « فإن لم تجد » ؟ قال : بسنة رسول الله ، قال : « فإن لم تجد » ؟ قال أجتهد ، رأيى ، ولا آلو ، أى لا أقصر ، فضرب رسول الله – ﷺ – فى صدره وقال : « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله » .

قال ابن كثير فى تفسيره[2] : وهذا الحديث فى المسند والسنن بإسناد جيد .

وروى ابن المبارك عن الصحابي الجليل : عمران بن حصين ، أنه قال لرجل سأله عن أشياء وطلب منه أن يجيبه بالقرآن : « إنك رجل أحمق ، أتجد الظهر فى كتاب الله أربعاً لا يجهر فيها بالقراءة ، ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ، ثم قال : أتجده فى كتاب الله مفسراً ؟ ! إن كتاب الله أبهم هذا ، وإن السنة تفسر هذا وقال مكحول : القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن وقال الإمام أحمد بن حنبل : « إن السنة تفسر الكتاب وتبينه »[3] .

وهذا النوع من التفسير المنقول عن النبى – ﷺ – هو الطراز المعلم ، ويجب الاعتماد فى هذا النوع على الأحاديث الصحاح ، والحسان ، وتجنب الأحاديث الضعيفة والموضوعة ،

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٣٨

(٢) تفسير ابن كثير والبغوى جـ ١ ص ٦ وقد اختلف العلماء فى هذا الحديث فمنهم من صححه ومنهم من حسنه ومنهم من ضعفه وممن صححه ابن القيم فى إعلام الموقعين .

(٣) أعلام المحدثين ص ٩

فقد اختلق على النبي فى تفسير القرآن كما اختلق عليه فى غيره .

وقد قال الزركشى فى البرهان : إنه قد صح من ذلك كثير .

ورد عليه السيوطى فى الإتقان ، فقال : « الذى صح من ذلك قليل جداً ، بل أصل المرفوع فى غاية القلة ، وسأسردها فى آخر الكتاب ، إن شاء الله تعالى »(١) .

والحق : أنى لا أوافق السيوطى على مقالته ، وهى أن ما صح فى التفسير عن النبى قليل جدا ، ولعل مراده القلة النسبية : أى بالنسبة إلى ما ورد عن الصحابة والتابعين ، وإلا فقد ذكر الإمام البخارى فى صحيحه فى ذلك كتاباً كبيراً ، وهو : « كتاب التفسير » ، استغرق نحو جزء من ثلاثة عشر جزءًا من تجزئة الإمام الحافظ ابن حجر فى شرحه : « فتح البارى » .

وليس أدل على ما ذهبت إليه مما ذكره الحافظ بعد ما فرغ من شرح : « كتاب التفسير » ، قال : خاتمة : اشتمل كتاب التفسير على خمسمائة حديث ، وثمانية وأربعين حديثاً ، من الأحاديث المرفوعة ، وما فى حكمها ، الموصول من ذلك أربعمائة حديث ، وخمسة وستون حديثاً ، والبقية معلق(٢) ، وما فى معناه ، المكرر من ذلك فيه ، وفيما مضى أربعمائة وثمانية وأربعون حديثاً ، والخالص منها - يعنى من غير تكرار - مائة حديث وحديث ، وافقه مسلم على تخريج بعضها ، ولم يخرج أكثرها ، لكونها ليست ظاهرة الرفع ، والكثير منها من تفاسير ابن عباس - رضى الله عنهما - ، وهى ستة وستون حديثاً ، وفيه من الآثار(٣) عن الصحابة فمن بعدهم خمسمائة وثمانون أثرا .. »(٤) ، وهذا يدل على أن ما صح فى التفسير المرفوع غير قليل .

* * *

السبب فى أن الصحابة لم ينقلوا عن النبى كل التفسير :

وليس من شك : فى أن النبي - ﷺ - بين القرآن كله للصحابة ، ولا سيما ما أشكل

---

(١) الإتقان جـ ٢ ص ١٧٨ ، ١٧٩

(٢) المعلق فى اصطلاح المحدثين : ما حذف من مبتدأ إسناده راو أو أكثر ، والمراد بأول السند من جهة الإمام الراوى وذلك مثل قول البخارى : وقال مجاهد كذا ، وقال ابن عباس كذا .

(٣) أى الموقوفة على الصحابة .

(٤) فتح البارى جـ ٨ ص ٦٠٤ ، ٦٠٥

عليهم ، أو خفى عليهم المراد منه ، ولكن لم ينقل إلينا عنه - صلى الله عليه وسلم - كل ما يتعلق بآيات القرآن ولعل السبب فى هذا : أنهم كانوا لفهمهم الكثير من آياته بمقتضى فطرتهم اللغوية ، وعلمهم بالشريعة . رأوا ألا حاجة لنقل كل ما يتعلق بتفسير القرآن ، ظنًّا منهم أن من يأتى بعدهم فهو مثلهم ، أو يدانيهم وأيضاً فاشتغالهم بالجهاد ، والفتوحات ، ونشر الإسلام لم يدع لهم وقتاً للتفرغ للعلم والرواية .

* * *

السبب فى أن ما نقل عن النبى فى التفسير أقل مما نقل فى الأحكام :

وقد كان من حكمة الله البالغة : أن ما نقل عن النبى فى تفسير القرآن ولا سيما فيما يتعلق بنشأة الكون ، وأسرار الوجود ، والآيات الكونية والنفسية - أقل مما نقل فى الأحكام ، وذلك : لأن الأحكام الشرعية ثابتة دائمة ، لا تتغير بتغير الأزمان والعصور ، أما الآيات الكونية والآفاقية والنفسية فهى مجال للنظر ، والتفكر ، والتدبر ، ويختلف تناولها والاستفادة منها بتغير العقول ، والفهوم ، وتتطور بتطور الأزمان والأجيال ، وهى عرضة للتقدم العلمى ، فمن ثم كان موقف القرآن منها موقف الداعى إلى التفكر والتدبر ، والملاحظة والتجربة ، والاستفادة بما أودعه الله فيها من أسرار ، وخصائص ، وسنن ، وبذلك : فتح القرآن للعقول أبواب التقدم العلمى على مصراعيها ، حتى بلغ هذا التقدم إلى ما ترى ، وقد صيغت هذه الآيات الكونية والنفسية صياغة فى غاية المرونة [1] فمن ثم : صلحت لكل زمان ومكان ، وكان ذلك سرا من أسرار إعجاز القرآن الكريم .

وكذلك : كان موقف النبى - صلى الله عليه وسلم - من هذه الآيات الكونية : الحث على البحث فيها ، والتفكر ، والتدبر ، والتنبيه إلى فوائدها دون الإخبار عن حقائقها وأسبابها ، ولم يصح عن النبى - صلى الله عليه وسلم - فى التفصيل فى الآيات الكونية كالسماوات ، وجوهرها ومم خلقت ، ومقدار ما بين كل سماء والأخرى ، إلا شىء قليل جداً ، وأغلب ما ورد فى ذلك لم يصح ، ولم يثبت عنه .

---

(١) فى القاموس المحيط « مرن مرانة » ومرونة لان فى صلابة ..» وهذا ما أردته من مرونة الألفاظ القرآنية .

ولما سئل ﷺ عن الهلال لم يبدو دقيقاً ، ثم يزيد ، حتى يمتلىء نوراً : أى يصير بدراً ، ثم يعود دقيقاً كما كان[1] نزل القرآن منبهاً إلى الفائدة دون الإجابة عن الحقيقة العلمية مع أنها محط السؤال قال عز من قائل : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ** ﴾[2] والله سبحانه وتعالى ـ وهو خالق الكون : علويه وسفليه ، ومدبره ، والعليم بكل أسراره كان يعلم الحقيقة العلمية ولا ريب ، وكان من الممكن اليسير أن يعلمها لنبيه ـ ﷺ ـ ليجيب بها ، أو لعله أعلمه بها ، ولكن جاء القرآن على هذا الأسلوب الحكيم بالتنبيه إلى الفائدة والغاية من هذا رحمة بالناس ، ورفقاً بعقولهم فليست كل العقول كانت متهيئة فى هذا الزمن البعيد لتقبل الحقيقة العلمية ، وقد يكون لبعضهم فتنة ، فمن ثم : ترك ذلك إلى العقول ، لتصل إلى الحقيقة بعلمها ، وجدها ، وبحثها ، والعالم فى تقدمه مدين لهذا المنهج القرآنى ، فهو الذى فتح للبشرية آفاق العلم ، والمعرفة ، وقد كان ـ ﷺ ـ يخاطب الناس على قدر عقولهم ، واستعداداتهم ، وله فى ذلك السياسة الحكيمة ، والتوجيهات الرشيدة ، وفى الأثر الصحيح عن ابن مسعود ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : « ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » . رواه مسلم فى مقدمة الصحيح . وروى البخارى فى صحيحه تعليقا عن على رضى الله تعالى عنه أنه قال : « حدثوا الناس بما يعرفون ودَعُوا ما ينكرون ، أتحبون أن يُكَذَّبَ الله ورسوله » .

حديث منكر غريب :

ومهما يكن من شىء : فقد فسر النبى ـ ﷺ ـ للصحابة جل القرآن ، إن لم يكن كله ، وأما الحديث الذى رواه ابن جرير الطبرى بسنده عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، قالت : « ما كان النبى ـ ﷺ ـ يفسر شيئاً من القرآن إلا آيا بعدد ، علمهن إياه جبريل ـ عليه السلام » فإنه حديث منكر غريب ، لأن جعفر بن محمد بن خالد بن الزبير بن العوام القرشى الزبيرى قال فيه البخارى : لا يتابع فى حديثه ، وقال الحافظ أبو الفتح الأزدى : منكر الحديث[3] .

وقد تكلم عليه الإمام ابن جرير بما حاصله : أن هذه الآيات مما لا يعلم إلا بالتوقيف

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوى جـ ١ ص ٤٣٠ (٢) البقرة : ١٨٩

(٣) تفسير ابن كثير والبغوى جـ ١ ص ١٥

عن الله تعالى مما أوقفه عليها جبريل ، وهذا التأويل مقبول لو صح الحديث ، ولكنه لم يصح .

أمثلة لتفسير القرآن بالسنة :

من ذلك : تفسير المغضوب عليهم : باليهود ، والضالين : بالنصارى ، فى سورة الفاتحة ، أخرج أحمد ، والترمذى ، وحسنه ، وابن حبان فى صحيحه ، عن عدى بن حاتم ، قال : قال رسول الله - ﷺ - : « **إن المغضوب عليهم هم : اليهود ، وإن الضالين هم : النصارى** » ويؤيد هذا التفسير ؛ قوله تعالى : ﴿ **قُلْ هَل أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ والْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ . أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ** ﴾ (١) فإن المراد بهم : اليهود (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ** ﴾ (٣) وقد جعل النبى - ﷺ - اليهود عنواناً على كل من فسدت إرادتهم ، فعلموا الحق ، وعدلوا عنه والنصارى : عنواناً على الذين فقدوا العلم ، والوصول إلى الحق ، فهم هائمون فى الضلالة ، لا يهتدون إلى الحق .

ومن ذلك تفسير الظلم فى قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهتَدُونَ** ﴾ (٤) روى أحمد والشيخان وغيرهم عن ابن مسعود ، قال : « لما نزلت هذه الآية : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ** ﴾ شق ذلك على الصحابة ، **فقالوا** : يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : « إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » (٥) ، إنما هو الشرك » .

ومن ذلك : تفسير القوة بالرمى ، فى قوله تعالى : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ ، وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُم اللهُ**

---

(١) المائدة : ٦٠
(٢) تفسير ابن كثير والبغوى جـ ٣ ص ١٨٧
(٣) المائدة : ٧٧
(٤) الأنعام : ٨٢
(٥) لقمان : ١٣ والمراد بالعبد الصالح لقمان

يَعلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾[1] .

روى مسلم وغيره عن عقبة بن عامر ، قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول وهو على المنبر : « **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ** .. » ، ألا وإن القوة الرمى ، ألا وإن القوة الرمى ، ألا وإن القوة الرمى .

وقد جاءت الكلمة القرآنية معجزة ، فإن المراد بالقوة : أسبابها ، وهى كل ما يكون به القوة ، ولما كانت أسباب القوة وهى أسلحة الحرب ، وآلات القتال تختلف باختلاف العصور ، جاءت الكلمة على هذه المرونة الفائقة ، التى جعلتها صالحة لكل زمان ومكان .

وكذلك : جاء المفسِّر معجزاً كالمفسَّر ـ بفتح السين المشددة ـ ، فهما من مشكاة واحدة ، فالرمى . كلمة مرنة صالحة لتطور الأسلحة بتقدم الزمان ، فإن كلمة الرمى : يدخل فيها الرمى بالقوس ، والنبال ، والرمى بالحراب ، والرمى بالمنجنيق ، ويدخل فيها أيضاً : كل ما استحدث فيما بعد ، كالرمى بالمدفع ، والقنابل الذرية ، والهيدروجينية والصواريخ ونحوها ، ومن ذلك : تفسير الحساب اليسير : بالعرض ، أخرج الشيخان وغيرهما ، عن عائشة ، قالت قال : رسول الله ـ ﷺ ـ « **من نوقش الحساب عذب** » ، قلت ، أليس يقول الله تعالى : ﴿ **فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً** ﴾[2] قال : « **ليس ذاك الحساب ، وإنما ذاك العرض** » ، وهذا لفظ مسلم .

والعرض ـ بفتح العين وسكون الراء ـ : أى عرض أعمال المؤمن عليه ، حتى يعرف منة الله تعالى عليه فى سترها عن الناس فى الدنيا ، وفى عفوه عنها فى الآخرة .

ومن ذلك : تفسير الكوثر فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرِ** ﴾ أخرج أحمد ومسلم عن أنس ، قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **الكوثر : نهر أعطانيه ربى فى الجنة** » ، **قال السيوطى : له طرق لا تحصى**[3] . وفى الصحيحين عن أنس قال : « لما عرج بالنبى ﷺ إلى السماء قال : **أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوفا ، قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر** » .

* * *

---

(١) الأنفال : ٦٠ (٢) الانشقاق : ٨ (٣) الإتقان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ١٩١ ـ ٢٠٤

(جـ) تفسير الصحابة :

فإن لم نجد فى القرآن ، ولا فى السنة والأحاديث عن النبى ـ ﷺ ـ ، رجعنا فى ذلك إلى ما صح وثبت عن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فإنهم أدرى منا بتفسير القرآن الكريم ، فقد بين لهم النبى معانى القرآن ، وشرح لهم مجمله ، وأزال مشكله ، وأيضاً : هم أعلم بتفسيره منا ، لما شاهدوه من القرائن والأحوال ، التى أحاطت بنزول القرآن الكريم ، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح ، والقلب المستضىء ، والعقل الذكى ، ولاسيما كبراؤهم ، وعلماؤهم كالخلفاء الأربعة الراشدين المهديين ، وعبدالله بن مسعود ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبدالله بن عباس ، وأمثالهم .

ولعلك على ذكر مما رواه أبو عبدالرحمن السلمى ، التابعى الجليل عن كبار حفاظ القرآن ، من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ أنهم كانوا إذا نزل عليهم عشر آيات لم يتجاوزوها ، حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن ، والعلم ، والعمل جميعاً .

وروى عن الصحابى الجليل : عبدالله بن مسعود ، أنه قال : « من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، وأقومها هدياً ، وأحسنها حالاً ، اختارهم الله لصحبة نبيه ـ ﷺ ـ وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم فى آثارهم » .

وروى الإمام أحمد والبيهقى عن الشافعى ـ رحمه الله ـ : أنه ذكر الصحابة فى رسالته القديمة ، وأثنى عليهم بما هم أهله ، ثم قال : « وهم فوقنا فى كل علم واجتهاد ، وورع ، وعقل ، وأمر استدرك به علم ، واستنبط به حكم ، وآراؤهم لنا أحمد ، وأولى بنا من آرائنا عندنا لأنفسنا »(١) .

* وقد روى عن الصحابة فى التفسير كثير جداً ، وفيه الصحيح ، والحسن ، والضعيف ، والمنكر ، والموضوع ، وما هو من الإسرائيليات ونحوها ، وقد عنى أئمة

---

(١) علوم الحديث لابن الصلاح ص ٢٦٣ .

الحديث وجهابذته[1] بنقد ما روى ، وتمييز المقبول من المردود ، والغث من السمين ، ولكنها مفرقة مبثوثة فى كتب كثيرة ، وهى تحتاج إلى جهد جهيد فى الوصول إليها ، وإلى صبر وأناة فى تتبعها ، والانتفاع بها .

أقوال الصحابة فى التفسير :

وقد اختلف العلماء فى أقوال الصحابة فى التفسير : أهى لها حكم الرفع ، أم هى موقوفة عليهم ؟ : فمنهم من قال : إن تفسير الصحابى له حكم المرفوع إلى النبى ـ ﷺ ـ ، وقد قال ذلك الحاكم : فى « المستدرك »[2] .

وقال أبو الخطاب من كبار علماء الحنابلة : يحتمل ألا يرجع إليه ، إذا قلنا : إن قوله ليس بحجة ، قال : والصواب الأول ، لأنه من باب الرواية لا الرأى .

وما قاله الحاكم وغيره : نازعه فيه الإمام ابن الصلاح وغيره ، من المحققين المتأخرين ، وقالوا : إن ذلك مخصص بما فيه سبب نزول أو نحوه ، مما لا دخل للرأى فيه ، وأما ما يتعلق باللغة والأحكام الاجتهادية : فليس من قبيل المرفوع[3] .

وقد صرح الحاكم نفسه بذلك فى كتابه : « علوم الحديث » فقال : ومن الموقوفات : تفسير الصحابة ، وأما من يقول : إن تفسير الصحابة مسند ـ أى مرفوع ـ ، فإنما يقوله فيما فيه سبب نزول ، فقد خصص هنا وعمم فى المستدرك ، فلعل هذا ما أراده فى المستدرك أو رجع عنه إلى هذا .

والمحققون من العلماء : كالحافظ الكبير ابن حجر ، على أن أقوال الصحابة فى التفسير لها حكم المرفوع إلى النبى ـ ﷺ ـ بشرطين :

---

(١) جمع جِهبِذ ـ بكسر الجيم والباء ـ النَّقاد الخبير العالم

(٢) كتاب قصد بتأليفه استدراك الأحاديث الصحيحة التى فاتت الشيخين : البخارى ومسلم ، وهى على شرطهما ، أو على شرط أحدهما ، وزاد قسما ثانيا : وهو : ما أداه اجتهاده إلى تصحيحه ، وإن لم يكن على شرطهما ، ولم يَسْلم له كل ما قال .

(٣) علوم الحديث بشرح العراقى ص ٥٣ .

الأول : أن يكون مما لا مجال للرأى فيه ، كأسباب النزول ، وأحوال القيامة ، واليوم الآخر ونحوها .

الثانى : ألا يكون الصحابى معروفاً بالأخذ عن أهل الكتاب الذين أسلموا ، أى غير معروف برواية الإسرائيليات (١) .

لأن من عادة الصحابة وأخلاقهم : ألا يتكلموا فيما لا مجال للرأى فيه إلا بسماع وتوقيف ، ولا يتهجموا على ذلك من عند أنفسهم والسماع : إما من النبى - ﷺ - ، أو من بعض أهل الكتاب الذين أسلموا ، فإذا انتفى الثانى ، فقد تعين الأول .

وهذا الشرط الثانى يدل على بعد نظر أئمة الحديث ونقاده ، وأنهم لم تجز عليهم هذه الإسرائيليات التى رويت عن بعض الصحابة ، فقد علموا كذبها ، وعلموا أنها دخيلة على الرواية الإسلامية .

وقد كان كثير من التابعين يتحاشون الرواية ، عن بعض الصحابة الذين عرفوا بالأخذ عن أهل الكتاب ، وليس أدل على ذلك : من أن عبد الله بن عمرو بن العاص قد شهد له أبو هريرة بأنه كان أكثر حديثاً منه لأنه كان قارئاً كاتباً ، رواه البخارى فى صحيحه ، ومع هذا : فقد جاءت مروياته أقل من مرويات أبى هريرة ، لأنه كانت وقعت له كتب من كتب أهل الكتاب فى موقعة اليرموك ، تبلغ حمل بعيرين ، فكان يحدث ببعض ما فيها ، فمن ثم : تحاشى بعض الرواة الرواية عنه ، فكان هذا سبب من أسباب قلة مروياته عن أبى هريرة رضى الله عنه (٢)

أمثلة من تفسير الصحابة :

من ذلك : ما روى عن سلمة بن الأكوع فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَه فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ** ﴾ قال : « لما نزلت : ﴿ **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** ﴾ : كان من أراد أن يفطر ويفتدى حتى نزلت الآية التى بعدها (٣) فنسختها » (٤) .

---

(١) نزهة النظر شرح نخبة الفكر ص ٤٣ ط الاستقامة .

(٢) فتح البارى جـ ١ ص ١٦٧

(٣) يريد قوله تعالى : ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾ .

(٤) صحيح البخارى ـ كتاب التفسير ـ سورة البقرة . باب فمن شهد منكم الشهر فليصمه .

وروى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس : أنها ليست بمنسوخة ، وأنها فى الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة ، لا يستطيعان أن يصوما ، فعليهما أن يطعما مكان كل يوم مسكينا (١) .

وهذا : إنما يتأتى على من يفسر الإطاقة : بأنها تحمل الشيء بتكلف وجهد ، ويشهد له : قراءة « يُطَوَّقونه » بضم الياء ، وفتح الطاء ، وفتح الواو المشددة ، وأما قراءة العامة من القراءة المشهورة فتشهد للرأى الأول ، وهذا إلى جانب كونه مثالاً لتفسير الصحابى ، لون من ألوان اختلاف الصحابة فى التفسير .

ومن ذلك : ما روى عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَ الذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعلنَا مِنَ الماءِ كُل شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (٢) ، قال : كانت السماوات رتقًا لا تمطر وكانت الأرض رتقًا لا تنبت ، ففتق الله هذه بالمطر ، وهذه بالنبَات فرجع السائل له إلى ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ ، فأخبره بما قاله ابن عباس ، فقال ابن عمر : كنت أقول : ما تعجبنى جراءة ابن عباس على تفسير القرآن ، فالآن قد علمت أنه أوتى علماً » . أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، وذكره السيوطى فى الإتقان (٣) .

ومن ذلك ما روى عن السيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ ، لما سألها ابن أُختها عروة بن الزبير عن قوله تعالى : ﴿ **وَإِن خِفتُمْ أَلا تُقْسِطُوا فى الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنْ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ ، وَرُبَاعَ ..** ﴾ فقالت : يا ابن أختى : هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها ، تشركه فى ماله ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها ، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا عن ذلك ، إلا أن يقسطوا لهن ، ويبلغوا لهن أعلى سنتهن ، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن » (٤) .

ومن ذلك : ما روى عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **إذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ** ﴾ .

---

(١) المرجع السابق ــ باب قوله تعالى : ﴿ **أياماً معدودات ..** ﴾ الآية (٢) الأنبياء : ٣٠

(٣) جـ ٢ ص ١٨٧

(٤) صحيح البخارى ــ كتاب التفسير ــ سورة النساء ــ باب ﴿ **وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى** ﴾ .

روى البخارى فى صحيحه ، بسنده ، من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : «كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد فى نفسه ، فقال ، لم **تدخل هذا معنا ، ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من حيث علمتم**[١] ، فدعاهم ذات يوم ، فأدخلنى معهم ، فما رؤيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم ، قال : ما تقولون فى قول الله تعالى : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ ؟ فقال بعضهم : أمرنا أنا نحمد الله ، ونستغفره إذا نصرنا ، وفتح علينا ، وسكت بعضهم ، فلم يقل شيئاً فقال لى : أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ . فقلت : لا ، فقال : ما تقول فقلت : هو أجل رسول الله ـ ﷺ ـ أعلمه له ، قال : « **إِذا جاءَ نصرُ الله والفتح** » ، وذلك علامة أجلك ، « **فَسَبِّحْ بحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْه إنه كَانَ تَوَّابًا** » ، فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول[٢] .

* * *

ومن ذلك ما رواه البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى الكوثر : « هو الخير الذى أعطاه الله إياه » ، قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : فإن الناس يزعمون أنه نهر فى الجنة ، قال سعيد : النهر الذى فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله إياه » . ولا منافاة بين هذا التفسير وما صح عن النبى من أنه الكوثر لأن الكوثر من هذا الخير الكثير ، و يدخل فى هذا الخير الكثير النبوة والرسالة والقرآن والسنة .

تفاسير التابعين :

وأما أقوال التابعين[٣] فى التفسير : ففيها خلاف بين العلماء ، فبعضهم : عدها من المأثور ، لأن الغالب أنهم تلقوها عن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ .

وبعضهم : عدها من التأويل والتفسير بالرأى والاجتهاد ، لكثرة اختلافهم أكثر من الصحابة ، قال الزركشى فى البرهان : وفى الرجوع إلى قول التابعى روايتان[٤] عن أحمد ، واختار ابن عقيل المنع ، وحكوا عن شعبة بن الحجاج أنه قال : أقوال التابعين فى الفروع ليست حجة ، فكيف تكون حجة فى التفسير ، لكن عمل المفسرين على خلافه ، فقد

---

(١) يعنى قرابته من رسول الله وذكاءه ، وفطنته .

(٢) صحيح البخارى ـ كتاب التفسير ـ سورة النصر ـ باب قوله تعالى : ﴿ **فسبح بحمد ربك واستغفره** .. ﴾ .

(٣) التابعى : هو من لقى الصحابى وهو مؤمن سواء سمع منه أم لا ، سواء طال لقيه به أم لا .

(٤) الإتقان : جـ ٢ ص ١٧٩ .

حكوا فى كتبهم أقوالهم ، لأن غالبها تلقوها عن الصحابة.

والتحقيق : أنهم إن أجمعوا على شيء فلا يرتاب فى كونه حجة ويكون تلقوه عن الصحابة ، أما إذا اختلفوا : فلايكون قول بعضهم حجة على بعض ، وعلى من بعدهم ، وحينئذ للمفسر للقرآن ، أن يرجع إلى الطرق والوسائل ، التى يستفاد منها التفسير الصحيح[1] .

وقد رويت عن التابعين فى التفسير روايات كثيرة لا يحصيها العد ، ولا سيما تلاميذ ابن عباس : مجاهد بن جبر ، سعيد بن جبير ، وعكرمة مولاه ، وعطاء وغيرهم ، وقد ذكر منها ابن جرير فى تفسيره كثرة كاثرة ، والسيوطى فى « الدرِّ المنثور » ، والبغوى وابن كثير وغيرهم ، وسنعرض ـ إن شاء الله ـ فيما يأتى لبيان القيمة العلمية لتفاسير التابعين .

* * *

المفسرون من الصحابة :

اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وأُبى بن كعب ، وابن عباس ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى وعبد الله بن الزبير ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ أما الخلفاء الأربعة : فإن أكثر من روى عنه منهم فى التفسير : على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ لتخليه عن مهام الخلافة ، طيلة مدة الخلفاء الثلاثة ، ولتأخر وفاته عنهم

وأما الخلفاء الثلاثة الأول : فالرواية عنهم فى التفسير قليلة جدا[1] وذلك بسبب تقدم وفاتهم ولانشغالهم بمهام الخلافة . فالصديق : كان شاغله الأكبر القضاء على الفتنة ، فلما قضى عليها شرع فى نشر الإسلام فى الشام والعراق ، فلم يكن عنده متسع للرواية ، وأما الفاروق : عمر ـ رضى الله عنه ـ : فكان شاغله الأكبر الفتوحات الإسلامية ، واستكمال بناء الدولة ، وإن كانت الرواية عنه أكثر من الرواية عن سلفه العظيم .

وذو النورين : عثمان ـ رضى الله تعالى عنه ـ شغل بإتمام الفتوحات ، وبالفتنة الكبرى فى عهده التى انتهت بقتله ، وإن كانت الرواية عنه أكثر من الرواية عن الشيخين ، فقد

---

(١) مقدمة فى أصول التفسير ص : ٥٠ .

(٢) قال السيوطى : لا أحفظ عن أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ فى التفسير إلا آثاراً قليلة جداً .

كان متفرغا طيلة عهدهما والمكثرون من هؤلاء هم : على بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب ، وعبد الله بن عباس وإليك كلمة موجزة عن كل منهم .

١ ـ على بن أبى طالب :

على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف .

هو : ابن عم رسول الله ـ ﷺ ـ ، وزوج ابنته السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ، وقد كانت نشأته فى بيت النبوة من الأسباب المهمة فى كثرة ما حمل من علم ، وما اشتهر به من فقاهة ، هذا إلى ما وهبه الله من فطرة سليمة لم تتدنس بشىء من أمور الجاهلية ، فلم يسجد لصنم قط ، ولم يشرب خمراً ، ولا اقترف إثماً ، وما كان يتمتع به من قلب مضىء وعقل ذكى ، ولسان فصيح بليغ وقد روى معمر عن وهب بن عبد الله عن أبى الطفيل ، قال : « شهدت علياً يخطب وهو يقول : « سلونى ، فوالله لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم به ، وسلونى عن كتاب الله فوالله ما من آيه إلا وأنا أعلم : أبليل نزلت أم بنهار ؟ أم فى سهل أم فى جبل ؟ » .

وأخرج أبونعيم فى الحلية بسنده عن على قال : « والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت ؟ وأين نزلت ؟ ، إن ربى وهب لى قلباً عقولاً ، ولساناً سئولاً » ، وقد اشتهر بالفصاحة ، والبلاغة ، والبيان ، والفتيا ، وحل المشكلات ، حتى قيل فيه : « قضية ولا أبا حسن لها » .

وقد ابتلى ـ رضى الله عنه ـ بشيعة أسرفوا فى حبه ، فوضعوا روايات كثيرة جداً فى فضائله ، وفى التفسير وغيره ، وألصقوا به ما هو برىء منه ، وقابلهم المبغضون له ، فوضعوا فى ذمه ، ولمزه ، وهمزه شيئاً غير قليل ، وهكذا : نجد أنه هلك فيه رجلان : محب غال ، ومبغض قال .

وقد نقد أئمة الحدث وحفاظه هذه المرويات ، وبينوا الصحيح ، والضعيف ، والمكذوب ، والمقبول من المردود ، وسيأتى إن شاء الله بيان الكثير من ذلك .

٢ ـ عبد الله بن مسعود :

هو عبد الله بن مسعود ، بن غافل ، بن حبيب ، بن شمخ ، بن هذيل مات أبوه فى الجاهلية ، وأسلمت امه وصحبت النبى ، فلذلك نسب إليها أحياناً .

أسلم قديماً ، وكان كثير الملازمة لرسول الله ـ ﷺ ـ وصاحب سواكه ، ومطهرته ، وحامل نعليه ، كان من حفاظ القرآن المجيدين له ، والمعروفين بإقرائه للصحابة وغيرهم ، وفى صحيح البخارى عن شقيق بن سلمة قال : « خطبنا عبد الله ، فقال والله لقد أخذت من فى رسول الله ـ ﷺ ـ بضعاً وسبعين سورة ، والله لقد علم أصحاب النبى ـ ﷺ ـ أنى من أعلمهم بكتاب الله ، وما أنا بخيرهم » .

وفى صحيح البخارى عن مسروق ، قال : ذكر عبد الله بن مسعود عند عبد الله بن عمرو ـ يعنى ـ : ابن العاص ، فقال : « لا أزال أحبه بعد ما سمعت النبى ـ ﷺ ـ يقول ؛ « **خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ ، وأبى بن كعب** » وقد كان من أعلم الناس بتفسير القرآن الكريم ، بل كان يرى نفسه أنه أعلم الناس بكتاب الله روى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن مسعود قال : « والله الذى لا إله غيره . ما أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ، ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت ، ولو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لركبت إليه[1] .

وناهيك برجل زكاه على بن أبى طالب ، وشهد له بسعة علمه بالقرآن والسنة ، أخرج أبو نعيم عن أبى البخترى ، قال : قالوا لعلى : أخبرنا عن ابن مسعود قال : « علم القرآن والسنة ثم انتهى ، وكفى بذلك علماً » وشهد له من التابعين : مسروق بن الأجدع من خيار التابعين وفضلائهم قال : وجدت أصحاب محمد ﷺ مثل الإخاذ[2] يروى الواحد ، والإخاذ يروى الاثنين ، والإخاذ لو ورد عليه الناس أجمعون لأصدرهم[3] وإن عبد الله بن مسعود من تلك الإخاذ » .

وقد كان له تلاميذ أخذوا عنه ، وتخرجوا به ، وملأوا الأرض من علمه ، روى عن الإمام على بن المدينى أنه قال : « لم يكن أحد من أصحاب النبى ـ ﷺ ـ له أصحاب

---

(١) صحيح البخارى كتاب الفضائل ـ باب مناقب عبد الله بن مسعود ، وكتاب فضائل القرآن ـ باب القراء من أصحاب النبى .
(٢) الإخاذ : بكسر الهمزة الموضع الذى يحبس الماء كالغدير .
(٣) أى لرجعوا وهم مرتوون جميعاً

يقومون بقوله فى الفقه ، إلا ثلاثة : عبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وابن عباس ، كان لكل رجل منهم أصحاب يقولون بقوله ، ويفتون الناس » .

وقد رويت عنه روايات كثيرة فى التفسير ، وقد عُنى بها أئمة الحديث ونقدوها ، وبينوا الصحيح من الضعيف ، والمقبول من المردود ، وسيأتى تفصيل ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وكانت وفاته سنة اثنتين وثلاثين ، وقيل ثلاث وثلاثين فرضى الله عنه وأرضاه .

٣ ـ أُبَىّ بن كعب :

هو : أبى بن كعب بن قيس ، من بنى النجار الأنصارى الخزرجى يكنى : أبا المنذر وأبا الطفيل كان من السابقين إلى الإسلام ، من الأنصار شهد العقبة ، وبدرًا ، وما بعدهما ، وهو أحد المشهورين بحفظ القرآن من الصحابة ، وبإقرائه ، وقد سبق ذلك آنفاً ، وقد قال فيه عمر : « أُبى أَقرؤُنا » رواه البخارى .

ومن فضائله : أن النبى ـ ﷺ ـ قرأ عليه القرآن ، روى البخارى فى صحيحه بسنده ، عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : « قال النبى ـ ﷺ ـ لأبى : إن الله أمرنى أن أقرأ عليك : «لم يكن الذين كفروا . . »[١] قال : وسمانى قال «نعم» فبكى »[٢] .

وإنما قرأ عليه النبى ـ ﷺ ـ ليزداد علماً بالقراءة من النبى ـ ﷺ ـ ، ويزداد تثبتا فيها ، وليكون عرض القرآن وأخذه عن شيخ مقرىء سنة متبعة ، وللتنبيه على فضيلة أبى وتقدمه فى حفظ القرآن . وليس المراد أن يتعلم منه النبى شيئاً ، أو يستذكره منه بهذا العرض ، وقد روى عنه فى التفسير نسخة كبيرة ، يرويها أبوجعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عنه ، وهذا إسناد صحيح ، وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم منها كثيراً ، وكذا الحاكم فى مستدركه ، وأحمد فى مسنده ، وكانت وفاته سنة ثلاثين ، فرضى الله عنه .

---

(١) يعنى سورة البينة ، وذلك لما فيها على وجازتها من التوحيد ، والرسالة والإخلاص فى العبادة ، وفى ذكر الكتب المنزلة إجمالا ، وذكر الصلاة ، والزكاة ، والمعاد ، وبيان أهل الجنة والنار .

(٢) صحيح البخارى ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب مناقب أبى بن كعب ، وإنما بكى لأن تسمية الله له تشريف عظيم فبكى إما فرحاً ، وإما خشوعاً وخوفاً ، ألا يقوم بشكر تلك النعمة .

٤ ـ زيد بن ثابت :

هو : زيد بن ثابت بن الضحاك ، بن زيد بن لوذان ، من بنى مالك بن النجار ، كاتب الوحى وأحد فقهاء الصحابة ، وحفاظهم القرآن ، والمشهورين بإقرائه ، وقد روى البخارى فى صحيحه بسنده عن قتادة عن أنس ـ رضى الله عنه ـ ، قال : « جمع القرآن على عهد النبى ـ ﷺ ـ أربعة كلهم من الأنصار : أبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل وأبو زيد ، وزيد بن ثابت[1] ، قلت لأنس : من أبو زيد ؟ ، قال : أحد عمومتى » ، وقد اختلف فى اسم أبى زيد هذا على أقوال ، أرجحها : أنه قيس بن السكن ، من بنى حرام الأنصارى النَّجَّارى ، رواه ابن أبى داود[2] .

وبحسبه فضلاً ومفخرة أنه هو الذى جمع القرآن فى الصحف فى عهد الصديق ، بعد أن كان مفرقاً فى العسب ، والأكتاف ، واللخاف ، والظرر[3] ، وأنه رئيس الجماعة التى كتبت المصاحف فى عهد سيدنا عثمان ـ رضى الله عنه ـ[4] .

وقد كان له أصحاب تفقهوا به ، وأخذوا عنه ، ونشروا علمه ، وقد سبقت فى ذلك مقالة الإمام ابن المدينى آنفاً ، وقد ورد عنه فى التفسير مرويات كثيرة ، إلا أنه أقل من سابقيه ، وقد نقدها الأئمة الحفاظ ، وبينوا منزلتها من الصحة ، أو الحسن ، أو الضعف ، وكانت وفاته سنة خمس وأربعين للهجرة ، فرضى الله عنه وأرضاه .

٥ ـ عبدالله بن عباس :

هو : عبدالله بن العباس ، بن عبدالمطلب ، بن هاشم ، ابن عم النبى ـ ﷺ ـ ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، وهو ترجمان القرآن ، دعا له النبى ـ ﷺ ـ فقال : « **اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل** » ، رواه أحمد والطبرانى وفى صحيح البخارى بلفظ :

---

(١) المراد بجمعه : حفظه واستظهاره عن ظهر قلب والمراد : أنهم أكثر الصحابة حفظاً للقرآن من الأنصار من قبيلة الخزرج ؛ وإلا فقد كان يحفظه العدد الجم من المهاجرين ؛ وغيرهم من القبائل .

(٢) فتح البارى جـ ٩ ص ٤٤ ؛ وأنظر تحقيق هذا فى كتابنا : المدخل لدراسة القرآن الكريم .

(٣) الظر ؛ والظررة ؛ والظرر : الحجر عامة . وقال ابن شميل : حجر أملس عريض (لسان العرب) .

(٤) صحيح البخارى ـ كتاب فضائل القرآن ـ باب جمع القرآن .

« اللهم علمه الحكمة » ، وفى رواية : « اللهم علمه الكتاب » ، وهو مفسر لما قبله ، وأن المراد بالحكمة : علم القرآن ، وكان ابن عباس من أعلم الصحابة بتفسير القرآن ، قال فيه ابن مسعود : « نعم ترجمان القرآن : ابن عباس » رواه ابن سعد ، والبيهقى فى الدلائل ، وقد عرف بغزارة العلم ، حتى لقب بالحبر ، والبحر ، وكانت له مدرسة لها سماتها وخصائصها ، وأصحاب يقومون بعلمه . ويقولون بقوله ، ونشروا علمه على أوسع ما يكون النشر ، ولعلك على ذكـر من مقالة ابن المدينى الآنفة ، وكان الفاروق عمر ـ رضى الله عنه ـ يجلسه على حداثة سنه فى مجلسه ، ويعرف قدره ، حتى كان يدخله مجلسه مع الأشياخ من الصحابة ، يروى عن الحسن البصرى : أن ابن عباس كان من القرآن بمنزل ، كان عمر يقول : « ذا كم فتى الكهول ، إن له لساناً سئولاً . وقلباً عقولاً » ، وقد مر أنه لما وجد بعض الصحابة من إدخاله معهم ، وقالوا : إن لنا أبناء مثله دعاه ، ودعاهم ، ثم سألهم وسأله ، فتبين لهم أنه ليس كغيره ، وأن له من العلم ما يؤهله لذلك ، ومن أراد زيادة فى هذا : فليرجع إلى الإتقان(١) .

وقال الأعمش عن أبى وائل : « استخلف على عبدالله بن عباس على الموسم ، فخطب الناس ، فقرأ فى خطبته سورة البقرة ، وفى رواية : سورة النور ، ففسرها تفسيرًا لو سمعته الروم والترك ، والديلم لأسلموا »(٢) .

وقد ورد عنه فى تفسير القرآن ما لا يحصى كثرة ، ورويت عنه من طرق كثيرة ، وفيها الصحيح ، والحسن ، والضعيف بل والموضوع شىء كثير ، وأما التفسير المطبوع المنسوب إليه ، ففى صحة نسبته إليه شك غير قليل ، وليس هنا موضع بيان ذلك .

وقد نقد أئمة الحديث ، وصيارفته العارفون بالرجال جرحاً ، وتعديلاً ، وبالعلل ـ المرويات عنه ، وطرقها عنه ، وبينوا الغث من السمين ، والمقبول من المردود . وما حمله عن أهل الكتاب الذين أسلموا من الإسرائيليات ، مما حمله عن غيرهم ، وسنعرض لذلك بالتفصيل فى نقد التفسير بالمأثور ـ إن شاء الله تعالى ـ ، وكانت وفاته بالطائف سنة ثمان وخمسين للهجرة ، وقبره هناك معروف ، فرضى الله عنه وأرضاه .

---

(١) الإتقان جـ ٢ ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٢) مقدمة فى أصول التفسير ص ٤٥ .

أما أبو موسى ، وعبد الله بن الزبير ، فما روى عنهم فى التفسير أقل مما روى عن سابقيهم ، وقد ورد عن جماعة من الصحابة غير هؤلاء اليسير من التفسير ، كأنس وأبى هريرة ، وابن عمر ، وجابر ، وغيرهم وقد ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أخبار كثيرة فى التفسير ولا سيما فيما يتعلق بقصص الأنبياء ، وأخبار الفتن ، وأحوال يوم القيامة قال السيوطى : وما أشبهها بأن تكون مما تحمله عن أهل الكتاب : يعنى من الإسرائيليات [١] .

* * *

« المفسرون من التابعين »

وقد اشتهر بالتفسير من التابعين كثيرون ، من أعيانهم : مجاهد بن جبر ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس . وعطاء بن أبى رباح ، والحسن البصرى ، ومسروق بن الأجدع ، وسعيد بن المسيب وأبى العالية ، والربيع بن أنس ، والضحاك بن مزاحم ، وغيرهم كثيرون .

* * *

مدارس التفسير

وقد كانت هناك مدارس متعددة فى التفسير ، لكل مدرسة خصائصها ، ومميزاتها وأساتذتها ، وطلابها ، فكانت هناك مدرسة الحجاز ، وهى تشمل مدرستين : مدرسة مكة ، وأستاذها الأكبر ابن عباس ، ومدرسة المدينة ، ومن أساتذتها : على بن أبى طالب ، وأبى بن كعب ، ومدرسة العراق ، وأستاذها الأكبر : ابن مسعود ، ومدرسة الشام ، ومن أساتذتها من الصحابة : أبو الدرداء الأنصارى الخزرجى ، وتميم الدارى راهب عصره ، وعابد أهل فلسطين ، ومدرسة مصر وأستاذها الأكبر : عبد الله بن عمرو ابن العاص ، ومدرسة اليمن وأستاذاها الأكبران : معاذ بن جبل ، وأبو موسى الأشعرى ، إلى غير ذلك من المدارس التى انتشرت فى العالم الإسلامى .

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ١٨٩ .

وكان آصل هذه المدارس ، وأعلمها بالتفسير : مدرسة مكة ، لأن أستاذها وشيخها : ابن عباس حبر القرآن وترجمانه ، قال الإمام ابن تيمية : « أعلم الناس بالتفسير أهل مكة ، لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاوس ، وأبي الشعثاء ، وسعيد بن جبير وأمثالهم ، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود ، ومن ذلك : ما تميزوا به على غيرهم ، وعلماء أهل المدينة فى التفسير مثل : زيد بن أسلم : الذى أخذ عنه مالك التفسير ، وأخذه عنه أيضاً ابنه عبدالرحمن ، وعبدالله بن وهب »[1] .

وسأقتصر على ذكر المشاهير من مدارس مكة ، والمدينة ، والعراق ، والشام ، ومصر ، واليمن مع التعريف بهم .

* * *

(أ) مدرسة مكة

١ ـ مجاهد بن جبر المكى :

مولى السائب بن أبى السائب ، ولد سنة إحدى وعشرين ، وهو من المبرزين من تلاميذ ابن عباس ، وأكثرهم ملازمة له ، قال الفضل بن ميمون : سمعت مجاهدا يقول : عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين عرضة ، وعنه أيضاً قال : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات[2] ، أقف عند كل آية منه ، وأسأله عنها فيم نزلت (وكيف كانت) وروى ابن جرير بسنده ، عن ابن أبى مليكة ، قال : « رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه ، فيقول ابن عباس : اكتب ، حتى سأله عن التفسير كله » .

ولذا قال الإمام سفيان الثورى : « إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك » ، وقال ابن تيمية : « ولذا يعتمد على تفسيره الشافعى ، والبخارى وغيرهما من أهل العلم »[3] .

---

(١) مقدمة فى أصول التفسير ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) ولا منافاة بين الروايتين لأن الأولى عرض حفظ ، والثانية عرض مع العلم بالتفسير .

(٣) مقدمة فى أصول التفسير ص ٧ .

وقال السيوطى فى الإتقان : « وغالب ما أورده الفريابى فى تفسيره عنه ، وما أورده فيه عن ابن عباس أو غيره قليل جدا » ، وكانت وفاته بمكة وهو ساجد ، سنة اثنتين ومائة .

٢ ـ سعيد بن جبير[١] :

مولى بنى والبة ، من بنى أسد بن خزيمة ، أخذ العلم عن ابن عباس وابن عمر ، وعبدالله بن مغفل المزنى ، وغيرهم ، وكان من تلاميذ ابن عباس ، المتخرجين فى مدرسته ، وكان فى أول أمره كاتبا لعبدالله بن عتبة بن مسعود ، ثم لأبى بردة الأشعرى ، ثم تفرغ للعلم حتى صار إماماً علَماً .

قال سفيان الثورى : « خذوا التفسير عن أربعة : سعيد بن جبير ، ومجاهد بن جبر ، وعكرمة ، والضحاك » وقال قتادة : وكان أعلم الناس أربعة ، كان عطاء بن أبى رباح أعلمهم بالمناسك ، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير ، وكان عكرمة أعلمهم بالسير ، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام » ، ولما خرج عبدالرحمن بن الأشعث على عبدالملك بن مروان ، انضم إليه سعيد بن جبير ، فلما قتل عبدالرحمن ، وانهزم أصحابه فر إلى مكة ، فقبض عليه واليها خالد بن عبدالله القسرى ، وأرسله إلى الحجاج فقتله ، وكان ذلك بواسط سنة خمس وتسعين ، وقد استحق الحجاج بفعلته الآثمة المنكرة غضب الله ، والناس أجمعين ، قال الإمام أحمد : « قتل الحجاج سعيد بن جبير ، وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه » فرضى الله عنه وأرضاه .

٣ ـ عطاء بن أبى رباح :

أصله يمنى من الجند[٢] التى قد نزلها سيدنا معاذ بن جبل مبعوثاً من النبى ـ ﷺ ـ . ثم تحول إلى مكة ، وأقام بها ، وبلغ مرتبة الإمامة والفقه ، وانتهت إليه الفتوى بمكة . قال فيه ابن عباس لأهل مكة : « تجتمعون على وعندكم عطاء » ، قد سمعت آنفا مقالة

---

(١) بضم الجيم وفتح الباء الموحدة ، وسكون الياء المثناة .
(٢) الجند : بفتحتين ، بلد باليمن .

قتادة فيه ، وقال فيه إمام الفقهاء أبو حنيفة النعمان : « ما رأيت أفضل من عطاء بن أبي رباح » ، وهو من أعلام المدرسة المكية فى التفسيروكانت وفاته سنة أربع عشرة ومائة .

٤ ـ عكرمة مولى ابن عباس :

هو أبو عبد الله : عكرمة بن البربرى ، أحد الأئمة الأعلام ، وقد أخذه ابن عباس بالتربية والتثقيف من صغره ، وربما كان يقسو عليه فى هذا ، قال عكرمة : «كان ابن عباس يجعل فى رجلّى الكبل[١] ، ويعلمنى القرآن والسنن » ، وكان يقول : «كل شيء أحدثكم فى القرآن فهو عن ابن عباس » ، وقال أيضاً : « لقد فسرت ما بين اللوحين » : يعنى ما بين جلدتى المصحف ، وقد اختلف العلماء فيه ما بين معدل له ، ومجرح ، والأكثرون على توثيقه وتعديله وبحسبه توثيقاً ؛ رواية إمام الأئمة البخارى عنه فى صحيحه[٢] ، ومن أراد زيادة اليقين فى هذا ، فليرجع إلى ما كتبه الإمام الحافظ ابن حجر فى مقدمة الفتح[٣] ، وقد شهد له بعض كبار الأئمة .

قال الشعبى : « ما بقى أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة » : وكانت وفاته سنة خمس ومائة .

* * *

(ب) مدرسة المدينة

كانت المدينة دار الإسلام ، وقطب رحاه ، فى حياة النبى ـ ﷺ ـ بعد الهجرة ، ثم صارت بعد وفاة النبى ، مركز الخلافة الإسلامية الرشيدة ، إلى ما يقرب من سنة أربعين من الهجرة ، وبعد أن انتقلت الإمارة إلى بنى أمية ، ونقلوا عاصمة ملكهم إلى دمشق لم تزل للمدينة مكانتها ، وبقيت مركزاً من مراكز العلم الأصيلة ، فقد بقى بها جمهور الصحابة ، الذين عنهم أخذ التابعون ، وأستاذ هذه المدرسة الأكبر هو أبى بن كعب ، ومن أشهر علماء هذه المدرسة فى التفسير :

---

(١) الكبل : القيد .

(٢) وأما مسلم فخرج له حديثا واحداً فى الحج ، مقروناً بسعيد بن جبير ، وإنما تركه مسلم لكلام مالك فيه ، مع أن مالكاً روى له فى الموطأ فى الحج ، وصرح باسمه ، ومال إلى روايته عن ابن عباس وترك عطاء فى تلك المسألة مع كونه أجل التابعين .

(٣) مقدمة فتح البارى جـ ١ من ص ١٤٨ ـ ١٥٢ .

١ ـ زيد بن أسلم :

كان أبوه مولى سيدنا عمر بن الخطاب ، أخذ العلم عن أبيه ، وعن عبد الله بن عمر ، وعائشة وغيرهم ، وقد أخذ عنه العلم والتفسير ابنه عبد الرحمن بن زيد أسلم ، والإمام مالك بن أنس ، إمام دار الهجرة ، توفى سنة ست وثلاثين ومائة .

٢ ـ ابو العالية :

أبو العالية اسمه : رفيع [١] بن مهران الرياحى ، أدرك الجاهلية ، وأسلم بعد وفاة النبي بسنتين ، روى عن على ، وأبي بن كعب ، وابن عباس ، وابن عمر ، وغيرهم ، وروى عنه بديل بن ميسرة ، وسعيد بن أبي عروبة ، وغيرهما ، وثقه ابن معين ، وأبو زرعة ، وأبو حاتم ، وهو من كبار التابعين ، وروى عنه أنه قال : « قرأت القرآن على عهد عمر ثلاث مرات ، وقال فيه ابن أبي داود : ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة من أبي العالية » .

وقد روى عن أبي بن كعب نسخة كبيرة فى التفسير ، ورواها عنه الربيع بن أنس ، وعنه أبو جعفر الرازى ، وهى صحيحة ، كما قدمنا فى ترجمة أبيّ ، وتوفى سنة تسعين .

٣ ـ محمد بن كعب (القرظى) :

هو : أبو حمزة ، أو أبو عبد الله : محمد بن كعب القرظى المدنى روى عن على ، وابن مسعود ، وابن عباس وغيرهم ، وروى عن أبي بن كعب بالواسطة ، قال فيه ابن سعد : كان ثقة ، عالماً ، كثير الحديث ، ورعاً ، وهو من رجال الكتب الستة ، وقال فيه ابن عون : ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظى ، وكانت وفاته سنة ثمانى عشرة ومائة ، وهو ابن ثمان وسبعين ، سنة ، وقيل غير ذلك .

(جـ) المفسرون من مدرسة العراق

ومن المدارس التى أصبحت لها قيمتها العلمية : مدرسة العراق وكان تلاميذ هذه

---

(١) قال الحافظ فى التقريب : رفيع ـ بالتصغير ـ ابن مهران الرياحى ، بكسر الراء ، وبالتحتانية ، ثقة ، كثير الإرسال ، من الثانية ، مات سنة تسعين ، وقيل : ثلاث وتسعين ، وقيل : بعد ذلك ، روى له الجماعة .

(*) وهناك أبو العالية آخر : البرَّاء ـ بفتح الباء الموحدة وتشديد الراء ـ البصرى اسمه : زياد بن فيروز ، وقيل : غير ذلك ، قال العجلى : تابعى ثقة ، وكانت وفاته فى شوال سنة تسعين للهجرة / خ . م . س .

المدرسة منهم من كان ببغداد ، ومنهم من كان بالكوفة ، ومنهم من كان بالبصرة ، وأستاذ هذه المدرسة الأكبر هو : عبدالله بن مسعود ، ولما ولّى سيدنا عمر عمار بن ياسر على الكوفة سير معه عبدالله بن مسعود معلماً ، ووزيراً ، وقد شرب من علمه أهل العراق علـلاً بعد نهل[1] ، وأصبحوا متأثرين بطريقته فى الاجتهاد فى الفقه ، والأحكام ، والتفسير ، وهى حرية الرأى فى الاجتهاد ، وحسن التصرف فى النصوص ، وعدم الجمود عليها .

وقد روى عن مسروق أنه قال : وجدت علم أصحاب النبى - ﷺ - انتهى إلى ستة : عمر ، وعلى وأُبَىّ ، وزيد ، وأبى الدرداء ، وعبدالله بن مسعود ، ثم انتهى علم هؤلاء الستة إلى اثنين : على : وعبدالله : يعنى ابن مسعود ، وفى رواية أخرى : ذكر أبا موسى بدل أبى الدرداء[2] ولكن الحروب لم تدع لأبى الحسـن على متسعاً للرواية والزعامة العلمية بعد الخلافة ، فمن ثم : صارت الزعامة لابن مسعود ومن أشهر طلاب هذه المدرسة :

١ - مسروق بن الأجدع :

هو : أبوعائشة : مسروق بن الأجدع ، بن مالك بن أميه ، الهمدانى الكوفى ، العابد ، العالم ، العامل ، روى عن الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وأبى بن كعب وغيرهم .

وكان أعلم أصحاب ابن مسعود ، وأكثرهم أخذاً منه ، قال على ابن المدينى : ما أقدم على مسروق أحداً من أصحاب عبدالله : يعنى ابن مسعود : وقال الشعبى : ما رأيت أطلب للعلم منه ، وقد قال فيه ابن معين : ثقة لا يسأل عن مثله ، وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة فى كتبهم وقد ورد عنه فى التفسير روايات كثيرة ، استفادها من شيخه ابن مسعود فقد روى عنه أنه قال : كان عبدالله - يعنى ابن مسعود - يقرأ علينا السورة ، ثم يحدثنا فيها ، ويفسرها عامة النهار ، وتوفى سنة ثلاث وستين من الهجرة ، على الأصح .

---

(١) العلل : الشربة الثانية ، والنهل : الشربة الأولى (٢) علوم الحديث لابن الصلاح ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

٢ ـ قتادة بن دعامة :

هو : أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسى الأكمه[١] ، عربى الأصل كان يسكن البصرة ، روى عن بعض الصحابة والتابعين ، وكان واسع الإطلاع فى الشعر العربى ، بصيراً بأيام العرب عالماً بأنسابهم ، متضلعاً فى اللغة العربية ، وقد اكتسب شهرة فى التفسير ، قال فيه سعيد بن المسيب : « ما رأيت عراقياً أحفظ من قتادة » ، وقد احتج به أصحاب الكتب الستة . إلا أنه كان يخوض فى القدر وقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **إذا ذكر القدر فأمسكوا** » فمن ثم تحاشى بعض العلماء الأخذ عنه ، وكانت وفاته سنة سبع عشرة ومائة .

٣ ـ الحسن البصرى :

هو : أبو سعيد الحسن بن يسار البصرى ، مولى الأنصار ، وأُمه خيرة مولاة السيدة أُم سلمة ، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ، ونشأ بوادى القرى ، وكان فصيحاً ، ورعاً ، زاهداً ، واعظاً لا يجارى فى وعظه ، روى عن بعض الصحابة والتابعين ، وروى عنه الكثيرون من أتباع التابعين ، قال فيه ابن سعد : كان الحسن جامعاً ، عالماً ، رفيعاً ، فقيهاً ، ثقة ، مأموناً ، عابداً ، ناسكاً ، كثير العلم ، فصيحاً ، جميلاً ، وسيماً ، وقيل : إنه اكتسب هذه الفصاحة لأنه رضع من السيدة . أُم سلمة مولاة أُمه[٢] ، وقيل : إنه أفضل التابعين ، وقد رويت عنه فى التفسير روايات كثيرة ، وقد تعرض لها العلماء بالنقد ، وبينوا الصحيح من الضعيف ، وكان وفاته سنة ~~عشر~~ ومائة

٤ ـ مرة الهمدانى :

هو : أبو إسماعيل : مره بن شراحيل الكوفى العابد ، المعروف بمرة الطيب ، ومرة الخير ، لكثرة عبادته ، وشدة ورعه ، وتقواه ، روى عن أبى بكر ، وعمر ، وعلى ، وابن مسعود ، وغيرهم ، وروى عنه الشعبى وغيره ، وثقه ابن معين وغيره من أئمة الجرح

---

(١) الأكمه : الذى ولد أعمى

(٢) لم تكن أم المؤمنين السيدة أم سلمة ذات ولد رضيع حين ولد الحسن فلعل ثديها درَّ له باللبن حينئذ .

والتعديل ، وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة ، وكان من المعروفين بتفسير القرآن ، توفى سنة ست وسبعين من الهجرة .

٥ ـ الضحاك بن مزاحم :

هو : الضحاك بن مزاحم الهلالى ، مولاهم الخراسانى ، روى عن بعض الصحابة ، وأخذ عنهم العلم ، وثقه أحمد بن حنبل ، وابن معين ، وأبوزرعة ، وكان له شهرة بالتفسير ، توفى سنة خمس ومائة .

* * *

(د) مدرسة الشام

وقد اشتهر منهم :

١ ـ عبدالرحمن بن غنم الأشعرى :

وقد بعثه الفاروق : عمر بن الخطاب إلى الشام ، كى يفقه الناس ويعلمهم القرآن والسنة ، وكان قد لقى معاذ بن جبل ، وروى عنه وكان كبير القدر . صادقاً فاضلاً . توفى سنة ٧٨ هـ .

٢ ـ عمر بن عبدالعزيز بن مروان :

وهو : الخليفة الثامن من بنى أُمية ، ولد بالمدينة ، ونشأ بمصر . حدث عن أنس بن مالك ، وعن كثير من التابعين ، وكان إماماً فقيهاً ، مجتهداً ، عارفاً بالقرآن ، والسنن ، كبير الشأن فى العلم زاهداً ، قانتاً لله ، وكان يقرن بعمر بن الخطاب فى عدله ، وبالحسن البصرى فى زهده ، وبالزهرى فى علمه ، قال مجاهد : « أتيناه لنعلمه ، فما برحنا حتى تعلمنا منه » ، وله الفضل الأكبر فى الأمر بجمع السنن والأحاديث . وكانت وفاته سنة واحد ومائة هجرية .

٣ ـ رجاء بن حيوة الكندى :

شيخ أهل الشام ، وعالمهم ، روى عن معاوية ، وعبدالله بن عمر ، وجابر وغيرهم ،

قال ابن سعد : كان رجاء فاضلاً ، ثقة كثير العلم ، توفى سنة ثلاث عشرة ومائة .

٤ ـ كعب الأحبار :

وستأتى الكتابة عنه بتوسع ـ إن شاء الله ـ ، وبيان ما له ، وما عليه .

* * *

(هـ) مدرسة مصر

وقد اشتهر بالعلم ، والرواية ، والتفسير من هذه المدرسة :

١ ـ يزيد بن أبى حبيب الأزدى :

كان عالم مصر فى عصره ، قال فيه الليث بن سعد : « يزيد عالمنا وسيدنا » ، وهو أحد ثلاثة عهد إليهم عمر بن عبد العزيز بالفتيا فى مصر[1] ، وهو بربرى الأصل . أبوه من دنقلة ، ونشأ بمصر ، توفى سنة ثمان وعشرين ومائة .

٢ ـ أبو الخير : مرثد بن عبد الله اليزنى :

روى عن أبى أيوب الأنصارى ، وأبى بصرة الغفارى ، وعقبة بن عامر الجهنى . وتوفى سنة تسعين .

* * *

(و) مدرسة اليمن

وقد اشتهر من مدرسة اليمن :

١ ـ طاووس بن كيسان اليمانى :

سمع زيد بن ثابت ، وعائشة ، وأبا هريرة وغيرهم ، قال فيه عمرو بن دينار : « ما رأيت أحداً مثل طاووس » ، وقال فيه الذهبى « كان طاووس شيخ أهل اليمن » ،

---

(١) ضحى الإسلام جـ ٢ ص ٨٧ .

وكان كثير الحج ، فاتفق موته بمكة سنة ست ومائة ، وله آراء كثيرة فى تفسير القرآن الكريم .

٢ ـ وهب بن منبه الصنعانى :

عالم أهل اليمن ، روى عن ابن عمر ، وابن عباس وجابر ، وغيرهم ، وكان ثقة ، توفى سنة أربع عشرة ومائة ، وقد روى عنه فى التفسير روايات كثيرة جداً ، مما فى كتب أهل الكتاب ، وسيأتى الكلام عنه بما له ، وما عليه .

* * *

طبقة أخرى من المفسرين بالمأثور :

ثم بعد هذه الطبقة أُلفت تفاسير ، تجمع أقوال الصحابة والتابعين كتفسير سفيان الثورى المتوفى سنة ١٦١ هـ ، وسفيان بن عيينة ، المتوفى سنة ١٩٨ هـ ، ووكيع بن الجراح ، المتوفى سنة ١٩٦ هـ ، وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هـ ، ويزيد بن هرون ، المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، وعبدالرزاق الصنعانى ، المتوفى سنة ٢١١ هـ ، وآدم بن أبى إياس ، وإسحاق بن راهويه ، المتوفى سنة ٢٣٨ هـ ، وروح بن عبادة ، وعبد بن حميد ، المتوفى سنة ٢٤٩ هـ ، وسنيد[١] م (٢٢٠) هـ وأبى بكر بن أبى شيبة م (٢٣٥) هـ وآخرين غيرهم .

والظاهر أن هذه التفاسير كانت مستقلة عن الحديث ، وأن هذا العصر كانت فيه الطريقتان : طريقة التأليف فى التفسير ، على أنه جزء من الحديث ، وطريقة التأليف فى التفسير على سبيل الاستقلال .

طبقات أخرى بعد هذه الطبقة

ثم جاء بعد هؤلاء طبقات أخرى ، ألفت فى التفسير وذلك مثل الإمام أحمد بن حنبل (م ٢٤١) ، والبخارى (م ٢٥٦ هـ) ، وبقى بن مخلد القرطبى (م ٢٧٩ هـ) وابن ماجه (م ٢٧٣ هـ) ، ثم محمد بن جرير الطبرى ، (م ٣١٠ هـ) ، وابن أبى

---

(١) بضم السين المهملة ، وفتح النون ، وسكون الياء آخره دال مهملة ـ لقب الحسين بن داود المصيصى ، وله تفسير مسند ، المتوفى سنة عشرين ومائتين .

حاتم ، (م ٣٢٧ هـ) ، ثم الحاكم ، (٤٠٥ هـ) ، وابن مردويه ، (م ٤٠١ هـ) ، وأبو الشيخ ابن حيان فى آخرين غيرهم وتفاسير هؤلاء كانت مسندة إلى الصحابة والتابعين ، وأتباعهم ، وليس فيها غير ذلك ، إلا ما كان من تفسير ابن جرير ، فإنه يتعرض للاستشهاد بالشعر على المعانى القرآنية ، وتوجيه الأقوال ، وترجيح بعضها على بعض ، والإعراب ، والاستنباط فهو يفوقها بذلك .

والظاهر : أن القرن الثالث الهجرى ، لم ينفصل فيه التفسير عن الحديث كل الانفصال ، وأنه كانت فيه الطريقتان . طريقة التأليف فى التفسير كجزء من الحديث ، وطريقة التأليف فيه على سبيل الاستقلال . وليس أدل على ذلك ، من أن الإمام البخارى ذكر فى ضمن كتابه : « الصحيح » كتاب التفسير نحو عشر الصحيح ، وألف فى التفسير على سبيل الاستقلال كتابه : « التفسير الكبير »[1] كما ألف فيه ابن جرير الطبرى على سبيل الاستقلال ، ثم جاء بعده ، ابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم ، فألفوا فى التفسير على سبيل الاستقلال .

* * *

حذف الأسانيد وغلبة الدخيل

ثم ألف فى التفسير بعد هذا خلائق كثيرون ، فاختصروا الأسانيد ونقلوا الأقوال من غير أن يعزوها إلى قائلها . فمن ثم دخل الدخيل أكثر من ذى قبل ، والتبس الصحيح بالعليل ، وصار كل من يسنح له قول يورده ، ومن يخطر بباله شىء يعتمده ، ثم ينقل ذلك من يجىء بعده ظانا أن له أصلاً غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ، ومن يرجع إليهم فى التفسير ، وولع المفسرون بالإكثار من الأقوال حتى رأينا بعضهم ذكر فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ** ﴾ عشرة أقوال ، مع أن تفسيرها باليهود ، والنصارى هو الوارد عن النبى - ﷺ - وجميع الصحابة ، والتابعين وأتباعهم ، حتى قال ابن أبى حاتم : لا أعلم فى ذلك اختلافاً بين المفسرين[2] .

---

(١) أعلام المحدثين للمؤلف ص ١١٦ .

(٢) الإتقان فى علوم القرآن جـ ص ١٩٠ . مقدمة فى أصول التفسير ص ٣٣ . ٣٤ .

وقد كان حذف الأسانيد مما ساعد على شيوع القصص الإسرائيلى فى كتب التفسير، وعلى رواج الروايات الواهية، والمختلفةالمكذوبة لأن ذكر الأسانيد كثيرًا ما يدل على موضع العلة، ومكمن الداء، ومن هو سبب البلاء.

* * *

تَلَوُّن كُتُب التفاسير بثقافة مُؤَلِّفيها

ثم أُلفت بعد ذلك كتب يغلب عليها التأويل، والتفسير الاجتهادى لعلماء برعوا فى بعض العلوم، وبرزوا فيها، ومنهم: من هم من أهل السنة والجماعة، ومنهم: من هم من أهل الزيغ والابتداع، فصار كل واحد منهم يميل بالتفسير إلى إبراز ما برع فيه، فالنحوى ليس له هم إلا الإعراب وذكر الأوجه المحتملة فى الآية، ونقل قواعد النحو ومسائله وخلافياته كأن كتب التفسير مجال للتمرين النحوى، واستذكار القواعد، وذلك: كالزجاج، والواحدى فى البسيط، وأبى حيان فى البحر المحيط.

والإخبارى ليس له هم إلا ذكر القصص. واستيفاؤها، عمن مضى من الأنبياء، والأمم، والملوك، وذكر ما يتعلق بالفتن والملاحم وأحوال الآخرة، ولا عليه بعد هذا إن كانت صحيحة، أو باطلة. لأنه لم يتحر الصدق، ولم يبحث عن الرواة، وكونهم ثقات، أو غير ثقات، وذلك كما فعل الثعلبى فى تفسيره، فقد حشاه بالكثير من القصص الإسرائيلى، والروايات المكذوبة الموضوعة.

والفقيه: يكاد يسرد فيه مسائل الفقه جميعها، وكثير ما يستطرد إلى اقامة الأدلة، وبيان منشأ الخلاف إلى غير ذلك مما لا تعلق له بالآية والأدهى من ذلك: أنه يفيض فى أدلة مذهبه، والميل بالآية إليه، ومحاولة إضعاف مذهب غيره، وذلك: كما فعل الإمام القرطبى فى تفسيره، فإن ما فيه من التفسير أقل مما فيه من الأحكام الفقهية، ولا سيما على مذهب إمام دار الهجرة مالك ـ رحمه الله تعالى ـ.

وصاحب العلوم العقلية قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء، والفلاسفة وشبههم، والرد عليهم، ويخرج من شىء إلى شىء، ويستطرد، ثم يستطرد حتى ينسى الإنسان أنه فى كتاب تفسير، ويخيل إليه أنه يقرأ كتاباً من كتب الكلام، والملل والنحل: كما صنع الإمام

الجليل : فخرالدين الرازى ، ولذلك : قال أبوحيان فى : « البحر المحيط » جمع الإمام الرازى فى تفسيره أشياء كثيرة طويلة . لا حاجة بها فى علم التفسير ، ولذلك قال بعض العلماء[1] : « فيه كل شيء إلا التفسير » .

وفى الحق : أنا لا أوافق هذا القائل ، فإن فيه تفسيراً كثيراً . ولو أنه ـ رحمه الله ـ اقتصر على التفسير واقتصد فى مناقشة آراء الفلاسفة والمتكلمين ، وسرد أقوالهم ، لكان أولى وأجمل .

ومن العلماء المتأخرين المحققين من أكثر من الاستطراد ، وذكر أدلة الموافق والمخالف فى كل مسألة من المسائل ، وقد يسر له هذا تأخره الزمنى ، وسعة اطلاعه على أقوال من سبقوه ، ومؤلفاتهم ، حتى إنه ليذكر فى بعض الموضوعات ، والمسائل ، ما يصل إلى حجم رسالة صغيرة ، فمن ثم : جاء كتابه شاملاً ، أو خلاصة لكلام كل من سبقوه فى التفسير وغيره أو إن شئت فقل : معلمة للتفسير وغيره ، وذلك كما صنع الإمام الجليل : الآلوسى فى تفسيره العظيم[2] .

* * *

تفسيرات المبتدعة والباطنية والملحدة

وأصحاب المذاهب المبتدعة : كالشيعة ، والمعتزلة ، وأضرابهم . قد نحوا بالتفسير ناحية مذاهبهم ، وفى سبيل ذلك قد حرفوا بعض الآيات وخرجوا بها عن معانيها المرادة ، وعن قواعد اللغة ، وأصول الشريعة وصار الواحد منهم كلما لاحت له شاردة من بعيد اقتنصها ، أو وجد موضعاً له فيه أدنى مجال لإظهار بدعته وترجيح مذهبه سارع إليه ، ومن هذه التفاسير : تفاسير جليلة خدمت القرآن خدمة جليلة ، وذلك كتفسير الكشاف للإمام الزمخشرى ، ولولا ما فيه من آراء اعتزالية ، لكان أجل تفسير فى بابه .

---

(١) قيل هو ابن عطية .
(٢) الإتقان جـ ٢ ص ١٩٠

قال الإمام البلقيني : استخرجت من « الكشاف » اعتزالاً بالمناقيش : من قوله تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ ، وأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَد فَازَ ﴾ ، قال الزمخشرى : « وأى فوز أعظم من دخول الجنة » ؟ أشار به إلى عدم رؤية الله فى الآخرة ، الذى هو مذهبهم[1] .

ومنها : تفاسير باطلة ، ضالة مضلة ، كتفاسير الباطنية[2] ، والروافض ، وبعض المتصوفة ، والملحدين[3] . فقد ألحدوا فى آيات الله ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، وخالفوا القواعد اللغوية والشرعية وافتروا على الله ما لم يرده من كتابه ﴿ إِنمَا يَفْتَرِى الكَذِبَ الذِينَ لَا يؤمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ .

ومن تفسيرات الباطنية : قولهم فى قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ أن الإمام عليًّا ورث النبى فى علمه ، ويقولون : الكعبة هى : النبى ، والباب هو : على ، إلى غير ذلك من أباطيلهم .

ومن تفسيرات الباطنية : قولهم فى قوله تعالى : ﴿ مَرجَ البَحْرَينِ يلتَقِيَانِ ﴾ : أن المراد بهما : على ، وفاطمة ، وقوله : ﴿ يَخْرجِ مِنْهُمَا اللُّؤلؤُ وَالْمَرْجَان ﴾ : أن المراد : الحسن والحسين ، وقولهم فى قوله : ﴿ إِن اللهَ يَأْمركُمْ أَنْ تَذْبَحوا بَقَرَةً ﴾ هى : عائشة ، إلى غير ذلك : من تحريفاتهم للنصوص القرآنية[4] . ومن تفسيرات الملحدة : قولهم فى قوله تعالى حكاية عن قول الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿ وَلَكِن لِيَطْمَئِن قَلْبِى ﴾ : أنه كان له صديق وصفه بأنه قلبه ، وفى قوله تعالى : ﴿ رَبنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ : إنه الحب . والعشق ، إلى غير ذلك من تخريفاتهم وتحريفاتهم للقرآن الكريم .

---

(١) الباطنية : فرقة من الفرق الضالة ، قالوا : للقرآن ظاهر وباطن ، والمراد منه باطنه دون ظاهره ، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللب إلى القشر .
(٢) فرقة مغالية من الشيعة رفضوا إمامة الشيخين : أبى بكر وعمر وكفروهما .
(٣) قوم مالوا عن الحق إلى الباطل ويطعنون فى دين الإسلام بنشر الآراء الضالة ، والأفكار الزائفة . وهم أضر الطوائف لأنهم يتسترون بالإسلام فيخدع الناس بآرائهم ، ومنهم : الباطنية وأمثالهم من منحرف المتصوفة .
(٤) مقدمة فى أصول التفسير ص ٣٨ .

ومن تحريفات بعض المتصوفة فى كلام الله : قول بعضهم فى قوله تعالى : ﴿ **مَنْ ذَا الذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ** ﴾ : أن معناه « من ذل » أى من الذل ، « ذى » : إشارة إلى النفس ، « يشف » : من الشفا جواب من ، و « ع » أمر من الوعى .

وقد سئل الإمام سراج الدين البلقينى : عمن قال هذا : فأفتى بأنه ملحد ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **إِنِ الَّذِين يُلْحِدُون فى آيَاتِنَا لَا يخفَوْن عَلَيْنَا** ﴾ ، قال ابن عباس : هو أن يوضع الكلام على غير موضعه[1] وبحسبنا هذا القدر فى هذا المقام .

وهى تخريفات ، وتحريفات للقرآن الذى أنزله الله بلسان عربى مبين ، وصرف له عن ظاهره المراد لغة وشرعاً ، وهؤلاء أضر على الإسلام من أعدائه ، والعدو المداجى المتستر بالتشيع ، أو التصوف ونحوه شر من العدو ، المكاشف ، المستعلن ، وقد أشار النبى – صلى الله عليه وسلم – إلى هذه الفئات الضالة ، المضلة المحرفة لكتاب الله ، فقال فيما رواه عنه حذيفة : « إن فى أمتى أقواماً يقرأون القرآن ، ينثرونه نثر الدقل[2] ، يتأولون القرآن على غير تأويله » .

وقد حاول هؤلاء أن يؤيدوا آراءهم ومذاهبهم ، فافتروا على النبى – صلى الله عليه وسلم – ، وعلى صحابته الأطهار ، فمن ثم : دخل فى تفاسيرهم من المرويات الباطلة شئٌ كثير .

* * *

– ٢ –

التفسير بغير المأثور

وقد اختلف العلماء فى التفسير بغير المأثور ، فذهب قوم إلى أنه لا يجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شىءٍ من القرآن ، وإن كان عالماً أديباً متسعاً فى معرفة الأدلة ، والفقه والنحو والأخبار ، والآثار ، وليس له أن ينتهى إلا إلى ما روى عن النبى – صلى الله عليه وسلم – ، أو إلى صحابته الآخذين عنه ، ومن أخذ عنهم من التابعين .

وأجاز تفسير القرآن بالرأى والاجتهاد الأكثرون من السلف الصالح والعلماء ، ولكل وجهة ، ولكل أدلة :

---

(١) الإتقان ج ٢ ص ١٨٤ .

(٢) الدقل : ردى التمر .

أدلة القائلين بعدم جواز التفسير بالرأى والاجتهاد :

١ ـ ما روى عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال . « **من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ** » ، رواه أبو داود ، والترمذى ، وقال فيه : هـذا حديث غريب ، والنسائى .

٢ ـ ما روى أيضاً عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « **اتقوا الحديث علىَّ إلا ما علمتم ، فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار** » . رواه الترمذى وأبو داود .

٣ ـ ما روى عن السَّلف الصالح ، من الصحابة فمن بعدهم من التحرج من الكلام فى تفسير القرآن ، فمن ذلك ما رواه ابن أبى مليكة ، قال ، سئل أبوبكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ عن تفسير حرف من القرآن فقال « أى سماءٍ تظلنى ، وأى أرض تقلنى ، وأين أذهب ، وكيف أصنع إذا قلت فى حرف[1] من كتاب الله بغير ما أراد الله وفى رواية « إذا قلت فى كتاب الله بما لا أعلم » .

ومنه : ما ورد عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال : « أنا لا أقول فى القرآن شيئاً » ، وكان سعيد إذا سئل عن الحلال والحرام تكلم ، وإذا سئل عن تفسير آية من القرآن سكت ، كأن لم يسمع شيئاً .

ومنه : ما روى عن الشعبى أنه قال : « ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت : القرآن ، والروح ، والرؤى[2] » ، وما روى عن محمد بن سيرين قال : سألت عبيدة : يعنى السلمانى ـ وهو تابعى جليل ـ ، عن آية من القرآن ، فقال : « ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أنزل القرآن ، فاتق الله وعليك بالسداد »[3] ، وروى عن مسروق : أنه قال : « اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله » . إلى نحو ذلك من النقول[4] .

---

(١) أى كلمة .

(٢) تفسير الأحلام وفى بعض الكتب « والرأى » .

(٣) أى الصواب وهو عدم الخوض فى تفسير القرآن .

(٤) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٣٤ ، تفسير ابن كثير والبغوى جـ ١ ص ١٢ ـ ١٤ .

مناقشة هذه الأدلة :

وقد ناقش المجوزون للتفسير بالرأى والاجتهاد هذه الأدلة فقالوا :

١ ـ أما الحديث الأول : ففى صحته وثبوته نظر ، لأن أحد رواته وهو : سهيل بن أبى حزم القطيعى قد تكلم فيه ، وعلى فرض صحتهما والتسليم بهما ، فقد أجاب عنهما العلماء بما يأتى :

(أ) أن المراد من يقول فى القرآن بمجرد رأيه وهواه ، بأن يجعل الرأى أصلاً والقرآن تبعاً ، وذلك ، بأن يكون له فى المسألة رأى ، وإليه ميل بطبعه وهواه ، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ، ليحتج به على تصحيح غرض ، ولو لم يكن ذلك الرأى والهوى لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى ، ومثل هذا إن صادف الحق والصواب فى الواقع ونفس الأمر فإنما هو اتفاق من غير قصد ، ورمية من غير رام ، وهذا الصنف من الناس قد يكون معه علم ، وذلك : كالذين يحتجون ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته ، كالمعتزلة ، والشيعة ، والخوارج ، وأمثالهم ، وقد يكون مع الجهل ، وذلك : كما يصنع بعض الذين يدعون العلم اليوم ، ويتهجمون على تفسير كتاب الله بالهوى والاستحسان ، فيحرفون الكلم عن مواضعه ، ويخرجون بالقرآن عن منهجه الواضح المستقيم .

(ب) أن المراد بالحديثين من يفسر المتشابه الذى لا يعلمه إلا الله ـ تبارك وتعالى ـ

(جـ) أو الذى يفسر القرآن ، ولم يعرف من العلوم اللغوية والشرعية ما يؤهله لهذا ، فمثل هذا وإن أصاب الصواب فقد أخطأ الطريق الصحيح فى تفسيره[1] .

٢ ـ أما ماذكرتموه عن السلف الصالح ؛ من الصحابة والتابعين : فهو معارض بما يخالفه ، فقد روى عن الصديق ـ رضى الله عنه ـ أنه سئل عن الكلالة فقال : « أقول فيها برأيي ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأً فمنى ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه ، الكلالة : من لا ولد له ، ولا والد » ، فلما ولى الخلافة الفاروق عمر ـ رضى الله عنه ـ قال : « إنى لأستحى أن أخالف أبابكر فى رأى

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوى جـ ١ ص ١٢ .

رآه » ، رواه ابن جرير ، وغيره[1] ، وهذا يدل على أن قوله : « أى سماءٍ تظلنى .. » إنما أراد به ما لم يقم عليه دليل ، وما لا علم له به ، أو تخوفاً من أن لا يصيب مراد الله ، وكذلك : يحمل ما روى عن بعض السلف مما ذكروه على هذا .

قال الإمام الحافظ ابن كثير فى تفسيره : « فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف ، محمولة على تحرجهم من الكلام فى التفسير بما لا علم لهم فيه ، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً : فلا حرج عليه[2] ، ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال فى التفسير ، ولا منافاة ، لأنهم تكلموا فيما علموه ، وسكتوا عما جهلوه ، وهذا هو الواجب على كل أحد فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به ؛ فكذلك يجب القول فيما سئل عنه ، مما يعلمه ، لقوله تعالى : ﴿ **لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ، وَلا تَكْتُمُونَهُ** ﴾[3] ولما جاء فى الحديث الذى جاء من طرق : « **من سئل عن علم فكتمه ، ألجم يوم القيامة بلجام من نار** »[4] رواه الترمذى .

وأيضاً : فقد روى عن كثير من الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ القول فى تفسير القرآن ، وذلك كالسادة الأخيار : على ، وابن مسعود وابن عباس ، وأبى بن كعب ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأنس وأبى هريرة وغيرهم ، فلولا أن تفسير القرآن جائز لمن تأهل له لما فعلوه ، لأنهم كانوا أشد الناس ورعاً ، وتقوى ، ووقوفاً عند حدود الله .

وكذلك : ورد تفسير القرآن عن كثير من خيار التابعين ، كسعيد بن جبير ، ومجاهد ابن جبر ، وعكرمة ، وقتادة ، والحسن البصرى ومسروق ، والشعبى وغيرهم ، مما يدل على أن من امتنع منهم من تفسير القرآن إنما كان زيادة احتياط ، ومبالغة فى التورع .

ولعلهم ـ رضى الله عنهم ـ أرادوا بهذا أن يتريث من يريد تفسير كلام الله ، ثم يتريث قبل أن يتكلم فيه ، ويحجم قبل أن يقدم وأن يكونوا قدوة حسنة لمن سيجىء بعدهم ، وعسى أن يكون فى موقفهم هذا مع جلالتهم وعلمهم بالقرآن مذكر لهؤلاء الذين يتجاورون

---

(١) الإتقان جـ ٢ ص ١٧٩ ، ١٨٣ .
(٢) تفسير ابن كثير والبغوى ج ٢ ص ٣٧٠ ، ٣٧١ .
(٣) آل عمران : ١٨٧ .
(٤) تفسير ابن كثير والبغوى ج ١ ص ١٤ .

طورهم ويتهجمون على تفسير القرآن بغير علم ، ويتطاولون على من يبصرهم بالحق ، والمنهج الرشيد ، بالسفاه والهجر من القول .

* * *

جواز التفسير بالرأى والاجتهاد

وإذا كانت الأدلة التى استند إليها المانعون من التفسير بالاجتهاد لم تنهض أمام البحث والنظر ، فقد تبين للباحث المنصف جواز التفسير بالرأى المتئد البصير ، والاجتهاد الذى توفرت لصاحبه أسبابه ، وهى : العلم بالعلوم التى ذكرناها فى صدر الكتاب ، وأيضاً : لو لم نفسر القرآن بالاجتهاد لفات معنى التدبر والتأمل فى القرآن الذى حثنا الله عليه فى غير آية (١) ، ولفات كثير مما اشتمل عليه الكتاب الكريم من الأحكام والآداب ، وألوان المعارف والعلوم ، التى لا يزال يظهر منها فى كتاب الله كل يوم جديد .

وليس من شك : فى أن الصحيح الثابت ، المروى فى تفسير القرآن عن النبى ـ ﷺ ـ قليل ، بالنسبة إلى ما لم يرو عنه فيه شىء ، وكذلك ما روى عن الصحابة والتابعين لم يستوعب كل آيات الكتاب الكريم هذا إلى ما فيه من الضعيف ، والموضوع ، والإسرائيليات وهو شىء كثير ولا سيما فى الآيات الكونية ، التى يتجدد العلم فيها عصراً بعد عصر ، وظهر بطلان ما فسرت به بطريق اليقين ، فكان لا بد إذاً من فتح باب الاجتهاد فى تفسير القرآن الكريم ، وإلا لاستعجم شىء غير قليل من آيات القرآن الكريم ، وبقيت غير مفهومة المعنى ، ولا معروفاً منها المراد ، وهذا ينافى كونه كتاب الهداية الكبرى ، والمرشد الأعظم للبشرية فى عصورها المتعاقبة والمعجزة العظمى ، والآية الباقية لخاتم الأنبياء ، والمرسلين ، على وجه الدهر .

* * *

التفسير بالرأى المذموم ، والممدوح

والخلاصة : أن تفسير القرآن بالرأى والاجتهاد نوعان :

---

(١) قد ذكرت بعضها فى وجوب التفسير ، وكونه فرض كفاية فى صدر الكتاب .

« الأول » : التفسير المذموم المردود : وهو : التفسير من غير تأهل له بالعلوم التى لا بد منها للمفسر ، أو التفسير بالهوى والاستحسان ، أو التفسير المقصود به تأييد المذهب الفاسد ، والرأى الباطل ، أو تفسير المتشابه الذى لا يعلمه إلا الله ، وهذا اللون من التفسير كثيراً ما يشتمل على المرويات الواهية ، والباطلة .

« الثانى » : التفسير الممدوح المقبول : وهو : التفسير المبنى على المعرفة الكافية بالعلوم اللغوية ، والقواعد الشرعية ، والأصولية : أصول الدين ، وأصول الفقه ، وعلم السنن والأحاديث ، ولا يعارض نقلاً صحيحاً ، ولا عقلاً سليماً ، ولا علماً يقينياً ثابتاً مستقراً ، مع بذل غاية الوسع فى البحث والاجتهاد والمبالغة فى تحرى الحق والصواب ، وتجريد النفس من الهوى ، والاستحسان بغير دليل ، ومع مراقبة الله غاية المراقبة فى كل ما يقول .

* * *

المنهج القويم فى تفسير القرآن الكريم

على من يفسر كتاب الله ـ تعالى ـ أن يبحث عن تفسيره فى القرآن فإن لم يجد فليطلبه فيما صح وثبت فى السنة ، فإن لم يجد فليطلبه فى أقوال الصحابة ، وليتحاش الضعيف ، والموضوع ، والإسرائيليات ، فإن لم يجد فى أقوال الصحابة ، فليطلبه فى أقوال التابعين ، وإن اتفقوا على شىءٍ كان ذلك أمارة ـ غالباً ـ على تلقيه عن الصحابة ، وإن اختلفوا : تخير من أقوالهم ، ورجح ما يشهد له الدليل ، فإن لم يجد فى أقوالهم ما يصلح أن يكون تفسيراً للآية لكونه ضعيفاً ، أو موضوعاً أو من الإسرائيليات التى حملوها عن أهل الكتاب الذين أسلموا : فليجتهد رأيه ولا يألو ـ أى لا يقصر ـ ، إذا استكمل أدوات هذا الاجتهاد ، وعليه أن يراعى القواعد الآتية :

١ ـ أن يتحرى فى التفسير مطابقة المفسِّر للمفسَّر ، وأن يتحرز فى ذلك عن نقص لما يحتاج إليه فى إيضاح المعنى ، أو زيادة لا تليق بالغرض : أى لا يوجز فيخل ، ولا يطيل ويستطرد فيمل .

٢ ـ أن يعنى بأسباب النزول ، فإن أسباب النزول كثيراً ما تعين على فهم المراد من الآية [١] .

٣ ـ أن يعنى بذكر المناسبات بين الآيات ، لأن فى ذلك الإفصاح عن خصيصة من خصائص القرآن الكريم وهى : الإعجاز ، وللمناسبات فى الكشف عن أسرار الإعجاز ضلع كبير.

وقد اختلفت مناهج المفسرين فى هذين الأخيرين ، فمنهم : من يذكر المناسبة ، لأنها المصححة لنظم الكلام ، وهى سابقة عليه ، وبعضهم : يذكر السبب أولاً ؛ لأن السبب مقدم على المسبب .

والتحقيق : التفصيل بين أن يكونِ وجه المناسبة متوقفاً على سبب النزول كآية : ﴿ **إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ ، إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ، إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيرا** ﴾ [٢] ، فهذا ينبغى فيه تقديم السبب على المناسبة ، لأنه حينئذ من باب تقديم الوسائل على المقاصد ، وإن لم يتوقف وجه المناسبة على ذلك : فالأولى تقديم المناسبة على سبب النزول لبيان تآلف نظم القرآن ، وتناسقه ، وأخذ آياته بعضها بحجز بعض .

٤ ـ أن يجرد نفسه من الميل إلى مذهب بعينه ، حتى لا يحمله ذلك على تفسير القرآن على حسب رأيه ومذهبه ، ولا يزيغ بالقرآن عن منهجه الواضح ، وطريقه المستقيم .

٥ ـ مراعاة المعنى الحقيقى والمجازى ، حتى لا يصرف الكلام عن حقيقته إلى مجازه إلا بصارف ، وليقدم الحقيقة الشرعية على اللغوية وكذلك الحقيقة العرفية ، وليراع حمل كلام الله على معان جديدة أولى من حمله على التأكيد ، وليراع الفروق الدقيقة بين الألفاظ .

---

(١) فإنه بمعرفة سبب النزول يتبين لنا ارتباط الآية بقوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا** ﴾ الآيات ، فقد فَضَّل اليهود دين الوثنية على دين التوحيد ، فكان ذلك منهم خيانة للأمانة التى أخذها الله عليهم أن يقولوا الحق ولا يجحدوا ، واستحقوا بهذا التوبيخ ، والوعيد ، فناسب بعد هذا أن يذكر بالأمانة العامة بقوله : ﴿ **إن الله يأمركم** ﴾ .

(٢) النساء : ٥٨ .

٦ ـ مراعاة تأليف الكلام ، والغرض الذى سيق له ، فإن ذلك يعينه على فهم المعنى المراد ، وإصابة الصواب ، قال الزركشى فى البرهان : ليكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذى سيق له ، وإن خالف أصل الوضع اللغوى ، لثبوت التجوز .

٧ ـ يجب على المفسر البداءة بما يتعلق بالمفردات ، وتحقيق معانيها ثم يتكلم عليها بحسب التركيب ، فيبدأ بالإعراب إن كان خفياً ، ثم ما يتعلق بالمعانى ، ثم البيان ، ثم البديع ، ثم ليبين المعنى المراد ثم ما يستنبط من الآيات من الأحكام والآداب ، وليراع القصد فيما يذكر من لغويات ، أو نحويات ، أو بلاغيات ، أو أحكام ، حتى لا يطغى ذلك على جوهر التفسير .

٨ ـ التحاشى عن ذكر الأحاديث والآثار الضعيفة والموضوعة ، والروايات المدسوسة : من الإسرائيليات ونحوها ، حتى لا يقع فيما وقع فيه كثير من المفسرين السابقين من الموضوعات ، والإسرائيليات فى أسباب النزول ، وقصص الأنبياء والسابقين ، وبدء الخلق والمعاد ونحوها . ومن هنا : يتبين لنا صلة هذا الموضوع بالبحث الذى هو مقصود من هذا الكتاب .

غلبة الضعف على التفسير بالمأثور :

قلنا : إن التفسير بالمأثور يشمل التفسير بالقرآن الكريم ، أو بالسنة أو بأقوال الصحابة ، والتابعين .

أما تفسير القرآن بالقرآن : فهو لا غبار عليه ، ولا اعتراض ، وإنما يأتى الغلط من المفسر ، بأن يفسر الشىء بما ليس بتفسير له عند التحقيق .

وأما تفسير القرآن بما صح وثبت عن النبى ـ ﷺ ـ فهو على العين والرأس ، وليس لأحد أن يرفضه ، أو يتوقف فيه ، بعد ثبوته ، وقد صح عن الأئمة الأربعة المجتهدين فى الأحكام ، أن كل واحد منهم قال : « إذا صح الحديث فهو مذهبى ، واضربوا بقولى عُرض الحائط »[1] وإذا كان هذا فى الحلال والحرام ، فمابالك بالتفسير الذى لا يتعلق

---

(١) عرض الحائط : أى جانبه والمراد إهماله ، وعدم الأخذ به .

بالحلال والحرام؟ ، إنه واجب الاتباع من باب أولى ، وأما الضعيف والموضوع المختلق على النبي : فأحر به أن يرد .

وأما تفاسير الصحابة والتابعين ، وهى أكثر من أن تحصى : ففيها الصحيح ، والحسن ، والضعيف والموضوع ، والإسرائيليات ، التى تشتمل على خرافات بنى إسرائيل ، وأكاذيبهم ، وقد تدسست إلى الكتب الإسلامية ، ولاسيما كتب التفسير ، وأصبحت تكون ركاما ، غثا مجموعاً من هنا وهناك ، سواء فى ذلك ما كان خاصاً بالتفسير المأثور وما جمع بين المأثور وغيره ، فما كان من هذه الروايات صحيحاً أو حسناً : أخذنا به ، وما كان ضعيفاً ، أو واهياً ، أو موضوعاً ، أو من الإسرائيليات : نبذناه ولا كرامة .

ملاحظة الأئمة القدامى لهذه الظاهرة :

وقد تنبه العلماء المحدثون القدامى ، إلى هذه الظاهرة ، وهى : غلبة الضعف على الرواية بالمأثور ، فقد روى عن الإمام الجليل أحمد ابن حنبل أنه قال : « ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم ، والمغازى » وقال المحققون من أصحاب الإمام : مراده : أن الغالب أنه ليس لها أسانيد صحيحة متصلة ، وإلا فقد صح من ذلك شيء غير قليل ، كما قلنا فيما سبق ، وحققناه ، وقيل : لأن الغالب عليها المراسيل[(١)] .

وروى عن الإمام الكبير الشافعى أنه قال : « لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث » ، ومهما كان فى هذه الكلمة من مبالغة ، فهى تدل على كثرة ما وضع على ابن عباس ، وألصق به ، ونسب إليه زوراً .

أسباب الضعف فى التفسير بالمأثور :

لقد دخل الوضع والكذب فى الحديث ، فلا جرم أن دخل فى التفسير بالمأثور ، فقد كان التفسير كما قلنا جزءاً من الحديث ، وإن أقدم كتاب وصل إلينا فى الحديث وهو : موطأ الإمام مالك اشتمل على «كتاب التفسير» ، وقد سار على هذا بعض المؤلفين فى

---

(١) المرسل عند جمهور المحدثين : هو ما رواه التابعى عن النبى ـ ﷺ ـ من غير ذكر الصحابى ، وأما المرسل عند الفقهاء وبعض المحدثين فهو : ما لم يتصل إسناده على أى وجه ، سواء أكان المحذوف الصحابى أم غيره ، وسواء أكان المحذوف واحداً من الرواة ، أو أكثر .

الحديث ، حتى بعد أن انفصل التفسير بمعناه الفنى الدقيق ، وصار علماً مستقلاً ، كما ذكرنا .

ويرجع الضعف والوضع فى التفسير بالمأثور إلى أسباب أهمها :

١ ـ ما دسه الزنادقة من اليهود والفرس والرومان وغيرهم فى الرواية الإسلامية فقد دخل هؤلاء الإسلام وهم يضمرون له الشر والعداوة والكيد ، وتستروا بالإسلام ، بل بالغ بعضهم فى التستر فتظاهر بحب آل بيت النبى ـ ﷺ ـ ، ولما كانوا لا يمكنهم مواجهة سلطان الإسلام لا عن طريق الحرب والعداوة السافرة ، ولا عن طريق الحجة والبرهان ، فقد توصلوا إلى أغراضهم الدنيئة عن طريق الوضع ، والاختلاق ، والدس فى المرويات الإسلامية عن النبى ـ ﷺ ـ وعن الصحابة ، والتابعين ، وكان للتفسير ـ ولا ريب ـ كفل من هذا ، وكان هذا الصنف من أخبث الوضاعين ، فقد وضعوا على النبى أحاديث يخالفها المحسوس ، أو يناقضها المعقول ، أو تشهد أذواق الحكماء بسخافتها ، وإسفافها ، مما لا يليق بالعقلاء .

٢ ـ الخلافات السياسية والمذهبية : فقد سولت هذه الخلافات لأرقاء الدين ، وضعفاء الإيمان أن يضعوا أحاديث تؤيد مذاهبهم ، وأحاديث فى فضائل متبوعيهم ، وفى مثالب مخالفيهم ، وذلك : كما فعل الشيعة ، ولا سيما الروافض ، فقد وضعوا فى فضل سيدنا على وآله أحاديث كثيرة ، ونسبوا إليه كل علم وفضل ، وفيها ما يتعلق بتفسير بعض آيات القرآن ، وبأسباب النزول ، كما وضعوا أحاديث فى ذم السادة : أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وغيرهم .

وكذلك : فعل أنصار العباسيين ، فقد وضعوا على ابن عباس روايات كثيرة ، ولا سيما فى تفسير القرآن ، وصوروه بصورة العالم بكل شىء وقولوه ما لم يقل ، كما وضعوا أحاديث فى مثالب الأمويين وذمهم ، وقابلهم أنصار الأمويين بالمثل ، فضلاً عن أعقل العقلاء ، وإنما ينصبون بذلك المكيدة لضعفاء الأحلام ، وأرقاء الدين ، حتى يقعوا فى ريبة فتتزلزل من نفوسهم عقيدة : أن الإسلام تنزيل من حكيم عليم .

قال ابن قتيبة [١] . « الحديث مدخله الشوب والفساد من وجوه ثلاثة : الزنادقة ، واجتيالهم للإسلام ، وتهجينه ببث الأحاديث المستبشعة ، والمستحيلة ، كالأحاديث التى

---

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٣٥٥ .

قدمنا ذكرها من عرق الخيل ، وعيادة الملائكة ، وقفص الذهب على جمل أورق ، وزغب الصدر ونور الذراعين ، مع أشياء ليست تخفى على أهل الحديث »[1] .

وقال حماد بن زيد : « وضعت الزنادقة أربعة عشر ألف حديث ولما جيء بعبد الكريم بن أبي العوجاء ، خال معن بن زائدة ، الذى قتله محمد بن سليمان بن على العباسى ، أمير البصرة ، بعد سنة مائة وستين فى زمن المهدى ، اعترف حينئذ بوضع أربعة آلاف حديث ، يحرم فيها الحلال ، ويحلل فيها الحرام ، وكان عبد الكريم هذا متهماً بالمانوية ، وكان يضع أحاديث بأسانيد يغتر بها من لا معرفة له بالجرح والتعديل . وتلك الأحاديث ضلالات فى التشبيه ، والتعطيل وبعضها بعيد عن أحكام الشريعة[2] ، كما كان ينتسب إلى الرافضة فى الظاهر ، ووضع لهم الأحاديث التى اغتروا بها[3] ، وقد كان الزنادقة حملوا الكثير من الخرافات والأباطيل ، مما هو مسطور فى كتبهم ، ودسوها فى الرواية الإسلامية وفسروا بها بعض الآيات القرآنية ، ونسبوها زوراً إلى النبى ، أو الصحابة ، والتابعين ، فجاء من لا يعلم الحقيقة فطعن فى الإسلام بسبب هذه المرويات الباطلة مثل حديث : « عوج بن عوق » وأمثاله وقد ناهض العلماء حركة الزندقة بالتنبيه إلى ضلالاتهم ودسهم : كما قاومهم الخلفاء ، والأمراء بقتلهم ، وصلبهم .

وكذلك فعل الخوارج[4] ، والقدرية[5] ، والمرجئة[6] ، والكرامية[7] ، والباطنية[8]

---

(١) حديث عرق الخيل هو ما روى كذبا « أن الله لما أراد أن يخلق نفسه خلق الخيل وأجراها ، فعرقت فخلق نفسه منها » قال ابن عساكر : هذا موضوع وضعه الزنادقة ليشنعوا على أهل الحديث فى روايتهم المستحيل وهو مما يقطع ببطلانه عقلاً وشرعاً ، أما حديث عيادة الملائكة فهو ما روى كذباً : « أن الله اشتكت عيناه فعادته الملائكة » أما حديث قفص الذهب فلعل المراد به ما روى كذباً : « ينزل ربنا عشية عرفة على جمل أورق يصافح الركبان ، ويعانق المشاة » ، قال ابن تيمية : هو من أعظم الكذب ، أما حديث زغب الصدر ، فهو ما روى زوراً : « خلق الله ـ تبارك وتعالى ـ الملائكة من شعر ذراعيه وصدره أو نورهما » .

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٢٥٦ .

(٣) التبصير فى الدين ص ٨١ .

(٤) هم الذين خرجوا على « على » ومعاوية وأتباعهما بعداتضائهما بالتحكيم وقالوا : « لا حُكْمَ إلا لله » .

(٥) القدرية : هم الذين يقولون : « إن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية » ؛ فقد سلبوها عن الله ، ونسبوها لأنفسهم .

(٦) المرجئة : هم الذين يؤخرون الأعمال عن الإيمان ، ويقولون : « لا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة » .

وأضرابهم ، فقد وضعوا أحاديث تؤيد مذاهبهم ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « ثم إنه لسبب تطرف هؤلاء وضلالهم ، دخلت الرافضة الإمامية ثم الفلاسفة ، ثم القرامطة [(١)] وغيرهم فيما هو أبلغ من ذلك ، وتفاقم الأمر فى الفلاسفة ، والقرامطة ، والرافضة : فإنهم فسروا القرآن بأنواع لا يقضى العالم منها عجبه ، فتفسير الرافضة كقولهم : ﴿ **تَبَّت يَدَا أَبِى لَهَبٍ ، وَتَبَّ** ﴾ هما : أبوبكر وعمر ، وقوله : ﴿ **لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** ﴾ [(٢)] أى : بين أبى بكر ، وعمر ، وعلى فى الخلافة ، وقالوا فى قوله تعالى : ﴿ **إِن اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً** ﴾ [(٣)] هى : عائشة وقوله : ﴿ **فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الكُفْرِ** ﴾ [(٤)] : طلحة والزبير ، وقوله : ﴿ **مَرَجَ الْبَحْرَين** ﴾ : عليا وفاطمة ، وقوله : ﴿ **يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ** ﴾ [(٥)] الحسن والحسين ، وقوله : ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِين يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** ﴾ [(٦)] هو : على ، ويذكرون الحديث الموضوع بإجماع أهل العلم ، وهو : تصدقه بخاتمه فى الصلاة وكذلك قوله : ﴿ **أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ** ﴾ [(٧)] : نزلت فى على لما أُصيب بحمزة ، ومما يقارب هذا من بعض الوجوه : ما يذكره كثير من المفسرين فى مثل قوله : ﴿ **الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ** ﴾ [(٨)] : إن « الصابرين » : رسول الله ، و « الصادقين » : أبوبكر ، و « القانتين » : عمر ، و « المنفقين » : عثمان ، و « المستغفرين » : على ، وفى مثل قوله : ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ** ﴾ : أبوبكر ، ﴿ **أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ** ﴾ : عمر ، ﴿ **رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ : عثمان ، ﴿ **تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّدا** ﴾ [(٩)] : على ، وأعجب من ذلك :

= (٧) هم أتباع محمد بن كرام السجستانى .

(٨) هم الذين يقولون : « إن للقرآن ظاهراً وباطناً ، والمراد الباطنُ ، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللُّب إلى القشرة » .

(١) القرامطة فرقة من الباطنية نسبوا إلى أولهم ، الذى دعا إلى مذهبهم ، وهو رجل يسمى حمدان قرمط ، وهى إحدى قرى واسط .

(٢) الزمر : ٦٥ . (٣) البقرة : ٦٧ . (٤) التوبة : ١٢ (٥) الرحمن : ١٩ ، ٢٢ .

(٦) المائدة : ٥٥ .

(٧) البقرة : ١٥٧ .

(٨) آل عمران : ١٧ .

(٩) الفتح : ٢٩ .

قول بعضهم : ﴿ والتِّينِ ﴾ أبوبكر ، ﴿ والزَّيْتُونِ ﴾ : عمر ، ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ : عثمان ، ﴿ وَهَذَا البَلَدِ الأَمِينِ ﴾[1] : على ، وأمثال هذه الخرافات التى تتضمن تفسير اللفظ بما لا يدل عليه[2] ، وقد أطلت القول فى هذا ، فى كتابى : « الوضع فى الحديث وآثاره السيئة فى كتب العلوم »[3] .

* * *

٣ ـ القُصَّاص : فقد كانت هناك فئة تقص بالمساجد ، وتذكر الناس ، وترغبهم ، وترهبهم ، ولما كان هؤلاء ليسوا من أهل العلم بالحديث ، وكان غرضهم من ذكر القصَصِ استمالة العوام ، فقد اختلقوا بعض القَصَصِ الباطل ، وروجوا البعض الآخر بذكرهم له ، وفى هذا الكثير من الإسرائيليات والخرافات والأباطيل ، وقد تلقفها الناس منهم ، لأن من طبيعة العوام الميل إلى العجائب والغرائب .

ويعجبنى فى هذا : ما ذكره ابن قتيبة عن القصاص ، قال : فإنهم يميلون وجه العوام إليهم ، ويستدرون ما عندهم بالمناكير ، والأكاذيب من الأحاديث ، ومن شأن العوام : القعود عند القاص ما كان حديثه عجيباً خارجاً عن فطر العقول ، أو كان رقيقاً يحزن القلوب ، فإذا ذكر الجنة قال : فيها الحوراء من مسك أو زعفران وعجيزتها ميل فى ميل . ويبوىء الله وليه قصراً من لؤلؤة بيضاء ، فيها سبعون ألف مقصورة ، فى كل مقصورة سبعون ألف قبة ، ولا يزال هكذا فى السبعين ألفاً ، لا يتحول عنها .

ومن هؤلاء القصاص : من كان يبتغى الشهرة والجاه بين الناس ، ومنهم : من كان يقصد التعيش والارتزاق ، ومنهم : من كان سيء النية خبيث الطوية ، يقصد الإفساد فى الدين ، وحجب جمال القرآن بما يفسره به من أباطيل وخرافات .

وقد حدثت بدعة القص فى آخر عهد الفاروق : عمر ـ رضى الله عنه ـ ، وقد كان ملهماً حقاً ، حينما أبى أن يقص قاص فى المسجد ، وفيما بعد صار حرفة ، ودخل فيه من لا خلاق له فى العلم ، وقد ساعدهم على الاختلاق : أنهم لم يكونوا من أهل الحديث

(١) سورة التين : ١ ، ٢ .

(٢) مقدمة فى أصول التفسير ٣٨ ـ ٤٠ .

(٣) هى الرسالة التى نلت بها العالمية من درجة أستاذ « الدكتوراه » ولم تطبع بعد . وقد تولد منها كتابان : دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين ، والثانى : هذا الكتاب .

والحفظ ، وغالب من يحضرهم جهال ، فجالوا ، وصالوا ، فى هذا الميدان ، وأتوا بما لا يقضى منه العجب .

ومن صفاقاتهم فى هذا : ما روى : أنه صلى أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين بمسجد الرصافة ، فقام بين أيديهم قاص ، فقال : حدثنا أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، قالا : حدثنا عبدالرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، عن أنس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **من قال : لا إله إلا الله خلق الله من كل كلمة طيرا ، منقاره من ذهب ، وريشه من مرجان** » ، وأخذ فى قصة نحوا من عشرين ورقة ! فجعل أحمد بن حنبل ينظر إلى يحيى بن معين ، ويحيى ينظر إليه فقال : أنت حدثته بهذا ! قال : والله ما سمعت بهذا إلا الساعة ، فلما انتهى أشار له يحيى ، فجاء متوهماً نوالا ، فقال له يحيى من حدثك بهذا ؟ قال : أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، فقال : أنا يحيى ، وهذا أحمد ، ما سمعنا بهذا قط فى حديث رسول الله ، فإن كان ولا بد فعلى غيرنا ، فقال : لم أزل أسمع أن يحيى بن معين ، وأحمد بن حنبل أحمقان ، ما تحققته إلا الساعة ، فقال له يحيى : وكيف ؟ قال : كأنه ليس فى الدنيا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين غيركما ، لقد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ! ! فما كان منهما إلا أن رضيا من النقاش بالسلامة .

ومن يدرى ، فلعلهما لو أطالا معه القول ، لنالهما ما نال الشعبى ، فقد دخل مسجدا ، فإذا رجل عظيم اللحية ، وحوله ناس يحدثهم ، وهو يقول : إن الله خلق صورين ، فى كل صور نفختان ، قال فخففت صلاتى ، ثم قلت له : اتق الله يا شيخ ، إن الله لم يخلق إلا صوراً واحداً فقال لى يا فاجر أنا يحدثنى فلان ، وفلان ، وترد على ، ثم رفع نعله ، وضربنى فتتابع القوم على ضرباً ، فوالله ما أقلعوا عنى حتى قلت لهم : إن الله خلق ثلاثين صوراً فى كل صور نفختان ! ! وهكذا كان القصَّاص مصدر شّر وبلاءٍ على الإسلام والمسلمين .

* * *

٤ ـ بعض الزُّهَّاد والمتصَوِّفة : فقد استباح هؤلاء لأنفسهم وضع الأحاديث ، والقصص فى الترغيب ، والترهيب ، ونحوهما ، وتأولوا فى الحديث المتواتر المعروف :

﴿ مَنْ كَذَبَ عَلَىَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوأْ مقْعَدَه منَ النَّارِ ﴾ ، وقالوا : إنما نكذب للنبى ولا نكذب عليه[1] . وهو جهل منهم باللغة والشرع ، فكل ذلك كذب عليه ، لأن الكذب هو عدم مطابقة الأمر للواقع ، فكل من ينسب إلى النبى ، أو إلى الصحابة ، أو إلى التابعين ما لم يقولوه ، فقد كذب عليهم ، قيل لأبى عصمة نوح بن أبى مريم : من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس فى فضائل القرآن سورة سورة ؟ فقال : « رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن ، واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ، ومغازى محمد بن إسحاق ، فوضعت هذا حسبة لوجه الله » وعن طريق هؤلاء دخل فى التفسير شىء كثير.

* * *

٥ ـ النقل عن أهل الكتاب الذين أسلموا ككعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وعبدالله بن سلام ، وتميم الدارى وأمثالهم ، وقد حمل هؤلاء الكثير من المرويات المكذوبة ، والخرافات الباطلة ، الموجودة فى التوراة وشروحها ، وكتبهم القديمة التى تلقوها عن أحبارهم ورهبانهم جيلاً بعد جيل ، وخلفاً عن سلف ، ولم تكن هذه الإسرائيليات والمرويات مما يتعلق بأصول الدين ، والحلال والحرام ، وهى التى جرى العلماء من الصحابة والتابعين ، فمن بعدهم على التثبت منها ، والتحرى عن رواتها ، وإنما كانت فيما يتعلق بالقصص ، وأخبار الأمم الماضية ، والملاحم[2] ، والفتن ، وبدء الخلق ، وأسرار الكون ، وأحوال يوم القيامة .

وقد تنبه إلى هذا بعض الائمة القدامى ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : المتوفى سنة ٧٢٨ هـ ، فى أثناء الكلام عن تفاسير الصحابة ، قال : « وهذا غالب مايرويه إسماعيل بن عبدالرحمن السدى الكبير[3] ، فى تفسيره عن هذين الرجلين : ابن مسعود ، وابن عباس ، ولكن فى بعض الاحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب ، التى أباحها رسول الله ـ ﷺ ـ حيث قال : « **بلغوا عنى ، ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل**

---

(١) أى لترويج دينه وشريعته ، لا للطعن فيها .

(٢) جمع ملحمة وهو المواقع العظيمة .

(٣) السدى الكبير مختلف فيه : فمنهم من وثقه ، ومنهم من ضعفه ، أما السدى الصغير فهو متهم بالكذب .

ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » . رواه البخارى ـ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ ، ولهذا كان عبد الله بن عمرو قد أصاب يوم اليرموك زاملتين[(1)] من كتب أهل الكتاب ، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث ، من الإذن فى ذلك ، ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد »[(2)] وقال أيضاً فى رده على البكرى ، منكراً عليه استدلاله بالحديث الذى يرويه ، عن استشفاع آدم بالنبى ﷺ : هذا الحديث ، وأمثاله لا يحتج به فى إثبات حكم شرعى ، لم يسبقه أحد من الأئمة إليه .. فإن هذا الحديث لم ينقله أحد عن النبى ـ ﷺ ـ ، لا بإسناد حسن ، ولا صحيح ، بل ولا ضعيف يستأنس به ، ويعتضد به ، وإنما نقل هذا وأمثاله كما تنقل الإسرائيليات التى كانت فى أهل الكتاب وتنقل عن مثل كعب ، ووهب ، وابن إسحاق ، ونحوهم ، من أخذ ذلك عن مسلمة أهل الكتاب أو غير مسلمتهم ، كما روى : أن عبد الله بن عمرو وقعت له صحف يوم اليرموك من الإسرائيليات ، وكان يحدث منها بأشياء »[(3)] .

وقد وافق ابن تيمية على مقالته أحد تلاميذه ، وهو : الإمام الحافظ المفسر ابن كثير ، فذكر نحوا من ذلك فى مقدمة تفسيره[(4)] .

وقد جاء بعد ابن تيمية : الإمام العالم المؤرخ ، واضع أساس علم الاجتماع : عبد الرحمن بن خلدون ، المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ، فأبان عن ذلك بأوفى وأتم من هذا فى مقدمته المشهورة فى أثناء الكلام عن علوم القرآن من التفسير والقراءات ، قال : « وصار التفسير على صنفين تفسير نقلى ، مسند إلى الآثار المنقولة عن السلف ، وهى : معرفة الناسخ والمنسوخ ، وأسباب النزول ، ومقاصد الآى : وكل ذلك لا يعرف إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين ، وقد جمع المتقدمون فى ذلك ، وأوعوا ، إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث ، والسمين ، والمقبول ، والمردود .

---

(١) الزاملة البعير الذى يحمل عليه يعنى حمل بعيرين
(٢) مقدمة فى أصول التفسير ص ٤٥ .
(٣) الرد على البكرى ص ٦ .
(٤) تفسير ابن كثير والبغوى ج ١ ص ٨ .

والسبب فى ذلك : أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ، ولا علم ، وإنما غلبت عليهم البداوة ، والأمية ، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات ، وبدء الخليقة وأسرار الوجود ، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدونه منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ، ومن تبع دينهم من النصارى ، وأهل الكتاب الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ، ومعظمهم من حمير ؛ الذين أخذوا بدين اليهودية ، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم ـ مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها ـ ، مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثان[1] ، والملاحم ، وأمثال ذلك ، وهؤلاء مثل : كعب الأحبار ووهب بن منبه ، وعبدالله بن سلام ، وأمثالهم ، فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم ، وفى أمثال هذه الأغراض أخبار موقوفة عليهم وليست مما يرجع إلى الأحكام ، فتتحرى فيها الصحة التى يجب بها العمل ويتساهل المفسرون فى مثل ذلك ، وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات وأصلها ، كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية ، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك ، إلا أنهم بعد صيتهم ، وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات فى الدين والملة ، فتلقيت بالقبول من يومئذ »[2] .

وفى كتب التفسير من هذه الإسرائيليات طامات وظلمات ، والكثير منها لم ينبه ناقلوه على أصله ، ولم يوقف على قائله ، فكانت مثاراً للشك ، والطعن ، والتقول على الإسلام ونبيه ـ ﷺ ـ .

* * *

٦ ـ نقل كثير من الأقوال ، والآراء المنسوبة إلى الصحابة والتابعين من غير إسناد ، ومن غير تحر عن رواتها ، فمن ثم التبس الصحيح بالضعيف ، والحق بالباطل ، وصار كل من يقع على رأى يعتمده ويورده ، ثم يجيء من بعدهم فينقله على اعتبار أن له أصلاً ، وتحسيناً للظن بقائله ، ولا يكلف نفسه مؤنة البحث عن منشأ الرواية ، وعمن رويت ، ومن رواها عنه .

---

(١) حدثان الدهر : أحداثه المشهورة .
(٢) مقدمة ابن خلدون ، بحث التفسير ص ٣٦٨ ط الأزهرية .

خطورة رَفْع هذه الإسرائيليات إلى النبي ﷺ

ولو أن هذه الإسرائيليات ـ ولا سيما المكذوب ، والباطل منها ـ وقف بها عند قائليها ، لكان الأمر محتملاً بعض الشيء ، ولكن الشناعة وكبر الإثم : أن بعض الزنادقة ، والوضاعين ، وضعفاء الإيمان ، قد رفعوا هذه الإسرائيليات إلى المعصوم ـ ﷺ ـ ، ونسبوها إليه صراحة وهنا يكون الضرر الفاحش والجناية الكبرى على الإسلام ، والتجنى الآثم على النبى ـ ﷺ ـ ، فإن نسبة الغلط ، أو الخطأ أو الكذب إلى الراوى ـ أيا كان ـ أهون بكثير من نسبة ذلك إلى النبى ـ ﷺ ـ .

وإن ما اشتملت عليه بعض الإسرائيليات من الخرافات ، والأباطيل ليصد أى إنسان مهما بلغ من التسامح فى هذا العصر ، الذى نعيش فيه عن الدخول فى الإسلام ، ويحمله على أن ينظر إليه نظرة الشك ، والارتياب .

ولهذا : ركز المبشرون ، والمستشرقون طعونهم فى الإسلام ، ونبيه على مثل هذه الإسرائيليات والموضوعات ؛ لأنهم وجدوا فيها ما يسعفهم على ما نصبوا أنفسهم له من الطعن فى الإسلام ، وإرضاءً لصليبيتهم التى رضعوها فى لبان أمهاتهم .

وهذه الأباطيل والخرافات مهما بلغ إسنادها من السلامة من الطعن فيه ، لا نشك فى تبرئة ساحة النبى ـ ﷺ ـ عنها : ﴿ **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ .

الموقوف من الإسرائيليات على الصحابة والتابعين :

ولو أن هذه الإسرائيليات جاءت مروية صراحة عن كعب الأحبار أو وهب بن منبه ، أو عبد الله بن سلام ، وأضرابهم ، لدلت بعزوها إليهم أنها مما حملوه ، وتلقوه عن كتبهم ، ورؤسائهم قبل إسلامهم ، ثم لم يزالوا يذكرونه بعد إسلامهم ، وأنها ليست مما تلقوه عن النبى أو الصحابة ، ولكانت تشير بنسبتها إليهم إلى مصدرها ، ومن أين جاءت وأن الرواية الإسلامية بريئة منها .

ولكن بعض هذه الإسرائيليات ـ بل الكثير منها ـ جاء موقوفاً على الصحابة ، ومنسوباً إليهم ـ رضى الله عنهم ـ ، فيظن من لا يعلم حقيقة الأمر ، ومن ليس من أهل العلم بالحديث أنها متلقاة عن النبى ـ ﷺ ـ ، لأنها من الأمور التى لا مجال للرأى فيها . فلها

حكم المرفوع إلى النبى ، وإن لم تكن مرفوعة صراحة .

تَحَوُّط دقيق للمحدثين :

وقد كان أئمة علم أصول الحديث ، والرواية ، أبعد نظراً ، وآصل تفكيراً ، وأوسع إطلاعاً ، وأدق فى تقعيدهم لقواعد النقد فى الرواية حينما قالوا : إن الموقوف على الصحابة يكون له حكم المرفوع إلى النبى بشرطين :

١ ـ أن يكون مما لا مجال للرأى فيه .

٢ ـ أن لا يكون راويه معروفاً بالأخذ عن أهل الكتاب الذين أسلموا وبرواية الإسرائيليات ، ومن ثم : يجد الباحث الحصيف المنصف مخارج لهذه الروايات الموقوفة على الصحابة ، وهى فى نفسها مكذوبة وباطلة فهى : إما إسرائيليات ، أخذها بعض الصحابة الذين رووها ، عن أهل الكتاب الذين أسلموا ، ورووها ليعلم ما فيها من الغرائب والعجائب ، ولم ينبهوا على كذبها وبطلانها اعتماداً على ظهور كذبها وبطلانها ، ولعلهم نبهوا إلى كذبها وعدم صحتها ، ولكن الرواة لم ينقلوا هذا عنهم ، وإما أن تكون مدسوسة على الصحابة ، وضعها عليهم الزنادقة ، والملحدون ، كى يظهروا الإسلام وحملته بهذا المظهر المنتقد المشين ، وأما ما يحتمل الصدق والكذب منها ، وليس فيه ما يصدم نقلاً صحيحاً ، أو عقلاً سليماً ، فذكروه لما فهموه من الإذن لهم فى روايتها من قوله ﷺ : « **وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج** » ، وهذا النوع أقل خطراً من الأول ، إلا أنه لا فائدة تذكر من الاشتغال به ، بل كان حجاباً لجمال القرآن ، وتفسيره الصحيح .

وكذلك جاء الكثير جداً من هذه الإسرائيليات عن التابعين ، واحتمال أخذها عن أهل الكتاب الذين أسلموا ، أكثر من احتمال أخذها عن الصحابة ، فمنشؤها فى الحقيقة هو ما ذكرت لك ، وهى : التوراة وشروحها ، والتلمود وحواشيه ، وما تلقوه عن أحبارهم ، ورؤسائهم الذين افتروا ، وحرفوا وبدلوا ، ورواتها الأول ، هم : كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ـ وأمثالهما ، والنبى ـ ﷺ ـ ، والصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بريئون من هذا .

ويجوز أن يكون بعضها مما ألصق بالتابعين ، ونسب إليهم زوراً ولاسيما أن أسانيد

معظمها لا تخلو من ضعيف أو مجهول ، أو متهم بالكذب ، أو الوضع ، أو معروف بالزندقة ، أو مغمور فى دينه وعقيدته .

بعض الإسرائيليات قد يصح السند إليها :

ولعل قائلاً يقول : أما ماذكرت من احتمال أن تكون هذه الروايات الإسرائيلية مختلقة ، موضوعة على بعض الصحابة والتابعين ، فهو إنما يتجه فى الروايات التى فى سندها ضعيف أو مجهول ، أو وضاع ، أو متهم بالكذب ، أو سيء الحفظ ، يخلط بين المرويات ، ولا يميز ، أو نحو ذلك ، ولكن بعض هذه الروايات حَكَم عليها بعضُ حفاظ الحديث ، بأنها صحيحة السند أو حسنة السند ، أو إسنادها جيد ، أو ثابت ، ونحو ذلك ، فماذا تقول فيها ؟!

والجواب : أنه لا منافاة بين كونها صحيحة السند ، أو حسنة السند أو ثابتة السند ، وبين كونها من إسرائيليات بنى إسرائيل ، وخرافاتهم ، وأكاذيبهم فهى صحيحة السند إلى ابن عباس ، أو عبدالله بن عمرو بن العاص ، أو إلى مجاهد ، أو عكرمة ، أوسعيد بن جبير وغيرهم ، ولكنها ليست متلقاة عن النبى ، لا بالذات ، ولا بالواسطة ولكنها متلقاة عن أهل الكتاب الذين أسلموا ، فثبوتها إلى من رويت عنه شيء ، وكونها مكذوبة فى نفسها ، أو باطلة ، أو خرافة ، شيء آخر ، ومثل ذلك : الآراء والمذاهب الفاسدة اليوم ، فهى ثابتة عن أصحابها ، ومن آرائهم ولا شك ، ولكنها فى نفسها فكرة باطلة ، أو مذهب فاسد .

رواية الكذب ليس معناه أنه هو الذى اختلقه :

وأحب أن أنبه هنا إلى حقيقة ، وهى : أنه ليس معنى أن هذه الإسرائيليات المكذوبات والباطلات مروية عن كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وعبدالله بن سلام ، وأمثالهم أنها من وضعهم ، واختلاقهم ، كما زعم ذلك بعض الناس اليوم ، وإنما معنى ذلك : أنهم هم الذين رووها ، ونقلوها لبعض الصحابة والتابعين من كتب أهل الكتاب ومعارفهم ، وليسوا هم الذين اختلقوها ، وإنما اختلقها ، وافتجرها أسلافهم القدماء .

ولم يقل أحد من أئمة الجرح والتعديل على حصافتهم ، وبعد نظرهم : أن كعباً ،

ووهباً ، وعبدالله بن سلام ، وتميم الدارى ، وأمثالهم كانوا وضاعين ، يتعمدون الكذب ، والاختلاق من عند أنفسهم ، وإنما الذى قالوه عنهم : أنهم كانوا هم الواسطة فى حمل ونقل معارف أهل الكتاب إلى المسلمين ، وأن البعض رواها عنهم ، فليس الذنب ذنبهم ، وإنما الذنب ذنب من نقلها ، ورواها عنهم ، من غير بيان لكذبها وبطلانها .

ولما كانت رواية الإسرائيليات تدور غالباً على كعب ، ووهب ابن منبه ، وعبدالله بن سلام ، وأنهم هم الذى كان الإتهام منصباً عليهم أكثر من غيرهم ، فسأذكر لكل منهم ترجمة ، كى يتبين المنصف آراء أئمة الجرح والتعديل فيهم :

١ ـ عبدالله بن سَلَام :

هو : أبو يوسف عبدالله بن سلام[١] بن الحارث من بنى قينقاع ، وهو : من ذرية يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ ، وكان اسم عبدالله بن سلام فى الجاهلية الحصين ، فسماه النبى ـ ﷺ ـ عبدالله ، رواه ابن ماجه ، وكان من حلفاء الخزرج من الأنصار ، أسلم أول ما دخل النبى ـ ﷺ ـ المدينة[٢] ، ولإسلامه قصة ذكرها البخارى فى صحيحه ، ذلك : أن النبى مدة مقامه فى دار الصحابى الجليل : أبى أيوب الأنصارى قدم عليه أحد أحبار اليهود وعلمائهم ، وهو : عبدالله بن سلام ، وكان يعلم من كتبهم أوصاف النبى المبعوث فى آخر الزمان فلما جاء إلى النبى ـ ﷺ ـ سأله بعض أسئلة ، تأكد منها أنه نبى لأنه ما يعلمها إلا نبى مرسل ، فأسلم ، وقال للرسول : لا تعلن إسلامى ، حتى تسأل اليهود عنى ، لأنهم إن علموا إسلامى فسينقصوننى ، فأرسل إليهم النبى ، وسألهم عنه ، فقالوا : خيرنا وابن خيرنا ، فلما أخبرهم بإسلامه ، قالوا : شرنا وابن شرنا ، وإليك هذه القصة ، كما رواها البخارى فى صحيحه عن أنس ـ رضى الله عنه ـ ، قال فى حديث هجرة النبى ، وصاحبه الصديق إلى المدينة: «.. فلما جاء نبى الله ـ ﷺ ـ جاء

(١) بفتح السين ، وتخفيف اللام .
(٢) فتح البارى ج ٧ ص ١٠١ ط البهية .

عبدالله بن سلام ، فقال : أشهد أنك رسول الله ، وأنك جئت بحق ، وقد علمت يهود أنى سيدهم ، وابن سيدهم ، وأعلمهم ، وابن أعلمهم فادعهم ، فاسألهم عنى ، قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت فإنهم إن يعلموا أنّى قد أسلمت قالوا فىّ ما ليس فىّ ، فأرسل النبى - ﷺ - ، فأقبلوا ، فدخلوا عليه ، فقال لهم رسول الله - ﷺ - : يا معشر اليهود . ويلكم ، اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقاً ، وأنى جئتكم بحق ، فأسلموا ، قالوا : ما نعلمه ، قالوا للنبى - ﷺ - ، قالها ثلاث مرار(1) ، قال : فأى رجل فيكم عبد الله ابن سلام ؟ ، قالوا ذاك سيدنا ، وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال : « أفرأيتم إن أسلم » ؟ ، قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم .. (وكررها ثلاثاً وأجابوه كذلك ثلاثاً) ، قال : « يا ابن سلام ، اخرج عليهم » ، فخرج عليهم ، فقال : يا معشر اليهود : اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو ، إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بحق ، فقالوا : كذبت ، وفى رواية أخرى : أنهم قالوا : شرنا ، وابن شرنا ، وتنقصوه قال : هذا ماكنت أخاف يا رسول الله(2) ، وقد أسلم بإسلامه أهل بيته ، وعمة له تسمى : خالدة(3) .

وقد بشره النبى - ﷺ - بأنه من أهل الجنة ، وقالوا : إنه فيه نزلت الآية الكريمة : ﴿ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ** ﴾(4) الآية ، روى البخارى فى صحيحه بسنده ، عن سعد بن أبى وقاص ، قال : وما سمعت النبى - ﷺ - يقول لأحد يمشى على الأرض : إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام(5) ، قال : وفيه : نزلت هذه

---

(1) يعنى أن النبى - ﷺ - كرر عليهم مقالته ثلاثا ، وهم كرروا ردهم هذا ثلاثا .

(2) صحيح البخارى - باب هجرة النبى وأصحابه إلى المدينة ، وباب من غير إضافة ، مذكور قبل - باب إتيان اليهود النبى - ﷺ - حين قدم المدينة - .

(3) فتح البارى ج ٧ ص ٢٠٢ .

(4) الأحقاف الآية : ١٠ .

(5) الظاهر أن سيدنا سعدا قال ذلك بعد موت معظم المبشرين بالجنة ، لأن عبدالله بن سلام عاش بعدهم ، ولم يتأخر معه من العشرة إلا سعد ، وسعيد ، على أن سماعه ذلك فى حق عبدالله بن سلام لا ينفى سماعه مثل ذلك فى حق غيره .

الآية : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ الآية[١] قال : لا أدرى قال مالك : الآية ، أو فى الحديث[٢] .

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن قيس بن عباد ، قال : «كنت جالساً فى مسجد المدينة ، فدخل رجل على وجهه أثر الخشوع ، فقالوا : هذا رجل من أهل الجنة ، فصلى ركعتين تجوز[٣] فيهما ، ثم خرج وتبعته ، فقلت : إنك حين دخلت المسجد قالوا : هذا رجل من أهل الجنة ، قال : والله ما ينبغى لأحد أن يقول ما لا يعلم[٤] ، وسأحدثك لم ذاك ؟ رأيت رؤيا على عهد رسول الله - ﷺ - فقصصتها عليه ، ورأيت كأنى فى روض ، ذكر من سعتها ، وخضرتها ، وسطها عمود من حديد أسفله فى الأرض ، وأعلاه فى السماء ، فى أعلاه عروة ، فقيل لى : ارق ، قلت : لا أستطيع ، فأتانى منصف[٥] فرفع ثيابى من خلفى ، فرقيت حتى كنت فى أعلاها ، فأخذت العروة فقيل لى . استمسك ، فاستيقظت وإنها لفى يدى ، فقصصتها على النبى - ﷺ - ، قال : « **تلك الروضة : الإسلام ، وذلك العمود : عمود الإسلام ، وتلك العروة عروة الإسلام ، فأنت على الإسلام حتى تموت** » ، وذاك الرجل : عبد الله بن سلام[٦] .

وقد روى الحديث عن النبى - ﷺ - ، وروى عنه أبناه : يوسف ومحمد ، وأبوهريرة ، وأبوبردة بن أبى موسى الأشعرى ، وعطاء بن يسار وغيرهم ، وشهد مع سيدنا عمر - رضى الله عنه - فتح بيت المقدس ، والجابية ، وقد عده بعضهم فى

---

(١) فان قيل السورة مكية ؟ قلنا : لا ينافى هذا كون السورة مكية ، فقد جزم بعض العلماء بأن الأحقاف مكية إلا هذه الآية ، ولا مانع أن تكون السورة كلها مكية ، وتقع الإشارة فيها إلى ما سيقع بعد الهجرة ، من شهادة عبد الله بن سلام .

(٢) يعنى أن نزول الآية فى حق عبد الله قاله الإمام مالك من قبل نفسه ، أو هو مروى فى الحديث ، وقد رجح الحافظ فى « الفتح » أنها من قول مالك .

(٣) أى تخفف فيهما .

(٤) هذا إما أن يكون قاله تواضعا ، أو لبيان أنهم إن قالوا ذلك فإنما قالوه عن علم لأنه ليس لأحد من أهل العلم والتثبت أن يقول ما لا يعلم ، ويؤيد هذا القصة التى ذكرها .

(٥) بكسر الميم وسكون النون وفتح الصاد أى خادم .

(٦) صحيح البخارى - باب فضائل الصحابة - باب مناقب عبد الله بن سلام .

البدريين ، وأما ابن سعد : فذكره فى الطبقة الثالثة ممن شهد الخندق ، وما بعدها ، وكانت وفاته سنة ثلاث وأربعين من الهجرة .

فها نحن نرى : أنه كان من أعلم اليهود بشهادتهم ، وأنه كان من علماء الصحابة بعد إسلامه ، وبحسبه فضلاً : شهادة النبي ـ ﷺ ـ بأنه من أهل الجنة ، وشهادة أصحاب رسول الله له كما سمعت ، فهل يجوز فى العقل أن يشهد النبى بالجنة لرجل يصدر منه الكذب ، وفى أى شىء ؟ فى الحديث ! ! ثم هو صحابى ، والصحابة كلهم عدول ، فمن المستبعد جداً أن يكذب فى الرواية ، ولم أر أحدًا من علماء الجرح والتعديل ، وأئمة العلم والدين تناوله ، أو ذكر فيه ما يخدش عدالته إلا ما كان من الكتاب المتأخرين الذين تأثروا بكلام المستشرقين ، وأتباعهم ، ونوايا المستشرقين ولا سيما اليهود منهم ، نحو الإسلام ، والنبى ، والصحابة ـ موسومة بالخبث ، والعداوة ، وسوء الظنة ولا أدرى كيف نعدل عن كلام الأئمة الأثبات ، ونأخذ بكلام المستشرقين ؟ ! !

وأحب أن أُقرر هنا : أن حفاظ الحديث ، ونقاده البصيرين به قد تعرضوا لكل المرويات عن عبدالله بن سلام وغيره ، وبينوا الصحيح من الضعيف ، والمقبول من المردود .

ونحن لا ننفى أن عبدالله بن سلام ، روى بعض ما علمه من معارف أهل الكتاب وثقافتهم ، ورويت عنه ، ولكن الذى ننفيه : أن يكون ألصق هذه المرويات بالنبى ـ ﷺ ـ ، ونسبها إليه زوراً ، وأنه كان وضاعاً كذاباً ، ومن يرى خلاف هذا فنحن نطالبه بالحجة ، والبرهان ، وكانت وفاته سنة ثلاث وأربعين للهجرة .

* * *

ـ ٢ ـ

٢ ـ كعب الأحبار :

هو : كعب بن ماتع [١] ، بن عمرو بن قيس من آل ذى رعين ، وقيل : ذى الكلاع الحميرى ، وقيل : غير ذلك فى اسم جده ونسبه ، يكنى أبا إسحق ، كان فى حياة

---

(١) بكسر التاء المثناة بعدها عين مهملة .

النبي – ﷺ – رجلاً ، وكان يهودياً عالماً بكتبهم ، حتى كان يقال له : كعب الحبر ، وكعب الأحبار (١) .

وكان إسلامه فى خلافة سيدنا عمر ، وقيل : فى خلافة الصديق ، وقيل : إنه أسلم فى عهد النبي – ﷺ – ، ولكن تأخرت هجرته ، فمن ثم لم يره ، والأول هو الأصح والأشهر ، وقد سكن المدينة وغزا الروم فى خلافة عمر ، ثم تحول فى عهد سيدنا عثمان إلى الشام ، فسكنها ، إلى أن مات بحمص ، فى خلافة عثمان سنة اثنتين ، أو ثلاث ، أو أربع وثلاثين ، والأول هو الأكثر ، وقد كان عنده علم بكتب أهل الكتاب ، والثقافة اليهودية ، كما كان له حظ من الثقافة الإسلامية ورواية الأحاديث .

روى عن النبي – ﷺ – ، ولكنه مرسل ، لأنه لم يلق النبي ، ولم يسمع منه ، وعن عمر ، وصهيب ، والسيدة عائشة ، وروى عنه من الصحابة معاوية ، وأبو هريرة ، وابن عباس ، وبقية العبادلة ، وعطاء بن أبي رباح ، وغيره من التابعين .

وقد أثنى عليه العلماء ، قال ابن سعد : ذكروه لأبي الدرداء فقال : « إن عند ابن الحميرية لعلماً كثيراً » والظاهر أنه أراد مما يتعلق بكتب أهل الكتاب ، وأخرج ابن سعد من طريق عبدالرحمن بن جبير بن نفير ، قال : قال معاوية : ألا إن كعب الأحبار أحد العلماء ، إن كان عند العلم كالبحار ، وإن كنا فيه لمفرطين » ، وقال فيه الحافظ ابن حجر فى « الفتح » : كان من أخيار الأحبار(٢) .

رأى علماء الجرح والتعديل فيه :

وعلماء الجرح والتعديل ، وهم : الذين لا تخفى عليهم حقيقة أى راو ، مهما تستر ، لم يتهموه بالوضع والاختلاق ، والجمهور على توثيقه ، ولم نجد له ذكرًا فى كتب الضعفاء والمتروكين ، وقد ترجم له الإمام الذهبي ترجمة قصيرة فى : « تذكرة الحفاظ » ، وتوسع ابن عساكر فى ترجمته ، فى : « تاريخ دمشق » ، وأطال أبو نعيم فى : « حلية الأولياء »

---

(١) الحبر – بكسر الحاء ، وتفتح – المداد الذى يكتب به ، ويجمع على أحبار ولقب به العالم لكثرة كتابته وملازمته له .

(٢) فتح البارى ج ١٣ ص ٢٨٥ .

فى أخباره ، وعظاته وتخويفه لعمر ، وترجم له الحافظ ابن حجر فى : « الإصابة » ، و : « تهذيب التهذيب » ، وتكاد تتفق كلمة النقاد على توثيقه[1] .

مقالة سيدنا معاوية فى كعب :

ولكن قد يعكر على ماذكرنا : ماورد فى حقه فى الصحيح : روى البخارى فى صحيحه بسنده ، عن حميد بن عبدالرحمن : أنه سمع معاوية وهو يحدث رهطاً من قريش بالمدينة ـ يعنى لما حج فى خلافته ـ ، وذكر كعب الأحبار ، فقال : « إن كان من أصدق ـ وفى رواية لمن أصدق ـ هؤلاء الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب »[2] .

وظاهر كلام معاوية ، يخدش كعباً فى بعض مروياته ، كما يدل أيضاً على أن الذين كانوا يحدثون بمعارف أهل الكتاب ، كان فيهم صادقون ، وأن كعباً كان من أصدق هؤلاء ، ولكنها لا تدل على أنه وضاعٌ أو كذاب .

وقد حسن العلماء الظن بكعب ، فحملوا هذه الكلمة على محمل حسن قال ابن التين : وهذا : نحو قول ابن عباس فى حق كعب المذكور : « بدل من قبله فوقع فى الكذب » ، قال : والمراد بالمحدثين : أنداد كعب ممن كانوا من أهل الكتاب ، وأسلموا ، فكان يحدث عنهم ، وكذا من نظر فى كتبهم ، فحدث عما فيها ، قال : ولعلهم كانوا مثل كعب إلا أن كعباً كان أشد منهم بصيرة ، وأعرف بما يتوقاه ، وقال ابن حبان فى « الثقات » : أراد معاوية أنه يخطئ أحياناً فيما يخبر به ، ولم يرد أنه كان كذاباً ، وقال ابن الجوزى : المعنى : أن بعض الذى يخبر به كعب عن أهل الكتاب يكون كذباً ، لا أنه يتعمد الكذب[3] .

والظاهر : أن سيدنا معاوية ـ رضى الله عنه ـ لم يقل مقالته هذه فى كعب الأحبار إلا بعد أن اختبره فى مروياته ، وآرائه ، فوجد بعضها لا يوافق الحق والصدق ، وأنه كان

---

(١) مقالات الكوثرى ص ٣١ .

(٢) صحيح البخارى ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ـ باب قول النبى ـ ﷺ ـ لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء .

(٣) فتح البارى ج ١٣ ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

يذكر آراء ، وأقوالاً ليست صحيحة ، وتحتاج إلى المراجعة والتثبت .

وليس أدل على هذا : من هذه الحادثة التى كانت بين معاوية ، وكعب ، فقد روى ابن لهيعة قال : حدثنى سالم بن غيلان ، عن سعيد بن أبى هلال : أن معاوية بن أبى سفيان قال لكعب الأحبار : أنت تقول : إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا ؟! فقال له كعب : إن كنتُ قلتُ ذلك فإن الله قال : ﴿ وآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾ ، وهذا إن صح : يدل على أنه كان يذكر آراء من عند نفسه ، وباجتهاده فى بعض الآيات ، وهى غير صحيحة ، وإلا فلو كان موجوداً فى التوراة أو فى غيرها لكان الأقرب فى الرد أن يقول فى الرد : وجدت ذلك فى كتب الأولين .

وقد علق على هذه الحادثة الحافظ ابن كثير ، فقال : وهذا الذى أنكره معاوية ـ رضى الله عنه ـ على كعب الأحبار هو الصواب ، والحق مع معاوية فى هذا الإنكار ، فإن معاوية كان يقول عن كعب : إن كنا لنبلو عليه الكذب ، يعنى فيما ، ينقله ، لا أنه كان يتعمد نقل ما ليس فى صحفه ، ولكن الشأن فى صحفه : أنها من الإسرائيليات التى غالبها مبدل ، مصحف ، محرف ، مختلق ، ولا حاجة لنا مع خبر ـ الله تعالى ـ ، ورسول الله ـ ﷺ ـ إلى شىء منها بالكلية ، فإنه دخل منها على الناس شر كثير ، وفساد عريض .

وتفسير كعب قول الله تعالى : ﴿ وآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾ بأنه يربط خيله بالثريا غير صحيح ، ولا مطابق للواقع ، فإنه لا سبيل للبشر إلى شىءٍ من ذلك ، ولا إلى الترقى فى أسباب السماوات ، وإنما التفسير الصحيح : أن الله يسر له الأسباب أى الطرق ، والوسائل إلى فتح الأقاليم والبلاد ، وكسر الأعداء ، وكبت الملوك ، وإذلال أهل الشرك ، فقد أوتى من كل شىءٍ مما يحتاج إليه مثله سبباً[1] .

وكذلك : نجد أبا هريرة أيضاً يراجع كعباً فى بعض أقواله ، فقد سأله : « عن الساعة التى فى يوم الجمعة ، لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلى ، يسأل الله ـ تعالى ـ شيئاً ، إلا أعطاه إياه » ، فيجيبه كعب : بأنها فى جمعة واحدة من السنة ، فيرد عليه أبو هريرة قوله هذا ، ويبين له : أنها فى كل جمعة ، فيرجع كعب إلى التوراة ، فيرى الصواب مع أبى

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوى ج ٥ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

هريرة ، فيرجع إليه ، وكذلك : نجد أبا هريرة يسأل عبدالله بن سلام ، عن تحديد هذه الساعة ، ويقول له : أخبرنى ولا تضن على ، فيجيبه ابن سلام : بأنها آخر ساعة فى يوم الجمعة ، فيرد عليه أبو هريرة بقوله : كيف تكون آخر ساعة فى يوم الجمعة ، وقد قال الرسول : « **لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلى** »؟! ، وتلك الساعة لا يصلى فيها ، فيجيبه بقوله : ألم يقل رسول الله – ﷺ – : « من جلس مجلساً ينتظر الصلاة فهو فى صلاة حتى يصلى » ؟[١] .

ولو أن الصحابة راجعوا أهل الكتاب فى كل مروياتهم التى أخذوها عنهم ، لكان من وراء ذلك خير كثير ، ولخلت كتب التفسير من هذا الركام من الإسرائيليات ، التى تصادم العقل السليم ، والنقل الصحيح ، ولكن هذا ما كان .

ومع هذا : لم نعلم أحداً طعن فيه . ورماه بالكذب والاختلاق إلا ما كان من بعض المتأخرين[٢] .

ومهما يكن من شيء ، فقد تبين لنا : أنه ما كان وضاعاً يعتمد الكذب ، وأن الإسرائيليات التى رواها ، إن كان وقع فيها كذب ، وأباطيل ، فذلك يرجع إلى من نقل عنهم من أسلافه الذين حرفوا ، وبدلوا ، وإلى بعض كتب اليهود التى حشيت بالأكاذيب ، والخرافات وإما إلى خطئه فى التأويل كما فى قصة ذى القرنين ، وزعم كعب أنه كان يربط خيله فى الثريا ، ويفسر بعض الآيات الواردة فى القصة بذلك .

وإما إلى إستناده إلى الظن والحدس من غير دليل ، كما فى قصته مع الصحابى الجليل أبى هريرة فى الساعة التى فى يوم الجمعة ، وزعمه أنها فى جمعة واحدة فى السنة ، لا فى كل جمعة ، ثم رجوعه إلى ما رآه أبو هريرة من أنها فى كل جمعة من العام .

ومع هذا : ترى أنه كان أولى به وأجمل وهو عالم مسلم ، لو أنه تحرى الحق ، والصدق ، وميز فى مروياته بين الغث والسمين ، وما يجوز نقله ، وما لا يجوز ، فإن ناشر مثل هذا لا يخلو من مؤاخذة وإثم ، وصدق رسول الله – ﷺ – حيث يقول : « **من**

---

(١) التفسير والمفسرون ج ١ ص ١٧٠ ، ١٧١ عن القسطلانى ج ٢ ص ١٩٠ .

(٢) هو السيد محمد رشيد رضا فى مقدمة تفسير « المنار » ج ١ ص ٩ والأستاذ أحمد أمين فى فجر الإسلام ص ١٩٨ ، وفى ضحاه ، وكذلك قالا فى وهب بن منبه .

حدث بحديث يُرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » ، رواه مسلم ، وكنا نحب : لو أنه أراحنا من كل هذا الركان المتهافت ، الذى سمم العقول ، والأفكار وجر على المسلمين البلاء .

٣ ـ وَهْب بن مُنَبِّه :

وهب بن منبه الصنعانى اليمنى ، وهو : من خيار التابعين ، ولد فى آخر خلافة عثمان ـ رضى الله عنه ـ ، روى عن أبى هريرة ، وأبى سعيد الخدرى ، وعبدالله بن عباس ، وعبدالله بن عمر ، وغيرهما وروى عنه عمرو بن دينار المكى ، وعوف بن أبى جميلة العبدرى ، وابناه : عبدالله ، وعبدالرحمن ، وغيرهم ، وأخرج له البخارى[١] ، ومسلم ، وأبوداود ، والترمذى ، والنسائى ، وكانت وفاته بصنعاء ، سنة عشر ومائة .

وثقه الجمهور ، وخالف الفلاس ، فقال : كان ضعيفاً ، وكان شبهته فى هذا : أنه كان يتهم بالقول بالقدر[٢] ، وصنف فيه كتاباً ، ثم صح عنه أنه رجع عنه ، قال حماد بن سلمة : عن أبى سنان ، سمعت وهب بن منبه يقول : كنت أقول بالقدر ، حتى قرأت بضعة وسبعين كتاباً من كتب الأنبياء ، « من جعل إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر » . فتركت قولى[٣] ، ولم أر أحداً طعن فيه بالوضع ، أو الاختلاق ، والكذب ، إلا ما قاله بعض المتأخرين كما أسلفت ، وكان كثير النقل عن كتب أهل الكتاب ، ويظهر أنه كانت له ثقافة واسعة بكتب الأولين ، وحكمهم ، وأخبارهم ، وقد ذكر عنه ابن كثير فى بدايته حكماً صائبة ، ومواعظ كثيرة ، وقصصاً استغرقت بضعاً وعشرين صحيفة ، وليس فيها ما يستنكر إلا القليل وكذلك نقل عنه فى التفسير روايات كثيرة جداً ، وجلها من الإسرائيليات .

ونحن لا ننكر أن بسببه دخل فى كتب التفسير إسرائيليات ، وقصص بواطل ، ولكن الذى ننكره : أن يكون هو الذى وضع ذلك ، واختلقه من عند نفسه ، ولكنا مع هذا : لا نخليه من التبعة ، والمؤاخذة أن كان واسطة من الوسائط التى نقلت هذا إلى المسلمين ، وألصقت بالتفسير إلصاقاً ، والقرآن منها برىء ، ويا ليته ما فعل .

(١) روى له البخارى حديثاً واحداً ، صحيح البخارى كتاب العلم ـ باب كتابة العلم ـ .
(٢) أى أن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية . (٣) مقدمة فتح البارى ج ٢ ص ١٧١ ط منير .

أقسام الإسرائيليات

أخبار بنى إسرائيل ، وأقاويلهم على ثلاثة أقسام :

« القسم الأول » : ما علمنا صحته مما بأيدينا من القرآن والسنة ، والقرآن هو : الكتاب المهيمن ، والشاهد على الكتب السماوية قبله ، فما وافقه فهو : حق وصدق ، وما خالفه فهو : باطل وكذب ، قال تعالى : ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ ، وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ . فَاحكم بَيْنَهم بِمَا أَنزَلَ الله . وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ . لكلّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ الله لَجعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً . وَلَكِن لِيَبْلُوَكُم فِي مَا ءَاتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعكمْ جَمِيعاً . فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ . وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُم . واحْذَرْهُم أَن يَفتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ** ﴾[1] .

وهذا القسم صحيح ، وفيما عندنا غنية عنه ، ولكن يَجوز ذكره ، وروايته للاستشهاد به ، ولإقامة الحجة عليهم من كتبهم ، وذلك مثل : ما ذكر فى صاحب موسى ـ عليه السلام ـ ، وأنه الخضر ، فقد ورد فى الحديث الصحيح ، ومثل : ما يتعلق بالبشارة بالنبى ـ ﷺ ـ ، وبرسالته[2] وأن التوحيد هو دين جميع الأنبياء ، مما غفلوا عن تحريفه ، أو حرفوه ، ولكن بقى شعاع منه يدل على الحق .

وفى هذا القسم : ورد قوله ـ ﷺ ـ . « **بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار** »[3] ، قال الحافظ فى الفتح : أى : لا ضيق عليكم فى الحديث عنهم ، لأنه كان تقدم منه ـ ﷺ ـ الزجر عن الأخذ عنهم ، والنظر فى كتبهم ، ثم حصل التوسع فى ذلك ، وكان النهى وقع قبل استقرار الأحكام الإسلامية ، والقواعد الدينية ، خشية الفتنة ، ثم لما زال المحذور وقع الإذن فى ذلك ، لما فى سماع الأخبار التى كانت فى زمنهم من الاعتبار[4] .

---

(١) المائدة ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) قد أفضت القول فى هذا فى كتابى « السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة » ص ٢٥٣ ـ ٢٥٩ .

(٣) كتاب أحاديث الأنبياء ـ باب ما ذكر عن بنى إسرائيل .

(٤) المائدة : ٤١ .

« القسم الثانى » : ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه ، وذلك مثل : ماذكروه فى قصص الأنبياء ، من أخبار تطعن فى عصمة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ، كقصة يوسف ، وداود ، وسليمان ومثل : ماذكروه فى توراتهم : من أن الذبيح إسحاق ، لا إسماعيل ، فهذا لا تجوز روايته وذكره إلا مقترناً ببيان كذبه ، وأنه مما حرفوه ، وبدلوه ، قال تعالى : ﴿ **يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ** ﴾ .

وفى هذا القسم : ورد النهى عن النبى ـ ﷺ ـ للصحابة عن روايته ، والزجر عن أخذه عنهم ، وسؤالهم عنه ، قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ فى حديث : « **حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج** » : المراد جواز التحدث عنهم بما كان من أمر حسن : أما ما علم كذبه فلا[1] .

ولعل هذا هو المراد من قوله ـ ﷺ ـ : « **يا معشر المسلمين : كيف تسألون أهل الكتاب ، وكتابكم الذى أنزل على نبيه ـ ﷺ ـ أحدث[2] ، تقرءونه لم يشب[3] ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله ، وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو من عند الله ، ليشتروا به ثمناً قليلاً ، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ، لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم** »[4] .

« القسم الثالث » : ما هو مسكوت عنه ، لا من هذا ، ولا من ذاك ، فلا نؤمن به ، ولا نكذبه ، لاحتمال أن يكون حقا فنكذبه ، أو باطلا فنصدقه ، ويجوز حكايته لما تقدم من الإذن فى الرواية عنهم . ولعل هذا القسم هو المراد بما رواه أبو هريرة ، قال : « كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « **لا تصدقوا أهل الكتاب ، ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل إليكم** »[5] الآية ، ومع هذا : فالأولى عدم ذكره ، وأن لا نضيع الوقت فى

---

(١) فتح البارى ج ٦ ص ٣٨٨ .

(٢) أحدث : آخر الكتب السماوية نزولاً من عند الله .

(٣) لم يخلط بغيره قط ، لأنه محفوظ من التبديل ، والزيادة .

(٤) صحيح البخارى كتاب (الاعتصام بالكتاب والسنة) ، باب قول النبى ـ ﷺ ـ : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء » .

(٥) المرجع السابق ، وكتاب التفسير سورة البقرة ، باب : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا » الآية والآية التى أشار إليها فى سورة العنكبوت : ٤٦ .

الاشتغال به ، وفى هذا المعنى : ورد حديث أخرجه الإمام أحمد ، وابن أبى شيبة والبزار : من حديث جابر : أن عمر أتى النبى - ﷺ - بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه عليه ، فغضب ، وقال : « **لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شىء فيخبروكم بحق ، فتكذبوا به ، أو بباطل ، فتصدقوا به ، والذى نفسى بيده ، لو أن موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى** » : ورجاله موثقون : إلا أن فى مجالد - أحد رواته - ضعفاً ، وأخرج البزار أيضاً ، من طريق عبد الله بن ثابت الأنصارى : أن عمر نسخ صحيفة من التوراة ، فقال رسول الله ﷺ : « **لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء** » ، وفى سنده جابر الجعفى ، وهو ضعيف ، قال الحافظ فى الفتح : واستعمله : « يعنى البخارى » فى الترجمة : يعنى عنوان الباب ؛ لورود ما يشهد بصحته من الحديث الصحيح .

قال ابن بطال عن المهلب : « هذا النهى فى سؤالهم عما لا نص فيه ، لأن شرعنا مكتف بنفسه ، فإذا لم يوجد فيه نص ، ففى النظر والاستدلال غنى عن سؤالهم ، ولا يدخل فى النهى سؤالهم عن الأخبار المصدقة لشرعنا ، والأخبار عن الأمم السالفة»(١) يعنى .

تشديد سيدنا عمر على من كان يكتب شيئاً من كتب اليهود :

وقد كانت مقالة النبى - ﷺ - لعمر ، وغضبه لكتابته شيئاً من التوراة درساً تعلم منه سيدنا عمر ، ومنهجاً ؛ أخذ الناس به .

روى الحافظ أبويعلى ، بسنده ، عن خالد بن عرفطة قال : «كنت جالساً عند عمر ، إذ أتى برجل من عبد القيس ، مسكنه بالسوس ، فقال له عمر : أنت فلان ابن فلان العبدى ؟ قال : نعم قال : وأنت النازل بالسوس ؟ قال : نعم ، فضربه بقناة معه ، فقال الرجل . ما لى يا أمير المؤمنين ؟ !

فقال له عمر : اجلس ، فجلس ، فقرأ عليه : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون * نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين** ﴾(٢) فقرأها عليه

(١) فتح البارى ج ١٣ ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .
(٢) يوسف ١ - ٣ .

ثلاثاً ، وضربه ثلاثاً ، فقال له الرجل : ما لى يا أمير المؤمنين ؟! قال : أنت الذى نسخت كتاب دانيال[1] قال : مرنى بأمرك أتبعه ، قال : انطلق فامحه بالحميم[2] والصوف الأبيض ، ثم لا تقرأه ، ولا تقرئه أحدا من الناس ، فلئن بلغنى عنك أنك قرأته ، أو أقرأته أحدا من الناس لأنهكنك عقوبة ، ثم قال : اجلس ، فجلس بين يديه ، فقال : انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب ، ثم جئت به فى أديم[3] ، فقال لى رسول الله – ﷺ – : « **ما هذا فى يدك يا عمر** ؟ » قلت : يا رسول الله : كتاب نسخته لنزداد به علماً إلى علمنا ، فغضب رسول الله – ﷺ – ، حتى احمرت وجنتاه ، ثم نودى بالصلاة جامعة فقالت الأنصار : أغضب نبيكـم ؟ السلاح السلاح ، فجاءوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله – ﷺ – ، فقال : « **يا أيها الناس إنى قد أوتيت جوامع الكلم ، وخواتيمه ، واختصر لى اختصارا ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية ، فلا تهوكوا ، ولا يغرنكم المتهوكون** »[4] .

قال عمر : فقمت ، فقلت : « رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا وبك رسولاً ، ثم نزل رسول الله – ﷺ – » ، وروى الحافظ أبوبكر الإسماعيلى بسنده عن جبير بن نفير : أن رجلين كانا بحمص فى خلافة عمر – رضى الله عنه – ، فأرسل إليهما فيمن أرسل من أهل حمص ، وكانا قد اكتتبا من اليهود شيئاً فى صحيفة ، فأخذاها معهما يستفتيان فيهما أمير المؤمنين : عمر ، فلما قدما عليه قالا : إنا بأرض أهل الكتاب ، وإنا نسمع منهم كلاماً تقشعر منه جلودنا ، أفنأخذ منه ونترك ؟ ، فقال سأحدثكما .. ثم ذكر قصته لما كتب شيئاً أعجبه من كلام اليهود ، وقرأه عليه ، فغضب الرسول ، وصار يمحوه بريقه ويقول : « **لا تتبعوا هؤلاء ، فإنهم قد هوكوا ، وتهوكوا** »[5] ، حتى محا آخره ، حرفا حرفا ، ثم قال عمر : فلو علمت أنكما كتبتمـا منه شيئاً جعلتكما نكالاً لهذه الأمة ، قالا : والله ما نكتب منه شيئاً ، ثم خرجا بصحيفتهما ، فحفرا لها ، وعمقا فى الحفر ، ودفناها ، فكان آخر

---

(١) أحد أنبياء بنى إسرائيل .
(٢) الماء الحار .
(٣) أديم : جلد .
(٤) فى القاموس « المتهوك المتحير » أى المتحيرون الشاكون .
(٥) أى شكوا ، وشككوا غيرهم .

العهد منها(١) ، وليت من جاء بعد عمر فعل هذا .

وقال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ فى حديث : « حدثوا عن بنى إسرائيل ، ولا حرج » : « من المعلوم أن النبى ـ ﷺ ـ لا يجيز التحدث بالكذب ـ فالمعنى : حدثوا عن بنى إسرائيل بما لا تعلمون كذبه ، وأما ما تجوزونه فلا حرج عليكم فى التحدث به عنهم ، وهو نظير قوله : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ، ولا تكذبوهم ، ولا يرد الإذن(٢) ، ولا المنع من التحدث بما يقطع بصدقه »(٣) .

وقال الحافظ فى الفتح فى حديث : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم » : أى إذا كان ما يخبرونكم به محتملاً ، لئلا يكون فى نفس الأمر صدقاً فتكذبوه ، أو كذبا فتصدقوه ، فتقعوا فى الحرج ، ولم يرد النهى عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه ، نبه على ذلك الشافعى رحمه الله ويؤخذ من هذا الحديث : التوقف عن الخوض فى المشكلات والجزم فيها بما يقع فى الظن ، وعلى هذا يحمل ما جاء عن السلف من ذلك »(٤) .

وبهذا البيان والتوفيق بين المرويات فى هذا الباب : ظهر أن لا تعارض بينها ، ولا يخالف بعضها بعضاً ، وأن لكل حالة حكمها .

مقالة لابن تيمية فى هذا :

وللإمام تقى الدين أحمد بن تيمية فى هذا : مقالة جيدة ، قال ـ رحمه الله ـ : الاختلاف فى التفسير على نوعين : منه ما مستنده النقل فقط ومنه ما يعلم بغير ذلك ، إذ العلم : إما نقل مصدق ، وإما استدلال محقق . والمنقول : إما عن المعصوم ، وإما عن غير المعصوم .. وهذا هو النوع الأول ، فمنه ما يمكن معرفة الصحيح منه ؛ والضعيف ، ومنه مالا يمكن معرفة ذلك فيه ، وهذا القسم الثانى من المنقول ، وهو : مالا طريق إلى

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤١٢ ـ ٤١٣ .

(٢) هكذا فى النسخة التى تحت يدى ، ولعل فيها نقصاً أى ولا يرد الإذن فيما علم كذبه حتى يكون الكلام متناسقاً متجهاً .

(٣) فتح البارى ج ٦ ص ٣٨٨ .

(٤) فتح البارى ج ٨ ص ١٣٨ .

الجزم بالصدق منه ، فالبحث عنه مما لا فائدة فيه ، والكلام فيه من فضول الكلام ، وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته : فإن الله نصب على الحق فيه دليلاً .

فمثال ما لا يفيد ، ولا دليل على الصحيح منه : اختلافهم فى أحوال « أصحاب الكهف » ، وفى البعض الذى ضرب به موسى البقرة ، وفى مقدار سفينة نوح ، وما كان خشبها ، وفى اسم الغلام الذى قتله الخضر ، ونحو ذلك ، فهذه الأمور طريق العلم بها : النقل ، وما لم يكن كذلك ، بل كان يؤخذ من أهل الكتاب ، كالمنقول عن كعب ، ووهب ، ومحمد بن إسحاق ، وغيرهم ممن أخذ عن أهل الكتاب ، فهذا لا يجوز تصديقه ، ولا تكذيبه إلا بحجة ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « **إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ، ولا تكذبوهم ، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه ، وإما أن يحدثوا بباطل فتصدقوه** » .

وكذلك : ما نقل عن التابعين ، وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب ، فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض ، وما نقل فى ذلك عن بعض الصحابة نقلاً صحيحاً : فالنفس إليه أسكن مما نقل عن بعض التابعين ، لأن احتمال أن يكون سمعه من النبى ـ ﷺ ـ ، أو من بعض من سمعه منه أقوى من نقل التابعى ، ومع جزم الصاحب فيما يقوله ، كيف يقال : إنه أخذه من أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم ؟ ![1] والمقصود بيان أن الاختلاف الذى لا يعلم صحيحه ، ولا يفيد حكاية الأقوال فيه : هو كالمعرفة ، لما يروى من الحديث الذى لا دليل على صحته ، وأمثال ذلك . وأما القسم الأول الذى يمكن معرفة الصحيح منه : فهذا موجود فيما يحتاج إليه ، ولله الحمد[2] .

وقال فى موضع آخر : « وغالب ذلك : ـ يعنى المسكوت عنه ـ مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر دينى ، ولهذا : تختلف أقوال علماء أهل الكتاب فى مثل هذا كثيراً ، ويأتى عن المفسرين خلاف بذلك . كما يذكرون فى مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ، ولون

---

(١) قد أجبنا عن ذلك : بأنهم أخذوا عنهم لما فهموا من الإذن والإباحة من قوله ـ ﷺ ـ « حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » مادام لم يدل دليل على كذبه .

(٢) مقدمة فى أصول التفسير ص ١٨ ـ ٢٠ .

كلبهم ، وعدتهم ، وعصا موسى ، من أى الشجر كانت ، وأسماء الطيور التى أحياها الله لإبراهيم ، وتعيين البعض الذى ضرب به المقتول من البقرة ، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى ، إلى غير ذلك[1] ، مما أبهمه الله فى القرآن الكريم ، مما لا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دنياهم ، ولا دينهم ، ولكن نقل الخلاف عنهم فى ذلك جائز ، كما قال تعالى :

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعهُم كَلْبهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادسهُمْ كَلبهُمْ رَجْمًا بالْغَيبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَة وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُم قُل رَّبِى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلمهُمْ إلاَّ قَليلٌ فَلاَ تُمارِ فِيهِم إلاَّ مِرآءً ظَاهِرًا وَّلَا تَسْتَفت فِيهِم مِّنهُمْ أَحَدا ﴾[2] .

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب فى هذا المقام : وتعليم ماينبغى فى مثل هذا ، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ، ضعف القولين الأولين ، وسكت عن الثالث ، فدل على صحته ، إذ لو كان باطلاً لرده على ردهما ، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته ، فيقال فى مثل هذا : « قُل رَّبِّى أَعْلَم بِعِدَّتِهِمْ » ، فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ، ممن أطلعه الله عليه ، فلهذا قال : « فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرا » ، أى لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ، ولا تسألهم عن ذلك ، فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب ، فهذا أحسن ما يكون فى حكاية الخلاف : أن تستوعب الأقوال فى ذلك المقام ، وأن ينبه على الصحيح منها ، ويبطل الباطل ، وتذكر فائدة الخلاف ، وثمرته ، لئلا يطول النزاع ، والخلاف فيما لا فائدة تحته ، فيشتغل عن الأهم ، فأما من حكى خلافا فى مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فهو ناقص ، إذ قد يكون الصواب فى الذى تركه ، أو يحكى الخلاف ويطلقه ، ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضاً ، فإن صحح غير الصحيح عامداً ، فقد تعمد الكذب ، أو جاهلاً ، فقد أخطأ ، كذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته ، أو حكى أقوالاً متعددة لفظاً ، ويرجع حاصلها إلى قول ، أو قولين معنى ، فقد ضيع الزمان ، وأكثر مما ليس بصحيح ، فهو

---

(١) مما ذكره آنفا فى مقالته السابقة ولم يذكره هنا .

(٢) الكهف : ٢٢ .

كلابس ثوبى زور ، والله الموفق للصواب[1] .

أسباب الخطأ فى التفسير بالمأثور ، والتفسير بالرأى والاجتهاد

يمكننا إجمال أهم أسباب الخطأ والغلط فى التفسير بالمأثور فى الأمور الآتية :

١ ـ تنزيل اللفظ القرآنى على غير ما يراد منه ، وإلصاق ذلك بالقرآن لصقاً ، من غير أن يكون فى اللفظ دلالة عليه ، بحيث لا يشهد له سياق ، ولا سباق ، ويصير كالبقلة الشاذة بين الزهور ، والورود .

٢ ـ عدم التمييز بين الصحيح والضعيف ، والموضوع ، وبين المقبول ، والمردود ، وعدم التفرقة بين الجيد والردىء ، والاكتفاء بذكر الأسانيد من غير نقد للراوة .

٣ ـ عدم التمييز بين الدخيل ، وغير الدخيل ، والإكثار من النقل عن أهل الكتاب الذين أسلموا ، وفيه الكثير من الإسرائيليات والخرافات ، والأباطيل التى لا يشهد لها نقل صحيح ، ولا عقل سليم .

٤ ـ حذف الأسانيد ، ونقل الأقوال من غير عزوها إلى قائليها ، ولا بيان مم استقيت ؟ ، ومن أين جاءت ؟ ، وبذلك : التبس الحق بالباطل ، واختلط الخطأ بالصواب ، فصار من يسنح له رأى يذكره ، ولو كان خطأً ، ومن يقع على قول ينقله ، ولو كان باطلا ، فجاء من بعدهم فنقله ، ظاناً أن له أصلا ، وهو قول مخترع ، مبتدع ، باطل .

وقال الإمام ابن تيمية ما خلاصته :

وأما التفسير بالرأى والاجتهاد : فقد وقع فيه الغلط من جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين ، وتابعيهم بإحسان ، فإن التفاسير التى يذكر فيها كلام هؤلاء صرفا ؛ لا يكاد يوجد فيها شىء من هاتين الجهتين ، مثل : تفسير عبد الرزاق ، والفريابى ، ووكيع ابن الجراح ، وعبد بن حميد ، ومثل : تفسير الإمام أحمد ، وإسحاق بن راهويه ، وبقى من مخلد ، وأمثالهم ، والذين أخطأوا فى التفسير فريقان : « أحدهما » : قوم اعتقدوا معانى ، ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها .

---

(١) مقدمة فى أصول التفسير ص ٤٦ ، ٤٧ .

ثانيهما : قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب ، من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن ، والمنزل عليه ، والمخاطب به .

فالأولون : راعوا المعنى الذى رأوه ، من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان ، والآخرون : راعوا مجرد اللفظ . وما يجوز عندهم أن يريد به العربى ، من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به ، وسياق الكلام ، ثم هؤلاء كثيراً ما يغلطون فى احتمال اللفظ لذلك المعنى فى اللغة ، كما يغلط فى ذلك الذين قبلهم ، كما أن الأولين كثيراً ما يغلطون فى صحة المعنى الذى فسروا به القرآن ، كما يغلط فى ذلك الآخرون ، وإن كان نظر الأولين إلى المعنى أسبق ، ونظر الآخرين إلى اللفظ أسبق .

والأولون صنفان : تارة يسلبون لفظ القرآن ما دل عليه ، وأريد به ، وتارة يحملونه على ما لم يدل عليه ، ولم يرد به ، وفى كلا الأمـرين قد يكون ما قصدوا نفيه ، وإثباته من المعنى باطلا ، فيكون خطؤهم فى الدليل ، والمدلول ، وقد يكون حقاً ، فيكون خطؤهم فى الدليل ، لا فى المدلول ، . وهذا كما أنه وقع فى تفسير القرآن ، فإنه وقع فى تفسير الحديث .

فالذين أخطأوا فى الدليل والمدلول مثل : طوائف من أهل البدع اعتقدوا مذهباً يخالف الحق الذى عليه الأمة الوسط ، الذين لا يجتمعون على ضلالة ، كسلف الأمة ، وأئمتها ، وعمدوا إلى القرآن ، فتأولوه على آرائهم ، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لا فى آرائهم ، ولا فى تفسيرهم ، وعمدوا إلى القرآن ، فتأولوه على آرائهم ، تارة يستدلون بآيات على مذهبهم ، ولا دلالة فيها ، وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يحرفون به الكلم عن مواضعه .

ومن هؤلاء : فرق الخوارج ، والروافض ، والجهمية ، والمعتزلة ، والقدرية ، والمرجئة وغيرهم .

* * *

تفاسير المعتزلة

والمعتزلة من أعظم الناس كلاماً وجدالاً ، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم ، مثل : تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم شيخ إبراهيم بن إسماعيل بن علية ، الذى كان

يناظر الشافعى ، ومثل : كتاب أبى على الجبائى ، والتفسير الكبير للقاضى عبدالجبار ابن أحمد الهمدانى ، والتفسير لعلىّ بن عيسى الرمانى ، والكشاف لأبى القاسم الزمخشرى .

والمقصود : أن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ، ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه ، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا من أئمة المسلمين لا فى رأيهم ، ولا فى تفسيرهم ، وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة ، وذلك من جهتين : تارة من العلم بفساد قولهم ، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن ، إما دليلاً على قولهم ، أو جوابا على المعارض لهم ، ومن هؤلاء : من يكون حسن العبارة فصيحاً ، ويدس السم فى كلامه ، وأكثر الناس لا يعلمون ، كصاحب الكشاف ونحوه ، حتى أنه يروج على خلق كثير من أهل السلف كثير من تفاسيرهم الباطلة .

* * *

تفسير ابن جرير وابن عطية وأمثاله

وتفسير ابن عطية وأمثاله : أتبع للسنة ، وأسلم من البدعة ، ولو ذكر كلام السلف المأثور عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل فإنه كثيرًا ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبرى ، وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدرًا ، ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف ، لا يحكيه بحال ، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين ، وإنما يعنى بهم طائفة من أهل الكلام ، الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم ، وإن كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة ، لكن ينبغى أن يعطى كل ذى حق حقه ، ويعرف أن هذا من جملة التفسير على المذهب .

فإن الصحابة ، والتابعين ، والأئمة إذا كان لهم فى تفسير الآية قول ؛ وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر ، لأجل مذهب اعتقدوه ، وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين ، صار مشاركاً للمعتزلة ، وغيرهم من أهل البدع ، فى مثل هذا .

وفى الجملة : من عدل عن مذاهب الصحابة ، والتابعين ، وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً فى ذلك ، بل مبتدعاً ، وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه ، فالمقصود بيان طرق العلم ، وأدلته ، وطرق الصواب .

ونحن نعلم : أن القرآن قرأه الصحابة ، والتابعون ، وتابعوهم ، وأنهم كانوا أعلم

بتفسيره ، ومعانيه ، كما أنهم أعلم بالحق الذى بعث الله به رسوله - ﷺ - ، فمن خالف ، وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ فى الدليل والمدلول جميعاً .. والمقصود هنا : التنبيه على مثار الاختلاف فى التفسير ، وأن من أعظم أسبابه : البدع الباطلة ، التى دعت أهلها إلى أن حرفوا الكلم عن مواضعه ، وفسروا كلام الله ورسوله - ﷺ - بغير ما أُريد به ، وتأولوه على غير تأويله .

وأما الذين يخطئون فى الدليل لا فى المدلول : فمثل كثير من الصوفية والوعاظ ، والفقهاء وغيرهم ، يفسرون بمعان صحيحة ، لكن القرآن لا يدل عليها ، مثل : كثير مما ذكره أبو عبدالرحمن السلمى[1] فى حقائق التفسير وإن كان فيما ذكروه ما هو معان باطلة ، فإن ذلك يدخل فى القسم الأول ، وهو الخطأ فى الدليل والمدلول جميعاً ، حيث يكون المعنى الذى قصدوه فاسدًا[2] . أقول : وهو فصل قيم جيد ، يدل على علم واسع بالتفسير والمفسرين ومثل هذا : يمكن أن يقال فى التفسير بالمأثور ، فقد يذكرون قصة صحيحة ، ولكن لفظ القرآن لا يدل عليها ، فيكون الخطأ فى الدليل ، يعنى : فى دلالة الألفاظ على هذا ، وقد تكون القصة باطلة فى نفسها ولا يدل لفظ القرآن عليها ، ويتكلف فى دلالة اللفظ عليها ، فيكون الخطأُ فى الدليل والمدلول ، وذلك مثل : ما ذكره بعض المفسرين فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَهَلْ أَتَاكَ نَبأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُم قَالُوا لَا تَخَفْ خَصمَان بَغَى بَعضُنَا على بَعْض فَاحكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتسعُونَ نَعجَةً وَلِىَ نَعجَةٌ وَاحِدَةٌ** ﴾[3] الآيات ، فقد ذكروا فى هذا ، قصة باطلة وهى : قصة داود مع « أوريا » : قائد جيشه ، وزوجته الجميلة ، التى أراد داود ضمها إلى نفسه ، مع أنه كانت له تسع وتسعون امرأة .. فالقصة باطلة قطعاً ، كما سنبين ذلك فيما يأتى - إن شاء الله تعالى - ثم إنهم فى سبيل هذا : فسروا النعجة بالمرأة ، وبذلك أخطأوا فى الدليل والمدلول .

* * *

---

(١) هو غير أبى عبدالرحمن السلمى التابعى الجليل الذى ذكرناه فى صدر الكتاب .
(٢) مقدمة فى أصول التفسير من ص ٣٣ - ٤٢ ، والإتقان فى علوم القرآن ج ٢ ص ١٧٨ .
(٣) سورة ص ٢١ - ٢٤ .

الاختلاف بين السلف فى التفسير اختلاف تَنَوُّع

قلنا : إن الصحابة تلقوا معظم تفسير القرآن عن النبى - ﷺ - ولذا : كان النزاع بين الصحابة فى تفسير القرآن قليلاً جداً ، وهـو : إن كان بين التابعين أكثر منه بين الصحابة ، فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم ، ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة ، وربما تكلموا فى ذلك بالاستنباط والاستدلال ، بل ربما تكلموا فى ذلك بما سمعوه من أهل الكتاب الذين أسلموا .

والخلاف بين السلف فى التفسير قليل ، وأما خلافهم فى الأحكام : فهو أكثر من خلافهم فى التفسير ، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى : اختلاف تنوع وتفنن فى العبارة ، لا اختلاف تضاد ، وذلك نوعان :

« أحدهما » : أن يعبر واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى فى المسمى غير المعنى الآخر ، مع اتحاد المسمى ، كتفسيرهم :

« الصراط المستقيم » ، فقال بعضهم : هو القرآن - أى اتباعه - لقول النبى - ﷺ - فى حديث على الذى رواه الترمذى ، ورواه أبو نعيم من طرق متعددة : « هو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم » وقال بعضهم : هـو الإسلام لقوله - ﷺ - : فى حديث النواس بن سمعان ، الذى رواه أحمد ، والترمذى والنسائى مرفوعاً : « ضرب الله مثلا ، صراطاً مستقيما ، وعلى جنبتى الصراط سوران ، وفى السورين أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وداع يدعو من فوق الصراط ، وداع يدعو على رأس الصراط قال : فالصراط المستقيم : هو الإسلام ، والسوران : حدود الله ، والأبواب : محارم الله ، والستور المرخاة هى : حدود الله ، والداعى على رأس الصراط : كتاب الله ، والداعى فوق الصراط : واعظ الله فى قلب كل مؤمن » فهذان القولان متفقان ، لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر ، كما أن لفظ « صراط » : يشعر بوصف ثالث .

وكذا قول من قال : هو السنة والجماعة ، وقول من قال : هو طريق العبودية ، وقول من قال : هو طاعة الله ورسوله - ﷺ - ، فكلهم أشاروا إلى ذات واحدة ، لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها .

« الصنف الثانى » : أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل ، وتنبيه المستمع على النوع ، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود فى عمومه وخصوصه ، مثل ذلك : ما نقل فى قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ أَورَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصطَفَينَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُم ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ** ﴾[1] فمعلوم : أن الظالم لنفسه يتناول : المضيع للواجبات والمنتهك للحرمات ، والمقتصد يتناول : فاعل الواجبات وتارك المحرمات ، والسابق : يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات ـ أى النوافل ـ مع الواجبات ، فالظالمون هم : أصحاب الشمال ، والمقتصدون هم : أصحاب اليمين ، والسابقون هم المقربون .

ثم إن كلا منهم يذكر هذا فى نوع من أنواع الطاعات ، كقول القائل : السابق : الذى يصلى فى أول الوقت ، والمقتصد : الذى يصلى فى أثنائه ، والظالم لنفسه : الذى يؤخر العصر إلى الاصفرار ، أو يقول السابق : المحسن بالصدقة مع الزكاة ، والمقتصد : الذى يؤدى الزكاة المفروضة فقط ، والظالم مانع الزكاة .

وهذان الصنفان اللذان ذكرناهما فى تنوع التفسير ؛ تارة : لتنوع الأسماء والصفات ، وتارة : لذكر بعض أنواع المسمى ، هو الغالب فى تفسير سلف الأمة ، الذى يظن أنه مختلف .

ومن التنازع الموجود منهم ؛ مايكون اللفظ فيه محتملاً للأمرين : إما لكونه مشتركاً فى اللغة ، كلفظ القسورة[2] ، الذى يراد به الرامى ، ويراد به الأسد ، ولفظ عسعس[3] ، الذى يراد به إقبال الليل وإدباره ، وإما لكونه متواطئاً فى الأصل ، لكن المراد به أحد النوعين ، أو أحد الشيئين ، كالضمائر ، فى قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوسَيْن أو أدنَى** ﴾[4] وكلفظ : ﴿ **والفجر وليال عشر والشفع والوتر** ﴾ وما أشبه ذلك .

فمثل هذا ؛ يجوز أن يراد به كل المعانى التى قالها السلف ، وقد لا يجوز ذلك ،

---

(١) فاطر : ٣٢ .
(٢) المدثر : ٥١ .
(٣) التكوير : ١٧ .
(٤) النجم : ٨ ، ٩ .

فالأول : إما لكون الآية نزلت مرتين ، فأُريد به هذا تارة ؛ وهذا تارة أُخرى ، وإما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معنياه ، إذ قد جوز ذلك أكثر الفقهاء المالكية ، والشافعية والحنبلية ، وكثير من أهل الكلام ، وإما لكون اللفظ متواطئاً ، فيكون عاماً إذا لم يكن لتخصيصه موجب ، فهذا النوع إذا صح فيه القولان ؛ كان من الصنف الثانى .

ومن الأقوال الموجودة عنهم ، ويجعلها بعض الناس اختلافاً : أن يعبروا عن المعانى بألفاظ متقاربة ، لا مترادفة ، فإن الترادف فى اللغة قليل وأما فى ألفاظ القرآن : فإما نادر ، وإما معدوم ، وقل أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدى جميع معناه ، وهذا من أسباب إعجاز القرآن ، فإذا قال القائل : ﴿ **يَومَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا** ﴾[1] إن المور هو : الحركة ،كان تقريباً ، إذ المور : حركة خفيفة سريعة ، وكذلك إذا قال : الوحى : الإعلام ، أو قيل : أوحينا إليك : أنزلنا إليك أو قيل : ﴿ **وَقَضَينَا إلى بَنِى إسرَائِيلَ** ﴾[2] أى أعلمنا ، وأمثال ذلك ، فهذا كله تقريب لا تحقيق ؛ فإن الوحى هو : إعلام سريع خفى ، والقضاء إليهم ؛ أخص من الإعلام ، فإن فيه إنزالاً إليهم وإيحاء إليهم ؛ والعرب تضمن الفعل معنى الفعل ، وتعديه تعديته .. ومثل ذلك : ما قاله أحدهم فى قوله تعالى : ﴿ **وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ** ﴾[3] أى تحبس . وقال الآخر : ترتهن ، ونحو ذلك ، لم يكن اختلاف التضاد وإن كان المحبوس قد يكون مرتهنا ، وقد لا يكون ، إذ هذا تقريب للمعنى ، كما تقدم .

وجميع عبارات السلف فى مثل هذا نافع جداً ، لأن مجموع عباراتهم أدل على المقصود ، من عبارة أو عبارتين ، وهذا الفصل الذى لخصته من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، من النفاسة بمكان[4] .

* * *

---

(١) الطور : ٩ .
(٢) الإسراء : ٤ .
(٣) الأنعام : ٧٠ .
(٤) مقدمة فى أصول التفسير ٨ - ١٦ ، الإتقان ج ٢ ص ١٧٦ - ١٧٧ .

التعارض بين التفسير بالمأثور والتفسير بالاجتهاد
وما يتبع فى الترجيح بينهما

١ ـ التعارض معناه : التقابل والتنافى ، بأن يدل أحدهما على إثبات والآخر على نفى مثلا ، بحيث لا يمكن اجتماع مقتضاهما ، كأن كلا منهما وقف فى عرض الطريق ، فمنع الآخر من السير فيه ، وأما إذا كانا غير متنافيين ؛ بأن جاز اجتماعهما ؛ فلا يسمى تعارضاً ، ولو كانا متغايرين وذلك مثل ما ذكرناه آنفاً فى تفسيرهم : « الصراط المستقيم » : بأقوال كثيرة ، ولكنها غير متنافية ، ومثل ما ذكروه فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ** ﴾ ، فإنها وإن كانت متغايرة فهى غير متنافية ، ويمكن اجتماعها ، لأن كل واحد ذكر فرداً من أفراد العام .

٢ ـ التفسير بالمأثور الثابت بالنص القطعى لا يمكن أن يعارض بالتفسير بالرأى والاجتهاد ، لأن الرأى إما أن يكون قطعياً ، إن كان موافقاً للدليل العقلى ، أو للدليل النقلى القطعى ، وإما أن يكون ظنياً ، أما الأول . فلأنه تعارض بين قطعيين ، وأما الثانى : فلأن الرأى الخالى من الدليل العقلى والنقلى اجتهاد ، يستند إلى القرائن والأمارات والدلالات الظاهرة فحسب ، وذلك : لا يوصل إلا إلى الظن فحسب ، ولا يوصل إلى علم قطعى ، ولا يمكن أن يعارض الظنى القطعى وإلا لزم مساواة المرجوح بالراجح ، وذلك باطل فى قضية العقل .

٣ ـ أما إذا كان المأثور ليس نصاً قطعياً بل ظاهراً ، أو خبر آحاد أو نحو ذلك ، مما لا يوجب العلم القطعى ، وقد عارضه التفسير بالرأى والاجتهاد .

وفى هذه الحالة لا يخلو : إما أن يكون ما حصل فيه التعارض مما لا مجال للرأى فيه كسبب النزول ، أو أحوال القيامة ، واليوم الآخر ، أو للرأى فيه مجال .

فإن كان الأول : لم يقبل الرأى ، وكان المعول عليه فيه هو المأثور فقط ، إن كان عن النبى ـ ﷺ ـ ، أو عن الصحابى بشرط أن لا يكون معروفاً بالأخذ عن أهل الكتاب ، كما أسلفنا ، وإن كان الثانى : فلا يخلو : إما أن يمكن الجمع بين المأثور والرأى ، أم لا .

فإن أمكن الجمع : حمل النظم الكريم عليهما ، وذلك مثل : تفسير القوة ، فى قوله تعالى : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ** ﴾ بالرمى ، فإن هذا

لا ينافى تفسيره بكل مستحدث من أنواع الأسلحة التى تستعمل فى القذف ، والرمى كالمدافع ، والصواريخ والقنابل ، ونحوها ، لأنها كلها داخلة تحت مسمى الرمى .

وإن لم يمكن الجمع : حمل النظم الكريم على ما ورد من المأثور ، إن كان ثابتا بطريق صحيح ، عن النبى - ﷺ - ، أو بطريق صحيح عن الصحابة ، بشرط أن لا يكون الصحابى معروفاً برواية الإسرائيليات ، لأن الصحابة أعلم بالقرآن والمراد به منا ، لمشاهدتهم الوحى وتنزلاته ، والملابسات المحيطة به ، ولأنهم عرب فصحاءُ أُصلاءُ .

وأما المنقول عن التابعين ، ولاسيما أهل الكتاب الذين أسلموا : فإن التفسير بالرأى حينئذ يكون مقدماً على التفسير بالمأثور .

أما إذا لم ينقل عن أهل الكتاب ، أو عمن عرف بالأخذ عنهم ، وكان معارضاً للرأى : فينظر فى الأمر : فما ثبت منهما بدليل سمعى ، أو شهد له دليل سمعى : حمل النظم الكريم عليه ، وأما إذا لم يثبت أحدهما بسمع ، ولم يؤيد بسمع ، فإن كان الاستدلال طريقاً إلى تقوية أحدهما ، وترجيحه : رجح ما قواه الدليل ، فإذا تعارضت الأدلة فى المراد : علم أنه قد صار من المتشابهات ، فيؤمن به على ما أراد الله تعالى ، ولا يتهجم على تعيين المراد من النظم الكريم ، وينزل حينئذ منزلة المجمل قبل تفصيله ، والمشتبه قبل بيانه .

٤ - يقدم المأثور الثابت بطريق صحيح عن النبى - ﷺ - ، أو عن الصحابة - رضوان الله عليهم - ، كما تقدم ، إذا لم يكن المعنى الذى دُل عليه بالرأى والاجتهاد موافقاً لما قام عليه الدليل العقلى ، أو موافقاً لقطعى آخر نقلى ، أو مستنداً إلى قطعى علمى كالنظريات العلمية ، التى أصبحت حقائق ثابتة مقررة ، ككروية الأرض مثلاً ، ودورانها حول نفسها ، وحدوث الخسوف والكسوف ، وإلا ففى هذه الحالة يؤول المأثور ليرجع إلى الرأى الموافق للدليل العقلى ، أو النقلى القطعى ، أو العلم القطعى ؛ إذا أمكن تأويله ، جمعاً بين الأدلة ، وذلك : لأن إعمال الدليلين أولى من إلغاء أحدهما ، وإن لم يمكن حمل النظم الكريم فى هذه الحالة على ما يقتضيه الرأى والاجتهاد ، ترجيحاً للراجح حينئذ على المرجوح [١] .

---

(١) منهج الفرقان فى علوم القرآن ج ٢ ص ٥٠ - ٥٢ .

أهم كتب التفسير بالمأثور

وسأقتصر فى هذا الفصل على الكتب المطبوعة التى هى فى أيدى الناس ، ولن أذكر من المخطوطات ، إلا إذا كان أصلاً لبعض المطبوعات كتفسير الثعلبى ، فإنه أصل لتفسير البغوى ، فى التفسير المأثور ، كما ذكر ذلك البغوى فى مقدمة تفسيره[1] .

ومن هذه الكتب : ما كله أو معظمه فى التفسير بالمأثور ، كتفسير ابن جرير ، والسيوطى ، ومنها : ما اشتمل على المأثور ، والرأى ، والاجتهاد كتفسير الثعلبى ، والبغوى ، وابن كثير ، وإليك كلمة موجزة عن كل منها :

جامع البيان فى تفسير القرآن لابن جرير الطبرى

ومؤلفه : هو الإمام الحافظ ، المفسر ، الفقيه ، المؤرخ أبو جعفر محمد بن جرير ، بن يزيد ، بن كثير ، بن غالب الطبرى[2] ولد بآمل من بلاد طبرستان ، سنة أربع وعشرين ومائتين للهجرة ، لقى الكثيرين من الشيوخ وأخذ عنهم ، وروى عنه الكثيرون ، وكان من القناعة والزهد بمكان ، وهو رأس المفسرين الذين وصلت إلينا كتبهم ، جمع من العلوم ما لم يشاركه أحد من أهل عصره ، وكان حافظاً لكتاب الله عالماً بالقراءات بصيراً بالمعانى ، عالماً بالسنن ، وطرقها ، وصحيحها وسقيمها وناسخها ، ومنسوخها ، عالماً باللغة ، والأدب ، عالماً بأحوال الصحابة والتابعين ، وكان مثالاً مشرفاً للتفانى فى العلم والبحث ، والتأليف ، وما ظنك برجل مكث أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين ورقة ؟!

وبعد هذه الحياة الحافلة بالعلم ، والتأليف ، توفى ببغداد ، ليومين بقيا من شوال ، سنة عشر وثلاثمائة ، وقد صلى على قبره عدة شهور ، ورثاه خلق كثير[3] .

منهج ابن جرير فى تفسيره :

وتفسيره من أجل التفاسير بالمأثور ، وأعظمها قدراً ، ذكر فيه ما روى فى التفسير عن النبى – ﷺ – ، وعن الصحابة والتابعين ، وأتباعهم .

---

(١) تفسير البغوى مع تفسير ابن كثير ص ٤ .
(٢) نسبة إلى طبرستان إقليم من بلاد العجم لا إلى طبرية فى أرض الشام .
(٣) أعلام المحدثين للمؤلف ص ٢٩٣ وما بعدها .

وقد كانت التفاسير قبل ابن جرير لا يذكر فيه إلا الروايات الصرفة ، من غير أن يذكروا من عندهم شيئاً ، حتى جاء ابن جرير ، فزاد توجيه الأقوال ، وترجيح بعضها على بعض ، وذكر الأعاريب والاستنباطات ، والاستشهاد بأشعار العرب على معانى الألفاظ .

ثناء الأئمة عليه :

وقد حظى تفسير ابن جرير بثناء الأئمة عليه ، قال الإمام النووى فى تهذيبه : « وكتاب ابن جرير لم يصنف أحد مثله » ، وقال الشيخ الإمام أبو حامد الإسفرايينى شيخ الشافعية : « لو رحل رجل إلى الصين ، حتى يحصل على تفسير ابن جرير ، لم يكن ذلك كثيراً عليه » وقال الإمام ابن تيمية : « هو من أجل التفاسير ، وأعظمها قدراً »[1] . ولم أجد من فضل غيره عليه ، إلا ما كان من ابن حزم ، فقد فضل عليه تفسير الإمام : بقى بن مخلد ، حيث قال : أقطع إنه لم يؤلف فى الإسلام مثل تفسيره ، لا تفسير ابن جرير ولا غيره »[2] وهو غير مطبوع .

ما أُخذ على تفسير ابن جرير :

وقد أُخذ على تفسير ابن جرير : أنه يذكر الروايات من غير بيان وتمييز لصحيحها من ضعيفها ، والظاهر : أنه من المحدثين الذين يرون أن ذكر السند ، ولو لم ينص على درجة الرواية ، يخلى المؤلف عن المواخذة والتبعة .

ولم يسلم تفسير ابن جرير على جلالة مؤلفه من الروايات الواهية والمنكرة ، والضعيفة والإسرائيليات ، وذلك مثل : ما ذكره من حديث الفتون ، وفى قصص الأنبياء ، وما ذكره فى قصة زواج النبى – ﷺ – بالسيدة زينب بنت جحش ، على ما يرويها القصاص والمبطلون ، وإن كان ذكر الرواية الصحيحة ، ويا ليته اقتصر عليها ، وسأُنبه على ذلك فيما يأتى – إن شاء الله تعالى – .

* * *

---

٢) الإتقان ج ٢ ص ١٧٨ ، ١٩٠ .

٣) أعلام المحدثين ص ١٠٦

الدر المنثور في التفسير بالمأثور

ومؤلفه هو : الإمام الحافظ جلال الدين : عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي ولد سنة تسع وأربعين وثمانمائة ، وتوفي والده ، وهو صغير ، فأوصى به إلى جماعة منهم : الإمام الكمال بن الهمام ، وقد لقي الكثيرين من الشيوخ ، وأخذ عنهم ، وافتن وتبحر في كثير من العلوم حتى قال : إنه وصل فيها إلى رتبة الاجتهاد ، وترك من المؤلفات كثرة كاثرة ، حتى قيل : إنها تزيد عن الخمسمائة ، وكان من حفاظ الحديث وعلمائه المتبحرين فيه ، العالمين به رواية ودراية ، متنا ، ورجالا ، ومصطلحا ، وقد اعتزل الناس في آخر حياته ، وترك التدريس والإفتاء ، وتفرغ للعبادة ، وكانت وفاته بمقياس الروضة ، بالقاهرة المعزية ، سنة إحدى عشرة وتسعمائة ، فرضي الله عنه ، وأرضاه .

منهجه في تفسيره :

وكتابه : « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » : جمع فيه الروايات عن النبي ، والصحابة ، والتابعين ، ولم يذكر فيه إلا المرويات الصرفة ، وقد ذكر في مقدمته : أنه لخصه من كتابه : « ترجمان القرآن » ، وهو التفسير المسند إلى رسول الله - ﷺ - وإلى الصحابة والتابعين ، وقد التزم فيه إخراج الأسانيد التي روى بها الأئمة هذه المرويات ، وعزى كل رواية إلى من أخرجها .

ما أُخذ عليه :

وقد أخذ على هذا التفسير : أنه وإن عزى الروايات إلى مخرجيها لكن لم يبين لنا منزلتها من الصحة ، أو الحسن ، أو الضعف أو الوضع وقلما ينبه إلى ذلك ، ويا ليته بين ذلك ، وليس كل قارىء للكتاب يمكنه أن يعرف ذلك بمجرد ذكر السند ، ولا سيما في عصورنا المتأخرة ، والذي يظهر لي : أنه من المحدثين الذين يرون أن إبراز السند ، يخلي من العهدة والتبعة ، وفي الكتاب إسرائيليات ، وبلايا كثيرة ، ولا سيما في قصص الأنبياء ، وذلك مثل : ما ذكره في قصة هاروت وماروت وفي قصة الذبيح ، وأنه إسحاق ، وفي قصة يوسف ، وفي قصة داود ، وسليمان ، وفي قصة إلياس ، وأسرف في ذكر المرويات في بلاء أيوب عليه السلام ، ومعظمه مما لا يصح ، ولا يثبت ، وإنما هو من إسرائيليات بني

إسرائيل ، وأكاذيبهم على الأنبياء . وسأعرض لكل ذلك بالتفصيل ـ إن شاء الله تعالى ـ .

كتب جمعت بين المأثور وغيره

(١) الكشف والبيان عن تفسير القرآن

ومؤلفه : هو الشيخ أبو إسحاق : أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابورى صاحب التفسير والعرائس فى قصص الأنبياء ، وقد نقل ابن خلكان عن السمعانى [١] أنه يقال له الثعلبى والثعالبى [٢] ، وهو لقب له ، وليس بنسب ، وكان مقرئاً ، مفسراً ، واعظاً ، أديباً ، حافظاً كما قال ياقوت فى معجمه [٣] ، وقد ذكره الإمام عبد الغفار بن إسماعيل الفارسى فى كتابه : « تاريخ نيسابور » ، وقال : هو صحيح النقل موثوق به ، روى عن أبى طاهر بن خزيمة ، والإمام أبى بكر بن مهران المقرىء ، وعنه أخذ الإمام أبو الحسن الواحدى التفسير ، وأثنى عليه ، وكانت وفاته سنة سبع وعشرين وأربعمائة ، وقيل سبع وثلاثين [٤] .

منهجه فى تفسيره :

ولم يقصر تفسيره على المأثور فحسب ، بل جمع فيه إلى المأثور ذكر الوجوه ، والقراءات ، والعربية واللغات ، والإعراب والموازنات ، والتفسير والتأويلات ، والأحكام والفقهيات ، والحكم والإشارات ، والفضائل والكرامات .. ثم ذكر فى أول الكتاب : أسانيده إلى من يروى عنهم التفسير من علماء السلف ، واكتفى بذلك عن ذكرها أثناء الكتاب ، كما ذكر أسانيده إلى مصنفات أهل عصره ، وكتب الغريب ، والمشكل ، والقراءات [٥] .

---

(١) ضبط الأعلام لتيمور ص ٢٤

(٢) هو غير الثعالبى مؤلف « الجواهر الحسان فى تفسير القرآن » وهو الشيخ العالم الإمام عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبى ، الجزائرى المغربى المالكى المتوفى سنة ٨٧٦ هـ ست وسبعين وثمانمائة عن نحو تسعين سنة ، ودفن بمدينة الجزائر ـ رحمه الله وأثابه .

(٣) معجم الأدباء ج ٥ ص ٣٧ .

(٤) ضبط الأعلام للعلامة تيمور باشا ص ٢٤ .

(٥) التفسير والمفسرون ج ١ ص ٢٢٩ .

قيمة تفسيره من جهة الرواية :

لئن كان أثنى عليه بعض العلماء : كعبد الغفار الفارسى ، فقد آخذه ، ونقده البعض الآخر من عُلماء الرواية ، والدراية ، وأئمة النقد ، فقد ملأ كتابه هذا بالموضوعات والقصص الإسرائيلى ، الذى فسر به بعض القرآن الكريم ، وهذا هو الحق والصواب ، وذلك مثل : ما ذكره فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **إذ أَوَى الفِتْيَةُ إلى الكَهْفِ** ﴾ : فقد ذكر عن السدى ، ووهب ، وغيرهما كلاماً طويلاً فى أسماء أصحاب الكهف وعددهم – بل يروى أن النبى ﷺ طلب من ربه رؤية أصحاب الكهف ، فأجابه الله : بأنه لن يراهم فى دار الدنيا ، وأمره بأن يبعث لهم أربعة من خيار أصحابه ، ليبلغوهم رسالته ، إلى آخر القصة التى لا يكاد العقل يصدقها .

وكذا ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ** ﴾ ، وما ذكره فى تفسير سورة مريم ، عند قوله تعالى : ﴿ **فَأَتَت بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ** ﴾ ، فقد روى عن السدى ووهب وغيرهما قصصاً كثيرة ، وأخباراً فى نهاية الغرابة والبعد [1] ، إلى غير ذلك مما ذكره فى فضائل السور ، وفضائل بعض الصحابة كسيدنا على .

ومن العجيب حقاً : أنه ذكر فى مقدمة تفسيره [2] أن الله رزقه ما عرف به الحق من الباطل ، وميز به الصحيح من السقيم ، وعاب من جمع بين الغث والسمين ، والواهى ، والمتين ! !

ولا أدرى كيف يكون حال كتابه لو لم يرزق ذلك ؟!

وقد نقد الإمام ابن تيمية كتابه هذا ، فقال : « والثعلبى هو فى نفسه كان فيه خير ودين ، وكان حاطب ليل [3] ، ينقل ما وجد فى كتب التفسير : من صحيح ، وضعيف ، وموضوع [4] .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٢ .

(٢) هو مخطوط بمكتبة الأزهر الشريف ولكنه غير تام .

(٣) يعنى لا يميز بين الصحيح والضعيف ، والغث والسمين ، والنافع ، والضار .

(٤) مقدمة فى أصول التفسير ص ٣٢ .

وهذا الذى ذكره ابن تيمية هو الحق ، فليكن القارىءُ لهذا التفسير على بينة من أمره ، ولا يغتر بكل ما يذكر فيه ، فقد أساء صاحبه إلى نفسه ، وإلى كتابه ، بهذا الصنيع المذموم ، ومن وجد فيه شيئاً مما سأذكره عند نقد المرويات تفصيلاً فلينبذه ، ولا يذكره إلا مقترناً ببيان وضعه ، أو ضعفه .

* * *

(٢) معالم التنزيل

ومؤلفه هو : العلامة الشيخ أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد البغوى(١) ، الفقيه الشافعى ، المحدث ، المفسر ، يعرف بأبي القراء ، ويلقب : بمحيي السنة وركن الدولة ، وكان تقياً ، ورعاً ، زاهداً متقشفاً ، قانعاً ، لا يلقى الدرس إلا على طهارة ، وإذا أكل لا يأكل إلا الخبز وحده ، ثم صار يأتدم بالزيت ، وله المؤلفات المفيدة ، منها : « شرح السنة » ، وكتاب : « المصابيح » فى الحديث ، وتفسيره هذا ، وغيرها ، وكانت وفاته سنة عشر وخمسمائة ، وقيل سنة ست عشرة وخمسمائة (٢) .

منهجه فى التفسير :

قال صاحب كشف الظنون : « معالم التنزيل فى التفسير » .. وهو كتاب متوسط ، نقل فيه عن مفسرى الصحابة ، والتابعين ومن بعدهم .

وليس خالصاً للتفسير بالمأثور ، بل جمع فيه بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأى والاجتهاد المقبول ، كما لم يذكر فيه الأسانيد ، اكتفاء بذكرها فى أول كتابه ، كما صنع الثعلبى ، فى تفسيره الذى هو أصل تفسيره ومرجعه .

قيمة تفسيره العلمية :

وهذا التفسير من خيرة التفاسير ، وأسهلها وأبعدها عن التعقيد ، وعدم الاستطراد ، وعدم الإكثار من المباحث اللغوية ، والنحوية ، والفقهية .

---

(١) قال ابن خلكان : بفتح الباء ، والغين المعجمة ، وبعدها واو هذه النسبة إلى بلدة بخراسان ، بين مرو ، وهراه يقال لها بغ وبغشور .. وهذه النسبة شاذة على خلاف الأصل قاله السمعانى فى كتاب الأنساب .

(٢) ضبط الأعلام ص ١٧ .

وقد جمع فيه بين الصحيح ، والضعيف ، وذكر فيه كثيراً من الإسرائيليات ، كأصله ، وذلك كما صنع فى قصة : « هاروت وماروت » وقصة ، « داود » ، و « سليمان » ، وكما صنع فى تفسير قوله تعالى : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُون ﴾ فقد ذكر : أن « ن هو : الحوت الذى على ظهره الأرض ، وهو ـ ولا شك ـ من خرافات بنى إسرائيل ، وأباطيلهم ، قال فيه ابن تيمية : « والبغوى تفسيره مختصر من الثعلبى ، لكن صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة »[1] .

مناقشة ابن تيمية :

أما صيانته عن الآراء المبتدعة فمسلم ، أما أنه صانه عن الأحاديث الموضوعة : فإن أراد الحديث الطويل الموضوع فى فضائل السور سورة سورة ؛ فمسلم ، وإن أراد غير ذلك : فلست موافقاً لشيخ الإسلام ، لأنه ذكر فى كتابه بعض الموضوعات ، والإسرائيليات بكثرة ، اللهم إلا أن يقال : إنه أقل من تفسير الثعلبى فى الموضوعات والإسرائيليات ، وسأعرض للكثير منها عند التفصيل ـ إن شاء الله تعالى ـ .

* * *

(٣) تفسير القرآن العظيم

ومؤلفه هو : الإمام الجليل : الحافظ : عماد الدين أبو الفداء : إسماعيل بن عمر بن كثير ، القرشى ، الدمشقى ، الفقيه ، الشافعى ، ولد حوالى سنة سبعمائة سمع من ابن الشحنة ، والآمدى ، وابن عساكر ، كما لازم الحافظ المزى وقرأ عليه تهذيب الكمال ، وصاهره على ابنته ، وأخذ عن ابن تيمية ، وفتن بحبه ، وامتحن بسببه ، وهو من أخلص تلاميذ ابن تيمية ، وأشدهم اتباعاً له فى آرائه الفقهية ، والتفسيرية ، حتى كان يفتى برأيه فى مسألة الطلاق الثلاث بلفظ واحد ، وأوذى بسبب ذلك قال فيه الحافظ الذهبى فى المعجم المختص : الإمام ، المفتى ، المحدث البارع ، فقيه متفنن ، محدث متقن ، ومفسر .. وله تصانيف مفيدة ، وقال فيه الحافظ ابن عمر فى : « الدرر الكامنة » إنه كان من محدثى الفقهاء ، وقال : سارت تصانيفه فى البلاد فى حياته ، وانتفع بها بعد وفاته ، ومن تأليفاته

(١) مقدمة فى أصول التفسير ص ٣٢ .

القيمة : كتاب البداية والنهاية فى التاريخ ، وهو أجل كتب التاريخ من جهة الرواية ، وتحقيق معانى المرويات وطبقات الشافعية ، وشرع فى شرح البخارى ولكنه لم يتمه .. وبعد حياة حافلة بالعلم ، والتأليف ، توفى سنة أربع وسبعين وسبعمائة هـ ، فرضى الله عنه وأرضاه .

منهجه فى تفسيره وخصائصه :

وتفسيره من أجل التفاسير ، إن لم يكن أجلها وأعظمها ، جمع فيه بين التفسير ، والتأويل والرواية والدراية ، مع العناية التامة بذكر الأسانيد ، وبيان صحيحها ، من ضعيفها ، من موضوعها ، ونقد الرجال ، والجرح ، والتعديل ، واستيفاء الآيات فى الموضع الأول وتفسير القرآن بالقرآن ، مع حسن البيان ، وعدم التعقيد ، وعدم التشعيب فى المسائل ، والاستطراد الكثير ، ومن خصائص هذا التفسير العظيم : أنه يعتبر نسيج وحده فى التنبيه على الإسرائيليات والموضوعات فى التفسير ، تارة يذكرها ، ويعقب عليها بأنها : دخيلة على الرواية الإسلامية ، ويبين أنها من الإسرائيليات الباطلة المكذوبة ، وتارة ، لا يذكرها بل يشير إليها ، ويبين رأيه فيها ، وقد تأثر فى هذا بشيخه الإمام ابن تيمية [1] ، وزاد على ما ذكره كثيراً ، وكل من جاء بعد ابن كثير من المفسرين ، ممن تنبه إلى الإسرائيليات والموضوعات ، وحذر منها ، هم عالة عليه فى هذا ، ومدينون له فيها بهذا الفضل : كالإمام الآلوسى ، والأستاذ الإمام محمد عبده ، والسيد محمد رشيد رضا ـ رحمهم الله تعالى ـ ولهذا الكتاب فضل كبير علىَّ فى تنبيهى إلى الإسرائيليات ، والموضوعات فى كتب التفسير وهو معتمدى ، ومرجعى الأول ، فى هذا الباب ، وللإمام ابن كثير حاسيّة دقيقة ، وملكة راسخة فى نقد المرويات والتنبيه إلى منشئها ومصدرها ، وكيف تدسست إلى الرواية الإسلامية وقد تعقب ابن جرير ـ على جلالته وتقدمه ـ فى بعض الإسرائيليات والموضوعات التى ذكرها فى تفسيره ، ولا عجب فى هذا ، فهو من مدرسة عرفت بحفظ الحديث ، والعلم به رواية ، ودراية ، وأصالة النقد ، والجمع بين المعقول والمنقول ، وهى مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه : ابن القيم

---

(١) وليس أدل على هذا من أن ما ذكره فى مقدمة تفسيره يكاد يكون نص ما ذكره شيخه فى « مقدمة فى أصول التفسير » وتظهر روحه هذه فى المسائل التى يكون فيها لشيخه ابن تيمية رأى معروف مخالف فيه لغيره .

والذهبي ، وابن كثير ، وأمثالهم ، فجازاه الله على صنيعه هذا خير الجزاء .

وسيظهر ذلك بوضوح فيما سأذكره ـ إن شاء الله ـ فى هذا الكتاب .

* * *

نظرات مجملة
فى أشهر كتب التفسير بالرأى والاجتهاد

وفى هذا الفصل : سأذكر أشهر كتب التفسير ، سواءً منها ، ماكان على منهج أهل السنة والجماعة ، أم على مذهب أهل الاعتزال ، أم على منهج أهل الكلام ، مع تعريف موجز بها ، وبمؤلفيها ، وسأتناولها من الجانب الذى يتصل بهذا البحث فحسب ، لا من جوانبها الأخرى .

ومما ينبغى أن يعلم : أن كتب التفسير بالرأى والاجتهاد أيا كان لونها واتجاهها لا تخلو من الروايات المأثورة ، إذ من شرط التفسير بالاجتهاد : أن يعتمد على ما ثبت بالنقل ، فمن ثم : اشتملت على الأحاديث الموضوعة والإسرائيليات الباطلة ،وإن اختلفت فى ذلك قلة وكثرة ، وسأقتصر على المطبوع منها ، وسأُنبه على ما إذا كانت بها إسرائيليات أم لا ، وسأدع التفصيل لحينه ـ إن شاء الله تعالى ـ .

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل ، وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل

ومؤلفه هو : الإمام محمود بن عمر ، بن محمد ، بن عمر النحوى اللغوى ، الأديب ، المعتزلى الزمخشرى[1] الملقب بجار الله ، لأنه ارتحل إلى مكة ، وأقام بها مجاوراً للبيت ، وفيها ألف كتابه هذا ، ولد سنة سبع وستين وأربعمائة ، وقد برع فى اللغة ، والأدب والنحو ، ومعرفة أنساب العرب ، وأيامهم حتى فاق أقرانه ، كما كان عالماً بكثير من العلوم الإسلامية ، كالفقه ، ولا سيما الفقه الحنفى ، والأُصول والتفسير وغيرها ، ثم

---

(١) زمخشر : كسفرجل : قرية بنواحى خوارزم نسب إليها إمامنا هذا .

اعتنق مذهب الاعتزال ، ودعا إليه ، وصار من أئمة المعتزلة ، والمنافحين عنهم ، وله مؤلفات كثيرة ، منها : ربيع الأبرار ، والأساس ، والفائق ، وكانت وفاته سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة .

قيمة تفسير الزمخشرى العلمية :

إن تفسير الكشاف من خير كتب التفسير وأجلها ، ولـولا نزعته الاعتزالية فى بعض الآيات القرآنية ، لما تناوله المعترضون بالنقد ، ولما شنأه بعض الناس ، وبحسب هذا الكتاب فضلاً ومنزلة : أن كل من جاء بعد الزمخشرى عالة عليه فيما يذكره فيه من أسرار الإعجاز ، والغوص على المعانى البلاغية الدقيقة .

ولبراعته فى الكلام ، وتمكنه من فنون القول ، وبُعد غوره يدس بعض آرائه فى أثناء تفسيره ، وتروج على خلق كثير من أهل السنة ولذا قال البلقينى : استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش من قوله تعالى : ﴿ **فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ** ﴾ (١) قال : أى فوز أعظم من دخول الجنة (٢) ، أشار به إلى عدم الرؤية (٣) وقال ابن تيمية أثناء الكلام عن تفاسير المعتزلة : ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة ، يدس البدع فى كلامه ، وأكثر الناس لا يعلمون ، كصاحب الكشاف ونحوه ، حتى إنه يروج على خلقٍ كثير من أهل السنة ، كثير من تفاسيرهم الباطلة (٤) .

ومن مميزات هذا التفسير :

١ ـ خلوه من الحشو والتطويل .

٢ ـ سلامته من القصص الإسرائيلى غالباً ، وإذا ذكر بعضه فإنه قد يفنده ، كما فعل فى قصة داود وسليمان ، ولكن وجدت به بعض الموضوعات التى لا تدرك بالعقل ، وإنما يعلمها أئمة الحديث ونقاده ، وذلك مثل : الحديث الطويل المروى فى فضائل السور ، سورة سورة ، وكذلك ما روى : فى قصة السيدة زينب بنت جحش ،

---

(١) آل عمران : ١٨٥ .

(٢) تفسير الكشاف عند هذه الآية .

(٣) الإتقان ج ٢ ص ١٩٠ .

(٤) مقدمة فى أصول التفسير ص ٣٨ .

وحاول تبريره ، وقد يذكر بعض الإسرائيليات ، ولا يفندها ، مثل ما ذكره : فى قصة يأجوج ومأجوج ، بل ذكر هنا حديثاً موضوعاً على النبى - ﷺ - [1] وسأتناول ذلك بالتفصيل فيما يأتى - إن شاء الله تعالى - .

٣ - اعتماده فى بيان المعانى على لغة العرب وأساليبهم فى الخطاب .

٤ - عنايته الفائقة بالإبانة عن أسرار الإعجاز القرآنى بطريقة فنية قائمة على الذوق الأدبى .

٥ - اتباعه طريقة السؤال : (إن قلتَ - بفتح التاء) ، ويقول فى الجواب : (قلت : بضم التاء) وهى طريقة من طرق التشويق ، فى التعليم وترسيخ المعانى فى النفس .

الانتصاف :

وقد قيض الله لهذا الكتاب من نبه إلى ما فيه من اعتزاليات ، وبين ما فيه من انحراف ، وميل باللفظ القرآنى إلى مذهب أهل الاعتزال ، وهو : الإمام أحمد بن محمد ، المعروف بابن المنير ، عالم الإسكندرية وقاضيها ، وخطيبها ، فألف كتابه : « الانتصاف »[2] ، وهو يدل على علو كعب هذا الإمام فى العلوم الشرعية ، والبلاغية ، وأصول الدين ، وأصول الفقه وبهذا الكتاب النفيس يمكن للقارىء لتفسير الكشاف أن يقرأه مع الأمن عليه أن يزيغ ، أو يضل فى متاهات الاعتزال .

تخريج أحاديث الكشاف :

وقد تنبه إلى ما فى تفسير الكشاف من الروايات الضعيفة ، والموضوعة ، بعض المحدثين ، فقام بإكمال هذا النقص خير قيام ، وسد هذه الثغرة التى دخل منها على القراء ضرر كثير ، فقد ألف الإمام الحافظ الفقيه : عبدالله بن يوسف الزيلعى المتوفى سنة ٧٧٢ هـ رسالة فى تخريج أحاديث الكشاف ، وما فيه من قصص وآثار ، بين فيها الصحيح ، من الحسن ، من الضعيف ، من الموضوع ، وقد لخصها الإمام الحافظ -

---

(١) تفسير الكشاف فى سورة الكهف عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض** ﴾ .

(٢) طبع مع الكشاف فى معظم طبعاته .

الفقيه ـ أحمد بن على ، بن حجر العسقلانى ، المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، فى رسالة سماها : « الكافى الشاف فى تخريج أحاديث الكشاف » ، وقد طبعت مع الكشاف فى بعض الطبعات ، فجزاهما الله خير الجزاء .

* * *

(٢) تفسير مفاتيح الغيب

ومؤلفه هو الإمام ، النظار ، المتكلم فخر الدين : محمد ابن العلامة ضياء الدين عمر الرازى[١] ، المشتهر بخطيب الرى ، وهو عربى ، قرشى من سلالة سيدنا أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ ، وكان مولده سنة ٥٤٣ هـ ثلاث وأربعين وخمسمائة فى مدينة الرى ، وكانت حينئذ العاصمة الكبرى لبلاد العراق العجمى ، وقد بادت الآن ، وتوجد خرائبها ، وآثارها على مقربة من مدينة : « طهران » عاصمة المملكة الإيرانية .

وقد تنقل الإمام فخر الدين فى البلاد الأعجمية ، من الرى إلى خراسان ، وبخارى إلى العراق ، والشام ، وكان أكثر استقراره وتدريسه « بخوارزم »[٢] ، ثم استوطن مدينة : « هراه » من البلاد الأفغانية ، وكانت وفاته بها سنة ٦٠٦ هـ ست وستمائة[٣] .

وقد كان الإمام من كبار أهل العلم بالأصلين : أصول الدين ، وأصول الفقه ، وكبار علماء الكلام على مذهب أهل السنة ، فمن ثم ناقش ـ وأكثر ـ أهل الاعتزال وغيرهم ، وكذلك : كان عالماً بالفلسفة ، ومذاهب الفلاسفة ، فمن ثم : سلك مسلك الحكماء الإلهيين ، فصاغ أدلته فى مباحث الإلـهيات ، على نمط استدلالاتهم العقلية ، ولكن مع تهذيبها ، بما يوافق أصول أهل السنة ، وتعرض لآراء الفلاسفة ، فى قدم العالم وغيره وشبههم ، وتفنيدها ، ونقضها فى مواضع من كتابه .

وكذلك : سلك مسلك الحكماء الطبيعيين فى الكونيات ، فتكلم فى خلق السماوات ، والأرض ، وما فيها من إنسان ، وحيوان ، ونبات ، مبيناً حكمة الله فى مخلوقاته ، مستدلاً

---

(١) الرازى نسبة إلى الرى على غير قياس .
(٢) مدينة شرق بحيرة قزوين .
(٣) التفسير ورجاله ص ٦٨ ، ٦٩ .

بها على وجود الله ، وعلمه ، وقدرته وإرادته وسائر صفاته .

وقد قصد الإمام الرازى من دراسته التفسيرية : أن يبين تفوق الحكمة القرآنية على سائر الطرق الفلسفية ، وانفراد القرآن بهداية العقول البشرية ، إلى غايات الحكمة ، من طريق العصمة ، فقد كتب فى وصيته التى أملاها عند احتضاره :

« لقد اختبرت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن ؛ لأنه يسعى فى تسليم العظمة والجلال لله ، ويمنع عن التعمق فى إيراد المعارضات والمناقضات وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى فى تلك الحقائق العميقة والمناهج الخفية »

قيمة تفسيره العلمية :

إن تفسير : « مفاتيح الغيب » من أجل التفاسير ، وإن كان أطال فى الاستدلال ، ورد الشبه ، إطالة كادت تغطى على كونه كتاب تفسير ولست مع ابن عطية الذى قال فيه : « فيه كل شيء إلا التفسير» فإنه ــ رحمه الله ــ مع الاستطراد إلى ذكر الأدلة والبراهين ، قد وفَّى التفسير حقه ، ولولا أن هذا ليس من غرضى فى هذا الكتاب ، لأقمت على هذا ألف دليل ، ومن مميزات هذا التفسير الجليل : أنه يكاد يخلو من الإسرائيليات ، وإذا ذكر شيئاً فذلك لأجل أن يبطله ، وذلك كما صنع فى قصة هاروت وماروت ، وقصص داود ، وسليمان ، وغيرهما ، كما تعرض بالتزييف لبعض المرويات التى تخل بعصمة النبى ــ ﷺ ــ وأبطلها ، كما صنع فى قصة الغرانيق ، وسنعرض لإبطالها ــ إن شاء الله ــ .

نعم قد ذكر بعض المرويات التى تعتبر من الإسرائيليات ، وذلك مثل ما روى فى : « ن » ، وأنه الحوت الذى على ظهره الأرض ، وإن كان ضعفه فيما ضعف من أقوال فى هذه الآية ، ولكن لم يعول فى التضعيف على مخالفتها للعقل ، أو ضعفها من جهة النقل ، أو كونها من الإسرائيليات ، وإنما اعتمد على وجه آخر يرجع إلى النحو(١)

* * *

(١) انظر تفسير الفخر فى قوله تعالى : ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ .

(٣) أنوار التنزيل ، وأسرار التأويل

ومؤلفه هو : الشيخ الإمام ، قاضي القضاة ، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد بن علي ، البيضاوي ، الشافعي ، أصله من « شيراز » في جنوب إيران ، وبها كانت نشأته العلمية الأولى ، وبها تخرج في الفقه والأصول ، والمنطق ، والحكمة ، والكلام والأدب ، وبرع في الأصولين ، وضم علوم العربية والأدب إلى علوم الشريعة والحكمة ، ولي قضاء شيراز مدة ، وكانت وفاته بتبريز سنة خمس وثمانين وستمائة[1] وقيل : سنة إحدى وتسعين وستمائة[2] ، ومن مؤلفاته القيمة : كتاب المنهاج وشرحه في أصول الفقه ، وكتاب « الطوالع » في أصول الدين ، وأنوار التنزيل ، وأسرار التأويل ، وهو ما نحن بصدده وغيرها .

تفسيره وقيمته العلمية :

وتفسيره جامع بين التفسير والتأويل على مقتضى القواعد اللغوية والشرعية ، وهو متأثر في طريقته في بيان الألفاظ ، والتراكيب ، ونكت البلاغة ، بتفسير الكشاف للزمخشري ، ولكنه قرر فيه الأدلة على أصول أهل السنة ، وهو في هذا متأثر بالإمام فخر الدين الرازي .

وقد صاغ الإمام البيضاوي تفسيره صياغة محكمة دقيقة ، فهو لا يضع الكلمة إلا بميزان ، ونحا فيه منحى الإيجاز والتركيز ، فمن ثم : وضعت عليه التعاليق ، والحواشي ، لشرح دقائقه ، وحل رموزه وأجل حواشيه : حاشية الشهاب الخفاجي[3] ، وهي ديوان علم ، وأدب وفيها غاية التحقيقات ، والتدقيقات فيما عرضت له من مسائل وقضايا علمية .

وقد كان تفسير البيضاوي وحواشيه ـ ولا يزال ـ مشغلة الدارسين في الجامعات الإسلامية أحقاباً من الزمان ، وحبب الناس فيه : خلوه من النزعات الاعتزالية ، التي نفرت الكثيرين من تفسير الكشاف ، الذي هو كأصله .

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠٧ .

(٢) التفسير والمفسرون ج ١ ص ٢٩٧ .

(٣) وهناك غيرها : حاشية زادة ، وحاشية النووي .

والإسرائيليات فى هذا التفسير قليلة جدا ، ولكن مما أُخذ عليه : اشتماله على بعض الروايات الموضوعة ، التى لا تدرك بالعقل والنظر ، وإنما يعرف حقيقتها حفاظ الحديث ، ونقاده ، ولا سيما فى باب الفضائل[1] فقد ذكر فى آخر كل سورة : الحديث الطويل الموضوع فى فضائل السور سورة سورة ، ومن ثم : نرى أن البيضاوى على جلالته وعلمه لم يسلم مما وقع فيه صاحب الكشاف قبله ، من ذكره هذا الحديث ، وغيره من الأحاديث ، من غير بيان لدرجتها من الصحة ، أو الحسن ، أو الضعف أو الوضع ، وهو أمر وقع فيه معظم المفسرين ، ممن ليسوا من أهل العلم بالحديث رواية ، ودراية .

وقد كفاه ، وكفى الدارسين لهذا الكتاب الإمام المحدث الشيخ عبد الرؤف المناوى ، فألف كتاباً سماه : « الفتح السماوى فى تخريج أحاديث البيضاوى » ، وكذلك قام الإمام الشهاب الخفاجى : ببيان بعض هذه الروايات الموضوعة ، والضعيفة ، فلهما من الله جزيل الجزاء .

* * *

(٤) الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآى الفرقان

ومؤلفه هو : الإمام : أبو عبد الله : محمد بن أحمد ، بن أبى بكر بن فرح[2] الأنصارى . الخزرجى الأندلسى ، القرطبى ، المفسر ، كان من عباد الله الصالحين ، والعلماء العارفين الورعين ، الزاهدين فى الدنيا المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة كانت أوقاته كلها معمورة مشغولة ما بين عبادة ، وتأليف ، وكانت وفاته سنة إحدى وسبعين ، وستمائة ومن مؤلفاته كتاب : « الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » ، وكتاب : « التذكار فى أفضل الأذكار » ، وكتاب : « شرح التقصى وغيرها »[3] .

تفسيره وقيمته العلمية :

تفسير القرطبى من أجل التفاسير ، وأعظمها نفعاً ، أسقط منه القصص والتواريخ ،

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٣٠٧ .
(٢) بسكون الراء ، ثم حاء مهملة بعدها .
(٣) مقدمة فى تفسير القرطبى .

وذكر عوضاً عنها أحكام القرآن بتوسع ، حتى حاف بها على التفسير ، واستنباط الأدلة وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ .

ومن محاسن هذا التفسير : أنه يخرج الأحاديث ، ويعزوها إلى من رووها من الأئمة غالباً ، كما أنه صان كتابه عن الإكثار من ذكر الإسرائيليات والأحاديث الموضوعة ، كما أنه إذا ذكر بعض الإسرائيليات والموضوعات مما يخل بعصمة الملائكة ، أو الأنبياء ، أو يخل بالاعتقاد : فإنه يكر عليها بالإبطال ، أو يبين أنها ضعيفة ، وذلك : كما فعل فى قصة هاروت وماروت ، وقصة داود ، وسليمان ، وقصة الغرانيق ، وقصة زواج النبى بالسيدة زينب بنت جحش ، وربما ينبه أيضاً على بعض الموضوعات فى أسباب النزول ، وذلك : مثل ما رواه القصاص ، وأمثالهم ، فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً ، وَأَسِيراً** ... ﴾ الآيات[1] .

غير أنه قد وجد فيه بعض الإسرائيليات والموضوعات على قلة مثل ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **قَالُوا يَاذَا القَرْنَيْن إِنَّ يَأْجوج وَمَأْجوجَ مُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ** ... ﴾[2] وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أن رَّأى بُرْهَانَ رَبِّهِ** ﴾ ، فقد ذكر فى البرهان أموراً إسرائيلية ، ولا تصح ، وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَاد إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ التى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى البِلادِ** ﴾[3] إلى غير ذلك مما سأعرض لبيانه ، وتزييفه فيما يأتى - إن شاء الله تعالى - .

* * *

(٥) مدارك التنزيل ، وحقائق التأويل

ومؤلفه هو : الإمام أبو البركات : عبد الله بن أحمد ، بن محمود النسفى الحنفى[4] ، المتوفى سنة إحدى وسبعمائة للهجرة .

---

(١) الإنسان : ٨ - ١٢ .
(٢) الكهف : ٩٤ .
(٣) الفجر : ٦ - ٨ .
(٤) نسبة إلى نسف بلد من بلاد ما وراء النهر .

كان إماماً بارعاً فى الفقه ، والأصول ، عالماً بالتفسير ، والحديث وإن لم يكن من حفاظه وأئمته ، وله من المؤلفات كنز الدقائق فى الفقه ، والمنار فى أصول الفقه والعمدة فى أصول الدين ، ومدارك التنزيل ، وحقائق التأويل ، وهو ما نحن بصدده وغيرها .

قيمة تفسيره العلمية :

هو من كتب التفاسير الوسيطة ، لا هو بالطويل الممل ، ولا بالقصير المخل ، وهو يعتبر – بحق – مختصرا لتفسير الكشاف ، غير أنه صانه من الآراء الاعتزالية التى بثها الزمخشرى فى تفسيره ، وحذف منه طريقة السؤال والجواب ، فى الإفصاح عن وجوه البلاغة ، وأسرار الإعجاز ، وبيان المعانى ، وهى الطريقة التى عرف بها الزمخشرى وهو من التفاسير التى تعنى بالتنبيه إلى القراءات السبع المتواترة ، ونسبة كل قراءة إلى قارئها .

وقد جاء الكتاب – كأصله – ، مقلا من ذكر الإسرائيليات ، وقد يذكر بعضها وينبه على عدم صحته ، وذلك : كما صنع فى قصة داود ، وسليمان والغرانيق ، وقد يذكر بعض الخرافات والموضوعات ، من قصص وأحاديث ولا يفطن إليها ، وذلك : كما ذكر فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **وتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ** ﴾ ، فقد ذكر الرأى الباطل ، وهو : إخفاءُ حبها فى قلبه ، وتفسير قوله تعالى : ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وأَسِيراً** ﴾ ، فقد ذكر : أنها نزلت فى على ، وفاطمة ، والحسن والحسين ، مع أن السورة كلها مكية ، وتفسير ﴿ **إِرَمَ ذاتِ العِمَادِ** ﴾ : فقد ذكر هنا : أن المراد بها مدينة وذكر فى وصفها : عجائب وغرائب ، وهى من خرافات بنى إسرائيل وكذلك : ذكر فى كتابه : الحديث الموضوع فى فضائل القرآن سورة سورة ، فلتكن على حذر من كل هذا .

* * *

(٦) لباب التأويل فى معانى التنزيل

ومؤلفه هو : علاء الدين : أبو الحسن : على بن محمد : إبراهيم ، الشيحى [١] البغدادى ، الشافعى الصوفى ، المشهور بالخازن وذلك لأنه كان خازن كتب خانقاه [٢]

---

(١) نسبة إلى بلد اسمها شيحة من أعمال حلب .

(٢) أصل الخانقاه : مكان يسكنه أهل الصلاح ، والخير ، والصوفية ، معربة ، حدثت فى الإسلام فى حدود الأربعمائة وجعلت لمتخلى الصوفية فيها لعبادة الله .

السميساطية ، بدمشق ، ولد ببغداد سنة ثمان وسبعين وستمائة ، قال ابن قاضي شهبة : وكان من أهل العلم ، جمع ، وألف وحدث ببعض مصنفاته . وكان صوفياً ، حسن السمت ، بشوش الوجه ، متوددا للناس ، ومن مؤلفاته : شرح عمدة الأحكام ، ومقبول المنقول فى عشر مجلدات ، جمع فيه بين مسندى الشافعى ، وأحمد بن حنبل ، والكتب الستة ، والموطأ وسنن الدارقطنى ، ورتبه على الأبواب ، وهذا يدل على أنه كانت له مشاركة فى العناية بالحديث وإن لم يكن من حفاظه ، ونقاده ، و « لباب التأويل ، فى معانى التنزيل » وهو : ما نحن بصدده .

منهجه فى تفسيره وقيمته العلمية :

وقد صدر كتابه هذا بمقدمة مفيدة فى فضل القرآن وتلاوته ، ووعيد من تكلم فى تفسير بغير علم ، وجمع القرآن وترتيبه ونزوله على سبعة أحرف ، ومعنى التفسير والتأويل ، وقد جمع كتابه هذا من تفسير البغوى ، وغيره من التفاسير التى تقدمته ، وليس له فيه ـ كما يقول فى ديباجته ـ سوى النقل ، والانتخاب ، مع حذف الأسانيد وتجنب التطويل .

ومن حسنات هذا الكتاب : عناية صاحبه بتخريج الأحاديث : أى بيان من رواها من الأئمة فى كتابه ، مشيرا إلى صاحب الكتاب بالحرف تارة ، وذاكرا الاسم تارة ، وما لم يكن فى الكتب المشهورة ورواه البغوى عزاه إليه ، وما أخذه البغوى عن الثعلبى بينه .

وقد امتلأ هذا التفسير كأصليه : تفسير البغوى ، وتفسير الثعلبى بالقصص ، والأخبار ، والإسرائيليات الباطلة ، ولا سيما فى قصص الأنبياء ، وأخبار الأمم الماضية ، والفتن ، والملاحم ، ومن الحق أن نقول هنا : إن الخازن قد يكر على بعض الإسرائيليات والموضوعات ولا سيما ما يتعلق منها بالطعن فى عصمة ، وما يخل بالعقيدة الصحيحة بالإبطال والإطناب فى ذلك : كما فعل فى قصة الغرانيق ، وقصة هاروت ، وماروت ، وداود ، وسليمان ونحوها .

كما أنه قد يذكر الكثير من الإسرائيليات المشتملة على العجائب والغرائب ، والتى لا يشهد لها نقل صحيح ، ولا عقل سليم ، ولا يعقب بتضعيف أو إبطال ، وسأُنبه عليها ـ إن شاء الله تعالى ـ .

* * *

(٧) البحر المحيط لأبي حيان

ومؤلفه هو : الإمام : أثير الدين : أبو عبد الله : محمد بن يوسف ، ابن على ، بن يوسف ، بن حيان الأندلسى ، الغرناطى ، الجيانى ، الشهير بأبى حيان ، ولد سنة أربع وخمسين وستمائة من الهجرة ، وتوفى سنة أربع وخمسين وسبعمائة .

كان رحمه الله ملماً بالقراءات متواترها ، وصحيحها ، وشاذّها : كما كان على جانب كبير من العلم باللغة وآدابها ، والعلم بالنحو ، والصرف حتى صار إماماً فيهما ، وذا رأى معتبر فى مسائلهما ، ولذلك غلب عليه فى تفسيره : الإكثار من النحو ، والصرف ، واللغة ـ كما أسلفت ـ وله مؤلفات منها : غريب القرآن فى مجلد ، وشرح التسهيل وهو : كتاب جليل ، وكتاب « البحر المحيط » فى التفسير ، وهو ما نحن بصدده الآن ، وقد عكف على تأليفه لما نصب مدرسا للتفسير فى قبة السلطان الملك المنصور ، وفى دولة ولده : الملك الناصر . وكان ذلك فى أواخر سنة عشر وسبعمائة ، وقد خطا سنه نحو السابعة والخمسين من عمره المبارك[١] .

منهجه فى تفسيره وقيمته العلمية :

وقد اعتمد أبو حيان فى تفسيره على تفاسير من تقدمه : ولا سيما تفسير الإمامين الجليلين : أبى القاسم : محمود بن عمر الزمخشرى ، وأبى محمد : عبد الحق : المعروف بابن عطية ، وعلى ثقافته اللغوية ، والنحوية والصرفية ، والأدبية ، التى يظهر أثرها واضحاً فى كتابه وهو من كتب التفسير بالرأى والاجتهاد الممدوح .

وكتاب التفسير لأبى حيان لم يخل كغيره من كتب التفسير من ذكر الروايات المأثورة عن النبى ـ ﷺ ـ ، وعن الصحابة والتابعين .

وهو : من التفاسير التى يقل فيها ذكر الإسرائيليات ، والموضوعات وقد عنى بالتنبيه إلى الكثير منها ؛ وبيان عدم صحتها ، وتحذير القارىء من الاغترار بها ، وكثيرا ما يضرب عن ذكرها ، مشيرا إلى بطلانها ، وقد يوجزها ، ثم يكر عليها بالإبطال والتزييف ،

---

(١) مقدمة فى تفسير أبى حيان .

ولا سيما فيما يدرك بطلانه وكذبه بالعقل ، والنظر ، لا بنقد الأسانيد ، والتعديل ، والتجريح ؛ لأنه لم يكن من أئمة الحديث ، ونقَّاده ، المميزين بين صحيحه ، وضعيفه .

وذلك مثل ما فعل فى تزييف قصة هاروت وماروت[1] ، وما روى فى قصة يوسف ـ عليه السلام ـ وهمه ، والبرهان الذى رآه[2] ، وقصة داود عليه السلام ، وزوجة أُوريا[3] ، وقصة سليمان عليه السلام[4] ، وما روى فى سبب فتنة أيوب ، على ما ذكره الزمخشرى[5] ، وإن كان وافق على بلائه ، على ما روى ، وذكر فى ذلك حديثاً عن النبى ، وأنه تساقط لحمه .

ولم يسلم تفسير أبى حيان من الإسرائيليات ، والروايات الموضوعة المكذوبة على النبى ـ ﷺ ـ ، أو على الصحابة ، وذلك مثل ما ذكره فى حجر موسى ، وعلى أى هيئة كان ، وما ذكره من الحديث المكذوب على النبى ـ ﷺ ـ فى أسماء الكواكب الإثنى عشر التى رآها يوسف ـ عليه السلام ـ ، وكذا وقع فيما وقع فيه الزمخشرى وغيره : فى ذكر الروايات الباطلة فى قصة إرم ذات العماد[6] ومهما يكن من شىء فتفسير أبى حيان : من التفاسير المتحفظة ، والمقلة فى ذكر الإسرائيليات والموضوعات ، فرحمه الله ، وأثابه .

* * *

(٨) السراج المنير
فى الإعانة على معرفة بعض معانى كلام ربنا الحكيم الخبير

ومؤلفة هو : الشيخ العلامة : شمس الدين : محمد بن محمد الشربينى ، الشافعى الخطيب ، نشأ بالقاهرة ، وعلى شيوخ عصره أخذ ، ولما رأوه أهلا للفتوى ، والتدريس أجازوه بهما ، فدرس ، وأفتى ، وانتفع به خلق كثير .

---

(١) تفسير أبى حيان ج ١ .
(٢) المرجع السابق ج ٥ ص ٢٩٥ .
(٣) ج ٦ ص ٣٩١ .
(٤) ج ٦ ص ٣٩٧ .
(٥) ج ٦ ص ٤٠٠ .
(٦) ج ٨ ص ٤٩٦ .

وقد كان رحمه الله على جانب من الصلاح ، والورع ، والزهد ، وكثرة العبادة ، وكان يعتكف طوال شهر رمضان من كل عام ، توفى عصر يوم الخميس الثانى من شعبان سنة ٩٧٧ ، سبع وسبعين وتسعمائة هجرية .

ومن مؤلفاته : شرح كتاب المنهاج ، وشرح كتاب التنبيه ، و « السراج المنير » فى التفسير ، وهو ما نحن بصدده الآن .

منهجه فى تفسيره وقيمته العلمية :

وهو : تفسير وسط بين الإطناب والإيجاز ، اقتصر فيه على أصح الأقوال غالباً ، ولم يذكر من الأعاريب إلا ما كانت الحاجة ماسة إليه ، اعتمد فيه صاحبه على تفاسير من سبقه كالزمخشرى والبيضاوى ، والبغوى ، والرازى وغيرهم ، وقد ينقل فيه بعض تفسيرات مأثورة عن السلف ، كما التزم فيه : أن لا يذكر من الأحاديث إلا صحيحها ، وحسنها ، دون ذكر الضعيف والموضوع ، ولذلك : يتعقب الزمخشرى ، والبيضاوى فى ذكرهما للحديث الموضوع الطويل فى فضائل السور : سورة ، سورة ، كما ينبه على الأحاديث الضعيفة إن روى شيئاً منها فى تفسيره[1] .

ولم يخل تفسير الخطيب من ذكر بعض القصص الإسرائيلى ، منها ما يمر عليها مرورا مع غرابتها ، من غير تعقيب لها : بتصحيح ، أو تضعيف ، أو بيان منشئها ، ومن أين جاءت ، وغالب ذلك فيما يحتمل الصدق والكذب من أخبار بنى إسرائيل ، وليس فيه طعن فى عصمة الأنبياء ومنها : ما يذكره ، ثم يتعقبه بما يدل على ضعفه ، أو بطلانه ، وهو يصنع ذلك فى القصص الإسرائيلى الذى فيه ما يخل بعصمة الأنبياء ، وذلك : مثل ما فعل فى قصة سيدنا داود ، على ما يرويها القصاص .

* * *

(٩) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم

ومؤلفه هو : الإمام : القاضى : المفتى : أبوالسعود : محمد بن محمد بن مصطفى العمادى الحنفى ولد سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة ، بقرية قريبة من القسطنطينية ، ونشأ فى

---

(١) التفسير والمفسرون ج ١ ص ٣٣٨ وما بعدها .

بيت عرف بالعلم ، والفضل ، والدين ، تتلمذ على والده ، وغيره من العلماء ، وعَلَّ من معينه بعد نهل ، حتى صار علما من أعلام العلم ، تولى التدريس مدة ، ثم ولى القضاء ، وصار يتنقل فيه من بلد إلى بلد ، حتى انتهى به الأمر إلى الإفتاء ، وكان أبو السعود عالما ، أديبا ، متمكنا من اللغات الثلاث العربية ، والفارسية ، والتركية ، وقد مكنت له معرفته بهذه اللغات الاطلاع على الكثير من الكتب التى أُلفت بها ، فاكتسب علما غزيراً ، ولم يدع له التدريس ، وولاية القضاء ، والتنقل بين البلاد مجالا للتأليف ، فلم يترك لنا إلا تفسيره هذا ، وبعض حواش أخرى ، على تفسير الكشاف ، وعلى شرح العناية على الهداية ، وهى ناقصة وبعد هذه الحياة العلمية الحافلة توفى بالقسطنطينية ، فى أوائل جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين ، وتسعمائة من الهجرة ، ودفن بجوار الصحابى الجليل : أبى أيوب الأنصارى ، فرضى الله عنه ، وأرضاه .

منهجه فى تفسيره وقيمته العلمية :

اشتغل العلامة أبو السعود فى حياته بتدريس الكتابين المشهورين : الكشاف ، وتفسير البيضاوى ، حتى فى الأوقات التى كان يخرج فيها مع السلطان سليمان القانونى غازيا ، كان يشتغل بالتدريس لطلبته الذين كانوا لا يفارقونه ، وقد كانت نفسه تتوق إلى تفسير جامع بين تفسير الكشاف ، وتفسير البيضاوى ، وأن يضيف إليهما ما اكتسبه من غيرهما من الكتب ، ومن الفهوم التى فتح الله بها عليه فى تفسير القرآن حتى حقق الله هذه الأُمنية فى آخر حياته ، فكان ثمرة ذلك : هذا التفسير العظيم الذى اشتهر بشهرة صاحبه ، وعكف أهل العلم من يومها على دراسته ، وسماه : « إرشاد العقل السليم ، إلى مزايا القرآن الكريم »[1] ولكنه خلصه من اعتزاليات الزمخشرى ، ونهج فيه منهج أهل السنة .

ومن أهم مميزات هذا التفسير : أنه خال من الاستطرادات والتوسع فى ذكر الأحكام الفقهية والنحوية ، ويكاد يكون خالصا للتفسير ، وقد عنى فيه عناية بالغة بإبراز وجوه البلاغة وأسرار الإعجاز فى القرآن الكريم ، ولا سيما فى باب الفصل والوصل ، ووجوه المناسبات بين الآيات ، ولما كان أبو السعود ليس عربى المُرَبَّى ، وتغلب عليه الناحية العقلية : فقد جاءت عباراته وأساليبه فى تفسيره فيها شىءٌ كثير من العمق والدقة اللذين

---

(١) تفسير أبى السعود على هامش تفسير الفخر الرازى ص ١٩ وما بعدها .

يبدوان فى نظر القارئين له لونا من الوان التعقيد والغموض والإغراب ، وقد يذكر المبتدأ ، أو الشرط ولا يذكر الخبر ، أو جواب الشرط إلا بعد بضعة أسطر ، ومن مميزاته : خلوه غالباً من القصص الإسرائيلى ، وإذا ذكر شيئاً منه فإنه يذكره مضعفا له ، أو منكراً أو مبطلا ، ومبينا منشأه ، وذلك : مثل ما صنع فى قصة هاروت ، وماروت ، قال : « وأما ما يحكى من أن الملائكة ـ عليهم السلام ـ لما رأوا ما يصعد من ذنوب بنى آدم عيروهم ... فمما[1] لا تعويل عليه : لما أن مداره رواية اليهود ، مع ما فيه من المخالفة لأدلة العقل والنقل[2] » ، وقصة يوسف عليه السلام ، فى قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَد هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بهَا لَوْلاَ أَن رأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ** ﴾ : فقد ذكر ما روى من الإسرائيليات فى رؤيته برهان ربه ، ثم قال : « إن كل ذلك إلا خرافات ، وأباطيل تمجها الآذان ، وتردها العقول ، والأذهان ، ويل لمن لاكها ، ولفقها ، أو سمعها وصدقها »[3] .

نعم : قد ذكر بعض الإسرائيليات التى لا تخل بعصمة الأنبياء ، ولكن فيها غرابة وبعد ، ولم يعقب عليها ، وذلك : مثل ما ذكره فى الحجر الذى ضربه سيدنا موسى بعصاه ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، وما ذكره فى صفة يأجوج ومأجوج ، وأن طول الواحد منهم ستمائة ذراع ، وصفة إرم ذات العماد ، مما هو من خرافات بنى إسرائيل ومما يؤخذ عليه : ذكره متابعا للزمخشرى والبيضاوى الأحاديث المروية فى فضائل القرآن سورة سورة ، وهى موضوعة باتفاق أهل العلم بالحديث ، ومثل الحديث الذى ذكره فى فضل سورة الفاتحة ، حيث قال : وعن حذيفة بن اليمان ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **إن القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتما مقضيا ، فيقرأ صبى من صبيانهم فى (الكتاب)**[4] ! ! ، **الحمد لله رب العالمين ، فيسمعه الله ، فيرفع عنهم العذاب أربعين سنة** » ، وما ذكره متابعا للزمخشرى وغيره فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وإِذا لَقُوا الذِينَ آمَنوا قَالُوا آمَنَّا وإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِم قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهزئُون** ﴾ ، وسأعرض لهذا ولغيره عند التفصيل ـ إن شاء الله تعالى ـ .

---

(١) هذا يشهد لما قلته عن خبرة ودراسة ، فقد ذكر جواب الشرط بعد نحو صحيفة .

(٢) تفسير أبى السعود على هامش تفسير الفخر من ص ٦٥٠ ـ ٦٥٢ .

(٣) المرجع السابق ج ٥ ص ١٧٩ .

(٤) مما يدل على وضعه ـ فضلا عن الطعن فى سنده ـ هذه اللفظة لأن كلمة «الكُتّاب» مستحدثة .

(١٠) روح المعانى

فى تفسير القرآن ، والسبع المثانى

ومؤلفه هو : خاتمة المحققين ، وعمدة المدققين ، وإمام المفسرين ، أبو الثناء : شهاب الدين : السيد الإمام : محمود بن عبد الله الآلوسى[١] البغدادى ، الحنفى[٢] مفتى بغداد ، وعالمها فى القرن الثالث عشر الهجرى .

ولد سنة سبع عشرة ومائتين بعد الألف من الهجرة ، فى جانب الكرخ من بغداد .

نبغ فى العلوم من صغره ، وأخذ عن كثير من فحول علماء عصره منهم والده ، والشيخ خالد النقشبندى ، واشتغل بالتدريس ، والتأليف وهو ابن ثلاث عشرة ، وقد تتلمذ عليه كثيرون ، وتخرج على يديه بعض العلماء الفضلاء من بلاد مختلفة ، ولما ولى الإفتاء شرع يدرس كل العلوم فى داره ، بجوار جامع الشيخ عبد الله العاقولى بالرصافة ، وقد ساعده على ذلك : نبوعه فى علوم شتى ، وجمع إلى العلم النقلى ، والعقلى الأدب وفنونه ، فمن ثم عرف بجزالة التعبير ، وسلاسة الأسلوب ، وحسن التصرف فى القول ، وبروحه اللطيفة الفكهة ، ومن تعبيراته اللطيفة التى لا تخلوا من الفكاهة : تسميته للحروف الزائدة بأنها : « سيف خطيب » ، وعن النكات البلاغية بأنها : « كالوردة ، إن دعكتها أزلت ما فيها من رائحة وجمال » .

ولم يترك لنا من المؤلفات كثيراً ، على ما كان يمتاز به من التبحر فى كل علم ، وفن ، وسعة الاطلاع ، وإجادة الاختيار والاختصار ومن مؤلفاته : شرح السلم فى المنطق ، وقد فقد ، « والأجوبة العراقية عن الأسئلة الاهورية » ، و « الأجوبة العراقية على الأسئلة الإيرانية » و « درة الغواص فى أوهام الخواص » ، و « النفحات القدسية ، فى المباحث الإمامية » ، و « الفوائد السنية فى علم آداب البحث » ، وبحسبه « روح المعانى » ، الذى اشتمل على مباحث : بعضها يصل إلى رسالة صغيرة ، وكانت وفاته بعد هذه الحياة

---

(١) نسبة إلى « آلوس » جزيرة فى نهر الفرات بين بغداد والشام ، كانت موطن أهله وأجداده .

(٢) لست مع الذين يقولون : إنه كان شافعيا ويقلد أبا حنيفة فى كثير من المسائل ،فكتاب التفسير طافح بقوله : وعندنا ... ثم يسوق مذهب الحنفية .

العلمية المباركة ، عام سبعين ومائتين وألف[1] بعد الهجرة ، فرضى الله عنه وأرضاه .

منهجه فى تفسيره وقيمته العلمية :

وتفسير « روح المعانى » خير تفسير ، وأجمعه ، وأوفاه ، وقد جمع فيه خلاصة كل كتب التفاسير قبله وحواشيها ، ولا سيما حاشية : تفسير الكشاف ، وحاشية الشهاب الخفاجى ، على تفسير البيضاوى ، وقد حل بعض رموزها ، وعباراتها الخفية التى استعصى فهم المراد منها على العلماء ، وله استدراكات قيمة ، وتعقبات دقيقة لمن سبقه من العلماء .

وكثيراً ما يدلى برأيه بين الآراء : فهو ليس مجرد ناقل ، بل له شخصيته العلمية البارزة ، وأفكاره النيرة ، وليس فى تفسيره ما يؤاخذ عليه ، إلا كثرة الاستطرادات ، والتوسع فيما يستطرد إليه ، حتى يكاد يغرق القارىء لكتابه فى بحر هذه الاستدراكات ، ولو أن أحداً نزع ما استطرد إليه من كتابه ، لجاءت فى رسائل كثيرة ، وكذلك : ذكره للتفسير الإشارى ، فليس ثمة ما يدعو إليه ، ولعله فعل ذلك لنزعة تصوفية ، وليجىء كتابه جامعا لكل الألوان التفسيرية ، ومرضياً لجميع الأذواق .

ولما كان الإمام الآلوسى من المتأخرين ، وكانت له مشاركة علمية فى كثير من العلوم ، وسعة اطلاع على كلام من سبقوه ، ولا سيما علماء الحديث ، وأئمته العارفين بمتونه ، وأسانيده ـ فمن ثم : لم يقع فيما وقع فيه بعض المفسرين السابقين له : من ذكر الأحاديث الموضوعة فى الفضائل ، وغيرها ، وكذلك خلا تفسيره من الاغترار بالإسرائيليات وهو إنما ذكرها لينبه إلى اختلاقها ، وبطلانها وتحذير المسلمين ولا سيما طلبة العلم وأهله من التصديق بها ، أو أن لها أصلا فى الإسلام ، ولم أعلم أحدا من المفسرين ، بعد العلامة الحافظ ابن كثير فى تفسيره ، حارب الإسرائيليات ، والموضوعات ، مثل ما فعل الإمام الآلوسى ، فى تفسيره ، فقد أفاض فى رد هذه الإسرائيليات والمختلقات ، كما صنع فى قصة إسماعيل ، وإسحاق ، وأيهما الذبيح ؟ ، وبيان أن كونه إسحاق رأى باطل ، تدسس إلى الرواية الإسلامية ، وفى قصة يوسف ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ونحوها وقصة الغرانيق ... وقد

---

(١) انظر ترجمته فى أول الجزء الأول من النسخة الأميرية المطبوعة فى بولاق .

مكث هذا الإمام فى تأليف كتابه خمس عشرة سنة[1] ، بحث ، ونقب ، وقرأ ، واختصر ، وسهر فيه الليالى الطوال ، وكان كثيراً ما ينشد ، وحق له ذلك :

سهرى لتنقيح العلوم ألذ لى   من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلى طربا لحل عويصة أشهى   وأحسن من مدام الساقى
وألذ من نقر الفتاة لدفها نقرى   لدفع الرمل عن أوراقى[2]

* * *

والخلاصة

أن كتب التفسير ـ ما عدا القليل منها ـ سواء منها ما كان بالمأثور صرفا ، أو غلب عليه المأثور ، أو كان بالرأى والاجتهاد ، لم تخل غالباً من الإسرائيليات الباطلة ، والأحاديث الموضوعة ، والواهية .

وبحسبنا ما قدمته من ذكر أشهر كتب التفسير أياً كان لونه ، والتعريف بكل تفسير ، ولا سيما من الجهة التى ألفت لأجلها كتابى هذا ، لأن هذا الكتاب ليس دراسة موضوعية لكتب التفسير ، وإلا لتناولت كل تفسير من جوانبه المتعددة .

ولا يضير القارىء : أنى لم أذكر كل كتب التفسير : مخطوطها ، ومطبوعها ، لأن منهجى كما أسلفت : التنبيه إلى الإسرائيليات ، والموضوعات ، وبيان من ذكرها فى تفسيره فى حدود ما استطعت ، واطلعت عليه ، فإذا وجدها القارىءُ فى أى كتاب فى التفسير ، بل وفى غيره ككتب الوعظ والأخلاق ، والتاريخ ، والقصص ، والأدب ... فلا يغتر بها ، وليحذر من اعتقاد ما فيها ، أو إذاعته ونشره ، وبذلك : تكون الفائدة بهذا الكتاب أعم ، وأشمل ـ إن شاء الله تعالى .

نقد التفسير بالمأثور إجمالا :

ذكرت فيما سبق : نقد بعض العلماء الأئمة المحدثين للتفسير بالمأثور إجمالا .
فمن ذلك : قول الإمام أحمد : « ثلاثة ليس لها أصل : التفسير ، والملاحم ، والمغازى » .

---

(١) ابتدأ تأليفه فى رجب سنة ١٢٥٢ هـ وفرغ منه فى ربيع الآخر سنة ١٢٦٧ هـ أى قبل وفاته بنحو ثلاث سنين .
(٢) كان من عادة السابقين ، وقد أدركناهم أنهم يجففون كتاباتهم بوضع التراب عليها .

وقد حملها المحققون من أصحاب الإمام : على أن مراده أن الغالب أنه ليس لها أسانيد صحيحة متصلة ، وقيل : لأنها يغلب عليها المراسيل وقال الخطيب البغدادى : هذا محمول على كتب مخصوصة فى هذه المعانى الثلاثة ، فأشهرها كتابان للكلبى ، ومقاتل ابن سليمان ، وقد قال الإمام أحمد فى تفسير الكلبى : إنه من أوله إلى آخره كذب ، لا يحل النظر فيه .

وكذلك : روى عن الإمام الشافعى أنه قال : « لم يثبت[1] عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث » ، ومهما كان فيه من مبالغة : فهى تدل على كثرة ما وضع على ابن عباس .

نقد الطرق والرواة تفصيلا :

وكذلك : نقد العلماءُ المحدثون النقاد الرواة الذين رووا التفسير بالمأثور ، والطرق التى رويت بها هذه التفاسير تفصيلا ، وتنصيصاً .

وسأذكر جميع ما ذكروه فى هذا ، ليتبين لنا أنهم ـ رضى الله عنهم ـ قاموا بما يجب عليهم من البيان خير قيام ، وإنما الناس هم الذين فرطوا فى الوقوف على كلامهم ، والسير على منهجهم ، حتى يتبين الصحيح من الضعيف ، والحق من الباطل ، والجيد من الردىء :

١ ـ الطرق عن ابن عباس

طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس :

من جيد الطرق والأسانيد عن ابن عباس : طريق على بن أبى طلحة الهاشمى عنه ، قال الإمام الجليل : أحمد بن حنبل : بمصر صحيفة فى التفسير ، رواها على بن أبى

(١) لم يثبت : أعم من لم يصح لأن الثابت أعم من أن يكون صحيحا ، أو حسنا .

طلحة ، لو رحل رجل إلى مصر قاصدا ماكان كثيرا ، أسنده أبو جعفر النحاس فى « ناسخه » .

وقال الخليلى فى الإرشاد :

تفسير معاوية بن صالح قاضى الأندلس ، عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، رواه الكبار عن أبى صالح ، عن معاوية .

وأجمع الحفاظ على أن على بن أبى طلحة لم يسمعه من ابن عباس .

طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس :

وقال أيضاً : وهذه التفاسير الطوال ، التى أسندوها إلى ابن عباس غير مرضية ، ورواتها مجاهيل ، كتفسير جويبر ، عن الضحاك ، عن ابن عباس .

الطرق عن ابن جريج[١] :

قال الخليلى أيضاً : وعن ابن جريج[٢] فى التفسير : جماعة رووا عنه ، وأطولها ما يرويه بكر بن سهل الدمياطى ، عن عبد الغنى بن سعيد ، عن موسى بن محمد ، عن ابن جريج وفيه نظر .

وروى محمد بن ثور عن ابن جريج نحو ثلاثة أجزاء كبار ، وتلك صحيحة .

وروى الحجاج بن محمد ، عن ابن جريج ، نحو جزء ، وذلك صحيح متفق عليه .

طريق شبل بن عباد المكى :

وتفسير شبل بن عباد المكى ، عن أبى نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قريب إلى الصحة .

---

(١) هو أبو الوليد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموى مولاهم ، أصله رومى نصرانى ، كان من علماء مكة ومحدثيهم ، وهو من أوائل من دون الحديث ، وصنف الكتب ، وقد اختلفت فيه أنظار العلماء ، فمنهم من وثقه ، ومنهم من ضعفه ، وقالوا : إنه كان يدلس ، والموثقون له أكثر من المجرحين ، وقد ذكر الخزرجى فى « خلاصته » : أنه مجمع عليه من أصحاب الكتب ، وقد رويت عنه فى التفسير أجزاء كثيرة عن ابن عباس فيها الصحيح والضعيف ، والمقبول والمردود ، ولد سنة ثمانين ٨٠ هـ وتوفى سنة خمسين ومائة ١٥٠ هـ وقيل سنة تسعة وخمسين ١٥٩ هـ .

(٢) يعنى عن ابن عباس .

تفسير عطاء بن دينار ، وأبى روق :

وتفسير عطاء بن دينار يكتب ، ويحتج به ، وتفسير أبى روق نحو جزء صححوه .

تفسير إسماعيل السدى :

قال : وتفسير إسماعيل السدى يورده بأسانيد إلى ابن مسعود ، وابن عباس .

وروى عن السدى : الأئمة ، مثل : الثورى ، وشعبة ، لكن التفسير الذى جمعه رواه أسباط بن نصر ، وأسباط لم يتفقوا عليه ، غير أن أمثل التفاسير : تفسير السدى .

فأما ابن جريج : فإنه لم يقصد الصحة ، وإنما روى فى كل آية من الصحيح والسقيم .

تفسير مقاتل بن سليمان :

قال : وأما تفسير مقاتل بن سليمان : فمقاتل فى نفسه ضعفوه ، وقد أدرك الكبار من التابعين ، والشافعى أشار إلى أن تفسيره صالح[1] ــ يعنى للاحتجاج به ــ .

مقالة الإمام الحافظ بن حجر

وللإمام الحافظ بن حجر كلام طويل فى هذه المرويات عن الصحابة والتابعين ، ونقد الطرق التى رويت بها ، ذكره فى أول كتابه : أسباب النزول الذى سماه : « العجب العجاب ، فى بيان الأسباب » : قال ــ رحمه الله وأجزل ثوابه ــ :

« والتابعون من أصحاب ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ والطرق عنهم والذين اشتهر عنهم القول فى ذلك من التابعين : أصحاب ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ وفيهم ثقات ، وضعفاء » .

روايات الثقات عن ابن عباس :

فمن الثقات : مجاهد ، وابن جبير ، ويروى التفسير عنه منّ طريق ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، والطريق إلى ابن أبى نجيح قوية .

---

(١) الإتقان ج ٢ ص ١٨٨ .

ومنهم : عكرمة ، ويروى التفسير عنه من طريق : الحسن بن واقد النحوى عنه ، ومن طريق : محمد بن إسحاق ، عن محمد بن أبى محمد : مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو سعيد بن جبير ـ هكذا بالشك ، ولا يضر لكونه عن ثقة .

ومن طريق معاوية بن صالح ، عن على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، وعلى صدوق ، ولم يلق ابن عباس ، لكنه إنما حمل عن ثقات أصحابه ، فلذلك : كان البخارى ، وأبو حاتم وغيرهما ، يعتمدون على هذه النسخة .

ومن طريق ابن جريج ، عن عطاء بن أبى رباح ، عن ابن عباس ، لكن فيما يتعلق بالبقرة ، وآل عمران ، وما عدا ذلك هو الخراسانى ، وهو لم يسمع من ابن عباس ، فيكون منقطعا ، إلا إن صرح ابن جريج بأنه عطاء بن أبى رباح[1] .

روايات الضعفاء عن ابن عباس ، وطرقها

محمد بن السائب الكلبى متهم بالكذب :

ومن روايات الضعفاء عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ التفسير المنسوب لأبى النصر : محمد بن السائب الكلبى ، فإنه يرويه عن أبى صالح وهو مولى أم هانى ، عن ابن عباس ، والكلبى متهم بالكذب ، وقد مرض فقال لأصحابه فى مرضه : كل شىء حدثتكم عن أبى صالح كذب .

السدى الصغير كذاب :

قال : ومع ضعف الكلبى : فقد روى عنه تفسيره مثله ، أو أشد ضعفاً : محمد بن مروان السدى الصغير وروى عن محمد بن مروان مثله ، أو أشد ضعفاً ، وهو صالح بن محمد الترمذى .

---

(١) هذا مثل من أمثلة دقة المحدثين ، وتمييزهم بين الأشخاص ، وبين ما رواه هذا مما رواه ذاك ولعل فى هذا زاجرا للذين يتقولون على أئمة الحديث ، وزيادة علم ويقين لمن يعرفون لهم فضلهم .

من روى التفسير عن الكلبي من الثقات والضعفاء حفظا :

وممن روى التفسير عن الكلبي من الثقات ، سفيان الثورى ، ومحمد بن فضيل بن غزوان ، ومن الضعفاء من قبل الحفظ حبله ـ بكسر الحاء المهملة ، وتثقيل الموحدة ـ ، وهو على العنزى ـ بفتح المهملة ، والنون بعدها زاى منقوطة ـ .

ومنهم[1] جويبر بن سعيد ، وهو واه : روى التفسير عن الضحاك بن مزاحم ـ وهو صدوق ـ عن ابن عباس ، وهو لم يسمع منه شيئاً .

من روى التفسير عن الضحاك :

وممن روى التفسير عن الضحاك : على بن الحكم ـ وهو ثقة ـ وعلى بن سليمان ـ وهو صدوق ـ ، وأبو روق عطية بن الحارث ، وهو لا بأس به .

عثمان بن عطاء الخراسانى

ومنهم : عثمان بن عطاء الخراسانى ، يروى التفسير عن أبيه ، عن ابن عباس ، ولم يسمع أبوه من ابن عباس .

إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير :

ومنهم : إسماعيل بن عبد الرحمن السدى[2] ـ بضم السين المهملة ، وتشديد الدال ـ وهو كوفى صدوق ، لكن جمع التفسير من طرق منها :

عن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة بن شراحيل ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من الصحابة ، ـ رضى الله عنهم ـ وغيرهم وخلط روايات الجميع ، فلم تتميز روايات الثقة من الضعيف ، ولم يلق السدى من الصحابة إلا أنس بن مالك ، وربما التبس بالسدى الصغير الذى تقدم ذكره .

---

(١) ومنهم أى من الضعفاء . كذا كل ما عطف عليه بعد ما بين ضعفه .

(٢) نسبة إلى سدة مسجد الكوفة كان يبيع فيها المقانع والسدة : رحبة المسجد التى تكون أمامه ، قال أبو حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به ، وقال ابن عدى : مستقيم الحديث صدوق ، وعن يحيى بن معين أنه ضعيف توفى سنة ١٢٧ هـ فهو يحتج به ، عند من يقول فيه صدوق ، أما السدى الصغير محمد بن مروان فتهم بالكذب بل قيل : إنه كذاب .

طريق إبراهيم بن الحكم :

ومنهم : إبراهيم بن الحكم بن أبان العدنى ـ ، وهو ضعيف ، يروى التفسير عن أبيه ، عن عكرمة ، وإنما ضعفوه ، لأنه وصل كثيرا من الأحاديث بذكر ابن عباس ، وقد روى عنه تفسيره عبد بن حميد .

طريق إسماعيل بن أبى زياد :

ومنهم : إسماعيل بن أبى زياد الشامى ـ وهو ضعيف ـ ، جمع كثيرا فيه الصحيح ، والسقيم وهو فى عصر أتباع التابعين .

طريق عطاء بن دينار :

ومنهم : عطاءُ بن دينار ـ وفيه لين ـ ، يروى التفسير عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، ويرويه عنه ابن لهيعة ، وهو ضعيف .

قتادة والطرق عنه :

ومن تفاسير التابعين : ما يروى عن قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ وهو من طرق منها : رواية عبد الرزاق عن معمر عنه .

ورواية آدم بن أبى إياس ، وغيره ، عن شيبان عنه .

ورواية يزيد بن زريع ، عن سعيد بن أبى عروبة .

تفسير الربيع بن أنس عن أبى العالية :

ومن تفاسيرهم : تفسير الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، واسمه : رفيع ـ بضم الراء ، وفتح الفاء ، وسكون الياء ـ الرياحى ـ بالمثناة التحتية ، والحاء المهملة ـ وبعضه لا يسمى الربيع فوقه أحدا ، وهو يروى من طرق ، منها ، رواية أبى عبيد الله بن أبى جعفر الرَّازى ، عن أبيه عنه .

تفسير مقاتل بن حيان :

ومنها : تفسير مقاتل بن حيان ، من طريق محمد بن مزاحم ، بن بكير بن معروف

عنه ، ومقاتل هذا صدوق[1] ، وهو غير مقاتل بن سليمان الآتى ذكره .

تفسير زيد بن أسلم :

ومن تفاسير ضعفاء التابعين فمن بعدهم : تفسير زيد بن أسلم من رواية ابنه عبد الرحمن عنه ، وهى نسخة كبيرة يرويها ابن وهب وغيره ، عن عبد الرحمن عن أبيه ، وفيه أشياءُ كثيرة لا يسندها لأحد ، وعبد الرحمن من الضعفاء ، وأبوه من الثقات[2] .

تفسير مقاتل بن سليمان :

ومنها : تفسير مقاتل بن سليمان ، وقد نسبوه إلى الكذب ، وقال الشافعى : مقاتل : قاتله الله ، وإنما قال الشافعى ـ رضى الله عنه ـ فيه ذلك : لأنه اشتهر عنه القول بالتجسيم ، وروى تفسير مقاتل هذا أبو عصمة : نوح بن أبى مريم الجامع ، وقد نسبوه إلى الكذب[3] .

ورواه أيضاً عن مقاتل الحكم بن هذيل ، وهو ضعيف ، لكنه أصلح حالا من أبى عصمة .

تفسير يحيى بن سلام المغربى :

ومنها : تفسير يحيى بن سلام المغربى ، وهو كبير ، فى نحو ستة أسفار ، فيه النقل عن التابعين وغيرهم ، وهو لين الحديث[4] ، فيما يرويه مناكير[5] كثيرة ، وشيوخه مثل : سعيد بن أبى عروبة ، ومالك والثورى .

---

(١) هو من المرتبة الرابعة من مراتب التعديل عند بعض العلماء ، والمراد به أصل الصدق إن كان فى الأصل يدل على المبالغة وبعضهم يرى أن المراد به المبالغة فيكون فى مرتبة أعلى من ذلك ومنهم من قال فى صدوق مرتبة خاصة .
(٢) جمع ثقة وهو العدل الضابط .
(٣) هو واضع الحديث الطويل فى فضائل القرآن سورة سورة .
(٤) من المرتبة السادسة من مراتب التجريح ، وهى أدنى الدرجات جرحا .
(٥) فلان له مناكير مرتبة فوق السابقة تجريحا .

تفسير سنيد :

ويقرب منه تفسير سنيد[1] ، واسمه : الحسين بن داود ، وهو من طبقة شيوخ الأئمة الستة ، يروى عن حجاج بن محمد المصيصى كثيرا ، وعن أنظاره ، وفيه لين ، وتفسيره نحو تفسير يحيى بن سلام ، وقد أكثر ابن جريج التخريج منه .

تفسير موسى بن عبد الرحمن الصنعانى :

ومن التفاسير الواهية ، لوهاء رواتها : التفسير الذى جمعه موسى بن عبد الرحمن الثقفى الصنعانى ، وهو قدر مجلدين ، يسنده إلى ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، وقد نسب ابن حبان موسى هذا إلى وضع الحديث ، ورواه عن موسى عبد الغنى بن سعيد الثقفى ، وهو ضعيف .

طرق المرويات فى سبب النزول

وقد يوجد كثير من أسباب النزول فى كتب المغازى ، فما كان منها من رواية معتمر بن سليمان عن أبيه ، أو من رواية إسماعيل ، بن إبراهيم ، بن عقبة ، عن عمه : موسى بن عقبة ، فهو أصلح مما فيه من كتاب محمد بن إسحاق ، وما كان من رواية محمد بن إسحاق أمثل مما فيه من رواية الواقدى[2] .

وقال الإمام السيوطى فى الإتقان بعد ما ذكر كلام الخليلى فى « الإرشاد » الذى ذكرته آنفاً : وتفسير السدى ـ يعنى : السدى الكبير ـ يورد منه ابن جرير كثيرا من طريق السدى عن أبى مالك ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وناس من الصحابة ـ هكذا ، ولم يورد منه ابن أبى حاتم شيئاً ، لأنه التزم أن يخرج أصح ما ورد ، والحاكم يخرج منه فى مستدركه أشياء ويصححه ، لكن من طريق مرة ، عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ ، وناس فقط دون الطريق الأول ، وقد قال ابن كثير : إن هذا الإسناد يروى به السدى أشياء فيها غرابة .

---

(١) بضم السين ، وفتح النون ، وياء ساكنة ، ابن داود المصيصى المحتسب أخذ عن حماد بن زيد وشريك ، وابن المبارك وعنه أبو زرعة ، وأبو بكر الأثرم توفى سنة ٢٢٠ هـ .

(٢) الدر المنثور ج ٦ ص ٤٢٢ .

الطرق الجياد عن ابن عباس :

ومن جيد الطرق عن ابن عباس : طريق قيس ، عن عطاء ابن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عنه ، وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين ، وكثيراً ما يخرج منها الفريابى والحاكم فى مستدركه ، ومن ذلك طريق ابن إسحاق ، عن محمد بن أبى محمد : مولى : آل زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو سعيد بن جبير عنه ـ أى : ابن عباس ـ هكذا بالتردد وهى طريق جيدة ، وإسنادها حسن ، وقد أخرج عنها ابن جرير ، وابن أبى حاتم كثيرا ، وفى معجم الطبرانى الكبير منها أشياء .

أوهى الطرق عن ابن عباس :

وأوهى طرقه : طريق الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس ، فإذا انضم إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدى الصغير ؛ فهى سلسلة الكذب ، وكثيرا ما يخرج منها الثعلبى والواحدى ، لكن قال ابن عدى فى الكامل : للكلبى أحاديث صالحة ، وخاصة عن أبى صالح ، وهو معروف بالتفسير ، وليس لأحد تفسير أطول منه ، ولا أشبع .

وبعده ـ فى أن روايته أوهى ـ مقاتل بن سليمان ، إلا أن الكلبى يفضل عليه ، لما فى مقاتل من المذاهب الرديَّة .

الطرق الضعيفة عن ابن عباس :

وطريق الضحاك بن مزاحم ، عن ابن عباس منقطعة ، فإن الضحاك لم يلقه ، فإذا انضم إلى ذلك رواية بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عنه فضعيفة ؛ لضعف بشر ، وقد أخرج من هذه النسخة كثيراً ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

وإن كان من رواية جويبر عن الضحاك ، فأشد ضعفاً ؛ لأن جويبرا شديد الضعف ، متروك ، ولم يخرج ابن جرير ، ولا ابن أبى حاتم من هذا الطريق شيئاً ، إنما خرجها ابن مردويه ، وأبو الشيخ ابن حيان .

وطريق العوفى عن ابن عباس ، أخرج منها ابن جرير ، وابن أبى حاتم كثيراً ، والعوفى ضعيف ، ليس بواه ، وربما حسن له الترمذى[1] .

---

(١) أى قال : إن حديثه حسن .

قال السيوطى : ورأيت فى فضائل الإمام الشافعى ، لأبى عبد الله بن أحمد بن شاكر القطان ، أنه أخرج بسنده من طريق ابن عبد الحكم قال : سمعت الشافعى يقول : « لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث » .

* * *

٢ ـ تفسير أُبَىٍّ بن كعب والطرق عنه

وأما أُبى بن كعب ، فعنه نسخة كبيرة يرويها أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عنه ، وهذا إسناد صحيح .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم منها كثيرا ، وكذا الحاكم فى مستدركه ، والإمام أحمد فى مسنده(١) .

ومن الطرق الحسنة عنه : طريق وكيع ، عن سفيان ، عن عبد الله بن محمد ، بن عقيل ، عن الطفيل بن أبى بن كعب ، عن أبيه وهذه الطريق يخرج منها الإمام أحمد فى مسنده ، وهى على شرط الحسن ، لأن عبد الله بن محمد بن عقيل ، وإن كان صدوقاً تكلم فيه من جهة حفظه ، قال الترمذى فى سننه : « عبد الله بن محمد بن عقيل ، هو صدوق ، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه وسمعت محمد بن إسماعيل يقول : كان أحمد بن حنبل ، وإسحق ابن راهويه ، والحميدى ، يحتجون بحديث عبد الله بن محمد ، بن عقيل ، قال محمد : ـ يعنى البخارى ـ وهو مقارب الحديث » ، ونص الحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد ؛ على أن حديثه حسن(٢) .

* * *

٣ ـ أشهر الطرق عن ابن مسعود

١ ـ طريق الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن ابن مسعود ، وقد قيل : إنها أصح الأسانيد .

---

(١) الإتقان ج ٢ ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٢) التفسير والمفسرون ج ١ ص ٩٣ .

٢ - طريق الثورى ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن ابن مسعود ، وقد قيل : إنها أصح الأسانيد أيضاً[(١)] .

٣ - طريق الأعمش ، عن أبي الضحى ، عن مسروق ، عن ابن مسعود وهى من أصح الطرق وأسلمها ، وقد اعتمد عليها البخارى فى صحيحه .

٤ - طريق مجاهد ، عن أبي معمر ، عن ابن مسعود ، وهى صحيحة أيضاً ، وقد اعتمد عليها البخارى فى صحيحه .

٥ - طريق الأعمش ، عن أبي وائل ، عن ابن مسعود ، وهذه طريق صحيحه ، يخرج منها البخارى فى صحيحه ، وكفى بتخريج البخارى شاهداً على صحة هذه الطرق الثلاث .

٦ - طريق السدى الكبير ، عن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود وقد ذكرناها فيما سبق .

* * *

٤ - أصح الطرق عن على - رضى الله عنه -

١ - طريق محمد بن سيرين ، عن عبيدة[(٢)] - بفتح العين وكسر الياء - السلمانى - بفتح السين ، وسكون اللام - عن على : وقد قال على بن المدينى ، وعمرو بن على الفلاس : إنها أصح الطرق .

٢ - طريق الزهرى ، عن على بن الحسين ، عن أبيه ، عن على : وقد قال أبو بكر بن أبي شيبة : إنها أصح الأسانيد .

٣ - طريق جعفر بن محمد ، بن على ، بن الحسين ، عن أبيه عن جده ، عن على ، وهى : من أصح الطرق أيضاً كما قيل .

٤ - طريق يحيى بن سعيد القطان ، عن سفيان الثورى ، عن سليمان التيمى ، عن الحارث بن سويد ، عن على ، وهى : من أصح الطرق أيضاً[(٣)] .

---

(١) الباعث الحثيث ص ٧ ، و ص ٩ هامش .

(٢) هو ابن عمرو ، وقيل ابن قيس .

(٣) الباعث الحثيث إلى علوم الحديث ص ٧ ، ٨ هامش .

طريق أبي يعلى ، عن إسماعيل بن السدى ، عن على بن عياش ، عن مسلم الملائى ، عن حبة بن جوين ، عن على ، عن أنس بن مالك قالوا : حبة لا يساوى حبة[1] .

طريق يحيي بن عبد الحميد ، عن على بن مسهر ، عن الأعمش ، عن موسى بن طريف ، عن عباية عن على ... وموسى بن طريف ضعيف يحتاج إلى من يعدله ، وعباية : أقل منه ليس بشيء حديثه[2] طريق شريك عن كهيل ، عن سويد بن غفلة ، عن الصنابحى ، عن على[3] إلى غير ذلك من الطرق التى نقدها أئمة الحديث ، وبينوا الصحيح من الضعيف .

* * *

٥ ـ المروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص فى التفسير

وقد روى عن عبد الله بن عمرو تفاسير كثيرة ، فيما يتعلق بالقصص وأخبار الفتحة ، والآخرة ، وما أشبهها ، بأن تكون مما تحمله عن أهل الكتاب الذين أسلموا ، وما وجده فى كتبهم التى أصاب منها فى اليرموك زاملتين ، وقد نقد العلماءُ كل ذلك ، وبينوا الصحيح من العليل والمقبول من المردود .

ومما ذكرنا : يتبين جليا : أن العلماء المحدثين نقدوا طرق المرويات فى التفسير وغيره ، وبينوا الصحيح والضعيف ، والموضوع ونبهوا إلى الإسرائيليات ، وحذروا منها ، ولو أن المفسرين كانوا من أهل الحديث ، والنقد ، لنزهوا كتبهم مما وقع فيها من المرويات من غثاء وَزَبَد ، ولما وقع فيها كل هذا الركام من الإسرائيليات ، والخرافات ، والأوهام ، ولنأخذ فى بيان المقصود فنقول وبالله التوفيق .

* * *

(١) الإسرائيليات فى قصة هاروت وماروت

روى السيوطى فى الدر المنثور ، فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **وما أُنزِل على المَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ** ﴾ : روايات كثيرة وقصصاً عجيبة رويت عن ابن عمر ، وابن مسعود ،

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٣٣٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٥٥ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٥٨ .

وعلى ، وابن عباس ، ومجاهد ، وكعب ، والربيع ، والسدى ، رواها ابن جرير الطبرى فى تفسيره ، وابن مردويه ، والحاكم ، وابن المنذر ، وابن أبى الدنيا ، والبيهقى ، والخطيب فى تفاسيرهم وكتبهم[1] .

وخلاصتها : أنه لما وقع الناس من بنى آدم فيما وقعوا فيه من المعاصى والكفر بالله ، قالت الملائكة فى السماء : أى رب ، هذا العالم إنما خلقتهم لعبادتك ، وطاعتك ، وقد ركبوا الكفر ، وقتل النفس الحرام ، وأكل المال الحرام ، والسرقة ، والزنا ، وشرب الخمر ، فجعلوا يدعون عليهم ، ولا يعذرونهم فقيل لهم : إنهم فى غيب ، فلم يعذروهم ، وفى بعض الروايات : أن الله قال لهم : لو كنتم مكانهم لعملتم مثل أعمالهم ، قالوا سبحانك ، ما كان ينبغى لنا ، وفى رواية أخرى : قالوا : لا ، فقيل لهم : اختاروا منكم ملكين آمرهما بأمرى ، وأنهاهما عن معصيتى ، فاختاروا هاروت ، وماروت ، فأُهبطا إلى الأرض ، وركبت فيهما الشهوة ، وأمرا أنْ يعبدا الله ، ولا يشركا به شيئاً ، ونهيا عن قتل النفس الحرام ، وأكل المال الحرام ، والسرقة ، والزنا وشرب الخمر ، فلبثا على ذلك فى الأرض زماناً ، يحكمان بين الناس بالحق ، وفى ذلك الزمان امرأة حسنها فى سائر الناس كحسن الزهرة فى سائر الكواكب ، وأنهما أراداها[2] على نفسها ، فأبت إلا أن يكونا على أمرها ودينها ، وأنهما سألاها عن دينها ، فأخرجت لهما صنما ، فقالا : لا حاجة لنا فى عبادة هذا ، فذهبا فصبرا ما شاء الله ، ثم أتيا عليها ، فخضعا لها بالقول ، وأراداها على نفسها ، فأبت إلا أن يكونا على دينها ، وأن يعبدا الصنم الذى تعبده ، فأبيا ، فلما رأت أنهما قد أبيا أن يعبدا الصنم ، قالت لهما : اختارا إحدى الخلال الثلاث : إما أن تعبدا هذا الصنم ، أو تقتلا النفس ، أو تشربا هذا الخمر ، فقالا : هذا لا ينبغى ، وأهون الثلاثة شرب الخمر ، وسقتهما الخمر ، حتى إذا أخذت الخمر فيهما وقعا بها[3] فمر بهما إنسان ، وهما فى ذلك ، فخشيا أن يفشى عليهما ، فقتلاه ، فلما أن ذهب عنهما السكر ، عرفا ما قد وقعا فيه من الخطيئة ، وأرادا أن يصعدا إلى السماء ، فلم يستطيعا ، وكشف الغطاءُ فيما

---

(١) الدر المنثور ج ١ من ص ٩٧ - ١٠٣ تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٦٢ - ٣٦٧ ط بولاق .
(٢) راوداها عن نفسها .
(٣) أى فعلا بها الفاحشة .

بينهما ، وبين أهل السماء ، فنظرت الملائكة إلى ما قد وقعا فيه من الذنوب ، وعرفوا أنه من كان فى غيب فهو أقل خشية ، فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن فى الأرض ، فلما وقعا فيما وقعا فيه من الخطيئة : قيل لهما : اختارا عذاب الدنيا ، أو عذاب الآخرة ، فقالا : أما عذاب الدنيا فينقطع ، ويذهب وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له ، فاختارا عذاب الدنيا ، فجعلا ببابل فهما بها يعذبان معلقين بأرجلهما ، وفى بعض الروايات ، أنهما علماها الكلمة التى يصعدان بها إلى السماء ، فصعدت ، فمسخها الله ، فهى هذا الكوكب المعروف بالزهرة[1] .

ويذكر السيوطى أيضاً فى كتابه : ما رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه[2] ، والبيهقى فى سننه : عن عائشة ، أنها قدمت عليها امرأة من دومة الجندل ، وأنها أخبرتها أنها جىء لها بكلبين أسودين فركبت كلباً ، وركبت امرأة أُخرى الكلب الآخر ، ولم يمض غير قليل ، حتى وقفتا ببابل ، فإذا هما برجلين معلقين بأرجلهما ، وهما هاروت وماروت ، واسترسلت المرأة التى قدمت على عائشة فى ذكر قصة عجيبة غريبة .

ويذكر أيضاً : أن ابن المنذر أخرج من طريق الأوزاعى ، عن هارون بن رباب ، قال : دخلت على عبد الملك بن مروان وعنده رجل قد ثنيت له وسادة ، وهو متكىء عليها ، فقالوا : هذا قد لقى هاروت ، وماروت فقالوا له : حدثنا رحمك الله : فأنشأ الرجل يحدث بقصة عجيبة غريبة[3] .

وكل هذا من خرافات بنى إسرائيل ، وأكاذيبهم التى لا يشهد لها عقل ، ولا نقل ، ولا شرع ، ولم يقف بعض رواة هذا القصص الخرافى الباطل عند روايته عن بعض الصحابة والتابعين ، ولكنهم أوغلوا باب الإثم ، والتجنى الفاضح ، فألصقوا هذا الزور إلى النبى - ﷺ - ورفعوه إليه ، فقد قال السيوطى : أخرج سعيد ، وابن جرير ، والخطيب فى تاريخه ، عن نافع ، قال : سافرت مع ابن عمر ، فلما كان من آخر الليل :

---

(١) الزهرة كرطبة - يعنى بضم الزاى وفتح الهاء - نجم فى السماء كما فى القاموس وغيره

(٢) تصحيح الحاكم غير معتد به لأنه معروف أنه متساهل فى الحكم بالتصحيح كما قال ابن الصلاح وغيره وقد صحح أحاديث تعقبها الإمام الذهبى وحكم عليها بالوضع .

(٣) الدر المنثور ص ١٠١ تفسير الطبرى ج ١ ص ٣٦٦ .

قال : يا نافع : انظر : هل طلعت الحمراءُ ؟ قلت : لا ، مرتين أو ثلاثا ، ثم قلت : قد طلعت ، قال : لا مرحبا بها ، ولا أهلا : قلت : سبحان الله ! ! نجم مسخر ، سامع ، مطيع ! ! قال : ما قلت لك إلا ما سمعت من رسول الله - ﷺ - ، قال : وإن الملائكة قالت : يارب كيف صبرك على بنى آدم فى الخطايا والذنوب ؟ قال : إنى ابتليتهم وعافيتكم ، قالوا : لو كنا مكانهم ما عصيناك ، قال : فاختاروا ملكين منكم ، فلم يألوا جهداً أن يختاروا فاختاروا هاروت وماروت ، فنزلا ، فألقى الله عليهم الشبق ، قلت : وما الشبق ؟ قال : الشهوة ، فجاءت امرأة يقال لها الزهرة فوقعت فى قلبيهما ، فجعل كل واحد منهما يخفى عن صاحبه ما فى نفسه ، ثم قال أحدهما للآخر : هل وقع فى نفسك ما وقع فى قلبى ؟ قال : نعم فطلباها لأنفسهما ، فقالت : لا أُمكنكما حتى تعلمانى الاسم الذى تعرجان به إلى السماء ، وتهبطان ، فأبيا ، ثم سألاها أيضاً ، فأبت ، ففعلا ، فلما

* * *

استطيرت طمسها الله كوكبا ، وقطع أجنحتها ، ثم سألا التوبة من ربهما ، فخيرهما بين عذاب الدنيا ، وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا على عذاب الآخرة ، فأوحى الله إليهما : أن ائتيا « بابل »[1] فانطلقا إلى بابل ، فخسف بهما ، فهما منكوسان بين السماء والأرض ، معذبان إلى يوم القيامة ، ثم ذكر أيضاً رواية أخرى ، مرفوعة إلى النبى - ﷺ - لا تخرج فى معناها عما ذكرنا[2] ، ولا ينبغى أن يشك مسلم عاقل - فضلا عن طالب حديث ، فى أن هذا موضوع على النبى - ﷺ - مهما بلغت أسانيده من الثبوت فما بالك إذا كانت - أسانيدها واهية ، ساقطة ، ولا تخلو من وضاع ، أو ضعيف ، أو مجهول ؟ ! ! ونص على وضعه أئمة الحديث ! !

وقد حكم بوضع هذه القصة الإمام : أبو الفرج بن الجوزى[3] ، ونص الشهاب العراقى على أن من اعتقد فى هاروت ، وماروت أنهما ملكان يعذبان على خطيئتهما : فهو كافر بالله

---

(١) بابل : بلد من بلاد العراق .
(٢) الدر المنثور ج ١ ص ٩٧ تفسير الطبرى ج ١ ص ٣٦٤ .
(٣) اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة ج ١ ص ٨٢ .

العظيم[1] ، وقال الإمام القاضى عياض فى « الشفا » : وما ذكره أهل الأخبار ، ونقله المفسرون فى قصة هاروت وماروت : لم يرد فيه شىء لا سقيم[2] ، ولا صحيح عن رسول الله ـ ﷺ ـ ، وليس هو شيئاً يؤخذ بالقياس .

وكذلك : حكم بوضع المرفوع من هذه القصة : الحافظ : عماد الدين ابن كثير ، وأما ما ليس مرفوعاً : فبين أن منشأه روايات إسرائيلية ـ أخذت عن كعب وغيره ، ألصقها زنادقة أهل الكتاب بالإسلام ، قال رحمه الله ـ فى تفسيره ، بعد أن تكلم على الأحاديث الواردة فى هاروت وماروت ، وأن روايات الرفع غريبة جداً : « وأقرب ما يكون فى ذلك أنه من رواية عبد الله بن عمر ، عن كعب الأحبار ، كما قال عبد الرزاق فى تفسيره ، عن الثورى ، عن موسى بن عقبة ، عن سالم بن عبد الله عن ابن عمر ، عن كعب ، ورفع مثل هذه الإسرائيليات إلى النبى كذب واختلاق ألصقه زنادقة أهل الكتاب ، زورا وبهتانا » ، وذكر مثل ذلك فى البداية والنهاية[3] .

أقول : وهذا الذى قاله العلامة ابن كثير هو : الحق الذى لا ينبغى أن يقال غيره .

وليس أدل على هذا : من أن ابن جرير رواها بالسند الذى ذكره ابن كثير ، وبغيره عن ابن عمر ، عن كعب الأحبار[4] ، ولكن بعض الرواة غلطا ، أو سوء نية : رفعها ونسبها إلى النبى ـ ﷺ ـ وكذا ردها المحققون من المفسرين الذين مهروا فى معرفة أصول الدين ، وأبت عقولهم أن تقبل هذه الخرافات : كالإمام الرازى ، وأبى حيان ، وأبى السعود ، والآلوسى .

ثم هذه من ناحية العقل غير مسلمة ، فالملائكة معصومون عن مثل هذه الكبائر ، التى لا تصدر من عربيد وقد أخبر الله عنهم بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، كما ورد فى بعض الروايات التى أشرت إليها آنفا رد لكلام الله ، وفى رواية أخرى : أن الله قال لهما : لو ابتليتكما بما ابتليت به بنى آدم لعصيتمانى ، فقالا : لو فعلت بنا

---

(١) روح المعانى ج ١ ص ٣٤١ .
(٢) لعله أراد به الضعيف ، واعتبر ما روى مرفوعا ساقطا عن الاعتبار .
(٣) البداية والنهاية ج ١ ص ٣٧ .
(٤) تفسير الطبرى ج ١ ص ٣٦٣ .

يارب ما عصيناك ! ! ، ورد كلام الله كفر ، ننزه عنه من له علم بالله وصفاته ، فضلا عن الملائكة .

ثم كيف ترفع الفاجرة إلى السماء ، وتصير كوكبا مضيئاً ، وما النجم الذى يزعمون أنه : « الزهرة » ، وزعموا أنه كان امرأة ، فمسخت ـ إلا فى مكانه ، من يوم أن خلق الله السموات والأرض .

وهذه الخرافات التى لا يشهد لها نقل صحيح ، ولا عقل سليم هى كذلك مخالفة لما صار عند العلماء الْمُحَدثين أمراً يقينياً ، ولا أدرى ماذا يكون موقفنا أمام علماء الفلك ، والكونيات ، إذا نحن لم نزيف هذه الخرافات ، وسكتنا عنها ، أو انتصرنا لها ؟ ! ! .

وإذا كان بعض العلماء المحدثين[١] مال إلى ثبوت مثل هذه الروايات التى لا نشك فى كذبها ، فهذا منه تشدد فى التمسك بالقواعد ، من غير نظر إلى ما يلزم من الحكم بثبوت ذلك من المحظورات ، وأنا لا أُنكر أن بعض أسانيدها صحيحة أو حسنة ، إلى بعض الصحابة أو التابعين ، ولكن مرجعها ومخرجها من إسرائيليات بنى إسرائيل ، وخرافاتهم ، والراوى قد يغلط ، وبخاصة فى رفع الموقوف ، وقد حققت هذا فى مقدمات البحث ، وأن كونها صحيحة فى نسبتها لا ينافى كونها باطلة فى ذاتها ، ولو أن الانتصار لمثل هذه الأباطيل يترتب عليه فائدة ما لغضضنا الطرف عن مثل ذلك ، ولما بذلنا غاية الجهد فى التنبيه إلى بطلانها ، ولكنها فتحت على المسلمين باب شر كبير ، يجب أن يغلق .

ويرحم الله الإمام الحافظ الناقد البصير : ابن كثير فقد نبه على أصل الداء ، ووصف له الدواء ، وبين الحق والصواب فى موقف المسلم من هذه الخرافات .

ما التفسير الصحيح للآية ؟

وليس من شأنى فى هذا الكتاب مجرد الهدم والإبطال لهذه الإسرائيليات والخرافات فحسب ، ولكنى إلى ذلك سأعنى بتفسير الآيات التى حرفت عن مواضعها ، تفسيراً علمياً صحيحاً ، يشهد له النقل الصحيح ، والعقل السليم ، والسابق واللاحق من الآيات ،

---

(١) هو الحافظ ابن حجر ، وتابعه السيوطى .

حتى يزداد القارىء يقيناً : أنها دخيلة على القرآن الكريم ، وإليك التفسير الصحيح .

قوله تعالى : ﴿ **وَمَا أُنزلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبابِلَ هَاروتَ وَمَاروت وما يعَلِّمَانِ منْ أَحدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فلا تَكْفُرْ فَيتعَلَّمونَ منْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرءِ وَزَوْجِهِ وما هُم بِضَارِّين بِهِ مِنْ أَحدٍ إِلّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفعُهُمْ وَلقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خلاَق** ... ﴾[1] .

وليس فى الآية ما يدل ـ ولو من بعد ـ على هذه القصة المنكرة ، وليس السبب فى نزول الآية ذلك ، وإنما السبب : أن الشياطين فى ذلك الزمن السحيق كانوا يسترقون السمع من السماء ، ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ، ويلقونها إلى كهنة اليهود وأحبارهم . وقد دونها هؤلاء فى كتب يقرؤنها ، ويعلمونها الناس ، وفشا ذلك فى زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا هذا علم سليمان وما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم ، وبه يسخر الإنس ، والجن ، والريح التى تجرى بأمره ، وهذا من افتراءات اليهود على الأنبياء ، فأكذبهم الله بقوله : ﴿ **وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ولكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُون النَّاسَ السِّحْرَ** ﴾[2] .

ثم عطف عليه : ﴿ **وما أُنزل على الملكين** ... ﴾ فالمراد بما أُنزل هو : علم السحر الذى نزلا ليعلماه الناس ، حتى يحذروا منه ، فالسبب فى نزولها هو : تعليم الناس أبوابا من السحر ، حتى يعلم الناس الفرق بين السحر والنبوة ، وأن سليمان لم يكن ساحرا ، وإنما كان نبيًّا مرسلا من ربه ، وقد احتاط الملكان ـ عليهما السلام ـ غاية الاحتياط ، فما كانا يعلمان أحدا شيئاً من السحر حتى يحذراه ، ويقولا له : إنما نحن فتنة أى بلاء واختبار ، فلا تكفر بتعلمه والعمل به ، وأما من تعلمه للحذر منه ، وليعلم الفرق بينه وبين النبوة والمعجزة : فهذا لا شىء فيه ، بل هو أمر مطلوب ، مرغوب فيه ، إذا دعت الضرورة إليه ، ولكن الناس ما كانوا يأخذون بالنصيحة ، بل كانوا يفرقون به بين المرء وزوجه ، وذلك بإذن الله ومشيئته ، وقد دلت الآية : على أن تعلم السحر لتحذير الناس من الوقوع فيه والعمل به

---

(١) البقرة : ١٠٢ .

(٢) لأن تعلم السحر للعمل به كفر

مباح ، ولا إثم فيه ، وأيضاً : تعلمه لإزالة الاشتباه بينه ، وبين المعجزة ، والنبوة مباح ، ولا إثم فيه ، وإنما الحرام والإثم فى تعلمه أو تعليمه للعمل به ، فهو مثل ما قيل :

عرفت الشر لا للشر   لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من   الناس يقع فيه

واليهود ـ عليهم لعائن الله ـ لما جاءهم رسول الله ـ ﷺ ـ وكانوا يعلمون أنه النبى الذى بشرت به التوراة ، حتى كانوا يستفتحون به على المشركين قبل ميلاده وبعثته ، فلما جاءهم ما عرفوا ، كفروا به ، ونبذوا كتابهم التوراة ، وكتاب الله القرآن وراء ظهورهم ، وبدل أن يتبعوا الحق المبين ـ اتبعوا السحر الذى توارثوه عن آبائهم والذى علمتهم إياه الشياطين ، وكان الواجب عليهم أن ينبذوا السحر ، ويحذروا الناس من شره ، وذلك كما فعل الملكان : هاروت وماروت من تحذير الناس من شروره ، والعمل به ، وهذا هو التفسير الصحيح للآية ، لا ما زعمه المبطلون الخرفون وبذلك : يحصل التناسق بين الآيات وتكون الآية متآخية متعانقة ، ولا أدرى ما الصلة بين ما رووه من إسرائيليات ، وبين قوله : ﴿ **وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقولاَ إِنَّمَا نَحْن فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ**... ﴾ الآية .

والعجب : أن الإمام ابن جرير : حوم حول ما ذكرناه فى تفسير الآية ثم لم يلبث أن ذكر ما ذكر[1] ، والخلاصة : على القارىء أن يحذر من هذه الإسرائيليات ، سواءً وجدها فى كتاب تفسير ، أو حديث أو تاريخ أو مواعظ ، أو أدب أو أو ...

* * *

(٢) إسرائيلية فى المسوخ من المخلوقات

ويوغل بعض زنادقة أهل الكتاب ، فيضعون على النبى ـ ﷺ ـ خرافات فى خلق بعض أنواع الحيوانات التى زعموا أنها مسخت ولو أن هذه الخرافات نسبت إلى كعب الأحبار وأمثاله ، أو إلى بعض الصحابة ، والتابعين لهان الأمر ، ولكن عظم الإثم : أن

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

ينسب ذلك إلى المعصوم ـ ﷺ ـ ، وهذا اللون من الوضع والدس من أخبث وأقذر أنواع الكيد للإسلام ونبى الإسلام .

فقد قال السيوطى ـ عفا الله عنه ـ بعد ما ذكر طامات وبلايا فى قصة هاروت وماروت ، من غير أن يعلق عليها بكلمة : أخرج الزبير بن بكار فى الموفقيات ، وابن مردويه ، والديلمى ، عن على : أن النبى ـ ﷺ ـ سئل عن المسوخ[1] ، فقال : هم ثلاثة عشر : الفيل ، والدب ، والخنزير ، والقرد ، والجريث[2] ، والضب ، والوطواط ، والعقرب ، والدعموص ، والعنكبوت ، والأرنب ، وسهيل ، والزهرة ، فقيل يا رسول الله : وما سبب مسخهن ؟ ـ ، وإليك التخريف والكذب الذى نبرىء ساحة رسول الله منهما ـ فقال : أما الفيل : فكان رجلا جباراً لوطياً ، لا يدع رطباً ، ولا يابساً ، وأما الدب : فكان مؤنثاً يدعوا الناس إلى نفسه ، وأما الخنزير : فكان من النصارى الذين سألوا المائدة ، فلما نزلت كفروا وأما القردة ، فيهود اعتدوا فى السبت وأما الجريث : فكان ديوثاً[3] ، يدعوا الرجال إلى حليلته ، وأما الضب : فكان أعرابياً يسرق الحاج بمحجنه ، وأما الوطواط فكان رجلا يسرق الثمار من رءوس النخل ، وأما العقرب : فكان رجلا لا يسلم أحد من لسانه ، وأما الدعموص[4] فكان نماما يفرق بين الأحبة ، وأما العنكبوت : فامرأة سحرت زوجها ، وأما الأرنب : فامرأة كانت لا تطهر من حيضها ، وأما سهيل : فكان عشارا باليمن ، وأما الزهرة : فكانت بنتاً لبعض ملوك بنى إسرائيل افتتن بها هاروت ، وماروت ، ألا قبح الله من وضع هذا الزور والباطل ، ونسبه إلى من لا ينطق عن الهوى .

ومما لا يقضى منه العجب : أن السيوطى ذكر هذا الهراء من غير سند ، ولم يعقب عليه بكلمة استنكار ، ومثل هذا : لا يشك طالب علم فى بطلانه ، فضلا عن عالم كبير ، وقد حكم عليه ابن الجوزى بالوضع ، وقد ذكره السيوطى فى اللآلىء ، وتعقبه بما لا يجدى ، وكان من الأمانة العلمية : أن يشير إلى هذا ، وبعد هذا الكذب والتخريف ينقل السيوطى ما رواه الطبرانى فى الأوسط بسند ـ ضعيف ـ كذا قال : عن عمر بن الخطاب قال : جاء

---

(١) جمع مسخ أى الممسوخ من حاله إلى حالة أخرى .

(٢) فى القاموس « الجريث كسكيت سمك » .

(٣) الديوث الذى لا يغار على زوجته .

(٤) الدعموص ـ بضم الدال ـ دويبة أو دودة سوداء تكون فى الغدران إذا أخذ ماؤها فى النضوب

جبريل إلى النبي - ﷺ - فى غير حينه ، ثم ذكر قصة طويلة فى وصف النار ، وأن النبى بكى ، وجبريل بكى ، حتى نوديا : لا تخافا إن الله أمنكما أن تعصياه[1] ، وأغلب الظن : أنه من الإسرائيليات التى دست فى الرواية الإسلامية .

* * *

(٣) الإسرائيليات فى بناء الكعبة : البيت الحرام والحجر الأسود

وكذلك أكثر السيوطى فى تفسيره : « الدر المنثور » عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾[2] ، من النقل عن الأزرق ، وأمثاله من المؤرخين والمفسرين الذين هم كحاطبى ليل ، ولا يميزون بين الغث والسمين ، والمقبول ، والمردود ، فى بناء البيت ، ومن بناه قبل إبراهيم : أهم الملائكة أم آدم ؟ والحجر الأسود : ومن أين جاء ؟ ، وما ورد فى فضلها ، وقد استغرق فى هذا النقل الذى معظمه من الإسرائيليات التى أُخذت عن أهل الكتاب بضع عشرة صحيفة[3] ، لا يزيد ما صح منها أو ثبت عن عشر هذا المقدار .

ولو أنه اقتصر على الرواية الصحيحة التى رواها البخارى فى صحيحه[4] ، ورواها غيره من العلماء الأثبات ، لأراحنا ، وأراح نفسه ولما أفسد العقول ، وسمم النفوس بكل هذه الإسرائيليات ، التى نحن فى غنية عنها ، بما تواتر من القرآن ، وثبت من السنة الصحيحة وفى الحق : أن ابن جرير كان مقتصداً فى الإكثار من ذكر الإسرائيليات فى هذا الموضع ، وإن كان لم يسلم منها ، وذكر بعضها ، وذلك : مثل ما رواه بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : لما أهبط الله آدم من الجنة قال : إنى مهبط معك بيتاً يطاف حوله كما يطاف حول عرشى ، ويصلى عنده ، كما يصلى عند عرشى ، فلما كان زمن الطوفان ، رفع ، فكانت الأنبياء يحجونه ، ولا يعلمون مكانه[5] ، حتى بوأه الله إبراهيم

---

(١) الدر المنثور ج ١ ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) البقرة : ١٢٧ .

(٣) الدر المنثور ج ١ من ص ١٢٥ - ١٣٧ .

(٤) صحيح البخارى - كتاب أحاديث الأنبياء - باب « واتخذ الله إبراهيم خليلا » .

(٥) ولا أدرى كيف يحجونه ولا يعلمون مكانه ؟

ـ عليه السلام ـ وأعلمه ، مكانه ، فبناه من خمسة أجبل : من حراء ، وثبير ، ولبنان ، وجبل الطور ، وجبل الخمـــــر .

وأعجب من ذلك : ما رواه بسنده عن عطاء بن أبي رباح ، قال ، « لما أهبط الله آدم من الجنة : كان رجلاه فى الأرض ، ورأسه فى السماء (! !) يسمع كلام أهل السماء . ودعاءهم ، يأنس إليهم فهابته الملائكة ، حتى شكت إلى الله فى دعائها ، وفى صلاتها ، فوجه إلى مكة ، فكان موضع قدمه قرية ، وخطوه مفازة حتى انتهى إلى مكة وأنزل الله ياقوتة من ياقوت الجنة ، فكانت على موضع البيت الآن فلم يزل يطوف به ، حتى أنزل الله الطوفان فرفعت تلك الياقوتة ، حتى بعث الله إبراهيم ، فبناه ، فذلك قول الله تعالى : ﴿ **وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ** ﴾ (١) إلى غير ذلك مما مرجعه إلى أخبار بنى إسرائيل وخرافاتهم ، ولم يصح فى ذلك خبر عن المعصوم ـ ﷺ ـ ويرحم الله الإمام : الحافظ ابن كثير ، فقد بين لنا منشأ معظم هذه الروايات التى هى من صنع بنى إسرائيل ، ودس زنادقتهم فقد قال فيما رواه البيهقى فى الدلائل ، من طرق عن عبد الله بن عمرو ، ابن العاص عن النبى ـ ﷺ ـ : « **بعث الله جبريل إلى آدم ، فأمره ، ببناء البيت ، فبناه آدم ، ثم أمره بالطواف به ، وقال له : أنت أول الناس ، وهنا أول بيت وضع للناس** » .

قال ابن كثير : إنه من مفردات ابن لهيعة ، وهو ضعيف ، والأشبه ـ والله أعلم ـ أن يكون موقوفاً على عبد الله بن عمرو بن العاص ، ويكون من الزاملتين (٢) اللتين أصابهما يوم اليرموك ، من كتب أهل الكتاب ، فكان يحدث بما فيهما (٣) .

وقال فى « بدايته » : ولم يجىء فى خبر صحيح عن المعصوم : أن البيت كان مبنياً قبل الخليل ـ عليه السلام ـ ، ومن تمسك فى هذا بقوله : ﴿ **مَكَانَ الْبَيْت** ﴾ فليس بناهض ولا ظاهر ، لأن مراده : مكانه المقدر فى علم الله ـ تعالى ـ ، المقرر فى قدرته ، المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم (٤) .

* * *

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ .
(٢) الزاملة : البعير الذى يحمل عليه المتاع .
(٣) تفسيرى ابن كثير والبغوى ج ١ ص ٣١٦ ط المنار فتح البارى ج ٦ ص ٣١٠ .
(٤) البداية والنهاية ج ١ ص ١٦٣ ، ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٤) الإسرائيليات فى قصة التابوت

ومن الإسرائيليات ، التى التبس فيها الحق بالباطل : ما ذكره غالب المفسرين فى تفاسيرهم : فى قصة طالوت ، وتنصيبه ملكاً على بنى إسرائيل ، واعتراض بنى إسرائيل عليه ، وإخبار نبيهم لهم بالآية الدالة على ملكه ، وهى التابوت ، وذلك عند قوله تعالى : ﴿ وقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وآلُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فى ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

فقد ذكر ابن جرير ، والثعلبى ، والبغوى ، والقرطبى ، وابن كثير ، والسيوطى فى : « الدر » ، وغيرهم فى تفاسيرهم ، كثيراً من الأخبار عن الصحابة والتابعين ، وعن وهب بن منبه ، وغيره من مسلمة أهل الكتاب فى وصف التابوت ، وكيف جاء ، وعلام يشتمل ؟ ، وعن السكينة وكيف صفتها ؟

فقد ذكروا فى شأن التابوت : أنه كان من خشب الشمشاد(٢) ، نحوا من ثلاثة أذرع فى ذراعين ، كان عند آدم إلى أن مات ، ثم عند شيث ، ثم توارثه أولاده ، إلى إبراهيم ، ثم كان عند إسماعيل ، ثم يعقوب ، ثم كان فى بنى إسرائيل ، إلى أن وصل إلى موسى ـ عليه السلام ـ فكان يضع فيه التوراة ومتاعاً من متاعه ، فكان عنده إلى أن مات ، ثم تداوله أنبياء بنى إسرائيل إلى وقت شمويل ، وكان عندهم حتى عصوا ، فغلبوا عليه : غلبهم عليه العمالقة .

وهذا الكلام وإن كان محتملا للصدق والكذب ، لكننا فى غنية ولا يتوقف تفسير الآية عليه .

وقال بعضهم : إن التابوت إنما كان فى بنى إسرائيل ، ولم يكن من عهد آدم ـ عليه السلام ـ ، وأنه الصندوق الذى كان يحفظ فيه موسى ـ عليه السلام ـ التوراة ، ولعل هذا أقرب إلى الحق والصواب ، وكذلك أكثروا من النقل فى : « السكينة » ، فروى عن

---

(١) البقرة : ٢٤٨ .

(٢) فى البغوى بالمعجمتين والدال المهملة ، وفى القرطبى بالمعجمة ثم ميم ثم سين مهملة آخره راء وفى بعض التفاسير ، والذال المعجمة .

على بن أبي طالب ـ رضى الله عنه ـ هى : ريح فجوج[(١)] هفافة ، لها رأسان ووجه كوجه الإنسان .

وقال مجاهد : حيوان كالهر ، لها جناحان ، وذنب ، ولعينيه شعاع ، إذا نظر إلى الجيش انهزم ، وقال محمد بن إسحق ، عن وهب بن منبه : السكينة : رأس هرة ميتة ، إذا صرخت فى التابوت بصراخ هر أيقنوا بالنصر ، وهذا من خرافات بنى إسرائيل وأباطيلهم ، وعن وهب بن منبه أيضاً قال : السكينة : روح من الله تتكلم ، إذ اختلفوا فى شىء تتكلم ، فتخبرهم ببيان ما يريدون .

وعن ابن عباس : السكينة طست من ذهب ، كانت تغسل فيه قلوب الأنبياء ، أعطاه الله موسى ـ عليه السلام ـ .

والحق أنه ليس فى القرآن ما يدل على شىء من ذلك ، ولا فيما صح عن النبى ـ ﷺ ـ وإنما هذه من أخبار بنى إسرائيل التى نقلها إلينا مسلمة أهل الكتاب ، وحملها عنهم بعض الصحابة والتابعين ومرجعها إلى وهب بن منبه ، وكعب الأحبار وأمثالها .

التفسير الصحيح للسكينة :

والذى ينبغى أن تفسر به السكينة : أن المراد بها : الطمأنينة ، والسكون الذى يحل بالقلب ، عند تقديم التابوت أمام الجيش ، فهى من أسباب السكون ، والطمأنينة ، وبذلك : تقوى نفوسهم ، وتشتد معنوياتهم فيكون ذلك من أسباب النصر ، فهو مثل قوله تعالى : ﴿ **فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ** ... ﴾[(٢)] : أى طمأنينته ، وما ثبت به قلبه ، ومثل قوله تعالى : ﴿ **هوَ الَّذى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فى قلوب الْمُؤمنينَ لِيَزدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ** ﴾[(٣)] .

وقوله : ﴿ **فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسوله وَعَلَى الْمُؤْمنينَ وَأَلْزَمَهمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكانُوا أَحَقَّ بِهَا وأَهْلَهَا** ... ﴾[(٤)] . فالمراد بالسكينة طمأنينة القلوب ، وثبات النفوس .

---

(١) شديد المرور فى غير استواء ولا أدرى كيف يكون للريح رأسان ، ووجه كوجه الإنسان ؟ .
(٢) التوبة : ٤٠ .
(٣) الفتح : ٤ .
(٤) الفتح : ٢٦ .

ويعجبنى فى هذا : ما قاله الإمام أبو محمد : عبد الحق ، ابن عطية حيث قال : والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياءُ فاضلة ، من بقايا الأنبياء وآثارهم ، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك ، وتأنس به ، وتقوى[١] .

وكذلك : ذكروا فى مجىء التابوت أقوالا متضاربة ، يرد بعضها بعضاً ، مما يدل على أن مرجعه إلى أخبار بنى إسرائيل ، وابتداعهم ، وأنه ليس فيه نقل يعتد به .

فروى عن ابن عباس أنه قال : جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض ، حتى وضعته بين يدى طالوت ، والناس ينظرون ، وعن السدى : أصبح التابوت فى دار طالوت ، فآمنوا بنبوة شمعون وأطاعوا طالوت ، وقال الحسن : كان التابوت مع الملائكة فى السماء[٢] فلما ولى طالوت الملك حملته الملائكة ، ووضعته بينهم ، وقال قتادة : بل كان التابوت فى التيه ، خلفه موسى عند يوشع بن نون ، فبقى هنالك حتى حملته الملائكة ، ووضعته فى دار طالوت ، فأقروا بملكه .

وذكر غيرهم : أن التابوت كان بأريحاء ، وكان الذين استولوا عليه وضعوه فى بيت آلهتهم : تحت صنمهم الأكبر ، فأصبح التابوت على رأس الصنم ، فأنزلوه ، فوضعوه تحته ، فأصبح كذلك ، فسمروه تحته ، فأصبح الصنم مكسور القوائم ، ملقى بعيداً ، فعلموا أن هذا أمر من الله لا قبل لهم به ، فأخرجوا التابوت من بلدهم فوضعوه فى بعض القرى ، فأصاب أهلها أمراض فى رقابهم ، وقيل : جعلوه فى مخرأة[٣] قوم لهم ، فكان كل من تبرز هنالك أُصيب بالناسور وقيل بالباسور ، فتحيروا فى الأمر ، فقالت لهم امرأة كانت عندهم من سبى بنى إسرائيل ، من أولاد الأنبياء : لا تزالون ترون ما تكرهون مادام هذا التابوت فيكم ، فأخرجوه عنكم ، فأتوا بعجَلة ، بإشارة تلك المرأة ، وحملوا عليها التابوت ، ثم علقوها على ثورين ، وضربوا جُنوبهما ، فأقبل الثوران يسيران ، ووكل الله بهما أربعة من الملائكة يسوقونهما ، فأقبلا حتى وقفا على أرض بنى إسرائيل ، فكسرا نيريهما[٤] ، وقطعاً حبالهما ، ووضعا التابوت فى أرض فيها حصاد بنى إسرائيل ، ورجعا إلى

---

(١) تفسير القرطبى ج ٣ ص ٢٤٩ .

(٢) هذا مع أنهم رووا كما سلف أنه لما عصوا وأفسدوا غلبتهم عليه العمالقة .

(٣) مكان تغوطهم .

(٤) النير ما يوضع على رقبة الثور عند الحرث ، والجر .

أرضها ، فلم يرع بنى إسرائيل إلا التابوت ، فكبروا ، وحمدوا الله تعالى ، فذلك قوله تعالى : ﴿ تَحْمِلُه المَلائِكَةُ ﴾ ، أى تسوقه .

وكل هذا من أخبار بنى إسرائيل الذين غيروا ، وبدلوا ، فالله أعلم بصحتها ، وأقرب هذه الأقوال من الصحة ، وما يدل عليه القرآن هو : ما روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ .

وكذلك اختلفوا فى تعيين البقية البقية مما ترك آل موسى وآل هارون[1] ، وكانت محفوظة فى التابوت .

فعن ابن عباس ، قال : عصاه ـ أى موسى ـ ورضاض[2] الألواح ، لأنها انكسرت لما ألقاها موسى ـ عليه السلام ـ حين عاد ، فوجدهم يعبدون العجل ، وكذا قال قتادة ، والسدى ، والربيع بن أنس ، وعكرمة ، وزاد : والتوراة

وقال أبو صالح : عصا موسى . وعصا هارون ، ولو حين من التوراة وقفيز من المن الذى كان ينزل على بنى إسرائيل فى التيه ، وقيل : عصا موسى ، ونعلاه ، وعصا هارون ، وعمامته ، وثياب موسى ، وثياب هارون ، ورضاض الألواح ، إلى غير ذلك .

وهى أقوال متقاربة ، ولا يرد بعضها بعضاً ، وهى محتملة ، والله أعلم بالصواب منها ، وهى من الأخبار التى تحتمل الصدق والكذب ، فلا نصدقها ، ولا نكذبها .

والذى نقطع به ، ويجب الإيمان به : أنه كان فى بنى إسرائيل تابوت ـ أى صندوق ـ ، من غير بحث فى حقيقته ، وهيئته ، ومن أين جاء ، إذ ليس فى ذلك خبر صحيح عن المعصوم ، وأن هذا التابوت كان فيه مخلفات من مخلفات موسى ، وهارون ـ عليهما السلام ـ ، مع احتمال أن يكون تعيين ذلك فى بعض ما ذكرنا آنفاً ، وأن هذا التابوت كان مصدر سكينة ، وطمأنينة لبنى إسرائيل ، ولا سيما عند قتال عدوهم ، وأنه عاد إلى بنى إسرائيل ، تحمله الملائكة ، من غير بحث فى الطريق التى حملته بها الملائكة ، وبذلك

---

(١) المراد بآل موسى وآل هارون هما ذاتهما وهذا أمر معهود فى لغة العرب ، وفى الحديث الشريف ولقد أعطى مزماراً من مزامير آل داود ، أى صوتاً حسناً ، ولم يكن فى آل داود حسن الصوت أحد إلا هو فالمراد بآل داود : داود نفسه .

(٢) فتات الألواح وما تهشم منها .

كان التابوت آية دالة على صدق طالوت فى كونه ملكاً عليهم ، وما وراء ذلك من الأخبار التى سمعتها : لم يقم عليها دليل .

* * *

(٥) الإسرائيليات فى قصة قتل داود جالوت

ومن الإسرائيليات : ما يذكره المفسرون فى قصة قتل داود ، وهو : جندى صغير فى جيش طالوت ـ جالوت الملك الجبار ، وذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **فَهَزَمُوهم بإذن اللهِ وَقَتَلَ دَاودُ جَالوتَ وَآتَاهُ الله المُلْك وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمه مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ** ﴾(١) .

فقد ذكر الثعلبى ، والبغوى ، والخازن ، وصاحب « الدر المنثور » ، وغيرهم ، فى تفاسيرهم ، ما خلاصته : أنه عبر النهر فيمن عبر مع طالوت ـ ملك بنى إسرائيل ـ إيشا : أبو داود ، فى ثلاثة عشر ابنا له وكان داود أصغرهم ، وكان يرمى بالقذافة(٢) فلا يخطىء ، وأنه ذكر لأبيه أمر قذافته تلك ، وأنه دخل بين الجبال ، فوجد أسدا فأخذ بأُذنيه ، فلم يهجه ، وأنه مشى بين الجبال ، فسبح ، فما بقى جبل حتى سبح معه ، فقال له أبوه : أبشر فإن هذا خير أعطاك الله تعالى إياه .

فأرسل جالوت إلى طالوت : أن ابرز إلى ، أو ابرز إلى من يقاتلنى ، فإن قتلنى فلكم ملكى ، وإن قتلته فلى ملككم ، فشق ذلك على طالوت ، فنادى فى عسكره : من قتل جالوت زوجته ابنتى ، وناصفته ملكى ، فهاب الناس جالوت ، فلم يجبه أحد .

فسأل طالوت نبيهم أن يدعو الله تعالى فدعا الله فى ذلك ، فأتى بقرن فيه دهن القدس ، وتنور من حديد ، فقيل : إن صاحبكم الذى يقتل جالوت هو الذى يوضع هذا القرن على رأسه ، فيغلى الدهن حتى يدهن منه رأسه ، ولا يسيل على وجهه ، بل يكون على رأسه كالإكليل(٣) ، ويدخل هذا التنور فيملؤه ، ولا يتقلقل فيه .

فدعا طالوت بنى إسرائيل ، فجربهم ، فلم يوافقه منهم أحد ، فأوحى الله إلى نبيهم :

---

(١) البقرة : ٢٥١ .

(٢) شىء يقذف به كالمقلاع فلا يخطىء هدفه .

(٣) ما يلبسه الملوك على رءوسهم .

إن فى ولد « إيشا » من يقتل الله به جالوت ، فدعا طالوت إيشا ، فقال : اعرض هذا على بنيك ، فأخرج له اثنى عشر رجلا أمثال السوارى[١] ، فجعل يعرضهم على القرن ، فلا يرى شيئاً ، فقال لإيشا : هل بقى لك ولد غيرهم ؟ فقال : لا ، فقال نبى هذا الزمان : يا رب إنه زعم أن لا ولد له غيرهم ، فقال الله : كذب ، فقال هذا النبى لإيشا : إن الله كذبك ! !

فقال إيشا : صدق الله ، يا نبى الله ، إن لى ابنا صغيرا ، يقال له داود ، استحييت أن يراه الناس لقصر قامته وحقارته فخلفته فى الغنم يرعاها ، وهو فى شعب كذا وكذا ، وكان داود رجلا قصيرا ، مسقاماً ، مصغارا ، أزرق ، أمعر[٢] ، فدعاه طالوت ، ويقال : بل خرج إليه ، فوجد الوادى قد سال بينه وبين الزريبة التى كان يريح إليها ، فوجده يحمل شاتين يجيز بهما السيل ، ولا يخوض بهما الماء ، فلما رآه قال : هذا هو لا شك فيه ، هذا يرحم البهائم ، فهو بالناس أرحم ، فدعاه ، ووضع القرن على رأسه ، ففاض ـ يعنى من غير أن يسيل على وجهه ـ فقال طالوت : هل لك أن تقتل جالوت ، وأزوجك ابنتى ، وأُجرى خاتمك فى ملكى ؟ ، قال : نعم ، قال : وهل آنست من نفسك شيئاً تتقوى به على قتله ؟ قال : نعم ، وذكر بعض ذلك .

فأخذ طالوت داود ، ورده إلى عسكره ، وفى الطريق مر داود بحجر ، فناداه يا داود احملنى ، فإنى حجر هارون الذى قتل بى ملك كذا ، فحمله فى مخلاته ، ثم مر بآخر ، فناداه قائلا : إنه حجر موسى الذى قتل به ملك كذا ، فأخذه فى مخلاته ، ثم مر بحجر ثالث ، فناداه قائلا له : احملنى ، فإنى حجرك الذى تقتل بى جالوت ، فوضعه فى مخلاته .

فلما تصافوا للقتال ، وبرز جالوت ، وسأل المبارزة ، انتدب له داود ، فأعطاه طالوت فرسا ، ودرعا ، وسلاحاً ، فلبس السلاح ، وركب الفرس ، وسار قريباً ، ثم لم يلبث أن

---

(١) جمع سارية ، وهى : العمود ، أى : أنهم كالعمد الطويلة .

(٢) أمعر : قليل الشعر ، أو نحيف الجسم ، وهذا من أكاذيب بنى إسرائيل ، ورميهم الأنبياء بأبشع الصفات فقاتلهم الله أنى يؤفكون ، وماكان لأبيه وقد أخبره داود بما ذكره أول القصة ، أن ينتقصه ، ويصفه بهذه الأوصاف .

نزع ذلك ، وقال لطالوت : إن لم ينصرنى الله لم يغن عنى هذا السلاح شيئاً ! ! ، فدعنى أُقاتل جالوت كما أُريد ، قال : فافعل ما شئت ، قال : نعم .

فأخذ داود مخلاته ، فتقلدها ، وأخذ المقلاع ، ومضى نحو جالوت ، وكان جالوت من أشد الرجال ، وأقواهم ، وكان يهزم الجيش وحده ، وكان له بيضة فيها ثلاثمائة رطل حديد[1] ، فلما نظر إلى داود ألقى الله فى قلبه الرعب ، وبعد مقاولة بينهما ، وتوعد كل منهما الآخر : أخرج داود حجرا من مخلاته ، ووضعه فى مقلاعه وقال : باسم إله إبراهيم ، ثم أخرج الآخر وقال : باسم إله إسحاق ، ووضعه فى مقلاعه ، ثم أخرج الثالث وقال : باسم إله يعقوب ، ووضعه فى مقلاعه ، فصارت كلها حجرا واحدا ، ودوَّر داود المقلاع ، ورمى به ، فسخر له الله الريح ، حتى أصاب الحجر أنف البيضة ، فخلص إلى دماغه ، وخرج من قفاه ، وقتل من ورائه ثلاثين رجلا ، وهزم الله تعالى الجيش ، وخرَّ جالوت قتيلا ، فأخذه يجره ، حتى ألقاه بين يدى طالوت ، ففرح جيش طالوت فرحاً شديدا ، وانصرفوا إلى مدينتهم سالمين ، والناس يذكرون بالخير داود .

فجاء داود طالوت ، وقال له : أنجز لى ما وعدتنى ، فقال : وأين الصداق ؟ ، فقال له داود : ما شرطت على صداقا غير قتل جالوت ، ثم اقترح عليه طالوت أن يقتل مائتى رجل من أعدائهم ، ويأتيه بغلفهم[2] ، ففعل ، فزوجه طالوت ابنته ، وأجرى خاتمه فى ملكه ، فمال الناس إلى داود ، وأحبوه ، وأكثروا ذكره ، فحسده طالوت ، وعزم على قتله ، فأخبر ابنة طالوت رجل من أتباعه ، فحذرت داود ، وأخبرته بما عزم أبوها عليه ، وبعد مغامرة من طالوت لقتل داود ، ومكيدة وحيلة من داود ، أنجى الله داود منه ، فلما أصبح الصباح ، وتيقن طالوت أن داود لم يقتل ، خاف منه ، وتوجس خيفة ، واحتاط لنفسه ، ولكن الله أمكن داود منه ثلاث مرات ، ولكن لم يقتله ، ثم كان أن فر داود من

---

(١) البيضة : ما يلبسه المحارب على رأسه ، وهذا من أكاذيبهم ، وتحريفاتهم ، ولا أدرى ولا أى عاقل يدرى كيف يمكن لجالوت أن يحارب ، وعلى رأسه هذا القدر من الحديد ؟ . أى : نحو مائة وخمسين كيلو جراما من الحديد ، ولعل الرطل فى زمانهم كان أثقل من رطلنا اليوم ، فيكون حمل على رأسه ما يزيد على ثلاثة قناطير من الحديد . ومما ذكروه فى وصفه أن ظله كان ميلا ، وهذا ولا شك خرافة .

(٢) الغلفة ــ بضم الغين ــ : القطعة التى تقطع من الصبى عند الختان .

طالوت فى البرية ، فرآه طالوت ذات يوم فيها ، فأراد قتله ، ولكن داود دخل غارا ، وأمر الله العنكبوت ، فنسجت عليه من خيوطها ، وبذلك نجا من طالوت ، ولجأ إلى الجبل ، وتعبد مع المتعبدين .

فطعن الناس فى طالوت بسبب داود ، واختفائه ، فأسرف طالوت فى قتل العلماء والعباد ، ثم كان أن وقعت التوبة فى قلبه ، وندم على ما فعل ، وحزن حزنا طويلا ، وصار يطلب من يفتيه أن له توبة فلم يجد ، حتى دُلَّ على امرأة عندها اسم الله الأعظم ، فذهب إليها ، وأمن روعها ، فانطلقت به إلى قبر « شمويل » ، فخرج من قبره وأرشده إلى طريق التوبة ، وهو أن يقدم ولده ونفسه فى سبيل الله حتى يقتلوا ، ففعل ، وجاء قاتل طالوت إلى داود ليخبره بقتله ، فكانت مكافأته على ذلك : أن قتله ، وأتى بنو إسرائيل إلى داود ، وأعطوه خزائن طالوت ، وملكوه على أنفسهم ، وقد استغرق ذلك من تفسير البغوى بضع صحائف[1] .

وفى هذا الذى ذكروه الحق والباطل ، والصدق ، والكذب ، ونحن فى غنية عنه بما فى أيدينا من القرآن والسنة ، وليس فى كتاب الله ما يدل على ما ذكروه ، ولسنا فى حاجة إلى شيء من هذا فى فهم القرآن وتدبره ، فلا تلق إليه بالا ، وارم به دبر أُذنيك ، فإن فيه تجنيا على من اصطفاه الله ملكا عليهم ، وكذبا على نبى الله داود ، ويرحم الله الإمام العلامة ابن كثير ، فقد أعرض عن ذكره ، ونبه إلى أنه من الإسرائيليات ، فقال فى قوله تعالى : ﴿ **وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ** ﴾ : « ذكروا فى الإسرائيليات[2] أنه قتله بمقلاع كان فى يده رماه به ، فأصابه ، فقتله ، وكان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ، ويشاطره نعمته ، ويشركه فى أمره ، فوفى له ثم آل الملك إلى داود ــ عليه السلام ــ ، مع ما منحه الله من النبوة العظيمة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ** ﴾ الذى كان بيد طالوت ، ﴿ **وَالْحِكْمَةَ** ﴾ أى : النبوة بعد شمويل ، ﴿ **وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَآءُ** ﴾ من العلم الذى اختصه به ــ عليه الصلاة والسلام ــ .

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوى ج ١ من ص ٦٠٤ ــ ٦٠٨ .

(٢) ويؤكد أنه من الإسرائيليات أن هذا جله مأخوذ من التوراة : انظر التوراة ــ سفر صمويل الأول ــ الإصحاح ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ يحصل لك اليقين بهذا .

(٦) الإسرائيليات فى قصص الأنبياء والأمم السابقة

وقد جاء فى كتب التفسير على اختلاف مناهجها إسرائيليات كواذب ، ومرويات بواطل ، لا يحصيها العد ، وذلك فيما يتعلق بقصص الأنبياء والمرسلين والأمم والأقوام السابقين ، وقد رويت عن بعض الصحابة ، والتابعين وتابعيهم ، وورد بعضها مرفوعاً إلى النبى - ﷺ - كذبا ، وزورا .

وهذه المرويات والحكايات لا تمت إلى الإسلام ، وإنما هى من خرافات بنى إسرائيل وأكاذيبهم ، وافتراءاتهم على الله ، وعلى رسله ، رواها عن أهل الكتاب الذين أسلموا ، أو أخذها من كتبهم بعض الصحابة والتابعين ، أو دست عليهم ، بل فيها ما حرفوا لأجله التوراة ، وذلك : مثل ما فعلوا فى قصة إسحاق بن إبراهيم ، وأنه هو الذبيح ، كما سيأتى .

ولا يمكن استقصاء كل ما ورد من الإسرائيليات ، وإلا لاقتضى هذا مجلدات كبارا ، ولكنى سأكتفى بما هو ظاهر البطلان ، ولا يتفق وسنن الله فى الأكوان ، وما يخل بالعقيدة الصحيحة فى أنبياء الله ورسله التى يدل عليها العقل السليم ، والنقل الصحيح .

(٧) ما ورد فى قصة آدم - عليه السلام -

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾

فمن تلك الإسرائيليات : ما رواه ابن جرير[١] فى تفسيره بسنده عن وهب بن منبه قال : لما أسكن الله آدم وذريته أو زوجته - الشك من أبى جعفر - وهو فى أصل كتابه « وذريته » ونهاه عن الشجرة ، وكانت شجرة غصونها متشعبة بعضها فى بعض ، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم[٢] ، وهى الثمرة التى نهى الله آدم عنها وزوجته ، فلما أراد إبليس أن يستزلها دخل فى جوف الحية ، وكانت للحية أربعة قوائم ، كأنها بختيه[٣] من

---

(١) هو الإمام ابن جرير ، وقد شك فى اللفظ الذى سمعه ممن أخذ عنه : أهو ذريته أم زوجته ؟ فيذكر ذلك رعاية للأمانة فى الرواية ، والظاهر لفظ « زوجته » لأن آدم عليه السلام لم تكن له ذرية فى الجنة .

(٢) وكيف والملائكة لا تأكل ولا تشرب ؟ .

(٣) ناقة .

أحسن دابة خلقها الله ، فلما دخلت الحية الجنة خرج من جوفها إبليس ، فأخذ من الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته ، فجاء بها إلى حواء ، فقال : انظرى إلى هذه الشجرة ، ما أطيب ريحها ، وأطيب طعمها ، وأحسن لونها فأخذت حواء فأكلت منها ، ثم ذهبت إلى آدم ، فقالت له مثل ذلك ، حتى أكل منها ، فبدت لهما سوءاتهما ، فدخل آدم فى جوف الشجرة ، فناداه ربه : يا آدم أين أنت ؟ ، قال : أنا هنا يا رب ، قال : ألا تخرج ؟ ، قال : أستحيي منك يارب ، قال : ملعونة الأرض التى خلقت منها ، لعنة يتحول عمرها شوكا .. ثم قال : يا حواءُ ، أنت التى غررت عبدى ؛ فإنك لا تحملين حملا إلا حملتيه كرها ، فإذا أردت أن تضعى ما فى بطنك : أشرفت على الموت مرارا ، وقال للحية : أنت التى دخل الملعون فى جوفك حتى غر عبدى ، ملعونة أنت لعنة تتحول قوائمك فى بطنك ، ولا يكن لك رزق إلا التراب ، أنت عدوة بنى آدم ، وهم أعداؤك ... : قال عمرو : قيل لوهب : وما كانت الملائكة تأكل ! ! قال : يفعل الله ما يشاءُ (١) ، قال ابن جرير : وروى ابن عباس نحو هذه القصة .

ثم ذكر ابن جرير بسنده عن ابن عباس ، وعن ابن مسعود ، وعن ناس من الصحابة نحو هذا الكلام (٢) ، وفى السند أسباط عن السدى ، وعليهما تدور الروايات ، وقد قدمنا حالهما فى الرواية .

وكذلك : ذكر السيوطى فى (الدر المنثور) ما رواه ابن جرير وغيره فى هذا ، مما روى عن ابن عباس ، وابن مسعود ، ولكنه لم يذكر الرواية عن وهب بن منبه (٣) وأغلب كتب التفسير بالرأى ذكرت هذا أيضاً ، وكل هذا من قصص بنى إسرائيل الذى تزيَّدوا فيه ، وخلطوا حقا بباطل ، ثم حمله عنهم ابن عباس ، وغيره من الصحابة والتابعين ، وفسروا به القرآن الكريم .

ويرحم الله ابن جرير ، فقد أشار بذكره الرواية عن وهب : إلى أن ما يرويه عن ابن عباس ، وابن مسعود ، إنما مرجعه إلى وهب وغيره من مسلمة أهل الكتاب ، وياليته لم ينقل شيئاً من هذا ، وياليت من جاء بعده من المفسرين صانوا تفاسيرهم عن مثل هذا .

---

(١) هذا تهرب من الجواب ، وعجز عن تصحيح هذا الكذب الظاهر .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ١٨٦ ، ١٨٧ (٣) الدر المنثور ج ١ ص ٥٣ .

وفى رواية ابن جرير الأولى ما يدل على أن الذين رووا عن وهب وغيره كانوا يشكون فيما يروونه لهم ، فقد جاء فى آخرها : (قال عمرو[1] : قيل لوهب : وما كانت الملائكة تأكل ؟ ! ! قال : يفعل الله ما يشاء) فهم قد استشكلوا عليه : كيف أن الملائكة تأكل ؟ ! وهو : لم يأت بجواب يعتد به .

ووسوسة إبليس لآدم ـ عليه السلام ـ لا تتوقف على دخوله فى بطن الحية ، إذ الوسوسة لا تحتاج إلى قرب ولا مشافهة ، وقد يوسوس إليه وهو على بعد أميال منه ، والحية خلقها الله يوم خلقها على هذا ، ولم تكن لها قوائم كالبختى ، ولا شىء من هذا[2] .

* * *

ما ذكر فى قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾

ومن الروايات التى لا تثبت ما ذكره السيوطى فى (الدر) ، قال : أخرج الطبرانى فى المعجم الصغير ، والحاكم ، وأبو نعيم ، والبيهقى كلاهما فى الدلائل ، وابن عساكر ، عن عمر بن الخطاب ، قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **لما أذنب آدم الذنب الذى أذنبه ، رفع رأسه إلى السماء ، فقال : أسألك بحق محمد إلا غفرت لى ، فأوحى الله إليه ، ومن محمد ؟ فقال : تبارك اسمك ، لما خلقتنى رفعت رأسى إلى عرشك ، فإذا فيه مكتوب : (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) ، فعلمت أنه ليس أحد أعظم عندك قدرا ممن جعلت اسمه مع اسمك ، فأوحى الله إليه : يا آدم إنه آخر النبيين من ذريتك ، ولولا هو ما خلقتك** » ثم قال : وأخرج الديلمى فى مسند الفردوس بسندواه[3] عن على ، قال : سألت النبى ـ ﷺ ـ عن قول الله : ﴿ **فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ** ﴾ فقال : إن الله أهبط آدم بالهند ، وحواء بجدة ، وإبليس ببيسان ، والحية بأصبهان ، وكان للحية قوائم كقوائم البعير ، ومكث آدم بالهند مائة سنة باكياً على خطيئته ، حتى بعث الله إليه

---

(١) هو عمرو بن عبد الرحمن بن مهرب الراوى عن وهب .
(٢) انظر التوراة ـ سفر التكوين ـ الإصحاح الثالث لتزداد يقينا أنه من الإسرائيليات وليس منه شىء عن المعصوم ـ ﷺ ـ .
(٣) السند الواهى : هو الشديد الضعف الذى ربما يصل إلى حد السقوط والوضع .

جبريل ، وقال : يا آدم ألم أخْلُقْك بيدى ؟ ، ألم أنفخ فيك من روحى ؟ ، ألم أُسجد لك ملائكتى ؟ ألم أُزوجك حواء أمتى ؟ ، قال : بلى ، قال : فما هذا البكاءُ ؟ قال : وما يمنعنى من البكاء ، وقد أُخرجت من جوار الرحمن ، قال : فعليك بهذه الكلمات ، فإن الله قابل توبتك ، وغافر ذنبك ، قل : اللهم إنى أسألك بحق محمد ، وآل محمد ، سبحانك لا إله إلا أنت ، عملت سوءًا وظلمت نفسى ، فاغفر لى ؛ إنك أنت الغفور الرحيم ، اللهم إنى أسألك بحق محمد وآل محمد سبحانك ، لا إله إلا أنت ، عملت سوءًا وظلمت نفسى ، فتب علىَّ ، إنك أنت التواب الرحيم ، فهؤُلاء الكلمات التى تلقى آدم . ولا أدرى ما دام سنده واهياً لم ذكره ؟ ! ، ومثل هذا عليه أمارات الوضع والاختلاق .

ويسترسل السيوطى فى الدر ، فيذكر عن ابن عباس : أنه سأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن الكلمات التى تلقاها آدم من ربه ، فتاب عليه ، قال : « سأل بحق محمد ، وعلى ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين إلا تبت علىَّ ، فتاب عليه » ومثل هذا لا يشك طالب حديث فى اختلاقه وأنه من وضع الشيعة ، واختلاقهم ، ثم يسترسل فى الرواية ، فيذكر : أن آدم لما هبط كان مسودا جسمه ، ثم بيض الله جسده بصيامه ثلاثة أيام ، ولذلك سميت بالأيام البيض ، وأنه ـ عليه السلام ـ كان يشرب من السحاب ، بل يروى عن كعب : أنه أول من ضرب الدينار والدرهم ، إلى غير ذلك مما لا يخرج عن كونه من الإسرائيليات .

التفسير الصحيح للكلمات :

والصحيح فى الكلمات هو : ما روى عن طرق عدة : أنها قوله تعالى : ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ، وإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ وقد رواه السيوطى فى الدر[1] من طرق عدة ، ولكنه خلط عملا صالحاً ، وآخر سيئاً ، وقد أفاض ابن جرير فى تفسيره فى ترجيح هذا القول ، وإن ذكر غيره من الأقوال التى هى بعيدة عن الحق والصواب .

ما نسب إلى ابنَىْ آدم لما قتل أحدهما الآخر :

ومن ذلك : ما ذكره بعض المفسرين كابن جرير الطبرى فى تفسيره ، والسيوطى فى

---

(١) الدر المنثور ج ١ ص ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ .

تفسيره : (الدر المنثور) فى قصة ابنى آدم : قابيل ، وهابيل ، وقتل أولهما الآخر ، ما روى عن كعب : أن الدم الذى على جبل قاسيون هو دم ابن آدم ، وعن وهب : أن الأرض نشفت دم ابن آدم المقتول ، فلعن ابن آدم الأرض ، فمن أجل ذلك لا تنشف الأرض دما بعد دم هابيل إلى يوم القيامة ، وأن قابيل حمل هابيل سنة فى جراب على عنقه ، حتى أنتن وتغير ، فبعث الله الغرابين قتل أحدهما الآخر ، فحفر له ، ودفنه ، برجليه ومنقاره ، فعلم كيف يصنع بأخيه ، مع أن القرآن عبر بالفاء التى تدل على الترتيب والتعقيب من غير تراخ ، قال تعالى : ﴿ **فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِى الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْأَةَ أَخِيهِ** ﴾[1] .

وروى أيضاً : أنه لما قتله أسودَّ جسده ، وكان أبيض ، فسأله آدم عن أخيه ، فقال : ماكنت عليه وكيلا ، قال : بل قتلته فلذلك اسود جسدك ، إلى نحو ذلك .

فكل هذا وأمثاله ـ عدا ما جاء فى القرآن ـ من إسرائيليات بنى إسرائيل ، وقد جاءت بعض الروايات صريحة عن كعب ، ووهب ، وما جاء عن ابن عباس ، ومجاهد وغيرهما ، فمرجعه إلى أهل الكتاب الذين أسلموا[2] .

* * *

ما نُسب إلى آدم ـ عليه السلام ـ من قول الشعر

ومن الإسرائيليات : ما رواه ابن جرير فى تفسيره ، وما ذكره السيوطى فى الدر : من أن آدم لما قتل أحد ابنيه الآخر ، مكث مائة عام لا يضحك حزناً عليه ، فأتى على رأس المائة ، فقيل له : حياك الله ، وبياك ، وبشر بغلام ، فعند ذلك ضحك .

وكذلك ما ذكره من أن آدم ـ عليه السلام ـ رثى ابنه بشعر ، روى ابن جرير عن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قال : لما قتل ابن آدم أخاه بكى آدم ، فقال :

تغيرت البلاد ، ومن عليها ... فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذى لون وطعم ... وقل بشاشة الوجه المليح

---

(١) المائدة : من الاية ٣١ .

(٢) تفسير ابن جرير عند قوله تعالى فى سورة المائدة : ﴿ **واتل عليهم نبأ ابنى آدم** ... ﴾ الآيات ـ الدر المنثور ج ١ ص ٢٧٠ .

قال السيوطى : وأخرج الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس قال : لما قتل ابن آدم أخاه قال آدم ـ عليه السلام ـ : وذكر البيتين السابقين باختلاف قليل .

فأجابه إبليس عليه اللعنة :

تنح عن البلاد وساكنيها ... فبى فى الخلد ضاق بك الفسيح

وكنت بها وزوجك فى رخاءٍ ... وقلبك من أذى الدنيا مريح

فما انفكت مكايدتى ومكرى ... إلى أن فاتك الثمن الرَّبيح[1]

وقد طعن فى نسبة هذه الأشعار إلى نبى الله آدم الإمام الذهبى فى كتابه : ميزان الاعتدال ، وقال : إن الآفة فيه من المحزمى أو شيخه[2] .

وما الشعر الذى ذكروه إلا منحول مختلق ، والأنبياء لا يقولون الشعر ، وصدق الزمخشرى حيث قال : « روى أن آدم مكث بعد قتل ابنه مائة سنة لا يضحك ، وأنه رثاه بشعر ، وهو كذب بحت ، وما الشعر إلا منحول ملحون ، وقد صح أن الأنبياء معصومون من الشعر »[3] .

وقد قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاه الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِى له إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ** ﴾[4] .

وقال الإمام الآلوسى فى تفسيره : وروى عن ميمون بن مهران عن الحبر ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال : « من قال : آدم ـ عليه السلام ـ قد قال شعرا فقد كذب ، إن محمدا ـ ﷺ ـ والأنبياء كلهم فى النهى عن الشعر سواءٌ ، ولكن لما قتل قابيل هابيل بكاه آدم بالسريانية ، فلم يزل ينقل ، حتى وصل إلى يعرب بن قطحان ، وكان يتكلم بالعربية ، والسريانية ، فقدم فيه وأخر ، وجعله شعرا عربيا » وذكر بعض علماء العربية :

---

(١) تفسير ابن جرير فى الموضع السابق ، الدر المنثور ج ١ ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .
(٢) ميزان الاعتدال ج ١ ص ٧٣ .
(٣) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٣١ .
(٤) سورة يس : الآية ٦٩ .

أن فى ذلك لحنا ، وإقواءً ، وارتكاب ضرورة ، والأولى عدم نسبته إلى يعرب ، لما فيه من الركاكة الظاهرة[١] .

والحق : أنه شعر فى غاية الركاكة ، والأشبه أن يكون هذا الشعر من اختلاق إسرائيلى ، ليس له من العربية إلا حظ قليل ، أو قصاص يريد أن يستولى على قلوب الناس بمثل هذا الهراء .

* * *

(٨) الإسرائيليات فى عظم خلق الجبارين وخرافة عوج بن عوق

ومن الإسرائيليات التى اشتملت عليها كتب التفسير : ما يذكره بعض المفسرين ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يخْرُجُوا مِنْهَا ..** ﴾[٢] .

فقد ذكر الجلال السيوطى فى «الدر» كثيراً من الروايات فى صفة هؤلاء القوم ، وعظم أجسادهم ، مما لا يتفق وسنة الله فى خلقه ، ويخالف ما ثبت فى الأحاديث الصحيحة ، وذلك : مثل ما أخرجه ابن عبد الحكم عن أبى ضمرة قال : « استظل سبعون رجلا من قوم موسى فى خف رجل من العماليق ! ! ومثل : ما أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان عن يزيد بن أسلم قال : بلغنى أنه رؤيت ضبع واولادها رابضة فى فجاج عين رجل من العماليق ! ! ومثل ما رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : أُمر موسى أن يدخل مدينة الجبارين ، فسار بمن معه ، حتى نزل قريباً من المدينة ، وهى « أريحاء » فبعث إليهم اثنى عشر نقيبا ، من كل سبط منهم عين ، ليأتوه بخبر القوم ، فدخلوا المدينة ، فرأوا أمرا عظيما من هيبتهم ، وجسمهم وعظمهم ، فدخلوا حائطاً ــ أى : بستاناً ــ لبعضهم ، فجاء صاحب الحائط ليجنى الثمار ، فنظر إلى آثارهم فتبعهم ، فكلما أصاب واحدا منهم أخذه ، فجعله فى كمه مع الفاكهة وذهب إلى ملكهم ، فنثرهم بين يديه ، فقال الملك : قد رأيتم شأننا وأمرنا ، اذهبوا فأخبروا صاحبكم ، قال : فرجعوا

---

(١) روح المعانى ج ٦ ص ١١٥ .
(٢) سورة المائدة الآية : ٢٢ .

إلى موسى فأخبروه بما عاينوه من أمرهم ، فقال : اكتموا عنا ، فجعل الرجل يخبر أخاه وصديقه ، ويقول : اكتم عنى ، فأُشيع فى عسكرهم ، ولم يكتم منهم إلا رجلان : يوشع بن نون ، وكالب بن يوحنا ، وهما اللذان أنزل الله فيهما : ﴿ **قَالَ رَجلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فإِذا دَخَلْتُموه فَإِنَّكُمْ غالبونَ** ﴾ .

ويروى ابن جرير بسنده ، عن مجاهد ، نحوا مما قدمنا ، ثم يذكر أن عنقود عنبهم لا يحمله إلا خمسة أنفس ، بينهم فى خشبة ويدخل فى شطر الرمانة إذا نزع حبها خمسة أنفس وأربعة[1] ، إلى غير ذلك من الإسرائيليات الباطلة .

خرافة عوج بن عوق[2] :

ومن الإسرائيليات الظاهرة البطلان ، التى ولع بذكرها بعض المفسرين والأخباريين ، عند ذكر الجبارين : قصة عُوج بن عُوق ، وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع ، وأنه كان يمسك الحوت ، فيشويه فى عين الشمس ، وأن طوفان نوح لم يصل إلى ركبتيه ، وأنه ، امتنع عن ركوب السفينة مع نوح ، وأن موسى كان طوله عشرة أذرع وعصاه عشرة أذرع ، ووثب فى الهواء عشرة أذرع ، فأصاب كعب عوج فقتله ، فكان جسرا لأهل النيل سنة . إلى نحو ذلك من الخرافات ، والأباطيل التى تصادم العقل والنقل ، وتخالف سنن الله فى الخليقة ، ولا أدرى كيف يتفق هذا الباطل ، هو وقول الله ـ تبارك وتعالى ـ . ﴿ **وَنَادَى نُوحٌ ابْنَه وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنا ولاَتَكُن مَّعَ الْكَافِرينَ . قَالَ سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الماءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْم مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ** ﴾ [3] .

اللهم إلا إذا كان عوج أطول من جبال الأرض ! !

فمن تلك الروايات الباطلة المخترعة : ما رواه ابن جرير بسنده عن أسباط ، عن السدى ، فى قصة ذكرها من أمر موسى وبنى إسرائيل وبعث موسى النقباء الاثنى عشر ،

---

(١) تفسير ابن جرير ج ٦ ص ١١٢ ، الدر المنثور ج ١ ص ٢٧٠ .

(٢) منهم من يقول : ابن عوق ، ومنهم من يقول : ابن عنق كما ذكر العلامة ابن كثير ، وفى القاموس : « وعوج بن عوق بضمهما ـ أى : العينين ـ رجل ولد فى منزل آدم فعاش إلى زمن موسى ، وذكر من عظم خلقه شناعة » .

(٣) هود : من الآية ٤٢ والآية ٤٣ .

وفيها : فلقيهم رجل من الجبارين يقال له : عوج ، فأخذ الاثنى عشر : فجعلهم فى حجزته[1] ، وعلى رأسه حملة حطب ، وانطلق بهم إلى امرأته ، فقال : انظرى إلى هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يريدون أن يقاتلونا ، فطرحهم بين يديها ، فقال : ألا أطحنهم برجلى ؟ ، فقالت امرأته : بل خل عنهم ، حتى يخبروا قومهم بما رأوا ، ففعل ذلك ، وكذلك : ذكر مثل هذا وأشنع منه غير ابن جرير والسيوطى بعض المفسرين ، والقصصيين وهى كما قال ابن قتيبة أحاديث خرافة ، كانت مشهورة فى الجاهلية ، أُلصقت بالحديث بقصد الإفساد[2] .

وإليك ما ذكره الإمام الحافظ الناقد ابن كثير فى تفسيره ، قال : وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا أخبارا من وضع بنى إسرائيل ، فى عظمة خلق هؤلاء الجبارين ، وأن منهم عوج بن عنق بنت آدم ـ عليه السلام ـ ، وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً ، وثلث ذراع ، تحرير الحساب ، وهذا شيء يستحى من ذكره ثم هو مخالف لما ثبت فى الصحيحين : أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **إن الله خلق آدم ، وطوله ستون ذراعاً ، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن** » ، ثم ذكروا : أن هذا الرجل كان كافرا ، وأنه كان ولد زنية ، وأنه امتنع من ركوب سفينة نوح ، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبتيه ، وهذا كذب وافتراء ، فإن الله تعالى ذكر : أن نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين ، فقال : ﴿ **رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِين دَيَّارا** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **فأَنجَيْنَاه وَمَن مَّعَه فِى الْفُلْكِ الْمَشْحونِ . ثُم أَغْرَقْنَا بَعْد البَاقِينَ** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **لاَ عَاصِمَ اليَومَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ** ﴾ ، وإذا كان ابن نوح الكافر غرق ، فكيف يبقى عوج بن عنق ، وهو كافر ، وولد زنية ؟ ! هذا لا يسوغ فى عقل ، ولا شرع ، ثم فى وجود رجل يقال له عوج ابن عنق نظر ، والله أعلم[3] .

وقال العلامة ابن قيم الجوزية ، بعد أن ذكر حديث عوج : « وليس العجب من جراة من وضع هذا الحديث ، وكذب على الله ، وإنما العجب ممن يدخل هذا فى كتب العلم

---

(١) الحجزة : موضع التكة من السروال .
(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٣٦٢ وروح المعانى ٦ ص ٦ .
(٣) تفسير ابن كثير والبغوى ج ٣ ص ١١٥ ط المنار .

من التفسير وغيره ، فكل ذلك من وضع زنادقة أهل الكتاب الذين قصدوا الاستهزاء ، والسخرية بالرسل وأتباعهم » ، أقول : وسواءٌ أكان عوج بن عوق شخصية وجدت حقيقة ، أو شخصية خيالية : فالذى ننكره هو : ما أضفوه عليه من صفات وما حاكوه حوله من أثواب الزور والكذب والتجرؤ على أن يفسر كتاب الله بهذا الهراء ، وليس فى نص القرآن ما يشير إلى ما حكوه وذكروه ، ولو من بعد ، أو على وجه الاحتمال ، ثم أين زمن نوح من زمن موسى – عليهما السلام – وما يدل عليه آية : ﴿ **قَالُوا يَامُوسى إنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حتَّى يَخْرجوا مِنْهَا** ﴾ كان فى زمن موسى قطعاً ، ولا مرية فى هذا فهل طالت الحياة بعوق حتى زمن موسى ؟ ! بل قالوا : إن موسى هو الذى قتله ، ألا لعن الله اليهود ، فكم من علم أفسدوا وكم من خرافات وأباطيل وضعوا .

* * *

(٩) الإسرائيليات فى قصة التيه

فمن هذه الأخبار العجيبة التى رويت فى قصة التيه : ما رواه ابن جرير بسنده عن الربيع ، قال : لما قال لهم القوم ما قالوا ، ودعا موسى عليهم ، أوحى الله إلى موسى : إنها محرمة عليهم أربعين سنة ، يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين ، وهم يومئذ ستمائة ألف مقاتل فجعلهم فاسقين بما عصوا ، فلبثوا أربعين سنة فى فراسخ ستة ، أو دون ذلك ، يسيرون كل يوم جادين ، لكى يخرجوا منها ، حتى يمسوا ، وينزلوا ، فإذا هم فى الدار التى منها ارتحلوا ، وأنهم اشتكوا إلى موسى ما فعل بهم فأنزل عليهم المن والسلوى(١) ، وأعطوا من الكسوة ما هى قائمة لهم ، ينشأ الناشىء فتكون معه على هيئته ، وسأل موسى ربه أن يسقيهم ، فأتى بحجر الطور ، وهو حجر أبيض ، إذا ما أنزل القوم ضربه بعصاه ، فيخرج منه اثنتا عشرة عينا ، لكل سبط منهم عين ، قد علم كل أُناس مشربهم ... وكذلك : روى أن ثيابهم ماكانت تبلى : ولا تتسخ ، وكذلك نقل بعض المفسرين كالزمخشرى وغيره : بأنهم كانوا ستمائة ألف ، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلا ،

---

(١) المن : شىء كالعسل كان ينزل على الشجر من السماء فيأخذونه ويأكلونه ، والسلوى : طير كالسمانى .

وكذلك : ذكروا أن الحجر كان من الجنة ، ولم يكن حجراً أرضياً ، ومنهم من قال : كان على هيئة رأس إنسان ، ومنهم من قال : كان على هيئة رأس شاة ، وقيل : كان طوله عشرة أذرع ، وله شعبتان تتقدان فى الظلام ، إلى غير ذلك من تزيدات بنى إسرائيل ، وليس فى القرآن ما يدل على هذا الذى ذكروه فى وصف الحجر ، مع أنه لو أريد بالحجر الجنس ، وأن يضرب أى حجر ما ، لكان أدل على القدرة ، وأظهر فى الإعجاز .

وقد لاحظ ابن خلدون من قبل المغالط التى تدخل فى مثل هذه المرويات ، فقال فى مقدمته المشهورة :

اعلم : أن فن التاريخ فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم ، والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم ، وسياستهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا ، فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ، ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبت ، يفضيان بصاحبهما إلى الحق ، وينكبان به عن المزلات والمغالط ، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ، ولم تحكم أصول العادة ، وقواعد السياسة ، طبيعة العمران ، والأحوال فى الاجتماع الإنسانى . ولو قيس الغائب منها بالشاهد ، والحاضر بالذاهب ـ فربما لم يؤمن فيها من العثور ، ومزلة القدم ، والحيد عن جادة الصدق ، وكثيرا ما وقع للمؤرخين ، والمفسرين وأئمة النقل من المغالط فى الحكايات ، والوقائع ، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثًّا ، أو سميناً ، ولم يعرضوها على أصولها ، ولا قاسوها بأشباهها ، ولا سبروها بمعيار الحكمة ، والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر ، والبصيرة فى الأخبار ، فضلوا عن الحق ، وتاهوا فى بيداء الوهم ، والغلط ، سيما فى إحصاء الأعداد من الأموال ، والعساكر إذا عرضت فى الحكايات ، إذ هى مظنة الكذب ومطية الهذر ، ولا بد من ردها إلى الأصول ، وعرضها على القواعد ، وهذا : كما نقل المسعودى وكثير من المؤرخين فى جيوش بنى إسرائيل ، وأن موسى أحصاهم فى التيه ، بعد أن أجاز من كان يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين ، فما فوقها ، فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون ، ويذهل فى ذلك عن تقدير مصر والشام ، واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش ، لكل مملكة حصة من الحامية

تتسع لها ، وتقوم بوظائفها ، وتضيق عما فوقها ، تشهد بذلك العوائد المعروفة ، والأحوال المألوفة ....

ولقد كان ملك الفرس ودولتهم أعظم من ملك بنى إسرائيل بكثير ، يشهد لذلك : ما كان من غلب بختنصر لهم ، والتهامه بلادهم ، واستيلائه على أمرهم ، وتخريب بيت المقدس قاعدة ملتهم ، وسلطانهم ، وهو من بعض عمال مملكة فارس ... وكانت ممالكهم بالعراقين ، وخراسان ، وما وراء النهر ، والأبواب أوسع من ممالك بنى إسرائيل بكثير ، ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريباً منه ، وأعظم ما كانت جموعهم بالقادسية مائة وعشرين ألفاً ، كلهم متبوع على ما نقله « سيف » قال : وكانوا فى أتباعهم أكثر من مائتى ألف ، وعن عائشة ، والزهرى : أن جموع رستم التى حف بهم سعد بالقادسية إنما كانوا ستين ألفاً كلهم متبوع .

وأيضاً : فلو بلغ بنو إسرائيل مثل هذا العدد ، لاتسع نطاق ملكهم ، وانفسح مدى دولتهم ، فإن العمالات ، والممالك فى الدول على نسبة الحامية ، والقبيل القائمين بها فى قلتها وكثرتها حسبما نبين ذلك فى فصل الممالك من الكتاب الأول[1] ، والقوم لم تتسع ممالكهم إلى غير الأردن ، وفلسطين من الشام ، وبلاد يثرب ، وخيبر ، من الحجاز على ماهو المعروف .

وأيضاً : فالذى بين موسى ، وإسرائيل إن هو إلا أربعة آباء ، على ما ذكره المحققون ، فإن موسى بن عمران ، بن يصهر ، بن قاهث ـ بفتح الهاء وكسرها ـ بن لاوى ـ بكسر الواو وفتحها ـ بن يعقوب وهو : إسرائيل الله ، هكذا نسبه فى التوراة ، والمدة بينهما على ما نقله المسعودى ، قال : دخل إسرائيل مصر مع ولده الأسباط ، وأولادهم ، حين أتوا إلى يوسف سبعين نفسا ، وكان مقامهم بمصر ، إلى أن خرجوا مع موسى ـ عليه السلام ـ إلى التيه ، مائتين وعشرين سنة ، تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة ، ويبعد أن يتشعب النسل فى أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد !! وإن زعموا أن عدد تلك الجيوش إنما كان فى زمن سليمان ومن بعده ، فبعيد أيضاً ، إذ ليس بين سليمان ، وإسرائيل إلا أحد عشر

(١) يريد بالكتاب الأول « مقدمته المشهورة » وقد قسمها إلى فصول .

أبا ... ولا يتشعب النسل فى أحد عشر من الولد إلى هذا العدد الذى زعموه ، اللهم إلا المئين والآلاف ، فربما يكون ، وأما أن يتجاوز هذا إلى ما بعدهما من عقود الأعداد فبعيد ، واعتبر ذلك فى الحاضر المشاهد ، والقريب المعروف تجد زعمهم باطلا ، ونقلهم كاذبا .

قال : والذى ثبت فى « الإسرائيليات » : أن جنود سليمان كانت اثنى عشر ألفاً خاصة ، وأن مقرباته كانت ألفاً ، وأربعمائة فرس مرتبطة على أبوابه ، هذا هو الصحيح من أخبارهم ، ولا يلتفت إلى خرافات العامة منهم ، وفى أيام سليمان ـ عليه السلام ـ ، وملكه كان عنفوان دولتهم ، واتساع ملكهم[1] .

وهذا الفصل من النفاسة بمكان ، فلذلك حرصت على ذكره ، لأنه يفيدنا فى رد الكثير من الإسرائيليات التى وقعت فيها المغالط ، والأخبار الباطلة ، والخرافات التى كانت سائدة فى العصور الأولى .

* * *

(١٠) الإسرائيليات فى : « المائدة التى طلبها الحواريون »

ومن الإسرائيليات التى ذكرها المفسرون عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا ، وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ، وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ** ﴾[2] .

وقد اختلف العلماءُ فى المائدة : أنزلت أم لا ؟ وجمهور العلماء سلفا وخلفا على نزولها ، وهذا هو ظاهر القرآن ، فقد وعد الله ، ووعده محقق لا محالة ، وذهب الحسن

---

(١) مقدمة ابن خلدون من ص ٧ ـ ٩ .
(٢) المائده من الآية ١١٢ ـ ١١٥ .

ومجاهد إلى أنها لم تنزل ، وذلك : لأن الله سبحانه لما توعدهم على كفرهم بعد نزولها بالعذاب البالغ غاية الحد خافوا أن يكفر بعضهم ، فاستعفوا ، وقالوا : لا نريدها فلم تنزل ، ولا أدرى ما الحامل لهم على هذا ؟ !

وقد أُحيطت المائدة بأخبار كثيرة ، أغلب الظن : أنها من الإسرائيليات رويت عن وهب بن منبه ، وكعب ، وسلمان ، وابن عباس ، ومقاتل ، والكلبى ، وعطاء وغيرهم ، بل رووا فى ذلك حديثا عن عمار بن ياسر عن النبي - ﷺ - أنه قال : « **إنها نزلت خبزاً ولحما ، وأُمروا أن لا يخونوا ، ولا يدخروا لغد** » وفى رواية : بزيادة « **ولا يخبئوا ، فخانوا وادخروا ، ورفعوا لغد ، فمسخوا قردة وخنازير** » ، ورفْع مثل هذا إلى النبى غلط ، ووهم من أحد الرواة على ما أُرجح ، فقد روى هذا ابن جرير فى تفسيره مرفوعا ، وموقوفا ، والموقوف أصح ، وقد نص على أن المرفوع لا أصل له الإمام أبو عيسى الترمذى فقال : بعد أن روى الروايات المرفوعة : (هذا حديث قد رواه أبو عاصم وغير واحد ، عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة ، عن خلاس عن عمار بن ياسر موقوفا ، ولا نعرفه مرفوعا إلا من حديث الحسن بن قزعة) ، وبعد أن ذكر رواية موقوفة عن أبى هريرة ، قال : (وهذا أصح من حديث الحسن بن قزعة ، ولا نعرف للحديث المرفوع أصلا)[(١)] .

وقد اختلفت المرويات فى هذا ، فروى العوفى عن ابن عباس : أنها خوان عليه خبز وسمك ، يأكلون منه أينما نزلوا ، إذا شاءوا ، وقال عكرمة عن ابن عباس : كانت المائدة سمكة ، وأريغفة[(٢)] ، وقال سعيد ابن جبير عن ابن عباس : أُنزل على المائدة كل شىء إلا الخبز واللحم .

وقال كعب الأحبار : نزلت المائدة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض ، عليها كل الطعام إلا اللحم .

وقال وهب بن منبه : أنزلها من السماء على بنى إسرائيل ، فكان ينزل عليهم فى كل يوم فى تلك المائدة من ثمار الجنة ، فأكلوا ما شاءوا من ضروب شتى ، فكان يقعد عليها أربعة آلاف ، وإذا أكلوا أنزل الله مكان ذلك لمثلهم فلبثوا على ذلك ما شاء الله - عز وجل

---

(١) سنن الترمذى - كتاب التفسير - باب : سورة المائدة .
(٢) التصغير للتقليل هنا .

وقال وهب أيضاً : نزل عليهم أقرصة من شعير ، وأحوات[1] ، وحشا الله بين أضعافهن البركة ، فكان قوم يأكلون ، ثم يخرجون ، ثم يجيء آخرون فيأكلون ، ثم يخرجون ، حتى أكل جميعهم ، وأفضلوا ، وهكذا لم يتفق الرواة على شيء ، مما يدل على أنها إسرائيليات مبتدعة ، وليس مرجعها إلى المعصوم - ﷺ - والحق أبلج ، والباطل لجلج لا يتفق عليه غالباً .

وسأكتفى بذكر الرواية الطويلة التى ذكرها ابن أبى حاتم ، فى تفسيره بسنده ، عن وهب بن منبه ، عن أبى عثمان المهدى عن سلمان الفارسى - رضى الله عنه - وخلاصتها :

« أن الحواريين لما سألوا عيسى ابن مريم - عليه السلام - المائدة كره ذلك ، خشية أن تنزل عليهم ، فلا يؤمنوا بها ، فيكون فيها هلاكهم ، فلما أبوا إلا أن يدعو لهم الله لكى تنزل ، دعا الله ، فاستجاب له ، فأنزل الله تعالى سفرة حمراء بين غمامتين : غمامة فوقها ، وغمامة تحتها ، وهم ينظرون إليها فى الهواء منقضة من السماء ، تهوى إليهم ، وعيسى - عليه الصلاة والسلام - يبكى خوفا من الشرط الذى اتخذ عليهم فيها فما زال يدعو حتى استقرت السفرة بين يديه ، والحواريون حوله يجدون رائحة طيبة ، لم يجدوا رائحة مثله قط ، وخر عيسى - عليه الصلاة والسلام - والحواريون سجدا ، شكرا لله تعالى وأقبل اليهود ينظرون إليهم ، فرأوا ما يغمهم ، ثم انصرفوا ، فأقبل عيسى - عليه السلام - ومن معه ينظرونها ، فإذا هى مغطاة بمنديل ، فقال - عليه السلام - : من أجرؤنا على كشفه ، وأوثقنا بنفسه ، وأحسننا بلاءً عند ربه ، حتى نراها ، ونحمد ربنا سبحانه وتعالى ونأكل من رزقه الذى رزقنا ؟ فقالوا : يا روح الله وكلمته ، أنت أولى بذلك ، فقام واستأنف وضوءًا جديداً ، ثم دخل مصلاه ، فصلى ركعات ، ثم بكى طويلا ، ودعا الله تعالى أن يأذن له فى الكشف عنها ، ويجعل له ، ولقومه فيها بركة ، ورزقا ، ثم انصرف ، وجلس حول السفرة وتناول المنديل ، وقال : بسم الله خير الرازقين ، وكشف عنها ، فإذا عليها سمكة ضخمة مشوية ، ليس عليها بواسير[2] ، وليس فى جوفها شوك ، يسيل السمن[3]

---

(١) أحوات : جمع حوت ، فى القاموس : الحوت : السمك ، جمعه : أحوات : وحوتة ، وحيتان .
(٢) أى : قشر ، فى رواية البغوى : ليس عليها فلوسها .
(٣) أى : الدهن لسمنها .

منها ، قد نضد حولها بُقُول من كل صنف غير الكراث ، وعند رأسها خل ، وعند ذنبها ملح ، وحول البقول خمسة أرغفة على واحد منها زيتون ، وعلى الآخر تمرات ، وعلى الآخر خمس رمانات ، وفى رواية : على واحد منها زيتون ، وعلى الثانى عسل ، وعلى الثالث سمن ، وعلى الرابع جبن ، وعلى الخامس قديد[1] فقال شمعون .. رأس الحواريين – لعيسى : يا روح الله وكلمته : أمن طعام الدنيا هذا ، أم من طعام الجنة ؟ ، فقال عيسى : أَمَا آن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات ، وتنتهوا عن تنقير المسائل ؟! ما أخوفنى عليكم أن تعاقبوا فى سبب نزول هذه الآية ، فقال له شمعون : لا وإله إسرائيل ما أردت بهذا سؤالا[2] يا ابن الصديقة ، فقال عيسى – عليه السلام – : ليس شىءٌ مما ترون من طعام الدنيا ، ولا من طعام الجنة ، إنما هو شىء ابتدعه الله فى الهواء بالقدرة الغالبة القاهرة ....

فقالوا : يا روح الله وكلمته : إنا نحب أن يرينا الله آية فى هذه الآية ، فقال – عليه السلام – : سبحان الله تعالى أما اكتفيتم ؟! ثم قال : يا سمكة عودى بإذن الله تعالى حية كما كنت ، فأحياها الله ، وعادت حية طرية .. يا سمكة عودى بإذن الله تعالى كما كنت مشوية ، فعادت ، ثم دعاهم إلى الأكل فامتنعوا ، حتى يكون هو البادىء ، فأبى ، ثم دعا لها الفقراء والزمنى ، وقال : كلوا من رزق ربكم ، ودعوة نبيكم ، واحمدوا الله تعالى الذى أنزلها لكم ، فيكون مهنؤها لكم وعقوبتها على غيركم ، وافتتحوا أكلكم باسم الله تعالى ، واختتموه بحمد الله ، ففعلوا ، فأكل منها [illegible] وثلاثمائة إنسان : بين رجل وامرأة ، يصدرون عنها كل واحد منها شبعان يتجشأ ، ونظر عيسى والحواريون ، فإذا ما عليها كهيئته ، إذ نزلت من السماء ، لم ينقص منها شىءٌ ، ثم إنها رفعت إلى السماء وهم ينظرون ، فاستغنى كل فقير أكل منها ، وبرىء كل من أكل منها ، وندم الحواريون وأصحابهم الذين أبوا أن يأكلوا منها ندامة سالت [illegible] ، وبقيت حسرتها فى قلوبهم ، إلى يوم الممات[3]

---

(١) قديد : أى لحم مجفف .

(٢) لعل مراده سؤال تعنت ، وأنهم لا يريدون بالسؤال أن يطعمهم الله من رزقه وخيره .

(٣) هذا مما يضعف القصة ويدل على الاختلاق ، وإلا فكيف يطلبونها ، ثم يمتنعون عن الأكل ، لأن عيسى لم يبدأ به ؟

وكانت المائدة إذا نزلت بعد ذلك : أقبل إليها بنو إسرائيل يسعون من كل مكان ، يزاحم بعضهم بعضاً ، فلما رأى ذلك ، جعلها نوبا تنزل يوما ولا تنزل يوما ، ومكثوا على ذلك أربعين يوما ، تنزل عليهم غِبًّا ، عند ارتفاع النهار ، فلا تزال موضوعة يؤكل منها ، حتى إذا قالوا[1] ارتفعت عنهم إلى جو السماء ، وهم ينظرون إلى ظلها فى الأرض ، حتى تتوارى عنهم[2] .

فأوحى الله تعالى إلى عيسى – عليه الصلاة والسلام – : أن اجعل رزقى لليتامى ، والمساكين ، والزمنى دون الأغنياء من الناس ، فلما فعل ذلك ارتاب بها الأغنياء ، وعمصوا ذلك ، حتى شكوا فيها فى أنفسهم ، وشككوا فيها الناس ، وأذاعوا فى أمرها القبيح ، والمنكر ، وأدرك الشيطان منهم حاجته ، وقذف وساوسه فى قلوب المرتابين ، فلما علم عيسى ذلك منهم قال : هلكتم وإله المسيح ، سألتم نبيكم أن يطلب المائدة لكم إلى ربكم ، فلما فعل ، وأنزلها عليكم رحمة ، ورزقاً ، وأراكم فيها الآيات والعبر ، كذبتم بها ، وشككتم فيها ، فأبشروا بالعذاب ، فإنه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله تعالى وأوحى الله تعالى إلى عيسى – عليه السلام – : إنى آخذ المكذبين بشرطى ، فإنى معذب منهم من كفر بالمائدة بعد نزولها عذابا لا أُعذبه أحدا من العالمين ، فلما أمسى المرتابون بها ، وأخذوا مضاجعهم فى أحسن صورة مع نسائهم آمنين ، فلما كان فى آخر الليل مسخهم الله خنازير ، فأصبحوا يتبعون الأقذار فى الكناسات .

قال ابن كثير فى تفسيره بعد ذكره : « هذا أثر غريب[3] جدا قطعه ابن أبى حاتم فى مواضع من هذه القصة ، وقد جمعته أنا ليكون سياقه أتم ، وأكمل ، والله سبحانه وتعالى أعلم » .

أقول : ومن هذه الروايات الغريبة دخل البلاءُ على الإسلام والمسلمين ، لأن غالبها لا يصح ، ولذا قال الإمام الجليل أحمد ابن حنبل : « لا تكتبوا هذه الأحاديث الغرائب فإنها مناكير ، وعامتها عن الضعفاء » .

---

(١) من القيلولة : الراحة وسط النهار .

(٢) القرآن الكريم يدل دلالة واضحة على أن المائدة لم تنزل إلا مرة واحدة ، وهذا يدل على تكرر نزولها ، وهذا أيضاً يدل على اختلاق تفاصيل القصة وأنها من تزيدات بنى إسرائيل .

(٣) الغريب : ما تفرد به رواته فى كل السند أو بعضه ، ومنه الصحيح ، ومنه غير الصحيح وهو الغالب والكثير .

وقال الإمام مالك : « شر العلم الغريب ، وخير العلم الظاهر الذى قد رواه الناس » وقال ابن المبارك : « العلم : الذى يجيئك من ههنا وههنا » يعنى المشهور الذى رواه الكثيرون ، رواها البيهقى فى المدخل وروى عن الزهرى أنه قال : « ليس من العلم مالا يعرف ، إنما العلم ما عرف وتواطأت عليه الألسن[1] » .

وأحب أن أُنبه إلى أن أصل القصة ثابت بالقرآن الذى لا شك فيه وإنما موضع الشك فى كل هذه التزيدات التى هى من الإسرائيليات .

وقد ذكر المفسرون جميعاً كل ما يدور حول قصة المائدة ، وإن اختلفوا فى ذلك قلة وكثرة[2] ، والعجب : أن أحدا لم ينبه على أصل هذه المرويات ، والمنبع الذى نبعت منه ، حتى الإمامين الجليلين : ابن كثير والآلوسى ، وإن كان ابن كثير قد أشار من طرف خفى إلى عدم صحة معظم ما روى ، ولعلهم اعتبروا ذلك مما يباح روايته ، ويحتمل الصدق والكذب ، فذكروه من غير إنكار له ، وكان عليهم أن ينزهوا التفسير عن هذا وأمثاله ..

وقد شكك فى القصة الطويلة التى اختصرناها الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبى ، فقال : قلت : فى هذا الحديث مقال ، ولا يصح من قبل إسناده[3] .

ثم عرض بعد لما روى مرفوعاً ، وموقوفاً ، وذكر ما قاله الإمام أبو عيسى الترمذى : من أن الموقوف أصح ، وأن المرفوع لا أصل له[4] .

التفسير الصحيح للآيات :

ولأجل أن نكون على بينة من أن تفسير الآيات ، والانتفاع بها ، والاهتداء بهديها

---

(١) تدريب الراوى ص ١٩٢ .

(٢) انظر تفسير ابن جرير عند هذه الآيات ، وتفسير الدر المنثور عندها أيضا ، وتفسير الزمخشرى ، والفخر الرازى ، وأبى السعود عند تفسير الآيات ، وتفسير ابن كثير والبغوى ج ٣ ص ٢٧٤ ــ ٢٧٩ ، والآلوسى ج ٧ من ص ٦٢ ــ ٦٥ والقرطبى ج ٦ من ص ٣٦٩ ــ ٣٧٢ إلا أنه قال : فى هذا الحديث مقال ، ولا يصح من قبل إسناده .

(٣) تفسير القرطبى ج ٦ ص ٣٧٢ ط الأولى .

(٤) هذه العبارة تطلق عند بعض المحدثين على ما هو موضوع وليس من شك فى أن رفع هذا إلى النبى ــ ﷺ ــ إن كان عمدا فهو كذب واختلاق عليه ، وإن كان غلطا وسهوا فهو ملحق بالوضع ، كما نبه إليه أئمة علوم الحديث كابن الصلاح وغيره .

ليس متوقفاً على ما رووا من أخبار ، وقصص ، نفسر لك الآيات تفسيرا صحيحاً ، كما هو منهجنا فى كل ما عرضنا له ، فأقول وبالله التوفيق :

قال الله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ إذ : ظرف لما مضى من الزمان ، وهو مفعول لفعل محذوف ، والتقدير : اذكر يا محمد ما حدث فى هذا الزمن البعيد ليكون دليلا على صدق نبوتك ، فما كنت معهم ، ولا صاحبت أهل الكتاب ، ولم تكن قارئاً ، ولا كاتباً .

الحواريون : جمع حوارى وهم : المخلصون الأصفياءُ من أتباع عيسى - عليه السلام - ويطلق أيضاً على الأصحاب المخلصين من أتباع الأنبياء ، وفى الحديث الصحيح : « إنَّ لكل نبى حوارياً وحواريَّ : الزبير (يعنى بن العوام) » .

المائدة : الخوان الذى عليه الطعام ، فإن لم يكن عليها طعام فهو خُوان ، السماء : إما المعروفة أو المراد بها جهة العلو ، فإنها قد تطلق ويراد بها كل ما علا .

وليس المراد بالاستفهام هو أصل الاستطاعة ، وأنهم ما كانوا يعلمون هذا ، لأن السائلين كانوا مؤمنين ، عارفين ، عالمين بالله وصفاته ، بل فى أعلى درجات هذه الصفات ، وإنما المراد بالسؤال : الإنزال بالفعل ، من قبيل إطلاق السبب وإرادة المسبب ، والمعنى : هل يجيبنا ربك - يا نبينا عيسى - إلى ذلك أم لا ؟.

وقال بعض العلماء : ليس ذلك بشك فى الاستطاعة ، وإنما هو تلطف فى السؤال ، وأدب مع الله تعالى بهذه الصيغة المهذبة كقول الرجل لآخر : هل تستطيع أن تعتبنى على كذا ، وهو يعلم أنه يستطيع .

وأما قول من قال : إنه من قول من كان مع الحواريين ، فبعيد لخروجه عن ظاهر الآية ، ولا سيما أن تفسير الآية مستقيم غاية الاستقامة على ما ذكرنا .

وهذا السؤال إما لفقرهم وحاجتهم ، وإما لتعرف فضل نبيهم عيسى ، وفضلهم وكرامتهم عند ربهم .

وأما ما روى : أن عيسى أمرهم بصيام ثلاثين يوما ، ثم ليسألوا ربهم ما يشاءون ،

فصاموا وسألوا ، فلست منه على ثلج ﴿ قَالَ : اتَّقُوا اللهَ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

ليس هذا شكاً فى إيمانهم ، وإنما هو أُسلوب معهود ، حملا على التقوى ، كما قال تعالى فى حق المؤمنين الصادقين ، من هذه الأمة المحمدية : ﴿ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤمنين ﴾(١) ، والمعنى : اتقوا الله ولا تسألوه ، فعسى أن يكون فتنة لكم ، وتوكلوا على الله فى طلب الرزق ، أو اتقوا الله ودعوا كثرة السؤال ، فإنكم لا تدرون ما يحل بكم عند اقتراح الآيات ، لأن الله سبحانه إنما يفعل الأصلح لعباده ، ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ من أهل الإيمان بالله ، ورسله ، ولا سيما أنه سبحانه آتاكم من الآيات ما فيه غنية عن غيره ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ بدأوا بالغذاء المادى ، ثم ثنوا بالغذاء الروحى ، فقالوا : ﴿ وَتَطمَئِنَّ قُلوبُنَا ﴾ ، وهو مثل قول الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾(٢) .

﴿ وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ أى : نزداد علما ، ويقينا بصدقك ، وحقيقة رسالتك ﴿ وَنكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أى : المقرين المعترفين لله بالوحدانية ، ولك بالنبوة ، والرسالة ، أو : من الشاهدين عليها لمن لم يرها ويعاينها .

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ .

العيد : يوم الفرح والسرور ، ﴿ لأَوَّلِنَا ﴾ : لأول أُمتنا ﴿ وآخِرِنَا ﴾ : لآخر أُمتنا ، أَوْلنا ، ولمن بعدنا .

﴿ وَآيَةً مِّنكَ ﴾ أى : دليلا ، وحجة على قدرتك ، على كل شىءٍ ، وعلى إجابتك لدعوتى ، فيصدقونى فيما أُبلغه عنك ، ﴿ وارْزُقْنَا ﴾ أى : من عندك رزقاً هنيئاً لا كلفة فيه ، ولا تعب ، ﴿ وأنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أى : خير من أعطى ورزق ، لأنك الغنى الحميد .

﴿ قَالَ اللهُ إِنِّيَ مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَّا أُعَذِّبُهُ أَحداً مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

---

(١) الأنفال : ١ .
(٢) البقرة : ٢٦٠ .

أى : فمن يكفر أى : يكذب بها من أُمتك يا عيسى ، وعاندها ، فإنى أُعذبه عذاباً ، لا أُعذبه أحدا من عالمى زمانكم ، وهذا على سبيل الوعيد لهم ، والتهديد . وليس فى الآية ما يدل على أنهم كفروا ، ولا على أن غيرهم قد كفر بها ، ولا على أنهم استعفوا من نزول المائدة ، وإنما الذى دعا بعض المفسرين إلى هذه الأقوال : ما سمعت من الروايات الإسرائيلية ، وهانحن قد فسرنا الآيات تفسيراً علمياً صحيحاً من غير حاجة ما إلى ما روى ، مما يدل دلالة قاطعة على أن مفسر القرآن فى غنية عن الإسرائيليات التى شوهت جمال القرآن وجلاله .

* * *

(١١) الإسرائيليات فى « سؤال موسى ربه الرؤية »

ومن الإسرائيليات : ما يذكره بعض المفسرين عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ، قَالَ رَب أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِى ، وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ، وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ ، (الأعراف ، الآية ١٤٣) فقد ذكر الثعلبى ، والبغوى ، وغيرهما عن وهب بن منبه ، وابن إسحاق قالا :

« لما سأل موسى ربه الرؤية أرسل الله الضباب ، والصواعق ، والظلمة ، والرعد ، والبرق وأحاطت بالجبل الذى عليه موسى أربعة فراسخ من كل جانب ، وأمر الله ملائكة السماوات أن يعترضوا على موسى ، فمرت به ملائكة السماء الدنيا كثيران[1] البقر ، ينبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بأصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد ، ثم أمر الله ملائكة السماء الثانية : أن اهبطوا على موسى ، فاعترضوا عليه ، فهبطوا عليه أمثال الأُسود ، لهم لجب بالتسبيح والتقديس ، ففزع العبد الضعيف : ابن عمران مما رأى ، وسمع ، واقشعرت كل شعرة فى رأسه وجسده ، ثم قال : لقد ندمت على مسألتى ، فهل ينجينى من مكانى الذى أنا فيه ؟ .

فقال له خير الملائكة[2] ورأسهم : يا موسى أصبر لما سألت ، فقليل من كثير

---

(١) جمع ثور ، وهذا من سوء أدب بنى إسرائيل مع الملائكة .
(٢) هو جبريل – عليه السلام – .

ما رأيت ، ثم أمر ملائكة السماء الثالثة : أن اهبطوا على موسى ، فاعترضوا عليه ، فهبطوا أمثال النسور ، لهم قصف ، ورجف ، ولجب شديد ، وأفواههم تنبع بالتسبيح ، والتقديس كجلب الجيش العظيم ، ألوانهم كلهب النار ، ففزع موسى ، واشتد فزعه ، وأيس من الحياة ، فقال له خير الملائكة : مكانك حتى ترى مالا تصبر عليه .

ثم أمر الله ملائكة السماء الرابعة : أن اهبطوا ، فاعترضوا على موسى ابن عمران ، فهبطوا عليه لا يشبههم شيءٌ من الذين مروا به قبلهم ، ألوانهم كلهب النار ، وسائر خلقهم كالثلج الأبيض ، أصواتهم عالية بالتقديس ، والتسبيح ، لا يقاربهم شيءٌ من أصوات الذين مروا به من قبلهم ، فاصطكت ركبتاه ، وارتعد قلبه ، واشتد بكاؤه ، فقال له خير الملائكة ورأسهم : يا ابن عمران : اصبر لما سألت ، فقليل من كثير ما رأيت .

ثم أمر الله ملائكة السماء الخامسة : أن اهبطوا ، فاعترضوا على موسى ، فهبطوا عليه لهم سبعة ألوان ، فلم يستطع موسى أن يتبعهم بصره ، لم ير مثلهم ، ولم يسمع مثل أصواتهم ، فامتلأ جوفه خوفا ، واشتد حزنه ، وكثر بكاؤه ، فقال له خير الملائكة ورأسهم : يا ابن عمران مكانك ، حتى ترى بعض مالا تصبر عليه .

ثم أمر الله ملائكة السماء السادسة : أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه ، فهبطوا عليه فى يد كل ملك منهم مثل النخلة الطويلة نارا أشد ضوءًا من الشمس ، ولباسهم كلهب النار ، إذا سبحوا وقدسوا جاوبهم من كان قبلهم من ملائكة السماوات كلهم ، يقولون بشدة أصواتهم : سبوح قدوس ، رب الملائكة والروح ، رب العزة أبدا لا يموت ، وفى رأس كل ملك منهم أربعة أوجه ، فلما رآهم موسى رفع صوته ، يسبح معهم حين سبحوا ، وهو يبكى ويقول : رب اذكرنى ولا تنس عبدك ، لا أدرى أأنفلت مما أنا فيه أم لا ؟ ، إن خرجت احترقت ، وإن مكثت مت ، فقال له كبير الملائكة ورأسهم : قد أوشكت (١) يا ابن عمران أن يشتد خوفك ، وينخلع قلبك ، فاصبر للذى سألت .

---

(١) لا أدرى كيف يتفق هذا وما ذكر من قبل من شدة خوفه وفزعه فى المرات الخمس وهذا من أمارات التهافت .

ثم أمر الله أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة ، فلما بدا نور العرش ، انفرج الجبل من عظمة الرب جل جلاله ورفعت ملائكة السماوات أصواتهم جميعاً ، يقولون : سبحان الملك القدوس ، رب العزة أبداً لا يموت ، بشدة أصواتهم ، فارتج الجبل ، واندكت كل شجرة كانت فيه ، وخر العبد الضعيف موسى صعقا على وجهه ، ليس معه روحه ، فأرسل الله برحمته الروح ، فتغشاه ، وقلب عليه الحجر الذى كان عليه موسى ، وجعله كهيئة القبة ، لئلا يحترق موسى[١] فأقام موسى يسبح الله ، ويقول آمنت بك ربى ، وصدقت أنه لا يراك أحد ، فيحيا ، من نظر إلى ملائكتك انخلع قلبه ، فما أعظمك وأعظم ملائكتك ، أنت رب الأرباب وإله الآلهة وملك الملوك ، وَلاَ يَعْدِلك شىءٌ ، ولا يقوم لك شىءٌ ، رب تبت إليك ، الحمد لله لا شريك لك ، ما أعظمك ، وما أجلك رب العالمين ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ ، وبعد أن ذكر الأقوال الكثيرة فيما تبدى من نور الله ، قال : ووقع فى بعض التفاسير : طارت لعظمته ستة أجبل ، وقعت ثلاثة بالمدينة : أُحد ، وورقان ، ورضوى ، ووقعت ثلاثة بمكة : ثور ، وثبير ، وحراء[٢] .

وهذه المرويات وأمثالها مما لا نشك أنها من إسرائيليات بنى إسرائيل ، وكذبهم على الله ، وعلى الأنبياء ، وعلى الملائكة ، فلا تلق إليه بالا ، وليس تفسير الآية فى حاجة إلى هذه المرويات ، والآية ظاهرة واضحة ، وليس فيها ما يدل على امتناع رؤية الله فى الآخرة كما دل على ذلك القرآن الكريم ، والسنة الصحيحة المتواترة ، وغاية ما تدل عليه : امتناع الرؤية البصرية فى الدنيا ، لأن العين الفانية لا تقدر أن ترى الذات الباقية .

ومن ذلك أيضاً : ما ذكره الثعلبى ، والبغوى ، والزمخشرى فى تفاسيرهم عند قوله تعالى : ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً ﴾ أى : مغشياً عليه ، وليس المراد ميتاً كما قال قتادة .

فقد قال البغوى : فى بعض الكتب : إن ملائكة السماوات أتوا موسى وهو مغشى عليه ، فجعلوا يركلونه بأرجلهم ، ويقولون : يا ابن النساء الحيض ، أطمعت فى رؤية

---

(١) وهذا تهافت آخر ، وأمارة من أمارات الاختلاق ؛ أليس الله بقادر على حمايته من غير الروح ، والحجر؟ .

(٢) تفسير البغوى على هامش تفسير ابن كثير ج ٣ من ص ٥٤٧ ـ ٥٥٠ .

رب العزة ؟[1] ! ! وذكر مثل هذا الزمخشرى فى تفسيره ، وقد نقلها لأنها تساعده على إثبات مذهبه الفاسد وجماعته ، وهو استحالة رؤية الله فى الدنيا ، والآخرة .

وهذا وأمثاله مما لا نشك أنه من الإسرائيليات المكذوبة ، وموقف بنى إسرائيل من موسى ، ومن جميع أنبياء الله معروف ، فهم يحاولون تنقيصهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وقد تنبه إلى هذا الإمام : أحمد بن المنير صاحب « الانتصاف من صاحب الكشاف » ، فقال : وهذه حكاية ، إنما يوردها من يتعسف لامتناع الرؤية فيتخذها عوناً وظهراً على المعتقد الفاسد ، والوجه التورك بالغلط على ناقلها ، وتنزيه الملائكة ـ عليهم السلام ـ من إهانة موسى الكليم بالوكز بالرجل ، والغمص فى الخطاب[2] .

ويرحم الله الإمام الآلوسى حيث قال فى تفسيره : « ونقل بعض القصاصين ، أن الملائكة كانت تمر عليه حينئذ ، فيلكزونه بأرجلهم ، ويقولون : يا ابن النساء الحيض ، أطمعت فى رؤية ربك ؟ » وهو كلام ساقط لا يعول عليه بوجه ، فإن الملائكة ـ عليهم السلام ـ مما يجب تبرئتهم من إهانة الكليم بالوكز بالرجل ، والغمص فى الخطاب[3] .

* * *

(١٢) الإسرائيليات فى ألواح التوراة

ومن الإسرائيليات : ما ذكره الثعلبى والبغوى ، والزمخشرى ، والقرطبى والآلوسى وغيرهم ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ، وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ (الأعراف ـ ١٤٥) فقد ذكر فى الألواح : مم هى ؟ وما عددها ؟ أقوالا كثيرة عن بعض الصحابة والتابعين وعن كعب ، ووهب ، من أهل الكتاب الذين أسلموا مما يشير إلى منبع هذه الروايات ، وأنها من إسرائيليات بنى إسرائيل ، وفيها من المرويات ما يخالف المعقول

(١) المرجع السابق ص ٥٥١ .
(٢) تفسير الكشاف عند تفسير قوله : ﴿ **وخر موسى صعقا** ﴾ .
(٣) تفسير الآلوسى ج ٩ ص ٤٦ ط . منير .

والمنقول ، وإليك ما ذكره البغوى فى هذا ، قال :

قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ ﴾ : يعنى لموسى ﴿ فى الأَلْوَاح ﴾ : قال ابن عباس : يريد ألواح التوراة ، وفى الحديث : «كانت من سدر الجنة ، طول اللوح اثنا عشر ذراعا» وجاء فى الحديث : «خلق الله آدم بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس شجرة طوبى بيده»[١] .

وقال الحسن : كانت الألواح من خشب ، وقال الكلبى : كانت من زبرجدة خضراء .

وقال سعيد بن جبير : كانت من ياقوت أحمر ، وقال الربيع : كانت الألواح من برد[٢] .

وقال ابن جريج : كانت من زمرد ، أمر الله جبريل حتى جاء بها من عدن ، وكتبها بالقلم الذى كتب به الذكر ، واستمد من نهر النور ! !

وقال وهب : أمر الله بقطع الألواح من صخرة صماء ، ليَّنها الله له ، فقطعها بيده ، ثم شققها بيده ، وسمع موسى صرير القلم بالكلمات العشر ، وكان ذلك فى أول يوم من ذى القعدة ، وكانت الألواح عشرة أذرع ، على طول موسى ! ! .

وقال مقاتل ووهب : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الأَلْوَاحِ ﴾: كنقش الخاتم .

وقال الربيع بن أنس : نزلت التوراة وهى سبعون وقر بعير ، يقرأ الجزء منه فى سنة ، لم يقرأها إلا أربعة نفر : موسى ، ويوشع ، وعزير ، وعيسى[٣] .

فكل هذه الروايات المتضاربة التى يرد بعضها بعضاً مما نحيل أن يكون مرجعها المعصوم - ﷺ - وإنما هى من إسرائيليات بنى إسرائيل ، حملها عنهم بعض الصحابة والتابعين

---

(١) لم يخرج البغوى - كما هى عادته - الحديثين ولم يبرز سندهما ، وقد ذكر الآلوسى أن الحديث الأول رواه ابن أبى حاتم ، واختار القول به إن صح السند إليه ، وأما الحديث الثانى فقال : إنه مروى عن على ، وعن ابن عمر ، وعن غيرهما من التابعين (تفسير الآلوسى ج ٧ ص ٥٧) .

(٢) الظاهر أنها بضم الباء وسكون الراء : الثوب المختط ، وإلا فلو كانت من برد - بفتح الباء والراء - حبات الثلج فكيف يكتب عليها ؟ .

(٣) لا أدرى كيف يقبل عقل أنها حمل سبعين بعيرا وإذا لم يقرأها إلا أربعة فلماذا أنزلها الله ؟ .

بحسن نية ، وليس تفسير الآية متوقفاً على كل هذا الذى رووه ، والذى يجب أن نؤمن به ، أن الله أنزل الألواح على موسى ، وفيها التوراة[1] ، أما هذه الألواح مم صنعت ؟ ، وما طولها وما عرضها ؟ ، وكيف كتبت ؟ فهذا لا يجب علينا الإيمان به ، والأولى عدم البحث فيه ، لأن البحث فيه لا يؤدى إلى فائدة ، ولا يوصل إلى غاية .

ومن ذلك : ما يذكره بعض المفسرين فى قوله تعالى : ﴿ **مِن كُلِ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ** ﴾ ، فقد جعلوا التوراة مشتملة على كل ما كان وكل ما يكون ، وهذا مما لا يعقل ، ولا يصدق ، فمن ذلك : ما ذكره الإمام الآلوسى فى تفسيره قال : وما أخرجه الطبرانى ، والبيهقى فى « الدلائل » عن محمد ابن يزيد الثقفى ، قال : اصطحب قيس بن خرشة ، وكعب الأحبار حتى إذا بلغا صفين ، وقف كعب ، ثم نظر ساعة ، ثم قال : ليهراقن بهذه البقعة من دماء المسلمين شيءٌ لا يراق ببقعة من الأرض مثله .

فقال قيس : ما يدريك ؟ فإن هذا من الغيب الذى استأثر الله تعالى به ؟ ! !

فقال كعب : ما من الأرض شبر إلا مكتوب فى التوراة التى أنزل الله تعالى على موسى ، ما يكون منه ، وما يخرج منه إلى يوم القيامة ! ! ،

وهو من المبالغات التى روى أمثالها عن كعب ولا نصدق ذلك ، ولعلها من الكذب الذى لاحظه عليه الصحابى الداهية ، معاوية بن أبى سفيان ـ رضى الله عنه ـ على ما أسلفنا سابقاً ، ولا يعقل قط : أن يكون فى التوراة كل أحداث الدنيا إلى يوم القيامة .

والمحققون من المفسرين سلفا وخلفا : على أن المراد : أن فيها تفصيلا لكل شيءٍ ، مما يحتاجون إليه فى الحلال والحرام ، والمحاسن والقبائح مما يلائم شريعة موسى وعصره ، وإلا فقد جاء القرآن الكريم بأحكام وآداب ، وأخلاق ، لا توجد فى التوراة قط ..

وقد ساق الإمام الآلوسى هذا الخبر ، للاستدلال به لمن يقول : إن كل شيءٍ : عام ،

---

(١) وقيل : إن الألواح أعطيها موسى قبل التوراة ، والصحيح الأول .

وكأنه استشعر بُعده ، فقال عقبه : « ولعل ذكر ذلك من باب الرمز ، كما ندعيه فى القرآن[1] » .

وإنى لأقول للآلوسى ومن لف لفه : إن هذا مردود وغير مقبول ، ونحن لا نسلم بأن فى القرآن رموزا ، وإشارات لأحداث ، وإن قاله البعض ، والحق أحق أن يتبع .

* * *

(١٣) إسرائيلية مكذوبة فى سبب غضب موسى لما ألقى الألواح :

ومن الإسرائيليات : ما رواه ابن جرير فى تفسيره ، والبغوى فى تفسيره ، وغيرهما ، فى سبب غضب سيدنا موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى ألقى الألواح من يديه ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً . قَالَ : بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِن بَعْدِى ، أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ؟ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ[2] ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ، قَالَ : ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى ، وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى ، فَلاَ تُشْمِتْ بِىَ الأَعْدَاءَ ، وَلاَ تَجْعَلْنِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأعراف : الآية ١٥٠) .

فقد روى عن قتادة أنه قال : نظر موسى فى التوراة ، فقال : رب إنى أجد فى الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، اجعلهم أُمتى قال : تلك أُمة أحمد ، قال : رب إنى أجد فى الألواح أُمة هم الآخرون ـ أى : آخرون فى الخلق ـ سابقون فى دخول الجنة ، رب اجعلهم أُمتى ، قال : تلك أُمة أحمد ، قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة أناجيلهم فى صدورهم ، يقرءُونها ، وكان من قبلهم يقرءُون كتابهم نظرا ، حتى إذا رفعوها ، لم يحفظوا شيئاً ، ولم يعرفوه ، وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئاً لم يعطه أحدا من الأُمم ، قال : رب اجعلهم أُمتى ، قال : تلك أُمة أحمد ، قال : رب إنى أجد فى الألواح أُمة يؤمنون بالكتاب الأول ، وبالكتاب الآخر ، ويقاتلون فصول الضلالة ، حتى ليقاتلون الأعور الكذاب ، فاجعلهم أُمتى ، قال : تلك أُمة أحمد ، قال : رب إنى أجد فى الألواح أُمة صدقاتهم يأكلونها فى بطونهم ويؤجرون

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٧ ص ٥٦ ، ٥٧ ط . منير .

(٢) طرحها وألقى بها .

عليها ، وكان من قبلهم إذا تصدق بصدقة ، فقبلت منه بعث الله نارا فأكلتها ، وإن ردت عليه تركت ، فتأكلها السباع والطير ، وإن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم ، قال : رب فاجعلهم أمتى ، قال : تلك أُمة أحمد ، قال : رب إنى أجد فى الألواح أُمة ، إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة ، رب اجعلهم أُمتى ، قال : تلك أُمة أحمد ، قال : رب إنى أجد فى الألواح أُمة هم المشفَّعون ، والمشفوع لهم ، فاجعلهم أُمتى ، قال : تلك أُمة أحمد .

قال قتادة : فذكر لنا أن نبى الله موسى نبذ الألواح ، وقال : اللهم اجعلنى من أُمة محمد .

أقول : إن آثار الوضع والاختلاق بادية عليه ، والسند مطعون فيه ، وهى أمور مأخوذة من القرآن ، والأحاديث ، ثم صيغت هذه الصياغة الدقيقة ، وجعلت على لسان موسى ــ عليه السلام ــ والظاهر المتعين أن إلقاء سيدنا موسى بالألواح إنما كان غضباً وحمية لدين الله وغيرة لانتهاك حرمة توحيد الله ــ تبارك وتعالى ــ وأما ما ذكره قتادة فغير مُسلَّم .

وإليك ما قاله الإمام الحافظ الناقد ابن كثير فى تفسيره[1] قال : « ثم ظاهر السياق أنه ــ أى : سيدنا موسى ــ ألقى الألواح غضباً على قومه ، وهذا قول جمهور العلماء سلفا وخلفا ، وروى ابن جرير عن قتادة فى هذا قولاً غريباً ، لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة وقد رده ابن عطية ، وغير واحد من العلماء ، وهو جدير بالرد ، وكأنه تلقاه قتادة عن بعض أهل الكتاب ، وفيهم كذابون ، ووضاعون ، وأفاكون ، وزنادقة .

وصدق ابن كثير فيما قال ، وأُرجح أن يكون من وضع زنادقتهم كى يظهروا الأنبياء بمظهر المتحاسدين ، لا بمظهر الإخوان المتحابين .

وقال الإمام القرطبى عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ﴾ أى : مما اعتراه من الغضب والأسف ، حين أشرف على قومه ، وهم عاكفون على عبادة العجل ، وعلى أخيه فى إهمال أمرهم ، قاله سعيد بن جبير ولذا قيل : « ليس الخبر كالمعاينة » ، ولا التفات لما روى عن قتادة إن صح ، ولا يصح أن إلقاء الألواح إنما كان لما رأى من فضيلة أُمة محمد

(١) تفسير ابن كثير والبغوى ج ٣ ص ٧٥٥ .

ـ ﷺ ـ ولم يكن ذلك لأمته ، وهذا قول ردىءٌ لا ينبغى أن يضاف إلى موسى ـ عليه السلام ـ[1] .

ومما يؤيد أنه من وضع بعض الإسرائيليين الدهاة : أن نحوا من هذا المروى عن قتادة قد رواه الثعلبى وتلميذه البغوى عن كعب الأحبار ولا خلاف إلا فى تقديم بعض الفضائل وتأخير البعض الآخر ، إلا أنه لم يذكر إلقاء الألواح فى آخره :

« فلما عجب موسى من الخير الذى أعطى الله محمدا وأُمته قال : يا ليتنى من أصحاب محمد ، فأوحى الله إليه ثلاث آيات يرضيه بهن : ﴿ **يا مُوسَى إِنّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرسَالاَتِى وَبكَلاَمِى** ﴾ إلى قوله : ﴿ **دَارَ الفَاسِقِينَ** ﴾ : ﴿ **ومِن قَوْم مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق وبه يعْدلُون** ﴾[2] قال : فرضى موسى كل الرضاء .

* * *

(١٤) إسرائيليات وخرافات فى بنى إسرائيل

ومن الإسرائيليات والخرافات : ما ذكره بعض المفسرين ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَمِن قَوْم مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ، وَبِهِ يَعْدِلُونَ** ﴾[3] .

فقد ذكر ابن جرير فى تفسير[4] هذه الآية خبرا عجيبا ، فقال : حدثنا القاسم ، (قال) : حدثنا حجاج عن ابن جريج قوله : ﴿ **وَمِن قَوْم مُوسَى أُمةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ** ﴾ .

قال : بلغنى أن بنى إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم ، وكفروا ، وكانوا اثنى عشر سبطا ، تبرأ سبط منهم مما صنعوا ، واعتذروا وسألوا الله ـ عز وجل ـ أن يفرق بينهم ، وبينهم ، ففتح الله لهم نفقاً فى الأرض ، فساروا ، حتى خرجوا من وراء الصين ، فهم هنالك حنفاءُ مسلمون ، يستقبلون قبلتنا .

---

(١) تفسير القرطبى ج ٧ ص ٢٨٨ .
(٢) الأعراف ، الآيات : ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٩ .
(٣) الأعراف : ١٥٩ .
(٤) تفسير ابن جرير : ج ٨ .

قال ابن جريج ؛ قال ابن عباس : فذلك قوله : ﴿ **وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِى إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً** ﴾ .

ووعد الآخرة : عيسى ابن مريم .

قال ابن جريج : قال ابن عباس : ساروا فى السرب سنة ونصفا ، وقال ابن عيينة ، عن صدقة ، عن أبي الهذيل ، عن السدى : ﴿ **وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ** ﴾ قال : قوم بينكم وبينهم نهر من شهد وقد وصف ابن كثير ما رواه ابن جرير : بأنه خبر عجيب ! !

وقال البغوى فى تفسيره :[1] قال الكلبى ، والضحاك والربيع : هم قوم خلف الصين ، بأقصى الشرق ، على نهر مجرى الرمل ، يسمى : نهر أرداف ، ليس لأحد منهم مال دون صاحبه ، يمطرون بالليل ، ويصحون بالنهار ، ويزرعون لا يصل إليهم منا أحد ، وهم على دين الحق ، وذكر : أن جبريل ـ عليه السلام ـ ذهب بالنبى ـ ﷺ ـ ليلة أُسرى به إليهم ، فكلمهم ، فقال لهم جبريل : هل تعرفون من تكلمون ؟ قالوا : لا ، فقال لهم : هذا محمد : النبى الأُمى ، فآمنوا به ، فقالوا : يا رسول الله ، إن موسى أوصانا أن من أدرك منكم أحمد ، فليقرأ عليه منى السلام ، فرد النبى ـ ﷺ ـ على موسى وعليهم ، ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ، وأمرهم بالصلاة والزكاة ، وأمرهم أن يقيموا مكانهم ، وكانوا يسبتون[2] ، فأمرهم أن يُجْمِعُوا ، ويتركوا السبت ، وقيل : هم الذين أسلموا من اليهود فى زمن النبى ـ ﷺ ـ والأول أصح ! ! .

وهى من خرافات بنى إسرائيل ولا محالة ، والعجب من البغوى أن يجعل هذه الأكاذيب أصح من القول الآخر الذى هو أجدر بالقبول وأولى بالصحة ، ونحن لا نشك فى أن ابن جريج وغيره ممن رووا ذلك إنما أخذوه عن أهل الكتاب الذين أسلموا ، ولا يمكن أبدا أن يكون متلقى عن المعصوم ـ ﷺ ـ .

وقال الإمام الآلوسى بعد ذكر ما ذكرناه : « وضعف هذه الحكاية ابن الخازن ، وأنا

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوى ج ٣ ص ٥٧٢ ـ ٥٧٣ .
(٢) أى : يعظمون السبت كاليهود .

لا أراها شيئاً ، وأظنك لا تجد لها سندا يعول عليه ولو ابتغيت نفقاً فى الأرض ، أو سلما فى السماء »[١] .

التفسير الصحيح للآية :

والذى يترجح عندى : أن المراد بهم : أُناس من قوم موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ اهتدوا إلى الحق ، ودعوا الناس إليه ، وبالحق يعدلون فيما يعرض لهم من الأحكام والقضايا ، وأن هؤلاء الناس وجدوا فى عهد موسى ، وبعده ، بل وفى عهد نبينا ـ ﷺ ـ كعبد الله بن سلام وأضرابه ، وقد بيَّن الله ـ تبارك وتعالى ـ بهذا : أن اليهود وإن كانت الكثرة الكاثرة فيهم تجحد الحق وتنكره ، وتجور فى الأحكام ، وتعادى الأنبياء ، وتقتل بعضهم ، وتكذب البعض الآخر ، وفيهم من شكاسة الأخلاق والطباع ، ما فيهم ، فهنالك أُمة كثيرة منهم : يهدون بالحق ، وبه يعدلون ، فهم لا يتأبون عن الحق ، ففيه شهادة وتزكية لهؤلاء ، وتعريض بالكثرة الغالبة منهم ، التى ليست كذلك ، والتى جحدت نبوة نبينا محمد ـ ﷺ ـ فيمن جحدها من طوائف البشر ، وناصبته العداوة والبغضاء ، وهو ما يُشْعِرُ به قوله سبحانه قَبْلُ : ﴿ **قُلْ يَأَيُّهَا النَّاس إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيكُمْ جَمِيعاً الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ لاَ إِلَه إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ فَآمِنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِى الأُمِّىِّ الَّذى يُؤْمِنُ باللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعوهُ لَعَلَّكُمْ تَهتَدُونَ** ﴾ ، وبذلك : تظهر المناسبة بين هذه الآية والتى قبلها مباشرة ، والآيات التى قبل ذلك .

أما ما ذكروه : فليس هناك ما يشهد له من عقل ، ولا نقل صحيح ، بل هو يخالف الواقع الملموس ، والمشاهد المتيقن ، وقد أصبحت الصين وما وراءها معلوما كل شبر فيها ، فأين هم ؟ ، ثم ما هذا النهر من الشهد ؟ ! وما هذا النهر من الرمل ؟ ! وأين هما ؟ ! ثم أى فائدة تعود على الإسلام والمسلمين من التمسك بهذه الروايات التى لا خطام لها ، ولا زمام ؟ ! ، وماذا يكون موقف الداعية إلى الإسلام فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، إذا انتصر لمثل هذه المرويات الخرافية الباطلة ؟ ! ، إن هذه الروايات لو صحت أسانيدها لكان لها بسبب مخالفتها للمعقول ، والمشاهد الملموس ما يجعلنا فى حل من عدم

---

(١) تفسير الآلوسى : ج ٩ ص ٨٤ ، ٨٥ .

قبولها فكيف وأسانيدها ضعيفة واهية ؟! وقد قلت غير مرة : إن كونها صحيحة السند فرضا لا ينافى كونها من الإسرائيليات .

* * *

(١٥) الإسرائيليات فى نسبة الشرك إلى آدم وحواء

ومن الروايات التى لا تصح ، ومرجعها إلى الإسرائيليات : ما ذكره بعض المفسرين عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الذِى خلقكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها[١] فلما تغشَّاها[٢] حملَتْ حَمْلاً خفِيفاً فمرَّتْ بِهِ ، فَلمَّا أَثْقَلَت دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لئِنْ آتَيْتَنا صَالحاً لَّنكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا آتاهُمَا صَالِحاً جعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتاهُمَا فَتعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾[٣] .

وهذه الآية تعتبر من أشكل آيات القرآن الكريم ، لأن ظاهرها يدل على نسبة الشرك لآدم وحواء ، وذلك على ما ذهب إليه جمهور المفسرين : من أن المراد بالنفس الواحدة : نفس آدم ــ عليه السلام ــ وبقوله : ﴿ **وخلق منها زوجها** ﴾ حواء ــ رضى الله عنها ــ وقد أوّل العلماءُ المحققون الآية تأويلا يتفق وعصمة الأنبياء فى عدم جواز إسناد الشرك الشرك إليهم ــ عليهم الصلاة والسلام ــ كما سنبين ذلك إن شاء الله .

الحديث المرفوع ، والآثار الواردة فى هذا :

وقد زاد الطين بلة : ما ورد من الحديث المرفوع ، وبعض الآثار عن بعض الصحابة والتابعين ، فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِما آتاهُمَا فَتعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُون** ﴾ .

وقد اغتر بهذه الروايات كثير من المفسرين ، كابن جرير[٤] ، والثعلبى ، والبغوى[٥]

---

(١) ليجد فيها سكن النفس وطمأنينة القلب .

(٢) أى : باشرها كما باشر الرجل زوجته .

(٣) الأعراف : ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٤) تفسير ابن جرير عند تفسير هذه الآية .

(٥) تفسير البغوى على هامش تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٦١١ ، ٦١٢ .

والقرطبي[1]، وإن كان ضعف الروايات، ولم تركن نفسه إليها، واعتبرها من الإسرائيليات، وصاحب «الدر المنثور»[2].

والعجيب: أن إماماً كبيراً له فى رد الموضوعات والإسرائيليات فضل غير منكور، ومفسرا متأخرا وهو: الإمام الآلوسى قد انخدع بهذه المرويات، فقال: «وهذه الآية عندى من المشكلات، وللعلماء فيها كلام طويل، ونزاع عريض، وما ذكرناه: هو الذى يشير إليه الجبائى، وهو مما لا بأس به بعد إغضاء العين عن مخالفته للمرويات .. ثم قال: «وقد يقال: أخرج ابن جرير عن الحبر: أن الآية نزلت فى تسمية آدم، وحواء ولديهما بعبد الحارث، ومثل ذلك لا يكاد يقال من قبل الرأى، وهو ظاهر فى كون الخبر تفسيرا للآية .... وأنت قد علمت أنه إذا صح الحديث فهو مذهبى، وأراه قد صح، ولذلك أحجم كميت قلمى عن الجرى، فى ميدان التأويل، كما جرى غيره والله تعالى الموفق للصواب[3]».

وبعض المفسرين أعرض عن ذكر هذه المرويات، وذلك كما صنع صاحب الكشاف، وتابعه النسفى.

وبعض المفسرين عرض لها، ثم بين عدم ارتضائه لها، وذلك كما صنع الإمام القرطبى فى تفسيره، فقال: «ونحو هذا مذكور فى ضعيف الحديث، وفى الترمذى وغيره، وفى الإسرائيليات كثير ليس لها إثبات، فلا يعول عليها من له قلب، فإن آدم وحواء، وإن غرهما بالله الغرور، فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، على أنه قد سطر، وكتب، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ:

«خدعها مرتين، خدعها فى الجنة، وخدعها فى الأرض»[4]

---

(١) تفسير القرطبى ج ٧ ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩.
(٢) الدر المنثور عند تفسير هذه الآية.
(٣) تفسير الآلوسى: ج ٩ ص ١٣٩، ١٤٢.
(٤) تفسير القرطبى: ج ٧ ص ٣٣٨.

فارس الحلبة الإمام ابن كثير :

ولكن فارس هذه الحلبة هو : الإمام ابن كثير ، فقد نقد المرويات نقدا علمياً أصيلاً ، على مناهج المحدثين وطريقتهم فى نقد الرواة وبين أصل هذه المرويات ، وأن مرجعها إلى الإسرائيليات ، وإنى لأعجب كيف أن الإمام الآلوسى ، وهو المتأخر الباقعة[١] ، لم يشر إلى كلامه ! ! لعله لم يطلع عليه .

وسأذكر كلام الإمام ابن كثير بنصه ، وبطوله لنفاسته ، وشدة الحاجة إليه فى هذا المقام ، قال رحمه الله وأثابه :

يذكر المفسرون ههنا آثارا ، وأحاديث ، سأوردها وأبين ما فيها ، ثم نتبع ذلك ببيان الصحيح فى ذلك ـ إن شاء الله ـ وبه الثقة .

قال الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا عبد الصمد (قال)[٢] حدثنا عمر بن إبراهيم ، (قال) : حدثنا قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة عن النبى ـ ﷺ ـ قال :

« **ولما ولدت حواءُ طاف بها إبليس ، وكان لا يعيش لها ولد ، فقال : سميه عبد الحارث ، فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث ، فعاش ، وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره** » ، وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار بندار ، عن عبد الصمد بن عبد الوارث به[٣] ، ورواه الترمذى فى تفسير هذه الآية ، عن محمد بن المثنى ، عن عبد الصمد ، به ، وقال : هذا حديث حسن غريب ـ يعنى انفرد به راويه ـ لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ، ولم يرفعه ، يعنى : لم ينسبه إلى النبى ـ ﷺ ـ .

ورواه الحاكم فى مستدركه ، من حديث عبد الصمد مرفوعاً ، ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد[٤] ، ولم يخرجاه ، ورواه الإمام أبو محمد ، ابن أبى حاتم ، فى تفسيره ،

---

(١) الذكى العارف الذى لا يفوته شيء كما فى القاموس .

(٢) جرت عادة المحدثين أن يحذفوا من الأسانيد لفظ (قال) خطاً ، ولكنهم ينطقون بها عند الرواية وقد ذكرتها خطاً حتى لا يشكل الأمر على قارىء السند .

(٣) يعنى ببقية السند المذكور أولاً .

(٤) من المعروف عند المحدثين أن الحاكم متساهل فى التصحيح ، فلا يؤخذ بقوله ولا سيما فى مثل هذا .

عن أبي زرعة الرازى ، عن هلال بن فياض ، عن عمر بن إبراهيم به ـ أى : ببقية السند ـ مرفوعاً وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه ، فى تفسيره ، من حديث شاذ ابن فياض ، عن عمر بن إبراهيم مرفوعاً .

قلت : ـ أى ابن كثير ـ وشاذ هو : هلال ، وشاذ لقبه .

والغرض : أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه :

« أحدها » : أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصرى ، وقد وثقه ابن معين ، وقال أبو حاتم الرازى : لا يحتج به ، ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر ، عن أبيه ، عن الحسن ، عن سمرة مرفوعاً ، فالله أعلم .

« الثانى » : أنه قد روى من قول سمرة نفسه ، ليس مرفوعاً ، كما قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، (قال) : حدثنا المعتمر عن أبيه ، (قال) : حدثنا بكر بن عبد الله ، عن سليمان التيمى ، عن أبي العلاء بن الشخير عن سمرة بن جندب ، قال : « سمى آدم ابنه عبد الحارث » .

« والثالث » : أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا ، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه ، قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع (قال) : حدثنا سهل بن يوسف ، عن عمرو ، عن الحسن : ﴿ **جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا** ﴾ ، قال : كان هذا فى بعض أهل الملل ، ولم يكن بآدم ، وحدثنا[1] محمد بن عبد الأعلى : (قال) : حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر قال : قال الحسن : عنى بها ذرية آدم ، ومن أشرك منهم بعده ، يعنى : ﴿ **جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا** ﴾ وحدثنا[2] بشر (قال) : حدثنا يزيد ، (قال) : حدثنا سعيد عن قتادة ، قال : كان الحسن يقول : هم اليهود والنصارى ، رزقهم الله أولادا ، فهوَّدوا ونصَّروا[3] .

وقال ابن كثير : وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن ـ رضى الله عنه ـ أنه فسر الآية

---

(١) ، (٢) القائل : وحدثنا هو ابن جرير .

(٣) فيه إشارة إلى قوله ـ ﷺ ـ « **ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجسانه** » رواه البخارى ومسلم ، وما روى عن الحسن ـ رضى الله عنه ـ ليس اختلاف تضاد وإنما هو اختلاف تغاير فى اللفظ ، والمدلول واحد أو متقارب .

بذلك ، وهو من أحسن التفاسير ، وأولى ما حملت عليه الآية ، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ـ ﷺ ـ لما عدل عنه هو ، ولا غيره ، ولا سيما مع تقواه لله ، وورعه .

فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابى ، ويحتمل : أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب : من آمن منهم مثل كعب ، أو وهب بن منبه وغيرهما ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله ، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع ، والله أعلم(١) .

فأما الآثار : فقال محمد بن إسحاق بن يسار ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : «كانت حواءُ تلد لآدم ـ عليه السلام ـ أولاداً فيُعَبِّدهم لله ، ويسميهم عبد الله ، وعبيد الله ونحو ذلك ، فيصيبهم الموت ، فأتاهما إبليس ، فقال : إنكما لو سميتماه بغير الذى تسميانه به لعاش ، قال : فولدت له رجلا ، فسماه عبد الحارث ، ففيه أنزل الله يقول : ﴿ **هُوَ الذِى خَلَقَكُم مِن نَفْس وَاحِدَة** ... ﴾ إلى آخر الآية ، وقال العوفى عن ابن عباس : قوله فى آدم : ﴿ **هُوَ الَّذى خَلَقَكُم مِن نَفْس وَاحِدَة** ﴾ ، إلى قوله : ﴿ **فَمرَّتْ بِهِ** ﴾ : شكَّت أحملت أم لا ؟ ﴿ **فَلَمَّا أَثْقَلَت دَعَوا اللهَ رَبَّهمَا** ... ﴾ الآية ، فأتاهما الشيطان ، فقال : هل تدريان ما يولد لكما ؟ أم هل تدريان ما يكون : أبهيمة ، أم لا ؟ ، وزيّن لهما الباطل ، إنه غوى مبين ، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين ، فماتا ، فقال لهما الشيطان : إنكما إن لم تسمياه بى ، لم يخرج سوياً ، ومات كما مات الأول ، فسميا ولدهما عبد الحارث ، فذلك قوله : ﴿ **فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا** ... ﴾ الآية .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن شريك ، عن خصيف ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا** ﴾ قال الله تعالى : ﴿ **فَلَمَا تَغَشَّاها** ﴾ : آدم (حملت) ، أتاهما إبليس ـ لعنه الله ـ فقال : إنى صاحبكما الذى أخرجتكما ، لتطيعانى ، أو لأجعلن له قرنى أيل(٢) ، فيخرج من بطنك ،

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوى : ج ٣ ص ٦١١ ، ٦١٢ .
(٢) الأيل ـ بضم الهمزة وكسرها ، والياء فيها مشددة مفتوحة : ذكر الأوعال ، وهو التيس الجبلى ، المصباح المنير .

فيشقه ، ولأفعلن ، ولأفعلن ، يخوفها ، فَسَمِّيَاهُ [1] عبد الحارث فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتا ، ثم حملت ، يعنى الثانية فأتاهما ، فقال لهما مثل الأول ، فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتاً ، ثم حملت الثالثة ، فأتاهما أيضاً فذكر لهما ، فأدركهما حب الولد ، فسمياه عبد الحارث ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا** ﴾ رواه ابن أبي حاتم .

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كمجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومن الطبقة الثانية : قتادة ، والسدى ، وغير واحد من السلف ، وجماعة من الخلف ، ومن المفسرين من المتأخرين : جماعات لا يحصون كثرة ، وكأنه ــ والله أعلم ــ مأخوذ من أهل الكتاب ؛ فإن ابن عباس رواه عن أُبى بن كعب [2] ، كما رواه ابن أبى حاتم ، قال : حدثنا أَبى ، (قال) : حدثنا أبو الجماهر ، (قال) : حدثنا سعيد ــ يعنى ابن بشير عن عقبة ، عن قتادة ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن أُبى بن كعب [3] ، قال :

لما حملت حواءُ أتاها الشيطان ، فقال لها : أتطيعينى ويسلم لك ولدك ؟ سميه عبد الحارث ، فلم تفعل فولدت ، فمات ، ثم حملت ، فقال لها مثل ذلك ، فلم تفعل ، ثم حملت الثالثة ، فجاءها فقال : إن تطيعينى يسلم ، وإلا فإنه يكون بهيمة ، فهيبها ، فأطاعا .

قال : وهذه الآثار يظهر عليها ــ والله أعلم ــ أنها من آثار أهل الكتاب ... ، وبعد أن بين أن أخبار أهل الكتاب على ثلاثة أقسام :

(١) فمنها ما علمنا صحته مما بأيدينا من كتاب أو سنة .

(٢) ومنها : ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً .

(٣) ومنها : ما هو مسكوت عنه ، فهو المأذون فى روايته بقوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ : « حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » ، وهو الذى لا يصدق ، ولا يكذب ،

---

(١) بصيغة الأمر .

(٢) وعلى هذا فلا يكون له حكم الرفع لأنه سمعه من صحابى مثله .

(٣) ويكون أبى قد سمعه من بعض مسلمة أهل الكتاب .

قال : وهذا الأَثر من الثانى أو الثالث فيه نظر[1] .

قال : فأما من حدث به : من صحابى أو تابعى ، فإنه يراه من القسم الثالث ـ يعنى : ما يحتمل الصدق ، والكذب ـ وأما نحن : فعلى مذهب الحسن البصرى فى هذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق : آدم ، وحواء وإنما المراد من ذلك : المشركون من ذريته ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**[2] ﴾ فذكر آدم وحواء أولا كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين ، وهو كالاستطراد من الشخص إلى الجنس . وهذا الذى ذهب إليه هذا الإمام الحافظ الناقد ابن كثير فى تخريج الحديث والآثار هو الذى يجب أن يصار إليه ، وهو الذى ندين الله عليه ، ولا سيما أن التفسير الحق للآيتين لا يتوقف على شىء مما روى .

التفسير الصحيح للآيتين :

والمحققون من المفسرين : منهم من نحا منحى العلامة ابن كثير فجعل الآية الأُولى فى آدم وحواء ، وجعل قوله : ﴿ **فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا** ... ﴾ الآية فى المشركين من ذريتهما ، أى : جعلا أولادهما شركاء لله فيما أتاهما ، والمراد بهم : الجنس ، أى : جنس الذكر والأُنثى ، فمن ثم : حسن قوله : ﴿ **فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ بالجمع ، ويكون هذا الكلام من الموصول لفظا المفصول معنى ، ومنهم من جعل الآيتين فى ذرية آدم وحواء ، أى : خلقكم من نفس واحدة ، وهى نفس الذكر ، وجعل منها ، أى : من جنسها : زوجها وهى : الأُنثى ، فلما آتاهما صالحاً ، أى : بشراً سويًّا كاملا ، جعلا أى الزوجان الكافران لله شركاء فيما آتاهما ، وبذلك : أبدلا شكر الله كفراناً به وجحوداً ، وعلى هذا : لا يكون لآدم وحواء ذكر ما فى الآيتين ، وهنالك تفاسير أُخرى ، لست منها على ثلج ، ولا طمأنينة[3] .

* * *

(١) هكذا فى النسخة المطبوعة ، ولعلها « وفيه نظر » أى : فى كونه من القسم الثالث ، والذى أقطع به ـ والله أعلم ـ أنه من القسم الثانى لقيام الأدلة العقلية والنقلية على عصمة الأنبياء من مثل ذلك .

(٢) تفسير ابن كثير والبغوى : ج ٣ ص ٦١٣ ، ٦١٤ ط المنار .

(٣) انظر تفاسير الكشاف ، والقرطبى ، وأبى السعود والآلوسى وغيرها .

(١٦) الإسرائيليات فى سفينة نوح

ومن الإسرائيليات التى اشتملت عليها بعض كتب التفسير ، كتفسير ابن جرير ، و « الدر المنثور » ، وغيرهما : ما روى فى سفينة نوح ـ عليه السلام ـ فقد أحاطوها بهالة من العجائب والغرائب ، من أى خشب صنعت ؟ وما طولها ؟ وما عرضها ؟ ، وما ارتفاعها ؟ ، وكيف كانت طبقاتها ؟ ، وذكروا خرافات فى خلقة بعض الحيوانات من الأخرى ، وقد بلغ ببعض الرواة أنهم نسبوا بعض هذا إلى النبى ـ ﷺ ـ قال صاحب الدر : وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **كانت سفينة نوح ـ عليه السلام ـ لها أجنحة ، وتحت الأجنحة إيوان** » ، أقول : قبح الله من نسب مثل هذا إلى النبى ـ ﷺ ـ .

وأخرج ابن مردويه : عن سمرة بن جندب ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم** » وذكر : أن طول السفينة كان ثلاثمائة ذراع ، وعرضها خمسون ذراعاً ، وطولها فى السماء ثلاثون ذراعاً ، وبابها فى عرضها ، ثم ذكر عن ابن عباس مثل ذلك : فى طولها ، وارتفاعها[1] ، ثم قال : وأخرج إسحاق بن بشر ، وابن عساكر ، عن ابن عباس : « أن نوحاً لما أُمر أن يصنع الفلك ، قال : يارب ، وأين الخشب ؟ ، قال : اغرس الشجر ، فغرس الساج عشرين سنة ... إلى أن قال : فجعل السفينة ستمائة ذراع طولها ، وستين ذراعاً فى الأرض ـ يعنى عمقها ـ ، وعرضها ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون[2] وأُمر أن يطليها بالقار[3] ، ولم يكن فى الأرض قار ، ففجر الله له عين القار ، حيث تنحت السفينة ، تغلى غلياناً ، حتى طلاها ، فلما فرغ منها جعل لها ثلاثة أبواب ، وأطبقها ، وحمل فيها السباع ، والدواب ، فألقى الله على الأسد الحمى ، وشغله بنفسه عن الدواب ، وجعل الوحش والطير فى الباب الثانى ، ثم أطبق عليهما ...

---

(١) هذا أمارة على أن ذلك من رواية ابن عباس عن أهل الكتاب ، وأن من رفعهإلى النبى ـ ﷺ ـ فقد غلط .

(٢) لا ندرى بأى رواية نصدق ، أبرواية ابن عباس هذه ، أم بالسابقة ، وهذا الاضطراب أمارة الاختلاق ممن وضعوها أولا ، وحملها عنهم ابن عباس وغيره .

(٣) فى القاموس : القير ، والقار : شىء أسود تطلى به الإبل ، أو هو : الزفت .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن الحسن ، قال : «كان طول سفينة نوح ــ عليه السلام ــ ألف ذراع ومائتى ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع » وإليك ما ذكره بعد هذا من العجب العجاب ، قال :

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال : قال الحواريون لعيسى ابن مريم ــ عليهما السلام ــ لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة ، فحدثنا عنها ، فانطلق بهم ، حتى انتهى إلى كثيب من تراب فأخذ كفاً من ذلك التراب ، قال : أتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا كعب حام بن نوح ، فضرب الكثيب بعصاه ، قال : قم بإذن الله ــ فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه ، قد شاب ، قال له عيسى ــ عليه السلام ــ : هكذا هلكت ؟! ، قال : لا ، مت وأنا شاب ، ولكننى ظننت أنها الساعة قامت ، فمن ثم شبت ، قال : حدثنا عن سفينة نوح ، قال : كان طولها ألف ذراع ، ومائتى ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، كانت ثلاث طبقات ، فطبقة فيها الدواب ، والوحش ، وطبقة فيها الإنس ، وطبقة فيها الطير ، فلما كثر أرواث الدواب : أوحى الله إلى نوح : أن اغمز ذنب الفيل ، فغمزه ، فوقع منه خنزير وخنزيرة !! ، فأقبلا على الروث ، فلما وقع الفأر يخرب السفينة بقرضه أوحى الله إلى نوح : أن اضرب بين عينى الأسد ، فخرج من منخره سنور ، وسنورة ، فأقبلا على الفأر فأكلاه .

وفى رواية أخرى : أن الأسد عطس ، فخرج من منخره سنوران : ذكر وأنثى ، فأكلا الفأر ، وأن الفيل عطس ، فخرج من منخره خنزيران ، ذكر وأنثى فأكلا أذى السفينة ، وأنه لما أراد الحمار أن يدخل السفينة أخذ نوح بأذنى الحمار ، وأخذ إبليس بذنبه ، فجعل نوح ــ عليه السلام ــ يجذبه ، وجعل إبليس يجذبه ، فقال نوح : ادخل شيطان ــ ويريد به الحمار ــ فدخل الحمار ، ودخل معه إبليس ، فلما سارت السفينة جلس إبليس فى أذنابها يتغنى ، فقال له نوح ــ عليه السلام ــ : ويلك من أذن لك ؟! ، قال : أنت !! قال : متى ؟! ، قال : أن قلت للحمار ادخل يا شيطان ، فدخلت بإذنك ..

وزعموا أيضاً : أن الماعز لما استصعبت على نوح أن تدخل السفينة فدفعها فى ذنبها ، فمن ثم انكسر ، وبدا حياها ، ومضت النعجة فدخلت من غير معاكسة ، فمسح على ذنبها ، فستر الله حياها ــ يعنى فرجها ــ وزعموا أيضا : أن سفينة نوح ــ عليه السلام ــ

طافت بالبيت أُسبوعا بل رووا عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي - ﷺ - : « إن سفينة نوح طافت بالبيت سبعاً ، وصلت عند المقام ركعتين » ! !

وهذا من تفاهات عبد الرحمن هذا ، وقد ثبت عنه من طريق أخرى ، نقلها صاحب التهذيب (ج ٦ ص ١٧٩) عن الساجي ، عن الربيع ، عن الشافعي ، قال : « قيل لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : حدثك أبوك عن جدك : أن رسول الله - ﷺ - قال : « **إن سفينة نوح طافت بالبيت ، وصلت خلف المقام ركعتين** ؟ » ! ! ، قال : نعم ، وقد عرف عبد الرحمن بمثل هذه العجائب المخالفة للعقل ، وتندر به العلماء ، قال الشافعي فيما نقل في التهذيب أيضاً : « ذكر رجل لمالك حديثاً منقطعاً ، فقال : اذهب إلى عبد الرحمن بن زيد يحدثك عن أبيه ، عن نوح » ! ! !

وأن لما رست السفينة على الجودى وكان يوم عاشوراء صام نوح ، وأمر جميع من معه من الوحش والدواب فصاموا شكراً لله ، إلى غير ذلك من التخريفات والأباطيل [1] التي لا نزال نسمعها ، وأمثالها من العوام والعجائز ، وهذا لا يمكن أن يمت إلى الإسلام بصلة ، وإنا لننزه المعصوم - ﷺ - من أن يصدر عنه ما نسبوه إليه ، وإنما هي أحاديث خرافة اختلقها اليهود وأضرابهم على توالى العصور ، وكانت شائعة مشهورة في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام نشرها أهل الكتاب الذين أسلموا بين المسلمين ، وهؤلاء رووها بحسن نية ، ولم يزيفوها اعتمادا على أنها ظاهرة البطلان ، وأوغل زنادقة اليهود وأمثالهم في الكيد للإسلام ونبيه ، فزوروا بعضها على النبي - ﷺ - وما كنا نحب لابن جرير ، ولا للسيوطي ، ولا لغيرهما أن يسودوا صحائف كتبهم بهذه الخرافات والأباطيل ، فاحذر منها أيها القارىء في أى كتاب من كتب التفسير وجدتها ، وألق بها دبر أذنيك ، وكن عن الحق منافحاً وللباطل مزيفاً .

* * *

---

(١) تفسير ابن جرير الطبرى : ج ١٢ من ص ٢١ - ٢٩ ، الدر المنثور : ج ٣ من ص ٣٢٧ - ٣٣٥ .

(١٧) الإسرائيليات فى قصة يوسف ـ عليه السلام ـ

وقد وردت فى قصة يوسف ـ عليه السلام ـ إسرائيليات ومرويات مختلقة مكذوبة ، فمن ذلك : ما أخرجه ابن جرير فى تفسيره ، والسيوطى فى : « الدر المنثور » وغيرهما فى قوله تعالى : ﴿ **إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ** ﴾ (يوسف : الآية ٤) .

قال السيوطى : وأخرج سعيد بن منصور ، والبزار ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والعقيلى فى الضعفاء ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه[١] ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقى معاً فى الدلائل عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ قال :

« جاء بستانى اليهودى إلى النبى ـ ﷺ ـ فقال : يا محمد أخبرنى عن الكواكب التى رآها يوسف ـ عليه السلام ـ ساجدة له ، ما أسماؤها ؟ فسكت النبى ـ ﷺ ـ فلم يجبه بشىءٍ ، فنزل جبريل ـ عليه السلام ـ فأخبره بأسمائها ، فبعث رسول الله ـ ﷺ ـ إلى البستانى اليهودى ، فقال : « هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها ؟ قال : نعم : قال : حرثان ، والطارق ، والذيال ، وذو الكفتان ، وقابس ، ودنان ، وهودان ، والفيلق ، والمصبح ، والضروح ، والفريخ ، والضياءُ ، والنور[٢] ، رآها فى أفق السماء ساجدة له ، فلما قص يوسف على يعقوب ، قال : هذا أمر مشتت يجمعه الله من بعد » ، فقال اليهودى : إى والله إنها لأسماؤها[٣] .

والذى يظهر لى : أنه من الإسرائيليات ، وأُلصقت بالنبى زورا ثم إن سيدنا يوسف رأى كواكب بصورها لا بأسمائها ، ثم ما دخل الاسم فيما ترمز إليه الرؤيا ؟ ! !

ومدار هذه الرواية على الحكم بن ظهير ، وقد ضعفه الأئمة ، وتركه الأكثرون ، وقال

---

(١) تصحيح الحاكم غير معتد به إلا إذا وافقه غيره .

(٢) فى تفسير ابن جرير : جربان بدل حرثان ، ووثاب بدل دنان ، وعمودان بدل هودان ، والفليق بدل الفيلق ، وذو الفرغ بدل الفريخ ، وأيضا فعدتها ثلاثة عشر لا أحد عشر .

(٣) تفسير ابن جرير : ج ١٢ ص ٩٠ ، ٩١ الدر المنثور : ج ٤ ص ٤ .

الجوزجانى : « ساقط ، وهو صاحب حديث حسن يوسف[1] » .

وقال الإمام الذهبى فى : « ميزان الاعتدال[2] » : قال ابن معين : ليس بثقة ، وقال مرة : ليس بشئ ، وقال البخارى : منكر الحديث وقال مرة : تركوه ، وهو راوى حديث : « إذا رأيتم معاوية على منبرى فاقتلوه » ! ! فهل مثل هذا تعتبر روايته فى مثل هذا ، وبحسبه سقوطاً مقالة البخارى فيه : « منكر الحديث » و « تركوه » .

* * *

(١٨) الإسرائيليات فى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَن رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾

ومن الإسرائيليات المكذوبة التى لا توافق عقلا ولا نقلا : ما ذكر ابن جرير فى تفسيره ، وصاحب : « الدر المنثور » وغيرهما من المفسرين فى قوله تعالى : ﴿ **ولقد همت به . وهم بها لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ فقد ذكروا فى همٍّ يوسف عليه ـ الصلاة والسلام ـ ما ينافى عصمة الأنبياء وما يخجل القلم من تسطيره ، لولا أن المقام مقام بيان وتحذير من الكذب على الله وعلى رسله ، وهو من أوجب الواجبات على أهل العلم .

فقد رووا عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه سئل عن هم يوسف ـ عليه السلام ـ ما بلغ ؟ قال : حل الهميان ـ يعنى السراويل ـ وجلس منها مجلس الخائن ، فصيح به : يا يوسف : لا تكن كالطير له ريش ، فإذا زنى قعد ليس له ريش ، ورووا مثل هذا عن على ـ رضى الله عنه ـ وعن مجاهد وعن سعيد بن جبير .

ورووا أيضاً فى البرهان الذى رآه ، ولولاه لوقع فى الفاحشة بأنه نودى : أنت مكتوب فى الأنبياء ، وتعمل عمل السفهاء وقيل : رأى صورة أبيه يعقوب فى الحائط ، وقيل : فى سقف الحجرة وأنه رآه عاضا على إبهامه ، وأنه لم يتعظ بالنداء ، حتى رأى أباه على هذه الحال ، بل أسرف واضعو هذه الإسرائيليات الباطلة ، فزعموا : أنه لما لم يَرْعَوِ من رؤية

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوى : ج ٤ ص ٤١٤ ، ٤١٥ .

(٢) ميزان الاعتدال ج ١ ص ٢٦٨ ط السعادة .

صورة أبيه عاضا على أصابعه ، ضربه أبوه يعقوب ، فخرجت شهوته من أنامله ، ولأجل أن يؤيد هؤلاء الذين افتروا على الله ونبيه يوسف هذا الافتراء ، يزعمون أيضاً : أن كل أبناء يعقوب قد ولد له اثنا عشر ولدا ما عدا يوسف ، فإنه نقص بتلك الشهوة التى خرجت من أنامله ولدا ، فلم يولد له غير أحد عشر ولدا ، بل زعموا أيضاً فى تفسير البرهان ، فيما روى عن ابن عباس : أنه رأى ثلاث آيات من كتاب الله : قوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ** ﴾ وقيل : رأى : ﴿ **وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً** ﴾ ! ! ، ومن البديهى أن هذه الآيات بهذا اللفظ العربى لم تنزل على أحد قبل نبينا محمد ـ ﷺ ـ وإن كان الذين افتروا هذا لا يعدمون جواباً ، بأن يقولوا : رأى ما يدل على معانى هذا الآيات بلغتهم التى يعرفونها ، بل قيل فى البرهان : إنه أرى تمثال الملك ، وهو العزيز ، وقيل خياله[1] ، وكل ذلك مرجعه إلى أخبار بنى إسرائيل وأكاذيبهم التى افتجروها على الله ،وعلى رسله ، وحمله إلى بعض الصحابة والتابعين : كعب الأحبار ووهب بن منبه ، وأمثالها .

وليس أدل على هذا : مما روى عن وهب بن منبه قال : « لما خلا يوسف ، وامرأة العزيز ، خرجت كف بلا جسد بينهما ، مكتوب عليها بالعبرانية : ﴿ **أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَت** ﴾ ، ثم انصرفت الكف ، وقاما مقامها ، ثم رجعت الكف بينهما ، مكتوب عليها بالعبرانية ﴿ **إن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون** ﴾ ، ثم انصرفت الكف ، وقاما مقامها ، فعادت الكف الثالثة مكتوب عليها : ﴿ **وَلَا تَقرَبوا الزِّنَا إِنَّه كَانَ فَاحِشَةً ، وَسَاءَ سَبِيلاً** ﴾ وانصرفت الكف ، وقاما مقامها فعادت الكف الرابعة مكتوب عليها بالعبرانية : ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسبت وَهُمْ لاَ يُظْلَمونَ** ﴾ ، فولى يوسف ـ عليه السلام ـ هارباً[2] .

---

(١) تفسير الطبرى : ج ١٢ ص ١٠٨ ـ ١١٤ ، الدر المنثور : ج ٤ ص ١٣ ، ١٤ ، وتفسير ابن كثير والبغوى : ج ٤ ص ٤٣٠ ـ ٤٣٢ .

(٢) الدر المنثور : ج ٤ ص ١٤ .

وقد كان وهب أو من نقل عنه وهب ذكياً بارعاً حينما زعم أن ذلك كان مكتوباً بالعبرانية ، وبذلك : أجاب عما استشكلته ، ولكن مع هذا : لن يجوز هذا الكذب إلا على الأغرار والسذج من أهل العلم ولا أدرى أى معنى يبقى للعصمة بعد أن جلس بين فخذيها ، وخلع سرواله ؟ ! وما امتناعه عن الزنا على مروياتهم المفتراة : إلا وهو مقهور مغلوب ؟ !

ولو أن عربيدا رأى صورة أبيه بعد مماته تحذره من معصية لكف عنها ، وانزجر ، فأى فضل ليوسف إذاً ، وهو نبى من سلالة أنبياءٍ ؟ ! !

بل أى فضل له فى عدم مقارفته الفاحشة بعد ما خرجت شهوته من أنامل قدميه ؟ ! وما امتناعه حينئذ إلا قسرى جبرى ! !

ثم ما هذا الاضطراب الفاحش فى الروايات ؟ ! أليس الاضطراب الذى لا يمكن التوفيق بينه كهذا من العلل التى رد المحدثون بسببها الكثير من المرويات ؟ ! لأنه أمارة من أمارات الكذب والاختلاق ، والباطل لجلج ، وأما الحق فهو أبلج .

ثم كيف يتفق ما حيك حول نبى الله يوسف ــ عليه الصلاة والسلام ــ وقول الحق ــ تبارك ــ عقب ذكر الهمّ : ﴿ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْه السُّوءَ والْفَحْشَاءَ إِنَّه مِنْ عِبَادِنَا الْمخْلَصِينَ**[1] ﴾ ، فهل يستحق هذا الثناء من حل التكة ، وخلع السروال ، وجلس بين رجليها ؟ ! ولا أدرى أنصدق الله : تبارك وتعالى ، أم نصدق كذبة بنى إسرائيل ومخرفيهم ؟ ! !

بل كيف يتفق ما روى هو وما حكاه الله ــ عز وجل ــ عن زليخا بطلة المراودة ، حيث قالت : ﴿ **أَنَا راوَدتُّهُ عَن نَفْسِهِ ، وإِنَّه لَمِنَ الصَّـٰدِقِينَ**[2] ﴾ وهو اعتراف صريح من البطلة التى أعيتها الحيل عن طريق التزين حيناً ، والتودد إليه بمعسول القول ، حيناً آخر ،

---

(١) قرىء فى السبع بضم الميم وفتح اللام ؛ أى : الذين اصطفاهم واختارهم لنبوته ورسالته ، وقرىء بكسر اللام أى .. الذين أخلصوا لله التوحيد والعبادة ، والمعنى الثانى لازم للأول ، فمن اصطفاه الله لابد أن يكون مخلصا .

(٢) يوسف : ٥١ .

والإرهاب والتخويف حيناً ثالثاً ، فلم تفلح : ﴿ **لَئِن لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ**[1] ﴾ .

وانظر ماذا كان جواب السيد العفيف ، الكريم ابن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم : يوسف بن يعقوب ، بن إسحاق ، ابن إبراهيم ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ : ﴿ **قَالَ : رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِنَ الجاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّه هُوَ السَمِيعَ الْعَلِيمُ**[2] ﴾ وقصده ـ عليه السلام ـ بقوله : ﴿ **وَإلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ** .. ﴾ : تبرؤ من الحول والطول ، وأن الحول والقوة إنما هما من الله ، وسؤال منه لربه ، واستعانة به على أن يصرف عنه كيدهن ، وهكذا : شأن الأنبياء .

بل قد شهد الشيطان نفسه ليوسف ـ عليه السلام ـ فى ضمن قوله : كما حكاه الله سبحانه عنه بقوله : ﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**[3] ﴾ ، ويوسف بشهادة الحق السالفة من المخلصين .

وكذلك شهد ليوسف شاهد من أهلها[4] ، فقال : ﴿ **إن كان قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبلٍ فَصَدقتْ ، وَهُوَ مِن الكاذِبين . وَإِن كان قمِيصُه قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِين . فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَه قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ**[5] ﴾ ، وقد أسفر التحقيق عن براءة يوسف وإدانة زليخا : امرأة العزيز .

فكيف تتفق كل هذه الشهادات الناصعة الصادقة ، وتلك الروايات المزورة ؟ ! ! وقد ذكر الكثير من هذه الروايات ابن جرير الطبرى ، والثعلبى ، والبغوى ، وابن كثير ، والسيوطى ، وقد مر بها ابن كثير بعد أن نقلها حاكيا من غير أن ينبه إلى زيفها ، وهو الناقد البصير ! !

---

(١) يوسف : ٣٢ .

(٢) يوسف : ٣٣ ، ٣٤ .

(٣) ص : ٨٢ ، ٨٣ .

(٤) قيل : كان رجلا عاقلا حكيما مجربا من خاصة الملك ، وكان من أهلها ، وقيل : كان صبيا فى المهد وكان ذلك إرهاصا بين يدى نبوة يوسف ، إكراما له .

(٥) يوسف : ٢٦ ـ ٢٨ .

ومن العجيب حقا : أن الإمام ابن جرير ـ على جلالة قدره ـ يحاول أن يضعف فى تفسيره مذهب الخلف الذين ينفون هذا الزور والبهتان ، ويفسرون الآيات على حسب ما تقتضيه اللغة ، وقواعد الشرع ، وما جاء فى القرآن والسنة الصحيحة الثابتة ، ويعتبر هذه المرويات التى سقت لك زروا منها آنفا ؛ هى : قول جميع أهل العلم بتأويل القرآن الذين يؤخذ عنهم[١] !!! وكذلك تابعه على مقالته تلك الثعلبى والبغوى فى تفسيريهما[٢] !!

وهذه المرويات الغثة المكذوبة التى يأباها النظم الكريم ، ويجزم العقل والنقل باستحالتها على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ هى التى اعتبرها الطبرى ومن تبعه أقوال السلف !!

بل يسير فى خط اعتبار هذه المرويات ، فيورد على نفسه سؤالا فيقول : فإن قال قائل : وكيف يجوز أن يوصف يوسف بمثل هذا وهو لله نبى ؟! ثم أجاب بما لا طائل تحته ، ولا يليق بمقام الأنبياء[٣] قاله الواحدى فى تفسيره : « البسيط » :

وأعجب من ذلك : ما ذهب إليه الواحدى فى : « البسيط » قال : قال المفسرون الموثوق بعلمهم ، المرجوع إلى روايتهم ، الآخذون للتأويل ، عمن شاهدوا التنزيل : همّ يوسف ـ عليه السلام ـ بهذه المرأة همًّا صحيحاً وجلس منها مجلس الرجل من المرأة ، فلما رأى البرهان من ربه زالت كل شهوة منه .

وهى غفلة شديدة من هؤلاء الأئمة لا نرضاها ، ولولا أنى أُنزه لسانى وقلمى عن الهجر من القول ، وأنهم خلطوا فى مؤلفاتهم عملا صالحا وآخر سيئاً لقسوت عليهم ، وحق لى هذا ، لكنى أسأل الله لى ولهم العفو والمغفرة .

وهذه الأقوال التى أسرف فى ذكرها هؤلاء المفسرون : إما إسرائيليات وخرافات وضعها زنادقة أهل الكتاب القدماء ، الذى أرادوا بها النيل من الأنبياء والمرسلين ، ثم

---

(١) تفسير الطبرى : ج ١٢ ص ١١٠ .
(٢) تفسير البغوى على هامش تفسير ابن كثير : ج ٤ ص ٤٣ .
(٣) تفسير الطبرى : ج ١٢ ص ١٠٩ ، ١١٠ .

حملها معهم أهل الكتاب الذين أسلموا وتلقاها عنهم بعض الصحابة ، والتابعين ، بحسن نية ، أو اعتمادا على ظهور كذبها وزيفها .

وإما أن تكون مدسوسة على هؤلاء الأئمة ، دسها عليهم أعداء الاديان ، كي تروج تحت هذا الستار ، وبذلك يصلون إلى ما يريدون من إفساد العقائد ، وتعكير صفو الثقافة الإسلامية الأصيلة الصحيحة ، وهذا ما أميل إليه[1] .

* * *

الفرية على المعصوم - ﷺ -

فى قول الله تعالى : ﴿ **ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ** ... ﴾

ولكى يؤيدوا باطلهم الذى ذكرناه آنفاً ، رووا عن الصحابة والتابعين مالا يليق بمقام الأنبياء ، واختلقوا على النبى - ﷺ - زورا ، وقولوه مالم يقله ، قال صاحب (الدر) : وأخرج الفريابى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقى فى (شعب الإيمان) عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لما جمع الملك النسوة قال لهن : أنتن راودتن يوسف عن نفسه ؟ قلن : ﴿ **حَاشَ لله مَا عَلِمْنا عَلَيْهِ مِن سوّءٍ . قالت امرَأَةُ العَزيز : الآن حَصْحَصَ الحقُّ أَنَا رَاودتُّهُ عَن نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصادِقِينَ** ﴾ ، قَالَ يُوسُفُ : ﴿ **ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ** ﴾ ، فغمزه جبريل - عليه السلام - فقال : ولا حين هممت بها ؟ فقال : ﴿ **وَمَآ أُبَرِّىءُ نَفْسِىٓ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ** ﴾ .

قال : وأخرج ابن جرير عن مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، والسدى مثله ، وأخرج الحاكم فى تاريخه ، وابن مردويه والديلمى عن أنس - رضى الله عنه - : أن رسول الله - ﷺ - قرأ هذه الآية : ﴿ **ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيب** ﴾ قال : لما قال يوسف ذلك قال له جبريل - عليه السلام - : ولا يوم هممت بما هممت به ؟ فقال : وما أُبرىءُ نفسى ، إن النفس لأمارة بالسوء ، قال : وأخرج ابن جرير عن عكرمة مثله ، وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبى حاتم : عن حكيم بن جابر فى قوله : ﴿ **ذَلِكَ لِيَعْلَمَ**

---

(١) تفسير المنار : ج ١٣ ص ٢ .

﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ قال جبريل : ولا حين حللت السراويل ؟ .. إلى غير ذلك من المرويات المكذوبة ، والإسرائيليات الباطلة ، التى خرجها بعض المفسرين الذين كان منهجهم ذكر المرويات وجمع أكبر قدر منها ، سواء منها ما صح وما لم يصح ، والإخباريون الذين لا تحقيق عندهم للمرويات ، وليس أدل على ذلك من أنها لم يخرجها أحد من أهل الكتب الصحيحة ، ولا أصحاب الكتب المعتمدة الذين يرجع إليهم فى مثل هذا .

القرآن يرد هذه الأكاذيب :

وقد فات هؤلاء الدساسين الكذابين أن قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ...﴾ الآيتين[1] ليس من مقالة سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ وإنما هو من مقالة امرأة العزيز ، وهو ما يتفق وسياق الآية ، ذلك : أن العزيز لما أرسل رسوله إلى يوسف لإحضاره من السجن قال له : ارجع إلى ربك ، فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن فأحضر النسوة ، وسألهن ، وشهدن ببراءة يوسف ، فلم تجد امرأة العزيز بدًّا من الاعتراف ، فقالت : ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ...﴾ إلى قوله : ﴿وَمَآ أُبَرِّىءُ نَفْسِىٓ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوٓءِ ...﴾ فكل ذلك من قولها : ولم يكن يوسف حاضراً ثمَّ ، بل كان فى السجن ، فكيف يعقل أن يصدر منه ذلك فى مجلس التحقيق الذى عقده العزيز ؟ .

وقد انتصر لهذا الرأى الذى يوائم السياق والسباق : الإمام ابن تيمية ، وألف فى ذلك تصنيفاً على حدة .

قال الإمام الحافظ المفسر ابن كثير فى تفسيره : ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ :

تقول : إنما اعترفت بهذا على نفسى ، ليعلم زوجى أنى لم أخنه بالغيب فى نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر . وإنما راودت هذا الشاب مراودة ، فامتنع ، فلهذا : اعترفت ليعلم أنى بريئة ، ﴿وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهدِى كَيْدَ الخَآئِنِينَ . وَمَآ أُبَرِّىءُ نَفْسِى﴾ تقول المرأة : ولست أُبرىءُ نفسى ، فإن النفس تتحدث ، وتتمنى ، ولهذا راودته لأن

---

(١) يوسف : ٥٢ ، ٥٣ .

﴿ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالْسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى ﴾ أى : إلا من عصمه الله تعالى ﴿ إِنَّ ربِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعانى الكلام ، وقد حَكَاهُ الماوردى فى تفسيره ، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس بن تيمية ـ رحمه الله ـ فأفرده بتصنيف على حدة .

وبعد أن ذكر بعض ما ذكره ابن جرير الذى ذكرناه آنفاً عن ابن عباس ، وتلاميذه ، وغيره قال : والقول الأول أقوى ، وأظهر لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف ـ عليه السلام ـ عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك [١] .

التفسير الصحيح لقوله تعالى

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمّ بِهَا ﴾

والصحيح فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَن رَأَى بُرْهَانَ رَبِّه ﴾ أن الكلام تم عند قوله تعالى : ﴿ ولَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ وليس من شك فى أن همها كان بقصد الفاحشة ، ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلآ أَن رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ .

الكلام من قبيل التقديم والتأخير ، والتقدير : ولولا أن رأى برهان ربه لهَمَّ بها ، فقوله تعالى : ﴿ وهم بها ﴾ ، جواب لولا مقدم عليها ومعروف فى العربية : أن لولا حرف امتناع لوجود ، أى : امتناع الجواب لوجود الشرط ، فيكون الهم ممتنعاً لوجود البرهان الذى ركزه الله فى فطرته ، والمقدم إما الجواب ، أو دليله على الخلاف فى هذا بين النحويين ، والمراد بالبرهان : هو حجة الله الباهرة الدالة على قبح الزنا وهو شىءٌ مركوز فى فطر الأنبياء ، ومعرفة ذلك عندهم وصل إلى عين اليقين ، وهو ما نعبر عنه بالعصمة ، وهى التى تحول بين الأنبياء والمرسلين وبين وقوعهم فى المعصية ، ويرحم الله الإمام : جعفر بن محمد الصادق ـ رضى الله عنهما ـ حيث قال : البرهان : النبوة التى أودعها الله فى صدره ، حالت بينه وبين ما يسخط الله عز وجل .

---

(١) تفسير ابن كثير : ج ٤ ص ٤٤٩ ط المنار .

وهذا هو القول الجزل الذى يوافق ما دل عليه العقل من عصمة الأنبياء ، ويدعو إليه السابق واللاحق ، وأما كون جواب لولا لا يجوز أن يتقدم عليها فهذا أمر ليس ذا خطر ، حتى نعدل عن هذا الرأى الصواب ، إلى التفسيرات الأُخرى الباطلة ، لِهَمِّ يوسف ـ عليه السلام ـ ، والقرآن هو أصل اللغة ، فورود أى أُسلوب فى القرآن يكفى فى كونه أُسلوباً عربياً فصيحاً ، وفى تأصيل أى قاعدة من القواعد النحوية فلا يجوز لأجل الأخذ بقاعدة نحوية أن نقع فى محظور لا يليق بالأنبياء كهذا .

وقد قال الإمام الآلوسى ، فى تفسيره فى الرد على المبرد فى تشنيعه على قراءة حمزة : أحد القراء السبعة ، فى قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامِ ﴾[(١)] بجر لفظ الأرحام عطفاً على الضمير المجرور من غير إعادة حرف الجر ، « وهو أحد القراء السبعة الذين قال أساطين الدين : إن قراءتهم متواترة عن رسول الله ـ ﷺ ـ ومع هذا ، لم يقرأ به وحده ، بل قرأ به جماعة من غير السبعة ، كابن مسعود ، وابن عباس ، وإبراهيم النخعى ، والحسن البصرى ، وقتادة ، ومجاهد وغيرهم ـ كما نقله ابن يعيش ـ فالتشنيع على هذا الإمام فى غاية الشناعة ، ونهاية الجسارة ، والبشاعة ، وربما يخشى منه الكفر ، وما ذكر من امتناع العطف على الضمير المجرور ، هو مذهب البصريين ، ولسنا متعبدين باتباعهم ، وقد أطال أبو حيان فى (البحر) الكلام فى الرد عليهم ، وادعى أن ما ذهبوا إليه غير صحيح ، بل الصحيح ما ذهب إليه الكوفيون من الجواز ، وورد ذلك فى لسان العرب نثرا ونظما ، وإلى ذلك ذهب ابن مالك »[(٢)] .

وقيل : إن ما حصل من هَمِّ يوسف كان خطرة ، وحديث نفس بمقتضى الفطرة البشرية ، ولم يستقر ، ولم يظهر له أثره ، قال البغوى فى تفسيره : « قال بعض أهل الحقائق : الْهَمُّ هَمَّانِ : هم ثابت ، وهو : إذا كان معه عزم ، وعقد ، ورضا ، مثل هَمِّ امرأة العزيز ، والعبد مأخوذ به ، وهَمٌّ عارض ، وهو : الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ، ولا عزم مثل هَمِّ يوسف ـ عليه السلام ـ والعبد غير مأخوذ به ، مالم يتكلم به أو يعمل »[(٣)] ، وقيل : همت به هم شهوة وقصد للفاحشة ، وهم هو يضربها ، ولا أدرى

---

(١) النساء : ١ .

(٢) تفسير الآلوسى : ج ٤ ص ١٨٤ ، وانظر البحر المحيط عند تفسير هذه الآية .

(٣) تفسير البغوى على هامش تفسير ابن كثير : ج ٤ ص ٤٣١ .

كيف يتفق هذا القول وقوله تعالى : ﴿ لَوْلَآ أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ .

والقول الجزل الفحل هو ما ذكرناه أولا ، والسر فى إظهاره فى هذا الأُسلوب ـ والله أعلم ـ : تصوير المشهد المثير المغرى العرم ، الذى هيأته امرأة العزيز لنبى الله يوسف ، وأنه لولا عصمة الله له ، وفطرته النبوية الزكية ، لكانت الاستجابة لها ، والهمُّ بها أمرا محققاً ، وفى هذا تكريم ليوسف ، وشهادة له بالعفة البالغة ، والطهارة الفائقة

* * *

(١٩) الإسرائيليات فى سبب لبث يوسف فى السجن

ومن الإسرائيليات : ما يذكره بعض المفسرين فى مدة سجن يوسف ـ عليه السلام ـ وفى سبب لبثه فى السجن بضع سنين ، وذلك عند تفسير قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاه الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّه فلبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ (يوسف : الآية ٤٢) .

فقد ذكر ابن جرير ، والثعلبى ، والبغوى ، وغيرهم أقوالا كثيرة فى هذا ، فقد قال وهب بن منبه : أصاب أيوب البلاء سبع سنين ، وترك يوسف فى السجن سبع سنين ، وعذب بختنصر فحول فى السباع سبع سنين[١] .

وقال مالك بن دينار : لما قال يوسف للساقى : اذكرنى عند ربك . قيل له : يا يوسف اتخذت من دونى وكيلا ، لأُطيلن حبسك ، فبكى يوسف ، وقال : يا رب : أنسى قلبى كثرة البلوى فقلت كلمة ، ولن أعود .

وقال الحسن البصرى : دخل جبريل ـ عليه السلام ـ على يوسف فى السجن ، فلما رآه يوسف عرفه ، فقال له : يا أخا المنذرين ، إنى أراك بين الخاطئين ؟ ! فقال له جبريل : يا طاهر : يا ابن الطاهرين يقرأُ عليك السلام رب العالمين ، ويقول لك : أما استحيت منى أن استشفعت بالآدميين ؟ ! فوعزتى وجلالى لألبثنك فى السجن بضع سنين ، فقال يوسف : وهو فى ذلك عنى راض ؟ قال : نعم ، قال : إذاً لا أُبالى .

---

(١) لا أدرى ما المناسبة بين نبى الله ، وبختنصر الذى أذل اليهود وسباهم ؟ .

وقال كعب الأحبار : قال جبريل ليوسف : إن الله تعالى يقول : من خلقك ؟ قال : الله عز وجل . قال : فمن حببك إلى أبيك ؟ قال : الله ، قال : فمن نجاك من كرب البئر ؟ قال : الله ، قال فمن علمك تأويل الرؤيا ؟ قال الله ، قال : فمن صرف عنك السوء والفحشاء ؟ قال : الله ، قال : فكيف استشفعت بآدمى مثلك ؟[1] . فلما انقضت سبع سنين ـ قال الكلبى : وهذه السبع سوى الخمسة[2] التى قبل ذلك ـ جاءه الفرج من الله ، فرأى الملك ما رأى من الرؤيا العجيبة ، وعجز الملأ عن تفسيرها ، تذكر الساقى يوسف وصدق تعبيره للرؤى ، فذهب إلى يوسف ، فعبرها له خير تعبير ، فكان ذلك سبب نجاته من السجن ، وقول امرأة العزيز : ﴿ **ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّه عَن نَفْسِهِ وَإِنَّه لَمِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ .

وأغلب الظن عندى : أن هذا من الإسرائيليات ، فقد صورت سجن يوسف على أنه عقوبة من الله لأجل الكلمة التى قالها ، مع أنه ـ عليه السلام ـ لم يقل هجراً ، ولا منكراً ، فالأخذ فى أسباب النجاة العادية ، وفى أسباب إظهار البراءة والحق ، لا ينافى قط التوكل على الله تعالى والبلاء للأنبياء ليس عقوبة ، وإنما هو لرفع درجاتهم ، وليكونوا أُسوة وقدوة لغيرهم ، فى باب الابتلاء ، وفى الحديث الصحيح عن النبى ـ ﷺ ـ : « **أَشدُّ الناس بلاءً الأَنبياءُ ، فالأَمثل ، فالأَمثل** » .

وقد روى ابن جرير ههنا حديثاً مرفوعاً فقال : حدثنا ابن وكيع قال : حدثنا عمرو بن محمد ، عن إبراهيم بن يزيد ، عن عمرو بن دينار ، عن عكرمة ، عن ابن عباس مرفوعاً ، قال : قال النبى ـ ﷺ ـ : « **لو لم يقل ـ يعنى يوسف ـ الكلمة التى قالها ما لبث فى السجن طول ما لبث ، حيث يبتغى الفرج من عند غير الله** » .

ولو أن هذا الحديث كان صحيحاً أو حسناً : لكان للمتمسكين بمثل هذه الإسرائيليات التى أظهرت سيدنا يوسف بمظهر الرجل المذنب المدان وجهة ، ولكن الحديث شديد الضعف ، لا يجوز الاحتجاج به أبداً .

---

(١) تفسير البغوى : ج ٤ ص ٤٤٤ ، ٤٤٥ .

(٢) بعض المفسرين لا يكتفى بالسبع بل يضم إليها خمسا قبل ذلك ولا أدرى ما مستنده فى هذا ؟ وظاهر القرآن لا يشهد له ولو كان كذلك لصرح به القرآن ، أو لأشار إليه .

قال الإمام الحافظ الناقد : ابن كثير : « وهذا الحديث ضعيف جداً[1] ، لأن سفيان ابن وكيع ـ الراوى عنه ابن جرير ـ ضعيف ، وإبراهيم بن يزيد أضعف منه أيضاً ، وقد روى عن الحسن وقتادة مرسلا عن كل منهما ، وهذه المرسلات ههنا لا تقبل[2] ، ولو قبل المرسل من حيث هو فى غير هذا الموطن ، والله أعلم[3] » وقد تكلف بعض المفسرين للإجابة عما يدل عليه هذا الحديث ، وحاله كما سمعت بل تكلف بعضهم ، فجعل الضمير فى : « فأنساه » ليوسف وهو غير صحيح ، والذى يجب أن نعتقده أن يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ مكث فى السجن كما قال الله تعالى بضع سنين .

والبضع : من الثلاث إلى التسع ، أو إلى العشر من غير تحديد للمدة ، فجائز أن تكون سبعاً ، وجائز أن تكون تسعاً ، وجائز أن تكون خمساً ، مادام ليس هناك نقل صحيح عن المعصوم ـ ﷺ ـ وكذلك : نعتقد أنه لم يكن عقوبة على كلمة وإنما هو بلاءٌ ورفعة درجة ثم كيف يتفق هذا الحديث الضعيف هو وما روى عن النبى فى الصحيحين عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

« ... **ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى** » وفى لفظ للإمام أحمد : « **لو كنت أنا لأسرعت الإجابة ، وما ابتغيت العذر** » .

* * *

(٢٠) الإسرائيليات فى شجرة طوبى

ومن الإسرائيليات : ما ذكره بعض المفسرين عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآب** ﴾[4] .

فمن ذلك : ما رواه ابن جرير بسنده ، عن وهب ، قال : إن فى الجنة شجرة يقال لها : طوبى ، يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، زهرتها رياط ، وورقها برود ،

---

(١) الضعيف جدا لا يحتج به لا فى الأحكام ولا فى الفضائل فما بالك فى مثل هذا ؟
(٢) لأن المرسل احتج به بعض الفقهاء أما فى مثل هذا الذى فيه إدانة بعض الأنبياء . وإلقاء اللوم عليه فلا .
(٣) تفسير ابن كثير : ج ٤ ص ٤٤٨ .
(٤) الرعد : ٢٩ .

وقضبانها عنبر ، وبطحاؤها ياقوت ، وترابها كافور ، ووحلها مسك ، يخرج من أصلها أنهار الخمر ، واللبن ، والعسل ، وهى مجلس لأهل الجنة ، فبينما هم فى مجلسهم إذ أتتهم ملائكة من ربهم ، يقودون نجبا(١) مزمومة بسلاسل من ذهب ، وجوهها كالمصابيح حسناً ، ووبرها كخز المرعزى من لينه ، عليها رحال(٢) ألواحها من ياقوت ، ودفوفها من ذهب ، وثيابها من سندس ، وإستبرق ، فيفتحونها ، يقولون : إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه ، وتسلموا عليه ، قال : فيركبونها فهى أسرع من الطائر ، وأوطأ من الفراش ، نجبا من غير مهنة ، يسير الرجل إلى جنب أخيه ، وهو يكلمه ، ويناجيه ، لا تصيب أذن راحلة منها أُذن الأُخرى ولا برك(٣) راحلة برك الأُخرى ، حتى أن الشجرة لتتنحى عن طريقهم ، لئلا تفرق بين الرجل وأخيه ، قال : فيأتون إلى الرحمن الرحيم ، فيسفر لهم عن وجهه الكريم ، حتى ينظروا إليه ، فإذا رأوه قالوا : اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، وحق لك الجلال والإكرام ، قال : فيقول تعالى عند ذلك : أنا السلام ، ومنى السلام ، وعليكم السلام ، حقت رحمتى ، ومحبتى ، مرحباً بعبادى الذين خشونى بغيب ، وأطاعوا أمرى ، قال : فيقولون : ربنا لم نعبدك حق عبادتك ، ولم نقدرك حق قدرك ، فأذن لنا فى السجود قدامك ، قال : فيقول الله : إنها ليست بدار نصب ، ولا عبادة ، ولكنها دار ملك ونعيم ، وإنى قد رفعت عنكم نصب العبادة فسلونى ما شئتم ، فإن لكل رجل منكم أُمنية ، فيسألونه ، حتى أن أقصرهم أمنية ليقول : ربى تنافس أهل الدنيا فى دنياهم ، فتضايقوا فيها ، رب فآتنى مثل كل شيءٍ كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا ، فيقول الله تعالى : لقد قصرت بك أُمنيتك .

ولقد سألت دون منزلتك ، هذا لك منى ، لأنه ليس فى عطائى نكد ، ولا قصر يد ، قال : ثم يقول : أعرضوا على عبادى مالم يبلغ أمانيهم ولم يخطر لهم على بال ، قال : فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيهم التى فى أنفسهم ، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مقرنة على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة ، على كل سرير منها قبة من ذهب ،

---

(١) أى : إبلا كراماً .

(٢) الرحال : ما يوضع على البعير ليركب عليه .

(٣) البرك : الصدر .

مفرغة ، فى كل قبة منها فرشٌ من فرش الجنة ، متظاهرة ، فى كل قبة منها جاريتان من الحور العين ، على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة ، وليس فى الجنة لون إلا وهو فيهما ، ولا ريح ولا طيب إلا قد عبق بهما ، ضوءُ وجوههما غلظ القبة ، حتى يظن من يراهما أنهما دون القبة ، يرى مخهما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض فى ياقوتة حمراء ، يريان له من الفضل على صاحبه كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل ، ويرى هو لهما مثل ذلك ، ويدخل إليهما فيحييانه ويقبلانه ، ويتعلقان به ، ويقولان له : والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك ، ثم يأمر الله الملائكة فيسيرون بهم صفا فى الجنة ، حتى ينتهى كل رجل منهم إلى منزلته التى أُعدت له[١] .

وقد وصف ابن كثير فى تفسيره هذا الأثر : بأنه غريب عجيب وساقه ، وقد روى هذا الأثر ابن أبى حاتم بسنده ، عن وهب أيضاً وزاد زيادات أُخرى[٢] .

التفسير الصحيح لقوله : ﴿ **طوبَى لَهُمْ** ﴾ :

والمأْثور عن السلف فى تفسير طوبى : غير ذلك ، فروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى تفسيرها : فرح لهم وقرة عين ، وقال عكرمة : نعْمَ ما لهم ، وقال قتادة : حسنى لهم ، وقال إبراهيم النخعى : خير لهم وكرامة .

وروى أيضاً عن بعض الصحابة ، وغير واحد من السلف : أن طوبى شجرة فى الجنة ، بل ورد ذلك عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً : « طوبى شجرة فى الجنة ، ظلها مسيرة مائة سنة ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها[٣] » .

بل قيل : إنها الشجرة التى ذكرها النبى - ﷺ - فى قوله : « **إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها** » رواه أحمد ، والبخارى ، ومسلم ، وفى بعض روايات أحمد والبخارى : اقرأُوا إن شئتم : ﴿ **وَظِلٍّ مَمْدُودٍ** ﴾[٤] .

ونحن لا ننكر احتمال أن تكون هذه الشجرة المذكورة فى الحديث الصحيح ، ولكن

---

(١) تفسير ابن جرير عند تفسير هذه الآية ، الدر المنثور عند تفسير هذه الآية .

(٢) تفسير ابن كثير والبغوى : ج ٤ ص ٤١٤ ، ٤١٥ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) الواقعة : ٣٠ .

الذى ننكره ، ونقول إنه من الإسرائيليات : هذه الزيادات التى زادها وهب ، ومن أخذ عنه ، ونحن فى غنية عن هذا بما ثبت فى الأحاديث الصحاح ، وها نحن نرى أنها جاءت خالية من هذه التخريفات والتهويلات التى ننزه عنها الرواية الإسلامية .

* * *

(٢١) الإسرائيليات فى إفساد بنى إسرائيل

ومن الإسرائيليات فى كتب التفسير : ما يذكره بعض المفسرين عند قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنا إِلى بَنِى إِسْرَائِيلَ فِى الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فى الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً . فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنا أُولى بَأْسٍ شديد فجَاسُوا خلالَ الدِّيَار وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً . ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَا كمْ بِأَمْوَال وَبَنِينَ وَجَعَلْنَا كُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ، إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُم فَلَهَا فَإِذَا جاءَ وعْدُ الآخرَةِ لِيسوءُوا وُجُوهَكُمْ وليَدْخُلُوا الْمَسْجد كَمَا دَخَلُوه أَوَّلَ مَرَّة وليُتَبِّروا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ (الإسراء : الآيات من ٤ ـ ٨) .

وليس من قصدنا هنا : تحقيق مرتى إفسادهم ، ومن سلط عليهم فى كلتا المرتين ، فلذلك موضع آخر[١] .

وإنما الذى يتصل ببحثى : بيان ما روى من الإسرائيليات فى هاتين المرتين ، واسم من سلط عليهم ، وصفته وكيف كان ، وإلام صار أمره ، وقد كانت معظم الروايات فى بيان العباد ذوى البأس الشديد الذين سلطوا عليهم تدور حول « بختنصر » البابلى ، وقد أحاطوه بهالة من العجائب ، والغرائب ، والمبالغات التى لا تصدق وقد أخرج هذه الروايات ابن جرير فى تفسيره ، وأكثر منها جدا[٢] ، وابن أبى حاتم والبغوى[٣] ، وغيرهم عن ابن عباس ،

---

(١) الذى أرجحه أن العباد ذوى البأس الشديد الذين نكلوا بهم ، وأذلوهم ، وسبوهم هم بختنصر وجنوده وأن الآخرين الذين أساءوا وجوههم ، ودخلوا المسجد الأقصى هم « طيطوس » الرومانى وجيوشه ، فقد أساموهم سوء العذاب ، وتأمل فى قوله : ﴿ **وإن عدتم عدنا** ﴾ فإنه يدل على أنهم سيعودون ثم يفسدون ، فيرسل الله لهم من يسومهم العذاب ألوانا .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١٥ من ص ١٦ ـ ٣٤ .

(٣) ج ٥ ص ١٤٤ ـ ١٥٤ .

وابن مسعود ، وعن سعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب ، وعن السدى ، وعن وهب بن منبه ، وابن إسحاق ، وغيرهم ، وخرجها من غير ذكر أسانيدها مع عزوها إلى مخرجيها السيوطى فى « الدر المنثور »[1] .

وفيها ـ ولا شك ـ الكثير من أكاذيب بنى إسرائيل التى اختلقها أسلافهم ، وتنوقلت عليهم ، ورواه أخلافهم من مسلمة أهل الكتاب الذين أسلموا ، وأخذها عنهم بعض الصحابة والتابعين تحسيناً للظن بهم ، ورواها من غير تنبيه إلى ما فيها .

وفى هذه الأخبار الإسرائيلية ما يحتمل الصدق والكذب ، ولكن الأولى عدم الاشتغال به ، وأن لا نفسر القرآن به ، وأن نقف عند ما قصه الله علينا ، من غير أن نفسد جمال القرآن ، وجلاله بمثل هذه الإسرائيليات .

وقد أكثر ابن جرير هنا من النقل عن ابن إسحاق ، وفى بعضها روى عن ابن إسحاق عمن لا يتهم ، عن وهب بن منبه[2] ، وفى بعضها بسنده عن وهب بن منبه فى ذكر ابن إسحاق ، وبذلك : وقفنا على من كان المصدر الحقيقى لهذه المرويات ، وأنه وهب ، وأمثاله من مسلمة أهل الكتاب .

وقد سود ابن جرير بضع صفحات من كتابه فى النقل عن ابن إسحاق وعن وهب ، ولا أُحب أن أنقل هذا بنصه ، فإن فى ذلك تسويدا للصفحات ، ولكنى سأذكر البعض ليكون القارىء لهذا التفسير على حذر من مثل ذلك .

قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثنى ابن إسحاق قال : «كان مما أنزل الله على موسى[3] فى خبره عن بنى إسرائيل ، وفى إحداثهم ، ما هم فاعلون بعده ، فقال : ﴿ **وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ فِى الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً** ﴾ .

فكانت بنو إسرائيل وفيهم الأحداث والذنوب ، وكان الله فى ذلك متجاوزا عنهم

---

(١) ج ٤ ص ١٦٣ ـ ١٦٦ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١٥ ص ٢٩ .

(٣) المراد أنزل معناه لا لفظه ، فالتوراة لم تكن بالعربية ، ولا كان لسان موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ عربياً .

متعطفا عليهم ، محسنا إليهم ، فكان مما أنزل بهم فى ذنوبهم ما كان قدم إليهم فى الخبر على لسان موسى ، مما أنزل بهم فى ذنوبهم ، فكان أول ما أنزل بهم من تلك الوقائع : أن ملكا منهم كان يدعى صديقة ، وكان الله إذا ملك الملك عليهم بعث نبياً يسدده ، ويرشده ، ويكون فيما بينه ، وبين الله ، ويحدث إليه فى أمرهم لا ينزل عليهم الكتب ، إنما يؤمرون باتباع التوراة ، والأحكام التى فيها ، وينهونهم عن المعصية ، ويدعونهم إلى ما تركوا من الطاعة ، فلما ملك ذلك الملك بعث الله معه شعياء بن أمصيا ، وذلك قبل مبعث زكريا ، ويحيى وعيسى ، وشعياءُ الذى بشر بعيسى ، ومحمد ، فملك ذلك الملك بنى إسرائيل ، وبيت المقدس زمانا ، فلما انقضى ملكه ، عظمت فيهم الأحداث ، وشعياءُ معه ، بعث الله عليهم : « سنجاريب » ملك بابل ، ومعه ستمائة ألف راية[1] ، فأقبل سائراً ، حتى نزل نحو بيت المقدس ، والملك مريض ، فى ساقه قرحة ، فجاء النبى شعياءُ ، فقال له : يا ملك بنى إسرائيل : إن « سنجاريب » ملك بابل قد نزل بك هو وجنوده ، ستمائة ألف راية ، وقد هابهم الناس ، وفرقوا[2] منهم ، فكبر ذلك على الملك ، فقال : يا نبى الله ، هل أتاك وحى من الله فيما حدث فتخبرنا به ؟ كيف يفعل الله بنا ، وبسنجاريب وجنوده ؟ فقال له النبى — عليه السلام — : لم يأتنى وحى ، أحدث إلى فى شأنك ، فبينما هم على ذلك : أوحى الله إلى شعياء النبى : أن ائت ملك بنى إسرائيل فمره أن يوصى وصيته ، ويستخلف على ملكه من شاء من أهل بيته ، فإنك ميت ....

ثم استرسل ابن جرير فى الرواية ، حتى استغرق ذلك أربع صفحات كبار من كتابه[3] ، لا يشك الناظر فيها أنها من أخبار بنى إسرائيل ، وفيما ذكره ابن جرير عن ابن إسحاق الصدق ، والكذب ، والحق ، والباطل ، ولسنا فى حاجة إليه فى تفسير الآيات .

وفى الإفساد الثانى ، ومن سلط عليهم ، روى ابن جرير أيضاً قال : حدثنى محمد بن سهل بن عسكر ، ومحمد بن عبد الملك بن زنجويه قالا : حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، قال : حدثنا ابن عبد الصمد بن معقل ، عن وهب بن منبه .

---

(١) من المبالغات التى لا تصدق ، وكن على ذكر مما نقلناه عن العلامة ابن خلدون فيما سبق .
(٢) أى : خافوا .
(٣) ج ١٥ من ص ١٨ — ٢١ .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عمن لا يتهم ، عن وهب بن منبه اليمـانى ـ واللفظ لحديث ابن حميد أنه كان يقول ـ يعنى وهب بن منبه

قال الله تبارك وتعالى لأرميا حين بعثه نبياً إلى بنى إسرائيل : يا أرميا من قبل أن أخلقك اخترتك ... ولأمر عظيم اختبأْتك ، فبعث الله « أرميا » إلى ذلك الملك من بنى إسرائيل ، يسدده ، ويرشده ويأتيه بالخبر من الله فيما بينه ، وبين الله ، قال : ثم عظمت الأحداث فى بنى إسرائيل ، وركبوا المعاصى ، واستحلوا المحارم ، ونسوا ما كان الله سبحانه وتعالى صنع بهم ، وما نجاهم من عدوهم « سنجاريب » وجنوده ، فأوحى الله إلى أرمياء : أنت ائْت قومك من بنى إسرائيل ، واقصص عليهم ما آمرك به ، وذكرهم نعمتى عليهم ، وعرفهم أحداثهم ....

واسترسل وهب بن منبه فيما يذكره من أخبار بنى إسرائيل حتى استغرق ذلك من تفسير ابن جرير ثلاث صفحات كبار[1] إلى غير ذلك ، مما ذكره ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وغيرهما ، من قصص عجيب غريب فى « بختنصر » هذا ، وما خرب من البلاد وما قتل من العباد .

الكذب على رسول الله بنسبة هذه الإسرائيليات إليه :

ولو أن هذه الإسرائيليات والأباطيل وقف بها عند رواتها من أهل الكتاب الذين أسلموا ، أو عند من رواها عنهم من الصحابة والتابعين لهان الأمر ، ولكن عظم الإثم أن تنسب هذه الإسرائيليات إلى المعصوم ـ ﷺ ـ صراحة ، ولا أشك أن هذا الدس من عمل زنادقة اليهود أو الفرس .

روى ابن جرير فى تفسيره ، قال : حدثنا عصام بن داود ابن الجراح ، قال : حدثنا أبى ، قال : حدثنا سفيان بن سعيد الثورى قال : حدثنا منصور بن المعتمر ، عن ربعى بن حراش ، قال : سمعت حذيفة بن اليمان يقول : قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

« **إن بنى إسرائيل لما اعتـدوا ، وعلوا ، وقتلوا الأنبياء ، بعث الله عليهم ملك فارس** :

---

(١) ج ١٥ من ص ٢٩ ـ ٣٣ .

(بختنصر) ، **وكان الله ملكه سبعمائة سنة**[1] ، **فسار إليهم ، حتى دخل بيت المقدس ، فحاصرها ، وفتح ، وقتل على دم زكريا سبعين ألفا ، ثم سبى أهلها ، وبنى الأنبياء ، وسلب حلى بيت المقدس ، واستخرج منها سبعين ألفا ، ومائة ألف عجلة من حلى ، حتى أوردها بابل**[2] » ، قال حذيفة : فقلت يا رسول الله لقد كان بيت المقدس عظيما عند الله ، قال : أجل ، بناه سليمان بن داود من ذهب ، ودر ، وياقوت ، وزبرجد وكان بلاطة من ذهب ، وبلاطة من فضة ، وعمده ذهبا ، أعطاه الله ذلك ، وسخر له الشياطين يأْتُونه بهذه الأشياء فى طرفة عين ، فسار « بختنصر » بهذه الأشياء ، حتى دخل بها بابل ، فأقام بنو إسرائيل فى يديه مائة سنة ، تعذبهم المجوس ، وأبناء المجوس ، فيهم الأنبياءُ ، وأبناءُ الأنبياء ثم إن الله رحمهم فأوحى إلى ملك من ملوك فارس ، يقال له : « كورش » وكان مؤمنا ، أن سر إلى بقايا بنى إسرائيل حتى تستنقذهم فسار « كورش » ، ببنى إسرائيل ، وحلى بيت المقدس ، حتى رده إليه .

فأقام بنو إسرائيل مطيعين الله مائة سنة ، ثم إنهم عادوا فى المعاصى ، فسلط الله عليهم « بطيا نموس » ، فغزا بأبناء من غزا مع بختنصر ، فغزا بنى إسرائيل ، حتى أتاهم بيت المقدس ، فسبى أهلها ، وأحرق بيت المقدس ، وقال لهم : يا بنى إسرائيل ، إن عدتم فى المعاصى عدنا عليكم بالسباء ، فعادوا فى المعاصى ، فسير الله عليهم السباء الثالث ، ملك رومية ، يقال له : « فاقس بن اسبايوس[3] » فغزاهم فى البر والبحر فَسَباهم ، وسبى حلى بيت المقدس ، وأحرق بيت المقدس بالنيران ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : هذا من صنعة حلى بيت المقدس ، ويرده المهدى إلى بيت المقدس ، وهو ألف سفينة ؛ وسبعمائة سفينة ، يرسى بها على « يافا » ، حتى تنقل إلى بيت المقدس ، وبها يجمع الله الأولين ، والآخرين . وعفا الله عن ابن جرير ، كيف استجاز أن يذكر هذا الهراء ، وهذه التخريفات عن المعصوم ـ ﷺ ـ وكان عليه أن يصون كتابه عن أن يسوده بأمثال هذه المرويات الباطلة .

---

(١) وأى جرم أعظم من أن ينسب هذا التخريف إلى النبى ـ ﷺ ـ ؟
(٢) مبالغات وأكاذيب تنزه رسول الله ـ ﷺ ـ عنها .
(٣) فى تفسير البغوى « قاقس بن استيانوس » .

ويرحم الله الإمام الحافظ الناقد : ابن كثير ، حيث قال فى تفسيره :

« وقد روى ابن جرير فى هذا المكان حديثا أسنده عن حذيفة مرفوعاً مطولا ، وهو حديث موضوع لا محالة ، لا يستريب فى ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث ، والعجب كل العجب : كيف راج عليه مع جلالة قدره ، وإمامته ، وقد صرح شيخنا : أبو الحجاج المزى ـ رحمه الله ـ بأنه موضوع مكذوب ، وكتب ذلك على حاشية الكتاب ـ يعنى كتاب تفسير ابن جرير ـ وقد وردت فى هذا آثار كثيرة إسرائيلية ، لم أر تطويل الكتاب بذكرها ، لأن منها : ما هو موضوع من وضع بعض زنادقتهم ، ومنها : ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً ، ونحن فى غنية عنها ولله الحمد ، وفيما قص الله علينا فى كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله ، ولم يحوجنا الله ، ولا رسوله إليهم ، وقد أخبر الله عنهم : أنهم لما طغوا ، وبغوا سلط الله عليهم عدوهم ، فاستباح بيضتهم ، وسلك خلال بيوتهم ، وأذلهم ، وقهرهم جزاء وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد ، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً كثيراً من الأنبياء والعلماء[1]

التفسير الصحيح للآية :

وهذا هو الحق الذى ينبغى أن يصار إليه فى الآية ، والقصص القرآنى لا يعنى بذكر الأشخاص ، ولا الأماكن ، لأن الغرض منه العبرة ، والتذكير ، والتعليم والتأويل ، والذى دلت عليه الآية : أنهم أفسدوا مرتين فى الزمن الأول ، وظلموا وبغوا ، فسلط الله عليهم فى الأُولى من أذلهم وسباهم ، ولا يعنينى أن يكون هذا « سنجاريب » أو « بختنصر » وجيشه ، إذ لا يترتب على العلم به فائدة تذكر ، وسلط الله عليهم فى الثانية من أذلهم ، وساء وجوههم ، ودخل المسجد الأقصى ، فأفسد فيه ، ودمر ، ولا يعنينا أن يكون هذا الذى نكل بهم هو : « طيطوس » الرومانى أو غيره ؛ لأن المراد من سياق قصته : ما قضاه الله على بنى إسرائيل أنهم أهل فساد ، وبطر ، وظلم ، وبغى ، وأنهم لما أفسدوا وطغوا ، وتجبروا سلط الله عليهم من عباده من نكل بهم ، وأذلهم ، وسباهم ، وشردهم ، ثم إن الآيات دلت أيضاً على أن بنى إسرائيل لا يقف طغيانهم ، وبغيهم ، وإفسادهم عند المرتين الأُوليين ، بل الآية توحى بأن ذلك مستمر إلى ما شاء الله ، وأن الله سيسلط عليهم من

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوى ج ٥ ص ١٤٨ ـ ١٥٠ .

يسومهم العذاب ، ويبطش بهم ، ويرد ظلمهم وعدوانهم ، قال عز شأنه : ﴿ **عَسَى رَبُّكُمْ أن يرْحَمَكُمْ وإنْ عُدتُّمْ عُدْنَا** ﴾ ، أليس فى قوله هذا إنذار ووعيد لهم إلى يوم القيامة ؟! بلى .

وما يؤكد هذا الإنذار والوعيد قوله تعالى : ﴿ **وإذْ تأَذَّن ربُّك لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيامَة مَن يَسومُهُمْ سُوء الْعَذَابِ إنَّ رَبَّكَ لسَرِيعُ الْعقاب وإِنَّهُ لغَفورٌ رَحيمٌ** ﴾[1] ، فهل يسلط الله عليهم اليوم من يرد ظلمهم وبغيهم ، وطردهم أهل فلسطين من ديارهم ، واغتصاب الديار ، واستذلال العباد ، واستهانتهم بالقيم الخلقية ، والحقوق الإنسانية ؟ .

ذلك ما نرجو ، وما ذلك على المسلمين والعرب بعزيز ، لو وحدوا الكلمة ، وجمعوا الصفوف ، وأخذوا الحذر والأُهبة ، وأعدوا العدة فاللهم حقق وأعن .

* * *

(٢٢) الإسرائيليات فى قصة أصحاب الكهف

ومن قصص الماضين التى أكثر فيها المفسرون من ذكر الإسرائيليات قصة أصحاب الكهف ، فقد ذكر ابن جرير ، وابن مردويه ، وغيرهما الكثير من أخبارهم التى لا يدل عليها كتاب الله تعالى ، ولا يتوقف فهم القرآن وتدبره عليها .

فمن ذلك : ما ذكره ابن جرير فى تفسيره ، عن ابن إسحق ، صاحب السيرة فى قصتهم ، فقد ذكر نحو ثلاث ورقات ، وذكر عن وهب بن منبه ، وابن عباس ومجاهد أخبارا كثيرة[2] أُخرى وكذلك ذكر السيوطى فى « الدر المنثور »[3] ، الكثير مما ذكره المفسرون عن أصحاب الكهف ، عن هويتهم ، ومن كانوا ؟ وفى أى زمان ومكان وجدوا ؟ وأسمائهم ؟ واسم كلبهم ؟ وأهو قطمير أم غيره ؟ وعن لونه أهو أصفر أم أحمر ؟ بل روى ابن أبى حاتم من طريق سفيان ، قال : رجل بالكوفة يقال له عبيد ـ وكان لا يتهم بالكذب ـ قال : رأيت كلب أصحاب الكهف أحمر ، كأنه كساءٌ أنبجانى[4] ، ولا

---

(١) الأعراف : ١٦٧ .
(٢) تفسير ابن جرير ج ١٥ ص ١٣٣ وما بعدها .
(٣) الدر المنثور ج ٤ ص ٢١١ ـ ٢١٨ .
(٤) نسبة إلى أنبج بلد تعرف بصنع الأكسية .

أدرى كيف كان لا يتهم بالكذب ، وما زعم كذب لا شك فيه ، فهل بقى كلب أصحاب الكهف حتى الإسلام ؟! وكذلك : ذكروا أخبارا غرائب فى الرقيم ، فمن قائل : إنه قرية ، وروى ذلك عن كعب الأحبار ، ومن قائل : إنه واد بفلسطين ، بقرب أيلة ، وقيل : اسم جبل أصحاب الكهف إلى غير ذلك ، مع أن الظاهر أنه كما قال كثير من السلف أنه : الكتاب أو الحجر الذى دون فيه قصتهم وأخبارهم ، أو غير ذلك ، مما الله أعلم به ، فهو فعيل بمعنى مفعول ، أى : مرقوم ، وفى الكتاب الكريم : ﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّون ؟ كتابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمقَرَّبُونَ** ﴾ [(١)] ﴿ **وَمَا أَدْراكَ مَا سِجِّينٌ كتابٌ مَرْقُومٌ** ﴾ [(٢)] .

وفى هذه الأخبار : الحق والباطل ، والصدق والكذب ، وفيها : ما هو محتمل للصدق والكذب ، ولكن فيما عندنا غنية عنه ، ولا فائدة من الاشتغال بمعرفته وتفسير القرآن به ، كما أسلفنا عن ابن تيمية ، بل الأولى والأحسن : أن نضرب عنه صفحاً ، وقد أدبنا الله بذلك حيث قال لنبيه بعد ذكر اختلاف أهل الكتاب فى عدد أصحاب الكهف : ﴿ **قُل رَبِّى أَعْلَمُ بعدَّتِهِم ما يَعْلَمُهُمْ إلا قليلٌ . فَلاَ تُمارِ فِيهِمْ إلا مراءً ظَاهِراً وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِم مِنْهُم أَحَداً** ﴾ [(٣)] .

وغالب ذلك ما أشرنا إليه وغيره متلقى عن أهل الكتاب الذين أسلموا ، وحمله عنهم بعض الصحابة والتابعين لغرابته ، والعجب منه ، قال العلامة ابن كثير فى تفسيره : « وفى تسميتهم بهذه الأسماء ، واسم كلبهم نظر فى صحته ـ والله أعلم ـ ، فإن غالب ذلك تلقى من أهل الكتاب ، وقد قال تعالى : ﴿ **فَلاَ تُمَارِ فِيهِم إلاَّ مِرَاءً ظَاهِراً** ﴾ أى : سهلا هيناً نيناً ، فإن الأمر فى معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة « ولا تَسْتَفْتِ فيهم مِنْهُم أحَداً ! أى : فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولون من تلقاء أنفسهم ، رجماً بالغيب ، أى : من غير استناد إلى كلام معصوم ، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذى لا شك فيه ولا مرية فيه ، فهو المقدم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال « [(٤)] .

* * *

---

(١) المطففين ١٩ ، ٢٠ .

(٢) المطففين : ٨ ، ٩ .

(٣) الكهف : ٢٢ .

(٤) تفسير ابن كثير عند قوله تعالى : ﴿ **سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ...** ﴾ .

(٢٣) الإسرائيليات فى قصة ذى القرنين

ومن الإسرائيليات التى طفحت بها بعض كتب التفسير : ما يذكرونه فى تفاسيرهم ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْن قُلْ سَأَتلوا عَلَيْكُم مِنْهُ ذِكْراً . إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ وَآتَيْنَاه من كُلِّ شَىْءٍ سَبَباً . فَأَتبعَ سَبَباً** .... ﴾[١] الآيات .

وقد ذكر ابن جرير فى تفسيره بسنده ، عن وهب بن منبه اليمانى ، وكان له علم بالأحاديث الأولى ، أنه كان يقول : « ذو القرنين : رجل من الروم ، ابن عجوز من عجائزهم ، ليس لها ولد غيره ، وكان اسمه الإسكندر ، وإنما سمى ذا القرنين : أن[٢] صفحتى رأسه كانتا من نحاس ، فلما بلغ وكان عبداً صالحاً ، قال الله عز وجل له : يا ذا القرنين إنى باعثك إلى أُمم الأرض ، وهى أُمم مختلفة ألسنتهم ، وهم جميع أهل الأرض ، ومنهم أُمتان بينهما طول الأرض كله ، ومنهم أُمتان بينهما عرض الأرض كله ، وأُمم فى وسط الأرض منهم الجن ، والإنس ، ويأجوج ومأجوج .. ثم استرسل فى ذكر أوصافه ، وما وهبه الله من العلم والحكمة ، وأوصاف الأقوام الذين لقيهم ، وما قال لهم ، وما قالوا له ، وفى أثناء ذلك يذكر ما لا يشهد له عقل ولا نقل وقد سود بهذه الأخبار نحو أربعة صحائف من كتابه[٣] ، وكذلك ذكر روايات أخرى فى سبب تسميته بذى القرنين ، بما لا يخلو عن تخليط وتخبط ، وقد ذكر ذلك عن غير ابن جرير : السيوطى فى الدر قال : وأخرج ابن إسحق ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والشيرازى فى الألقاب ، وأبو الشيخ ، عن وهب بن منبه اليمانى ـ وكان له علم بالأحاديث الأولى ـ أنه كان يقول : كان ذو القرنين رجلا من الروم ، ابن عجوز من عجائزهم ، ليس لها ولد غيره ، (وكان إسمه الإسكندر ، وإنما سمى ذا القرنين : أن صفحتى رأسه كانتا من نحاس ..)[٤] وأنا لا أشك فى أن ذلك مما تلقاه وهب عن كتبهم ، وفيها ما فيها من الباطل ، والكذب ، ثم حملها عنه بعض التابعين ، وأخذها عنهم ابن إسحق وغيره من أصحاب كتب التفسير ،

---

(١) الكهف ، الآية : ٨٣ وما بعدها .

(٢) أى : لأن .

(٣) جامع البيان ج ١٥ من ص ١٤ ـ ١٨ .

(٤) الدر المنثور ج ٤ من ص ٢٤٢ ـ ٢٤٦ .

والسير ، والأخبار ، ويرحم الله الإمام الحافظ الناقد : ابن كثير ، حيث قال فى تفسيره : « وقد ذكر ابن جرير ههنا عن وهب بن منبه أثرا طويلا ، عجيباً فى سير ذى القرنين ، وبنائه السد ، وكيفية ما جرى له وفيه طول ، وغرابة ، ونكارة ، فى إشكالهم ، وصفاتهم وطولهم ، وقصر بعضهم ، وآذانهم ، وروى ابن أبى حاتم عن أبيه فى ذلك أحاديث غريبة ، لا تصح أسانيدها ، والله أعلم »[1] وحتى لو صح الإسناد إليها ، فلا شك فى أنها من الإسرائيليات ، لأنه لا تنافى بين الأمرين ، فهى صحيحة إلى من رويت عنه ، لكنها فى نفسها من قصص بنى إسرائيل الباطل ، وأخبارهم الكاذبة .

ولو أن هذه الإسرائيليات وقف بها عند منابعها ، أو من حملها عنهم من الصحابة والتابعين ، لكان الأمر محتملا ، ولكن الإثم ، وكبر الكذب أن تنسب هذه الأخبار إلى النبى - ﷺ - ولو أنها - كما أسلفت - كانت صحيحة فى معناها ومبناها لما حل نسبتها إلى رسول الله أبداً ، فما بالك وهى أكاذيب ملفقة ، وأخبار باطلة ؟!

وقد روى ابن جرير وغيره عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ** ... ﴾ : حديثاً مرفوعاً إلى النبى - ﷺ - قال :

(حدثنا أبو كريب قال : حدثنا زيد بن حباب ، عن ابن لهيعة ، قال : حدثنى عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، عن شيخين من تجيب ، أنهما انطلقا إلى عقبة بن عامر ، فقالا له : جئنا لتحدثنا فقال : كنت يوماً أخدم رسول الله - ﷺ - ، فخرجت من عنده ، فلقينى قوم من أهل الكتاب ، فقالوا : نريد أن نسأل رسول الله - ﷺ - فاستأذن لنا عليه ، فدخلت عليه فأخبرته فقال : مالى ، ومالهم ، مالى علم إلا ما علمنى الله ، ثم قال : اسكب لى ماءً فتوضأ ، ثم صلى ، قال : فما فرغ حتى عرفت السرور على وجهه ، ثم قال : أدخلهم علىَّ ، ومن رأيت من أصحابى ، فدخلوا ، فقاموا بين يديه فقال : إن شئتم سألتم فأخبرتكم عما تجدونه فى كتابكم مكتوبًا . وإن شئتم أخبرتكم ، قالوا : بلى ، أخبرنا ، قال : جئتم تسألون عن ذى القرنين ، وما تجدونه فى كتابكم ، كان شابًّا من الروم ، فجاء ، فبنى مدينة مصر الإسكندرية ، فلما فرغ جاءه ملكٌ فعلا به فى السماء ،

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوى ج ٥ ص ٣٢٩ .

فقال له : ما ترى ؟ فقال : أرى مدينتى ، ومدائن ، ثم علا به ، فقال : ما ترى ؟ فقال : أرى مدينتى ، ثم علا به ، فقال : ما ترى ؟ قال : أرى الأرض ، قال : فهذا اليم محيط بالدنيا ، إن الله بعثنى إليك تعلم الجاهل ، وتثبت العالم ، فأتى به السدَّ ، وهو جبلان لينان يزلق عنهما كل شيء ، ثم مضى به حتى جاوز يأجوج ومأجوج ، ثم مضى به إلى أُمة أُخرى ، وجوههم وجوه الكلاب ، يقاتلون يأجوج ومأجوج ، ثم مضى به حتى قطع به أمه أخرى يقاتلون هؤلاء الذين وجوههم وجوه الكلاب ، ثم مضى حتى قطع به هؤلاء إلى أُمة أُخرى قد سماهم[1] » ، ثم عقب ذلك بسرد المرويات فى سبب تسميته بذى القرنين .

وذكر السيوطى فى : « الدر المنثور »[2] مثل ذلك ، وقال : إنه أخرجه ابن عبد الحكم فى تاريخ مصر ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الدلائل .

وكل هذا من الإسرائيليات التى دست على النبى ـ ﷺ ـ ولو شئت أن أُقسم بين الركن والمقام أن رسول الله ـ ﷺ ـ ما قال هذا ، لأَقسمت ، وابن لهيعة ضعيف فى الحديث .

وقد كشف لنا الإمام الحافظ ابن كثير عن حقيقة هذه الرواية فى تفسيره ، وأنحى باللائمة على من رواها ، فقال : « وقد أورد ابن جرير ههنا ، والأموى فى مغازيه ، حديثاً أسنده ، وهو ضعيف ، عن عقبة بن عامر : أن نفرا من اليهود جاءُوا يسألون النبى ـ ﷺ ـ عن ذى القرنين ، فأخبرهم بما جاءُوا له ابتداءً ، فكان فيما أخبرهم به : أنه كان شابًّا من الروم ، وأنه بنى الإسكندرية ، وأنه علا به مَلَكٌ فى السماء وذهب به إلى السد ، ورأى أقواماً وجوههم مثل وجوه الكلاب ... وفيه طول ونكارة ، ورفعه لا يصح ، وأكثر ما فيه : أنه من أخبار بنى إسرائيل .

والعجب : أن أبا زرعة الرازى مع جلالة قدره ساقه بتمامه فى كتاب (دلائل النبوة) ، وذلك غريب منه ، فيه من النكارة أنه من الروم ، وإنما الذى كان من الروم : الإسكندر الثانى ، وهو ابن فيلبس المقدونى ، الذى تؤرخ به الروم .. وكان وزيره

---

(١) جامع البيان لابن جرير ج ١٥ ص ٧ ، ٨ .

(٢) ج ٤ ص ٢٤١ .

أرسطاطاليس الفيلسوف المشهور ، والله أعلم[1] .

ومن هو ذو القرنين ؟ :

والذى نقطع به : أنه ليس الإسكندر المقدونى ، لأن ما ذكره المؤرخون فى تاريخه لا يتفق وما حكاه القرآن الكريم عن ذى القرنين ، والذى نقطع به أيضاً أنه كان رجلا مؤمناً صالحاً ، ملكه شرق الأرض وغربها ، وكان من أمره : ما قصه الله تعالى فى كتابه ، وهذا ما ينبغى أن نؤمن به ، ونصدقه ، أما معرفة هويته ، وما اسمه ؟ ، وأين وفى أى زمان كان ؟ فليس فى القرآن ، ولا فى السنة الصحيحة ما يدل عليه ، على أن الاعتبار بقصته ، والانتفاع بها ، لا يتوقف على شىء من ذلك ، وتلك سمة من سمات القصص القرآنى ، وخصيصة من خصائصه أنه لا يعنى بالأشخاص ، والزمان ، والمكان مثل ما يعنى بانتزاع العبرة منها ، والاستفادة منها فيما سيقت له .

* * *

(٢٤) الإسرائيليات فى قصة يأجوج ومأجوج

من الإسرائيليات التى اتسمت بالغرابة ، والخروج عن سنة الله فى الفطرة ، وخلق بنى آدم : ما ذكره بعض المفسرين فى تفاسيرهم عند قوله تعالى : ﴿ **قَالُوا : يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تجعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا** ﴾[2] .

فقد ذكروا عن يأجوج ومأجوج الشىء الكثير من العجائب والغرائب ، قال السيوطى فى « الدر المنثور »[3] : أخرج ابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، وابن عدى ، وابن عساكر ، وابن النجار عن حذيفة قال : سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن يأجوج ، ومأجوج ، فقال : « **يأجوج ومأجوج أُمة ، كل أُمة أربعمائة ألف أُمة ، لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف رجل من صلبه ، كل حمل السلاح** » قلت : يا رسول الله ، صفهم

(١) تفسير ابن كثير عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **ويسألونك عن ذى القرنين ...** ﴾ ج ٥ ص ٣٢٢ .
(٢) الكهف : ٩٤ .
(٣) ج ٥ ص ٢٥٠ ، ٢٥١ .

لنا ، قال : « **هم ثلاثة أصناف : صنف منهم أمثال الأرز** » قلت : وما الأرز ؟ قال : « **شجر بالشام طول الشجرة عشرون ومائة ذراع فى السماء ، قال رسول الله – ﷺ – : هؤلاء الذين لا يقوم لهم جبل ، ولا حديد ، وصنف منهم : يفترش إحدى أُذنيه ، ويلتحف بالأُخرى ، لا يمرون بفيل ، ولا وحش ، ولا جمل ، ولا خنزير إلا أكلوه ، ومن مات منهم أكلوه ، مقدمتهم بالشام وساقتهم يشربون أنهار المشرق ، وبحيرة طبرية** » .

وقد ذكر ابن جرير فى تفسيره هذه الرواية وغيرها من الروايات الموقوفة ، وكذلك صنع القرطبى فى تفسيره ، وإذاكان بعض الزنادقة استباحوا لأنفسهم نسبة هذا إلى رسول الله – ﷺ – فكيف استباح هؤلاء الأئمة ذكر هذه المرويات المختلقة المكذوبة على رسول الله فى كتبهم ؟!

وهذا الحديث المرفوع نص الإمام أبو الفرج ابن الجوزى فى موضوعاته وغيره على أنه موضوع(١) ، ووافقه السيوطى فى اللآلى فكيف يذكره فى تفسيره ولا يعقب عليه ؟!

وحق له أن يكون موضوعاً : فالمعصوم – ﷺ – أجل من أن يروى عنه مثل هذه الخرافات ، وفى كتب التفسير من هذا الخلط وأحاديث الخرافة شىءٌ كثير ، ورووا فى هذا عن عبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن مسعود ، وعن كعب الأحبار ولكى تتأكد أن ما رفع إلى رسول الله إنما هى إسرائيليات نسبت إلى النبى زورا وكذباً : نذكر لك ما روى عن كعب ، قال : « خلق يأجوج ، ومأجوج ، ثلاثة أصناف : صنف كالأَرز ، وصنف : أربعة أذرع طول ، وأربعة أذرع عرض ، وصنف يفترشون آذانهم ، ويلتحفون بالأُخرى ، يأكلون مشائم(٢) نسائهم » .

وعلى حين نراهم يذكرون من هول وعظم خلقهم ما سمعت ، إذ هم يروون عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أنه قال : « إن يأجوج ومأجوج شبر ، وشبران ، وأطولهم ثلاثة أشبار ، وهم من ولد آدم » ، بل رووا عنه أنه قال : قال رسول الله – ﷺ – : « **بعثنى الله ليلة أُسرى بى إلى يأجوج ، ومأجوج ، فدعوتهم إلى دين الله وعبادته فأبوا أن يجيبونى ، فهم فى النار ، مع من عصى من ولد آدم وإبليس** » والعجب : أن السيوطى قال عن هذا

---

(١) اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة ج ١ ص ٩٠ .

(٢) جمع مشيمة ، وهى : ما ينزل مع الجنين حين يولدّ وبها يتغذى فى بطن أمه .

الحديث : إن سنده واه ، ولا أدرى لم ذكره مع وهاء سنده ؟! قال صاحب الدر : وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، والطبرانى والبيهقى فى البعث ، وابن مردويه ، وابن عساكر عن ابن عمر : عن النبى - ﷺ - قال : « **إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم ، ولا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً ، وإن من ورائهم ثلاث أمم : تاويل ، وتاريس ، ومنسك** » .

قال : وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم ، وصححه ، والبيهقى فى البعث ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله - ﷺ - قال : « **إن يأجوج ومأجوج يحفرون السد كل يوم ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا ، فستفتحونه غدا ، ولا يستثنى ، فإذا أصبحوا وجدوه قد رجع كما كان ، فإذا أراد الله بخروجهم على الناس : قال الذى عليهم : ارجعوا ، فستفتحونه إن شاء الله ويستثنى**[1] ، **فيعودون إليه ، وهو كهيئته حين تركوه ، فيحفرونه ، ويخرجون على الناس ، فيستقون المياه ، ويتحصن الناس منهم فى حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع مخضبة بالدماء ، فيقولون : قهرنا من فى الأرض ، وعلونا من فى السماء ، قسوا ، وعلوا ، فيبعث الله عليهم نَغَفاً**[2] **فى أعناقهم فيهلكون** » ، قال رسول الله - ﷺ - : « **فوالذى نفس محمد بيده : إن دواب الأرض لتسمن ، وتبطر ، وتشكر شكرا**[3] **من لحومهم** »[4] .

ومهما كان سند مثل هذا : فهو من الإسرائيليات عن كعب وأمثاله ، وقد يكون رفعها إلى النبى غلطاً وخطأً من بعض الرواة أو كيداً يكيد به الزنادقة اليهود للإسلام ، وإظهار رسوله بمظهر من يروى ما يخالف القرآن ، فالقرآن قد نص بما لا يحتمل الشك على أنهم لم يستطيعوا أن يعلوا السد ، ولا أن ينقبوه ، قال تعالى : ﴿ **فَمَا اسْطَاعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً** ﴾[5] .

---

(١) يعنى يقول : « إن شاء الله » لأنها فى معنى الاستثناء ، يعنى : إلا أن يشاء الله تعالى .
(٢) النغف - محركة - : دود يكون فى أنوف الإبل والغنم ، واحده : نغفة .
(٣) أى : تسمن سمنا .
(٤) الدر المنثور ج ٤ ص ٢٥١ .
(٥) الكهف : ٩٧ .

وإليك ما ذكره فى هذا الإمام الحافظ ، الناقد ، البصير : ابن كثير فى تفسيره ، قال بعد أن ذكر من رواه : وأخرجه الترمذى من حديث أبى عوانة ، عن قتادة ، ثم قال : غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه ، وإسناده جيد قوى ، ولكن متنه فى رفعه نكارة ، لأن ظاهر الآية : يقتضى أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ، ولا من نقبه ، لإحكام بنائه وصلابته وشدته ، ولكن هذا قد روى عن كعب الأحبار ، أنهم قبل خروجهم يأتونه ، فيلحسونه ، حتى لا يبقى منه إلا القليل فيقولون : غداً نفتحه ، فيأتون من الغد وقد عاد كما كان ، فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل ، فيقولون كذلك ، فيصبحون وهو كما كان ، فيلحسونه ، ويقولون : غداً نفتحه ، ويلهمون أن يقولوا : إن شاء الله ، فيصبحون وهو كما فارقوه ، فيفتحونه ، وهذا متجه ، ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب ، فإنه كان كثيراً ما كان يُجالسه ، ويحدثه ، فحدث به أبو هريرة ، فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع ، فرفعه ، والله أعلم(١) .

ومن الإسرائيليات المستنكرة فى هذا ما روى : أن يأجوج ومأجوج خلقوا من مَنِى خرج من آدم ، فاختلط بالتراب ، وزعموا : أن آدم كان نائماً فاحتلم ، فمن ثم اختلط منيه بالتراب ، ومعروف أن الأنبياء لا يحتلمون ، لأن الاحتلام من الشيطان .

قال ابن كثير : وهذا قول غريب جداً ، لا دليل عليه ، لا من عقل ولا من نقل ، ولا يجوز الاعتماد ههنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب ، لما عندهم من الأحاديث المفتعلة والله أعلم(٢) .

والخلاصـــة :

إن أصحاب الكهف ، وذا القرنين ، ويأجوج ومأجوج ، حقائق ثابتة لا شك ، وكيف لا ؟ وقد أخبر بها الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولكن الذى ننكره أشد الإنكار هذه الخرافات والأساطير التى حيكت حولهم ، وتدسست إلى المرويات الإسلامية ، والله ورسوله بريئان منها ، وإنما هى من أخبار بنى إسرائيل وأكاذيبهم ، وتحريفاتهم .

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوى ج ٥ ص ٣٣٣ .
(٢) المصدر السابق .

(٢٥) الإسرائيليات فى قصة بلقيس ملكة سبأ

ومن الإسرائيليات : ما ذكره بعض المفسرين ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **قيلَ لَها ادْخُلِى الصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ، وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّد مِن قَوارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنى ظَلَمْتُ نَفْسى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (النمل : الآية ٤٤) .

فقد ذكر ابن جرير ، والثعلبى ، والبغوى ، والخازن ، وغيرهم : « أن سليمان أراد أن يتزوجها ، فقيل له : إن رجليها كحافر الحمار ، وهى شعراءُ الساقين ، فأمرهم ، فبنوا له هذا القصر على هذه الصفة ، فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقيها لتخوضه ، فنظر سليمان ، فإذا هى أحسن الناس قدماً وساقاً ، إلا أنها كانت شعراء الساقين ، فكره ذلك ، فسأل الإنس ما يذهب هذا ؟ قالوا : الموسى ، فقالت بلقيس لم تمسنى حديدة[1] قط ، وكره سليمان ذلك ، خشية أن تقطع ساقيها ، فسأل الجن : فقالوا : لا ندرى ، ثم سأل الشياطين ؟ فقالوا : إنا نحتال لك حتى تكون كالفضة البيضاء ، فاتخذوا لها النورة[2] والحمام ، فكانت النورة والحمام من يومئذ »[3] .

وقد روى هذا عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ومجاهد ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب القرظى ، والسدى ، وابن جريج وغيرهم .

وروى أيضاً : أنها سألت سيدنا سليمان عن أمرين قالت له : أُريد ماءً ليس من أرض ولا من سماءٍ ! ! فسأل سليمان الإنس ، ثم الجن ، ثم الشياطين ، فقالت الشياطين : هذا هين ، أجر الخيل ، ثم خذ عرقها ، ثم املأ منه الآنية ، فأمر بالخيل فأُجريت ، ثم أخذ العرق فملأ منه الآنية ! !

وسألته عن لون الله ـ عز وجل ـ فوثب سليمان عن سريره ، وفزع من السؤال ، وقال : لقد سألتنى ـ يارب ـ عن أمر ، إنه ليتعاظم فى قلبى أن أذكره لك ، ولكن الله

---

(١) المراد : الموسى التى تزيل الشعر .

(٢) مادة يزال بها الشعر .

(٣) كذب ظاهر ، كأن النورة والحمام لم يكونا إلا لها ، وكأن سليمان ـ عليه السلام ـ لم يكن له هم إلا إزالة شعر ساقيها ، وهو تجن صارخ على الأنبياء ، وإظهارهم بمظهر المتهالك على النساء ومحاسنهم ، فقبح الله اليهود .

أنساه ، وأنساهم ما سألته عنه .

وأن الشياطين خافوا لو تزوجها سليمان ، وجاءت بولد ، أن يبقوا فى عبوديته ، فصنعوا له هذا الصرح الممرد[1] ، فظنته ماءً ، فكشفت عن ساقيها لتعبره ، فإذا هى شعراءُ ، فاستشارهم سليمان : ما يذهبه ؟ فجعلت له الشياطين النورة[2] .

قال العلامة ابن كثير فى تفسيره ، بعد أن ذكر بعض المرويات : والأقرب فى مثل هذه السياقات : أنها متلقاة عن أهل الكتاب ، مما وجد فى صحفهم ، كرواية كعب ، ووهب ، سامحهما الله فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بنى إسرائيل من الأوابد[3] ، والغرائب ، والعجائب مما كان ، وما لم يكن ، ومما حرف ، وبدل ، ونسخ ، وقد أغنانا الله عن ذلك بما هو أصح منه ، وأنفع ، وأوضح ، وأبلغ ، ولله الحمد والمنة .

التفسير الصحيح لبناء الصرح :

والحق : أن سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ أراد ببنائه الصرح : أن يريها عظمة ملكه ، وسلطانه ، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أعطاه من الملك ، ومن أسباب العمران والحضارة مالم يعطها ، فضلا عن النبوة التى هى فوق الملك ، والتى دونها أية نعمة ، وحاشا لسليمان ـ عليه السلام ـ وهو الذى سأل الله أن يعطيه حكماً يوافق حكمه ـ أى الله ، فأُوتيه ـ أن يتحايل هذا التحايل ، حتى ينظر إلى ما حرم الله عليه ، وهما ساقاها ، وهو أجل من ذلك وأسمى .

ولولا أنها رأت من سليمان ماكان عليه من الدين المتين ، والخلق الرفيع ، لما أذعنت إليه لما دعاها إلى الله الواحد الحق ، ولما ندمت على ما فرط منها من عبادة الكواكب والشمس ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين .

* * *

---

(١) الصرح : هو القصر المشيد المحكم البناء ، المرتفع فى السماء ، والممرد : الناعم الأملس . القوارير : الزجاج الشديد الصفاء .

(٢) تفسير ابن كثير والبغوى ج ٦ ص ٢٨٦ ، ٢٨٩ .

(٣) جمع آبدة ، وهى : الأمور المشكلة البعيدة المعانى ، وأصل الآبدة : النافرة من الوحش التى يستعصى أخذها ، ثم شبه بها الكلام المشكل العويص المعانى .

(٢٦) الإسرائيليات فى هدية ملكة سبأ لسيدنا سليمان

ومن الإسرائيليات : ما ذكره كثير من المفسرين : كابن جرير ، والثعلبى ، والبغوى ، وصاحب « الدر » ، فى الهدية التى أرسلتها بلقيس إلى سيدنا سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وإليك ما ذكره البغوى فى تفسيره ، وذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وإنِّى مرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّة فَنَاظِرَةٌ بمَ يَرْجعُ الْمرْسَلُونَ** ﴾ (النمل : الآية ٣٥) .

قال البغوى :

فأهدت إليه وُصفاء ووصائف ، قال ابن عباس : ألبستهم لباسا واحداً كى لا يعرف الذكر من الأُنثى ، وقال مجاهد : ألبس الغلمان لباس الجوارى ، وألبس الجوارى لبسة الغلمان ، واختلفوا فى عددهم فقال ابن عباس : مائة وصيف ، ومائة وصيفة[١] ، وقال مجاهد ومقاتل : مائتا غلام ، ومائتا جارية ، وقال قتادة وسعيد بن جبير وغيرهما : أرسلت إليه بِلَبِنةٍ من ذهب فى حرير ، وديباج ...

وقال وهب وغيره : عمدت بلقيس إلى خمسمائة غلام ، وخمسمائة جارية ، فألبست الغلمان لباس الجوارى ، وجعلت فى سواعدهم أساور من ذهب ، وفى أعناقهم أطواقا من ذهب ، وفى آذانهم أقراطا ، وشنوفا مرصعات بأنواع الجواهر ، وألبست الجوارى لباس الغلمان : الأقبية والمناطق ، وحملت الجوارى على خمسمائة رمكة[٢] ، والغلمان على خمسمائة برذون[٣] على كل فرس لجام من ذهب مرصع بالجواهر ، وغواشيها من الديباج الملون ، وبعثت إليه خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة لبنة من فضة ، وتاجا مكللاً بالدر ، والياقوت ، وأرسلت إليه المسك والعنبر والعود وعمدت إلى حقة ، فجعلت فيها درة ثمينة غير مثقوبة ، وخرزة مثقوبة معوجة الثقب ، وأرسلت مع الهدية رجالا من عقلاء قومها ، وكتبت معهم كتابا إلى سليمان بالهدية ، وقالت : إن كنت نبيا فميز لى بين الوصائف والوصفاء ، وأخبرنى بما فى الحقة قبل أن تفتحها ، واثقب الدر ثقبا مستويا ، وأدخل خيطا فى الخرزة المثقوبة من غير علاج إنس ولا جن ، ورووا أيضا : أن سليمان ـ عليه

---

(١) أى : خادم ، وخادمة .

(٢) أنثى البغال .

(٣) البغل .

السلام ـ أمر الجن أن يضربوا لبنات الذهب ولبنات الفضة ، ثم أمرهم أن يفرشوا الطريق من موضعه الذى هو فيه إلى تسعة فراسخ ميدانا واحدا بلبنات الذهب والفضة ! ! ! وأن يعدوا فى الميدان أعجب دواب البر والبحر ، فأعدوها ، ثم قعد على سريوه ، وأمر الشياطين أن يصطفوا صفوفا فراسخ ، وأمر الإنس فاصطفوا فراسخ ، وأمر الوحوش ، والسباع والهوام ، والطير ، فاصطفوا فراسخ عن يمينه ، وعن يساره ، فلما دنا القوم من الميدان ، ونظروا إلى ملك سليمان ، ورأوا الدواب التى لم تر أعينهم مثلها تروث على لَبِنِ الذهب والفضة ، تقاصرت أنفسهم ، ورموا بما معهم من الهدايا ، ثم كان أن استعان سليمان بجبريل ، والشياطين ، والأرضة فى الإجابة عما سألته عنه[(١)] .

ومعظم ذلك مما لا نشك أنه من الإسرائيليات المكذوبة[(٢)] ، وأى ملك فى الدنيا يتسع لفرش تسع فراسخ بلبنات الذهب والفضة ؟ ! ! وفى رواية وهب ما يدل على الأصل الذى جاءت منه هذه المرويات ، وأن من روى ذلك من السلف فإنما أخذه عن مسلمة أهل الكتاب وما كان أجدر كتب التفسير أن تنزه عن مثل هذا اللغو ، والخرافات التى تدسست إلى الرواية الإسلامية فأساءت إليها .

* * *

(٢٧) الإسرائيليات فى قصة الذبيح وأنه إسحاق

ومن الإسرائيليات : ما يذكره كثير من المفسرين عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهدِينِ . رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ . فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ . فلمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ**[(٣)] ، **وَنَادَيْنَاهُ أَن يَآ إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ . وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِى**

---

(١) تفسير البغوى على هامش تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٧٨ ، ٢٨٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٨١ ط المنار .

(٣) أضجعه على جبينه على الأرض ، وللإنسان جبينان والجبهة بينهما .

الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ . وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ . وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾[1] .

فقد روى كثير من المفسرين ، منهم ابن جرير[2] ، والبغوى[3] ، و « صاحب الدر »[4] فى هذا : روايات كثيرة عن بعض الصحابة والتابعين وكعب الأحبار : أن الذبيح هو : إسحاق .

ولم يقف الأمر عند الموقوف على الصحابة والتابعين ، بل رفعوا ذلك زورا إلى النبى – ﷺ – .

روى ابن جرير ، عن أبى كريب ، عن زيد بن حباب ، عن الحسن بن دينار ، عن على بن زيد بن جدعان ، عن الحسن ، عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب ، عن النبى – ﷺ – قال : « **الذبيح إسحاق** » .

وهو حديث ضعيف ساقط لا يصح الاحتجاج به : فالحسن بن دينار متروك ، وشيخه على بن زيد بن جدعان منكر الحديث[5] .

وأخرج الديلمى فى مسند الفردوس بسنده عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله – ﷺ – : « **إن داود سأل ربه مسألة ، فقال : اجعلنى مثل إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، فأوحى الله إليه : إنى ابتليت إبراهيم بالنار فصبر ، وابتليت إسحاق بالذبح فصبر ، وابتليت يعقوب فصبر** » .

وبما أخرجه الدارقطنى ، والديلمى – فى مسند الفردوس – بسندهما عن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله – ﷺ – : « **الذبيح إسحاق** » .

وهى أحاديث لا تصح ولا تثبت ، وأحاديث الديلمى فى مسند الفردوس شأنها

---

(١) الصافات : من ٩٩ – ١١٣ .
(٢) تفسير ابن جرير عند تفسير هذه الآيات .
(٣) تفسير البغوى على هامش ابن كثير ج ٧ ص ١٤٧ .
(٤) تفسير الدر المنثور ج ٥ من ص ٢٧٩ – ٢٨٤ .
(٥) تفسير ابن كثير والبغوى ج ٧ ص ١٥٤ .

معروف ، والدارقطنى ربما يخرج فى سننه ما هو موضوع[1] .

وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن أبى حاتم فى تفسيره من طريق الوليد بن مسلم ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أَسلم ، عن أَبيه عن عطاءِ بن يسار ، عن أَبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **إِن الله ـ تعالى ـ خيرنى بين أَن يغفر لنصف أُمتى أَو شفاعتى ، فاخترت شفاعتى ، ورجوت أَن تكون أَعم لأُمتى ، ولولا الذى سبقنى إليه العبد الصالح لعجلت دعوتى ، إن الله ـ تعالى ـ لما فرج عن إِسحاق كرب الذبح قيل له يا إِسحاق : سل تعطه قال : أَما والله لأَتعجلنها قبل نزغات الشيطان : اللهم من مات لا يشرك بالله شيئاً قد أَحسن فاغفر له** » .

وعبد الرحمن بن زيد ، بن أسلم ، ضعيف ، ويروى المنكرات ، والغرائب فلا يحتج بمروياته ، وقال ابن كثير : الحديث غريب منكر ، وأَخشى أَن يكون فيه زيادة مدرجة ، وهو قوله : « **إن الله لما فرج ...** » وإن كان محفوظاً ، فالأَشبه أَنه إسماعيل ، وحرفوه بإسحاق ، إلى غير ذلك من الأخبار ، وفيها من الموقوف والضعيف ، والموضوع كثير ، ومتى صح حديث مرفوع فى أن الذبيح إسحاق قبلناه ، ووضعناه على العين والرأس ، ولكنها كما رأيت لم يصح منها شىءُ[2] .

والحق : أَن المرويات فى أَن الذبيح إسحاق هى من إسرائيليات أهل الكتاب ، وقد نقلها من أسلم منهم ، ككعب الأحبار ، وحملها عنهم بعض الصحابة والتابعين تحسيناً للظن بهم ، فذهبوا إليه ، وجاء بعدهم العلماء فاغتروا بها ، وذهبوا إلى أن الذبيح : إسحاق[3] ، وما من كتاب من كتب التفسير ، والسير ، والتواريخ إلا ويذكر فيه الخلاف بين السلف فى هذا ، إلا أن منهم من يعقب ببيان وجه الحق فى هذا ، ومنهم من لا يعقب اقتناعا بها ، أو تسليماً لها .

وحقيقة هذه المرويات : أنها من وضع أهل الكتاب ، لعداوتهم المتأصلة من قديم الزمان للنبى الأُمى العربى ، وقومه العرب ، فقد أرادوا أن لا يكون لإسماعيل الجد الأعلى للنبى والعرب فضل أنه الذبيح حتى لا ينجر ذلك إلى النبى ـ ﷺ ـ ، وإلى الجنس العربى .

---

(١) انظر أعلام المحدثين للمؤلف .

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ١٣٥ ، ١٣٦ ط منير .

(٣) تفسير ابن كثير والبغوى ج ٧ ص ١٥٤ .

تحريفهم للتوراة :

ولأجل أن يكون هذا الفضل لجدهم إسحاق ـ عليه السلام ـ لا لأخيه إسماعيل : حرفوا التوراة فى هذا ، ولكن الله أبى إلا أن يغفلوا عما يدل على هذه الجريمة النكراء ، والجانى ـ غالباً ـ يترك من الآثار ما يدل على جريمته ، والحق يبقى له شعاع ، ولو خافت ، يدل عليه ، مهما حاول المبطلون إخفاءَ نوره ، وطمس معالمه ، فقد حذفوا من التوراة لفظ : « إسماعيل » ، ووضعوا بدله لفظ : « إسحاق » ولكنهم غفلوا عن كلمة كشفت عن هذا التزوير ، وذاك الدس المشين .

نص التوراة :

فى التوراة : (الإصحاح الثانى والعشرون ـ فقرة ٢) : « فقال الرب : خذ ابنك وحيدك الذى تحبه : إسحاق ، واذهب إلى أرض المريا ، واصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك .. » .

وليس أدل على كذب هذا ، من كلمة : « وحيدك » وإسحاق ـ عليه السلام ـ لم يكن وحيدا قط ! لأنه ولد ولإسماعيل نحو أربع عشرة سنة كما هو صريح توراتهم فى هذا ، وقد بقى إسماعيل ـ عليه السلام ـ حتى مات أبوه الخليل ، وحضر وفاته ، ودفنه ، وإليك ما ورد فى هذا(١) :

فى سفر التكوين : (الإصحاح السادس عشر الفقرة ١٦) ما نصه :

« وكان أبرام ـ يعنى إبراهيم ـ ابن ست وثمانين سنة ، لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام » ، وفى سفر التكوين : (الإصحاح الحادى والعشرون فقرة « ٥ ») ما نصه :

« وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحاق ابنه .. » .

وفى الفقرة ٩ وما بعدها ما نصه :

(٩) ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذى ولدته لإبراهيم يمرح (١٠) فقالت لإبراهيم : اطرد هذه الجارية وابنها ، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحاق (١١) فقبح الكلام جدا فى عينى إبراهيم لسبب ابنه (١٢) فقال الله لإبراهيم : لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ، ومن أجل جاريتك ، فى كل ما تقول سارة اسمع لقولها لأنه بإسحاق يدعى لك نسل (١٣) وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة ، لأنه نسلك » (٢) إلى آخر القصة .

فما قولكم يا أيها اليهود المحرفون ؟! ، وكيف يتأتى أن يكون إسحاق وحيدا ؟! مع هذه النصوص التى هى من توراتكم التى تعتقدون صحتها ، وتزعمون أنها ليست

---

(١) وقد ذكرت القصة فى التوراة فى ١٤ فقرة فليرجع إليها من يشاء لتكون لنا الحجة عليهم من نفس كتابهم المقدس .

(٢) ويصدق هذا كتاب الله الشاهد على الكتب السماوية كلها قوله سبحانه حكاية لمقالة إبراهيم ، وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ بعد أن بنيا البيت : ﴿ **ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك** ... ﴾ ولو أن اليهود وعوا ما جاء فى التوراة والقرآن لعلموا أنه ستكون أمة لها شأنها من نسل إسماعيل ، ولما حسدوا العرب على هذا الفضل .

محرفة ! ! ، ثم ما رأيكم أيها المغترون بروايات أن الذبيح إسحاق ، بعد ما تأكدتم تحريف التوراة فى هذا ؟

وقد دل القرآن الكريم ، ودلت التوراة ، ورواية البخارى فى صحيحه[1] : على أن الخليل إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أسكن هاجر وابنها عند مكان البيت المحرم ، حيث بنى فيما بعد ، وقامت مكة بجواره ، وقد عبرت التوراة : بأنهما كانا فى برية فاران ، وفاران هى مكة ، كما يعبر عنها فى العهد القديم ، وهذا هو الحق فى أن قصة الذبح كان مسرحها بمكة ومنى ، وفيها يذبح الحجاج ذبائحهم اليوم ، وقد حرف اليهود النص الأول وجعلوه : « جبل المريا » ، وهو الذى تقع عليه مدينة أورشليم القديمة ـ مدينة القدس العربية اليوم ـ ليتم لهم ما أرادوا ، فأبى الحق إلا أن يظهر تحريفهم ! !

وقد ذكر العلامة ابن تيمية وتلميذه ابن كثير : أن فى بعض نسخ التوراة : « بِكرك »[2] بدل : « وحيدك » وهو ، أظهر فى البطلان ، وأدل على التحريف ، إذ لم يكن إسحاق بِكرا للخليل بنص التوراة ، كما ذكرنا آنفاً .

الذبيح هو إسماعيل عليه السلام :

والحق : أن الذبيح هو : إسماعيل ـ عليه السلام ـ ، وهو الذى يدل عليه ظواهر الآيات القرآنية ، والآثار عن الصحابة والتابعين ، ومنها ما له حكم الرفع بتقرير النبى ـ ﷺ ـ له .

فلا عجب أن ذهب إليه جمهرة الصحابة ، والتابعين ، ومن بعدهم وأئِمة العلم والحديث ، منهم الصحابة النجباء ، والسادة العلماء : على ، وابن عمر[3] ، وأبو هريرة ، وأبو الطفيل ، وسعيد ابن جبير ، ومجاهد ، والشعبى ، والحسن البصرى ، ومحمد ابن كعب القرظى ، وسعيد بن المسيب ، وأبـو جعفر محمد الباقر ، وأبو صالح ، والربيع

---

(١) صحيح البخارى ـ كتاب أحاديث الأنبياء ـ باب « واتخذ الله إبراهيم خليلا » .

(٢) أول مولود يولد للشخص .

(٣) ذكروا أن الفاروق عمر كان يقول : إنه إسحاق ، وأنا أستبعد ذلك جدا ، وهو أيقظ من أن يخدع برواية كعب ولو صح ما نقل عنه لتأثر الابن بأبيه ، وكذلك اختلف فى على فالبغوى على أنه يقول : إسحاق : وابن أبى حاتم على أنه يقول : (إسماعيل) . تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٥٥ .

ابن أنس ، وأبو عمرو بن العلاء وأحمد بن حنبل وغيرهم ، وهو إحدى الروايتين وأقواهما عن ابن عباس .

وفى زاد المعاد ، لأبن القيم : أنه الصواب عند علماء الصحابة والتابعين فمن بعدهم .

وهذا الرأى هو المشهور عند العرب قبل البعثة ، نقلوه بالتواتر جيلا عن جيل ، وذكره أُمية بن أبى الصلت فى شعر له .

العلماء المحققون على أنه إسماعيل :

وقد نقل العلامة ابن القيم ، عن شيخه الإمام : ابن تيمية فى هذا الموضوع كلاما جيدا ، قال ما خلاصته :

ولا خلاف بين النسابين : أن عدنان من ولد إسماعيل ـ عليه السلام ـ وإسماعيل هو القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وأما القول بأنه إسحاق فباطل من عشرين وجها وسمعت شيخ الإسلام : ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : هذا القول متلقى عن أهل الكتاب ، مع أنه باطل بنص كتابهم ، فإن فيه : « إن الله أمر إبراهيم بذبح ابنه بكره » ، وفى لفظ : « وحيده » ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين : أن إسماعيل هو بكر أولاده ، والذى غر هؤلاء : أنه فى التوراة التى بأيديهم : « اذبح ابنك إسحاق » قال : وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم ، لأنها تناقض قوله : « اذبح بكرك ووحيدك » ، ولكن اليهود حسدت بنى إسماعيل على هذا الشرف ، وأحبوا أن يكون لهم ، وأن يسوقوه إليهم ، ويختاروه لأنفسهم دون العرب ، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله .

وكيف يسوغ أن يقال : إن الذبيح إسحاق ؟ ، والله تعالى قد بشر أُم إسحاق به ، وبابنه يعقوب ، قال تعالى : ﴿ **فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوب** ﴾[1] .

فمحال أن يبشرها بأن يكون لها ولد ، وللولد ولد ، ثم يأمر بذبحه ، ولا ريب أن يعقوب ـ عليه السلام ـ داخل فى البشارة ، ويدل عليه أيضاً : أن الله ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح فى سورة الصافات ثم قال : ﴿ **وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ وهذا

(١) هود : ٧١ .

ظاهر جداً فى أن المبشر به غير الأول ، بل هو كالنص فيه ، وغير معقول فى أفصح الكلام وأبلغه أن يبشر بإسحاق بعد قصة يكون فيها هو الذبيح ، فتعين أن يكون الذبيح غيره .

وأيضاً : فلا ريب أن الذبيح كان بمكة ، ولذلك : جعلت القرابين يوم النحر بها ، كما جعل السعى بين الصفا والمروة ، ورمى الجمار تذكيراً لشأن إسماعيل وأُمه ، وإقامته لذكر الله ، ومعلوم : أن إسماعيل وأُمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحاق وأُمه ...

ولو كان الذبح بالشام ـ كما يزعم أهل الكتاب ـ : لكانت القرابين والنحر بالشام ، لا بمكة ، وأيضاً : فإن الله سبحانه سمى الذبيح حليما ، لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه ، ولما ذكر إسحاق سماه عليما : ﴿ **قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ** ﴾[1] وهذا إسحاق بلا ريب : لأنه من امرأته وهى المبشرة به ، وأما إسماعيل فمن السرية[2] ، وأيضاً : فلأنهما بشرا به على الكبر واليأس من الولد ، فكان ابتلاؤهما بذبحه أمرا بعيداً ، وأما إسماعيل : فإنه ولد قبل ذلك .. إلى آخر ما قال[3] .

دلالة الآثار على أن الذبيح إسماعيل :

وكذلك : دلت بعض الأحاديث والآثار عن الصحابة والتابعين على أن الذبيح إسماعيل ، روى الحاكم فى المستدرك ، وابن جرير فى تفسيره بسنده ، وغيرهما ، عن عبد الله بن سعيد الصنابحى ، قال : حضرنا مجلس معاوية ، فتذاكر القوم إسماعيل ، وإسحاق أيهما الذبيح ؟ فقال بعضهم : إسماعيل ، وقال البعض : إسحاق ، فقال معاوية : على الخبير سقطتم ، كنا عند رسول الله ـ ﷺ ـ فأتاه أعرابى ، فقال : يا رسول الله خلفت الكلأ يابسًا ، والمال عابسًا[4] ، هلك العيال ، وضاع المال ، فعد علىّ مما أفاء الله تعالى عليك يا ابن الذبيحين ، فتبسم رسول الله ـ ﷺ ـ ولم ينكر عليه ، فقال القوم : من الذبيحان يا أمير المؤمنين ؟ ، فقال : إن عبد المطلب لما أُمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل أمرها أن ينحر بعض بنيه ، فلما فرغ أسهم بينهم ، فكانوا عشرة ، فخرج السهم

---

(١) الذاريات : ٢٨ .

(٢) أى : الجارية .

(٣) زاد المعاد ج ١ ص ٢٨ ـ ٣٠ .

(٤) المراد به : الحياة ، أى : عابسا من شدة الجوع ، والعطش .

على عبد الله ، فأراد أن ينحره ، فمنعه أخواله : بنو مخزوم ، وقالوا : أرض ربك ، وافد ابنك ، ففداه بمائة ناقة ، قال معاوية : هذا واحد ، والآخر إسماعيل[١] .

وشهد شاهد من أهلها :

وروى ابن إسحاق ، عن محمد بن كعب القرظى : انه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة ، فقال له عمر : إن هذا لشيء ماكنت أنظر فيه ، وإنى لأراه كما قلت ، ثم أرسل إلى رجل كان يهودياً ، فأسلم وحسن إسلامه ، وكان من علمائهم ، فسأله : أى ابنى إبراهيم أمر بذبحه ؟ ، فقال : إسماعيل ـ والله ـ يا أمير المؤمنين ، وإن يهود لتعلم بذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب ، وهذا هو الحق الذى يجب أن يصار إليه ، قال ابن كثير فى تفسيره : « والذى استدل به محمد بن كعب القرظى على أنه إسماعيل أثبت ، وأصح ، وأقوى والله أعلم »[٢] .

وبعد هذا التحقيق والبحث ، يتبين لنا أن الصحيح : أن الذبيح إسماعيل ـ عليه السلام ـ وأن ما روى : من أنه إسحاق ، المرفوع منه إما موضوع ، وإما ضعيف لا يصح الاحتجاج به ، والموقوف منه على الصحابة أو على التابعين إن صح سنده إليهم هو من الإسرائيليات التى رواها أهل الكتاب الذين أسلموا ، وأنها فى أصلها من دس اليهود ، وكذبهم ، وتحريفهم للنصوص حسدا للعرب ، ولبنى العرب فقاتلهم الله أنى يُؤْفكون .

وقد جاز هذا الدس اليهودى على بعض كبار العلماء كابن جرير ، والقاضى عياض ، والسهيلى ، فذهبوا إلى أنه إسحاق ، وتحير بعضهم فى الروايات فتوقف ، كالسيوطى ، وحاول بعضهم الجمع بينها فزعم أن الذبح وقع مرتين ، والحق : ما وضحناه لك ، فلا تجوز ، ولا تتوقف ولا تقل بالتكرار ، والله الهادى إلى الحق .

* * *

(٢٨) الإسرائيليات فى قصة إلياس ـ عليه السلام ـ

ومن الإسرائيليات التى اشتملت عليها بعض كتب التفسير : ما ذكروه فى قصة إلياس

---

(١) هذا الحديث فى حكم المرفوع ، لتقرير النبى ـ ﷺ ـ للأعرابى على مقالته ، وقد اختلف فيه فمن مصحح له ، ومن مضعف .

(٢) تفسير ابن كثير والبغوى ج ٧ ص ١٠٦ .

ـ عليه السلام ـ عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلاَ تَتَّقُونَ . أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ . اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ . فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ . سَلاَمٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[1] .

فقد روى البغوى ، والخازن ، وصاحب « الدر » ، وغيرهم ، عن ابن عباس ، والحسن ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، مرويات تتعلق بإلياس ـ عليه السلام ـ .

قال صاحب « الدر المنثور » : أخرج ابن عساكر ، عن الحسن ـ رضى الله عنه ـ فى قوله : ﴿ **وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ ، قال : « إن الله تعالى بعث إلياس إلى بعلبك ، وكانوا قوماً يعبدون الأصنام ، وكانت ملوك بنى إسرائيل متفرقة على العامة ، كل ملك على ناحية يأكلها ، وكان الملك الذى كان إلياس معه يقوم له أمره ، ويقتدى برأيه ، وهو على هدى من بين أصحابه ، حتى وقع إليهم قوم من عبدة الأصنام ، فقالوا له : ما يدعوك إلا إلى الضلالة ، والباطل ، وجعلوا يقولون له : اعبد هذه الأوثان التى تعبد الملوك ، وهم على ما نحن عليه ، يأكلون ، ويشربون ، وهم فى ملكهم يتقلبون ، وما تنقص دنياهم من ربهم الذى تزعم أنه باطل ، وما لنا عليهم من فضل ، فاسترجع إلياس ، فقام شعر رأسه ، وجلده ، فخرج عليه إلياس .

قال الحسن : وإن الذى زين لذلك الملك امرأته ، وكانت قبله تحت ملك جبار ، وكان من الكنعانيين فى طول ، وجسم ، وحسن ، فمات زوجها فاتخذت تمثالا على صورة بعلها من الذهب ، وجعلت له حدقتين من ياقوتتين ، وتوجته بتاج مكلل بالدر والجوهر ، ثم أقعدته على سرير ، تدخل عليه ، فتدخنه ، وتطيبه ، وتسجد له ، ثم تخرج عنه ، فتزوجت بعد ذلك هذا الملك الذى كان إلياس معه ، وكانت فاجرة قد قهرت زوجها ، ووضعت البعل فى ذلك البيت ، وجعلت سبعين سادناً[2] ، فعبدوا البعل ، فدعاهم إلياس إلى الله فلم يزدهم ذلك إلا بعداً ، فقال إلياس : اللهم إن بنى إسرائيل قد أبوا إلا الكفر بك ، وعبادة غيرك ، فغير ما بهم من نعمتك ، فأوحى الله إليه : إنى قد جعلت

---

(١) الصافات : ١٢٣ ـ ١٣٠ .

(٢) هو الذى يقوم بخدمة الأصنام .

أرزاقهم بيدك ، فقال : اللهم أمسك عنهم القطر ثلاث سنين ، فأمسك الله عنهم القطر ، وأرسل إلى الملك فتاه اليسع ، فقال : قل له : إن إلياس يقول لك : إنك اخترت عبادة البعل على عبادة الله . واتبعت هوى امرأتك . فاستعد للعذاب والبلاء ، فانطلق اليسع ، فبلغ رسالته للملك ، فعصمه الله تعالى من شر الملك ، وأمسك الله عنهم القطر ، حتى هلكت الماشية والدواب ، وجهد الناس جهداً شديدا وخرج إلياس إلى ذروة جبل ، فكان الله يأتيه برزق ، وفجر له عينا معيناً لشرابه وطهوره ، حتى أصاب الناس الجهد ، فأرسل الملك إلى السبعين ، فقال لهم : سلوا البعل أن يفرج ما بنا ، فأخرجوا أصنامهم ، فقربوا لها الذبائح ، وعطفوا عليها ، وجعلوا يدعون ، حتى طال ذلك بهم ، فقال لهم الملك : إن إله إلياس كان أسرع إجابة من هؤلاء ، فبعثوا فى طلب إلياس ، فأتى ، فقال : أتحبون أن يفرج عنكم ؟ ، قالوا : نعم ، قال : فأخرجوا أوثانكم ، فدعا إلياس ـ عليه السلام ـ ربه ، أن يفرج عنه ، فارتفعت سحابة مثل الترس[١] ، وهم ينظرون ، ثم أرسل الله عليهم المطر ، فتابوا ورجعوا .

قال : وأخرج ابن عساكر ، عن كعب ـ رضى الله عنه ـ قال : « أربعة أنبياء اليوم أحياء ، اثنان فى الدنيا : إلياس والخضر ، واثنان فى السماء : عيسى وإدريس » .

قال : وأخرج ابن عساكر ، عن وهب ـ رضى الله عنه ـ قال : دعا إلياس ـ عليه السلام ـ ربه ، أن يريحه من قومه ، فقيل له : انظر يوم كذا وكذا ، فإذا رأيت دابة لونها مثل لون النار فاركبها . فجعل يتوقع ذلك اليوم ، فإذا هو بشىء قد أقبل على صورة فرس ، لونه كلون النار ، حتى وقف بين يديه ، فوثب عليه ، فانطلق به ، فكان آخر العهد به ، فكساه الله الريش ، وكساه النور ، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب ، فصار فى الملائكة ـ عليهم السلام ـ .

قال : وأخرج ابن عساكر ، عن الحسن ـ رضى الله عنه ـ قال : إلياس ـ عليه السلام ـ موكل بالفيافى . والخضر ـ عليه السلام ـ بالجبال ، وقد أُعطيا الخلد فى الدنيا إلى الصيحة الأولى[٢] ، وأنهما يجتمعان كل عام بالموسم .

---

(١) ما يلبسه المحارب

(٢) يعنى النفخة الأولى فى الصور .

قال : وأخرج الحاكم ، عن كعب ـ رضى الله عنه ـ ، قال : كان إلياس صاحب جبال وبرية يخلو فيها يعبد ربه ـ عز وجل ـ ، وكان ضخم الرأس ، خميص البطن ، دقيق الساقين ، فى صدره شامة حمراء ، وإنما رفعه الله إلى أرض الشام ، لم يصعد به إلى السماء ، وهو الذى سماه الله ذا النون (١) .

وكل هذا من أخبار بنى إسرائيل وتزيداتهم ، واختلاقاتهم ، وما روى منها عن بعض الصحابة والتابعين : فمرجعه إلى مسلمة أهل الكتاب ككعب ، ووهب وغيرهما ، وقد رأيت كيف تضارب وتناقض كعب ووهب ، فكعب يقول : لم يصعد به إلى السماء ، ويزعم أنه ذو النون ، ووهب يقول : إنه رفعه إلى السماء ، وصار فى عداد الملائكة ـ عليهم السلام ـ وأن بعض الروايات تقول : إنه الخضر ، والبعض الآخر يقول : إنه غير الخضر ، إلى غير ذلك من الاضطرابات والأباطيل ، كزعم مختلق الروايات الأولى : « أن الله أوحى إلى إلياس إنى قد جعلت أرزاقهم بيدك » ، بينما فى بعض الروايات الأخرى : أن الله أبى عليه ذلك مرتين ، وأجابه فى الثالثة ، وهكذا الباطل يكون مضطربا لجلجا ، وأما الحق : فهو ثابت أبلج .

ولم يقف الأمر عند نقل هذه الإسرائيليات عمن ذكرنا ، بل بلغ الافتراء ببعض الزنادقة والكذابين إلى نسبة ذلك إلى النبى ـ ﷺ ـ كى يؤيد به أكاذيب بنى إسرائيل وخرافاتهم ، وكى يعود ذلك بالطعن على صاحب الرسالة العامة الخالدة ـ ﷺ ـ .

قال السيوطى فى « الدر » : وأخرج ابن مردوية عن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **الخضر هو : إلياس** » .

وأخرج الحاكم ـ وصححه ـ والبيهقى فى الدلائل ـ ، وضعفه عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : « كنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ فى سفر فنزلنا منزلا ، فإذا رجل فى الوادى يقول : اللهم اجعلنى من أمة محمد المرحومة ، المغفورة ، المثاب لها ، فأشرفت على الوادى ، فإذا رجل طوله ثلاثمائة ذراع وأكثر ، فقال : من أنت ؟ قلت : أنس : خادم رسول الله ـ ﷺ ـ ، فقال : أين هو؟ قلت : هو ذا يسمع كلامك ، قال : فأته ،

---

(١) الدر المنثور ج ٥ ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

وأقرئه منى السلام ، وقل له : أخوك إلياس يقرئك السلام ، فأتيت النبى - ﷺ - فأخبرته ، فجاء حتى عانقه ، وقعدا يتحدثان ، فقال له : يا رسول الله : إنى إنما آكل فى كل سنة يوماً ، وهذا يوم فطرى فكل أنت ، وأنا ، فنزلت عليهما مائدة من السماء ، وخبز ، وحوت ، وكرفس ، فأكلا ، وأطعمانى ، وصليا العصر ، ثم ودعنى ، وودعته ، ثم رأيته مر على السحاب نحو السماء .

قال الحاكم : صحيح الإسناد ، وقال الإمام الذهبى : بل هو موضوع ، قبح الله من وضعه ، قال - أى الذهبى - وماكنت أحسب ولا أجوز أن الجهل يبلغ بالحاكم أن يصحح مثل هذا .

وأخلق بهذا أن يكون موضوعاً ، كما قاله الإمام الحافظ الناقد البصير الذهبى .

* * *

(٢٩) الإسرائيليات فى قصة داود - عليه السلام -

ومن الإسرائيليات التى تخل بمقام الأنبياء ، وتنافى عصمتهم ، ما ذكره بعض المفسرين فى قصة سيدنا داود - عليه السلام - عند تفسير قوله تعالى :

﴿ وَهَل أَتَاكَ نَبأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاودَ فَفَزِعَ مِنهُمْ قَالَوا لاَ تَخَفْ خَصْمَان بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِراطِ . إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسعُونَ نَعْجَةً وَّلِىَ نَعْجَةٌ وَّاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا[١] وَعَزَّنِى[٢] فِى الْخِطَابِ . قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَال نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِه وَإِنَّ كَثيراً مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ . فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾[٣] .

فقد ذكر ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، والبغوى ، والسيوطى فى : « الدر المنثور »[٤]

---

(١) أكفلنيها : ضمها إلى .
(٢) عزنى : غلبنى فى القول لقوته ، وجاهه وضعفى .
(٣) ص الآية : ٢١ - ٢٥ .
(٤) ج ٥ ص ٣٠٠ - ٣٠٢ .

من الأخبار ما تقشعر منه الأبدان ، ولا يوافق عقلا ، ولا نقلا ، عن ابن عباس ، ومجاهد ، ووهب بن منبه ، وكعب الأحبار ، والسدى ، وغيرهم مَا مُحصَّلها : أن داود ـ عليه السلام ـ حدث نفسه : إن ابتلى أن يعتصم فقيل له : إنك ستبتلى وستعلم اليوم الذى تبتلى فيه ، فخذ حذرك ، فقيل له : هذا اليوم الذى تبتلى فيه فأخذ الزبور(١) ، ودخل المحراب ، وأغلق بابه ، وأقعد خادمه على الباب ، وقال : لا تأذن لأحد اليوم ، فبينما هو يقرأ الزبور ، إذ جاء طائر مذهب يدرج بين يديه ، فدنا منه ، فأمكن أن يأخذه ، فطار فوقع على كوة المحراب ، فدنا منه ليأخذه ، فطار ، فأشرف عليه لينظر أين وقع ، فإذا هو بامرأة عند بركتها تغتسل من الحيض ، فلما رأت ظله نفضت شعرها ، فغطت جسدها به ، وكان زوجها غازياً فى سبيل الله ، فكتب داود إلى رأس الغزاة : أن اجعله فى حملة التابوت(٢) ، وكان حملة التابوت إما أن يفتح عليهم ، وإما أن يقتلوا ، فقدمه فى حملة التابوت ، فقتل ، وفى بعض هذه الروايات الباطلة : أنه فعل ذلك ثلاث مرات ، حتى قتل فى الثالثة ، فلما انقضت عدتها ، خطبها داود ـ عليه السلام ـ ، فتسور عليه الملكان ، وكان ماكان ، مما حكاه الله تعالى : « رفع ذلك إلى النبى » .

ولم يقف الأمر عند هذه الروايات الموقوفة عن بعض الصحابة والتابعين ، ومسلمة أهل الكتاب بل جاء بعضها مرفوعاً إلى النبى ـ ﷺ ـ .

قال صاحب « الدر » : وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأُصول ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم بسند ضعيف ، عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « **إن داود ـ عليه السلام ـ حين نظر إلى المرأة ، قطع(٣) على بنى إسرائيل ، وأوصى صاحب الجيش ، فقال : إذا حضر العدو فقرب فلانا بين يدى التابوت** » ، وكان التابوت فى ذلك الزمان يستنصر به من قدم بين يدى التابوت لم يرجع حتى يقتل أو ينهزم معه الجيش ، فقتل ، وتزوج المرأة ، ونزل الملكان على داود ـ عليه السلام ـ فسجد ، فمكث أربعين ليلة ساجداً حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه ،

---

(١) كتاب داود ـ عليه السلام ـ .

(٢) صندوق فيه بعض مخلفات أنبياء بنى إسرائيل ، فكانوا يقدمونه بين يدى الجيش كى ينصروا .

(٣) هى هكذا فى « الدر المنثور » وفى تفسير البغوى ولعلها قطع .

فأكلت الأرض جبينه ، وهو يقول فى سجوده « ربِّ ذل داود ذلة أبعد مما بين المشرق والمغرب ، رب إن لم ترحم ضعف داود ، وتغفر ذنوبه جعلت ذنبه حديثاً فى المخلوق من بعده ، فجاء جبريل ـ عليه السلام ـ من بعد أربعين ليلة ، فقال : يا داود إن الله قد غفر لك ، وقد عرفت أن الله عدل لا يميل ، فكيف بفلان إذا جاء يوم القيامة ، فقال : يا رب دمى الذى عند داود قال جبريل : ما سألت ربك عن ذلك ، فإن شئت لأفعلن ، فقال ، نعم ، فعرج جبريل ، وسجد داود ـ عليه السلام ـ ، فمكث ما شاء الله ، ثم نزل ، فقال : قد سألت الله يا داود عن الذى أرسلتنى فيه ، فقال ، قل لداود : إن الله يجمعكما يوم القيامة ، فيقول له : هب لى دمك الذى عند داود ، فيقول : هو لك يارب ، فيقول ، فإن لك فى الجنة ما شئت ، وما اشتهيت عوضاً ، وقد رواها البغوى أيضاً عن طريق الثعلبى[1] والرواية منكرة مختلقة على الرسول . وفى سند هذه الرواية المختلفة على رسول الله ـ ﷺ ـ : ابن لهيعة ، وهو مضعف فى الحديث ، وفى سندها أيضاً : يزيد بن أبان الرقاشى ، كان ضعيفاً فى الحديث .

وقال فيه النسائى ، والحاكم أبو أحمد : إنه متروك ، وقال فيه ابن حبان : كان من خيار عباد الله ، من البكائين بالليل ، غفل عن حفظ الحديث شغلا بالعبادة ، حتى كان يقلب كلام الحسن يجعله عن أنس عن النبى ـ ﷺ ـ ، فلا تحل الرواية عنه إلا على جهة التعجب[2] .

وقال العلامة ابن كثير فى تفسيره[3] : « وقد ذكر المفسرون ههنا قصة ؛ أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ، ولكن روى ابن أبى حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده ؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشى ، عن أنس ـ رضى الله عنه ـ ، ويزيد وإن كان من الصالحين ، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة » .

ومن ثم يتبين لنا : كذب رفع هذه الرواية المنكرة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ، ولا نكاد نصدق ورود هذا عن المعصوم ، وإنما هى اختلاقات ، وأكاذيب من إسرائيليات أهل

---

(١) تفسير البغوى على هامش تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٩١ ، ١٩٢ ، الدر المنثور ج ٥ ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ .
(٢) تهذيب التهذيب ج ١١ ص ٣٠٩ .
(٣) ج ٧ ص ١٨٩ (ط المنار) .

الكتاب ، وهل يشك مؤمن عاقل يقر بعصمة الأنبياء فى استحالة صدور هذا عن داود ـ عليه السلام ـ ، ثم يكون على لسان من ؟ على لسان من كان حريصاً على تنزيه إخوانه الأنبياء عما لا يليق بعصمتهم ، وهو : نبينا محمد ـ ﷺ ـ ومثل هذا التدبير السيء ، والاسترسال فيه على ما رووا ، لو صدر من رجل من سوقة الناس وعامتهم ، لاعتبر هذا أمراً مستهجناً مستقبحاً ، فكيف يصدر من رسول جاء لهداية الناس ، زكت نفسه ، وطهرت سريرته ، وعصمه الله من الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وهو الأُسوة الحسنة لمن أُرسل إليهم ؟!!

ولو أن القصة كانت صحيحة لذهبت بعصمة داود ، ولنفرت منه الناس ، ولكان لهم العذر فى عدم الإيمان به ، فلا يحصل المقصد الذى من أجله أرسل الرسل ، وكيف يكون على هذه الحال من قال الله تعالى فى شأنه : ﴿ **وإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ** ﴾ ؟ قال ابن كثير فى تفسيرها : « وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله عز وجل بها وحسن مرجع وهو : الدرجات العالية فى الجنة لنبوته وعدله التام فى ملكه ، كما جاء فى الصحيح : « المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يقسطون فى حكمهم ، وما ولوا » ، وقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **إن أحب الناس إلىّ يوم القيامة وأقربهم منى مجلساً : إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلىّ يوم القيامة ، وأشدهم عذاباً : إمام جائر** » رواه أحمد ، والترمذى[1] .

ولكى يستقيم هذا الباطل قالوا : إن المراد بالنعجة هى : المرأة ، وأن القصة خرجت مخرج الرمز والإشارة ، ورووا : أن الملكين لما سمعا حكم داود ، وقضاءه بظلم صاحب التسع والتسعين نعجة لصاحب النعجة ، قالا له : وما جزاء من فعل ذلك ؟ قال : يقطع هذا ، وأشار إلى عنقه ، وفى رواية : « يضرب من ههنا ، وههنا ، وههنا » وأشار إلى جبهته ، وأنفه ، وما تحته ، فضحكا ، وقالا ، « أنت أحق بذلك منه ، ثم صعدا » .

وذكر البغوى فى تفسيره وغيره ، عن وهب بن منبه : أن داود لما تاب الله عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنة ، لا يرقأُ دَمْعه ليلا ، ولا نهاراً ، وكان أصاب الخطيئة ، وهو ابن

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٥ .

سبع وسبعين سنة ، فقسم الدهر بعد الخطيئة على أربعة أيام : يوم للقضاء بين بنى إسرائيل ، ويوم لنسائه ، ويوم يسيح فى الفيافى ، والجبال ، والسواحل ، ويوم يخلو فى دار له فيها أربعة آلاف محراب ، فيجتمع إليه الرهبان فينوح معهم على نفسه ، فيساعدونه على ذلك ، فإذا كان يوم نياحته يخرج فى الفيافى ، فيرفع صوته بالمزامير ، فيبكى ، ويبكى معه الشجر ، والرمال ، والطير ، والوحش ، حتى يسيل من دموعهم مثل الأنهار ، ثم يجىء إلى الجبال فيرفع صوته بالمزامير ، فيبكى ، وتبكى معه الجبال ، والحجارة ، والدواب ، والطير ، حتى تسيل من بكائهم الأودية ، ثم يجىء إلى الساحل فيرفع صوته بالمزامير ، فيبكى ، وتبكى معه الحيتان ، ودواب البحر وطير الماء والسباع (١) ... والحق : أن الآيات ليس فيها شىءُ مما ذكروا ، وليس هذا فى شىءٍ من كتب الحديث المعتمدة ، وهى التى عليها المعول ، وليس هناك ما يصرف لفظ النعجة من حقيقته إلى مجازه ، ولا ما يصرف القصة عن ظاهرها إلى الرمز والإشارة .

وما أحسن ما قال الإمام القاضى عياض : « لا تلتفت إلى ما سطره الإخباريون من أهل الكتاب ، الذين بدلوا ، وغيروا ونقله بعض المفسرين ، ولم ينص الله تعالى على شىء من ذلك فى كتابه ، ولا ورد فى حديث صحيح ، والذى نص عليه فى قصة داود : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ وليس فى قصة داود ، وأوريا خبر ثابت (٢)

والمحققون ذهبوا إلى ما ذهب إليه القاضى ، قال الداودى : ليس فى قصة داود وأوريا خبر يثبت ، ولا يظن بنبى محبة قتل مسلم ، وقد روى عن سيدنا على أنه قال : من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة ، وذلك حد الفرية على الأنبياء (٣) ، وهو كلام مقبول من حيث المعنى ، إلا أنه لم يصح عن الإمام ذلك كما قال العراقى .

---

(١) تفسير البغوى على هامش ابن كثير ج ٧ ص ١٩٥ .
(٢) الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى ج ٢ ص ١٥٨ .
(٣) لأن حد القذف لغير الأنبياء ثمانين ، فرأى ـ رضى الله عنه ـ تضعيفه بالنسبة إلى الأنبياء وفى الكذب عليهم رمى لهم بما هم براء منه ففيه معنى القذف لداود بالتعدى على حرمات الأعراض والتحايل فى سبيل ذلك .

التفسير الصحيح للآيات :

وإذا كان ما روى من الإسرائيليات الباطلة التى لا يجوز أن تفسر بها الآيات ، فما التفسير الصحيح لها إذاً ؟

والجواب : أن داود عليه السلام كان قد وزع مهام أعماله ، ومسئولياته نحو نفسه ، ونحو الرعية على الأيام ، وخص كل يوم بعمل ، فجعل يوماً للعبادة ، ويوماً للقضاء وفصل الخصومات ، ويوماً للاشتغال بشئون نفسه وأهله ، ويوماً لوعظ بنى إسرائيل .

ففى يوم العبادة : بينما كان مشتغلا بعبادة ربه فى محرابه ، إذ دخل عليه خصمان تسورا عليه من السور ، ولم يدخلا من المدخل المعتاد ، فارتاع منهما ، وفزع فزعا لا يليق بمثله من المؤمنين ، فضلا عن الأنبياء المتوكلين على الله غاية التوكل ، الواثقين بحفظه ، ورعايته

ومثل الأنبياء فى علو شأنهم ، وقوة ثقتهم بالله والتوكل عليه ألا تعلق نفوسهم بمثل هذه الظنون بالأبرياء ، ومثل هذا الظن وإن لم يكن ذنبا فى العادة ، إلا أنه بالنسبة

وظن بهما سوءاً ، وأنهما جاءا ليقتلاه ، أو يبغيا به شرًّا ، ولكن تبين له : أن الأمر على خلاف ما ظن ، وأنهما خصمان جاءا يحتكمان إليه ، فلما قضى بينهما ، وتبين له أنهما بريئان مما ظنه بهما ، استغفر ربه ، وخر ساجداً لله ـ تعالى ـ تحقيقاً لصدق توبته والإخلاص له ، وأناب إلى الله غاية الإنابة .

للأنبياء يعتبر خلاف الأولى ، والأليق بهم ، وقديماً قيل : « حسنات الأبرار سيآت المقربين » ، فالرجلان خصمان حقيقة ، وليسا ملكين كما زعموا ، والنعاج على حقيقتها ، وليس ثمة رموز ولا إشارات ، وهذا التأويل هو الذى يوافق نظم القرآن ويتفق وعصمة الأنبياء ، فالواجب : الأخذ به ، ونبذ الخرافات ، والأباطيل ، التى هى من صنع بنى اسرائيل ، وتلقفها القصاص وأمثالهم ممن لا علم عندهم ، ولا تمييز بين الغث والسمين .

وقيل : إن الذى صنعه داود : أنه خطب على خطبة أوريا ، فآثره أهلها عليه ، وقد كانت الخطبة على الخطبة حرام فى شريعتهم ، كما هى حرام فى شريعتنا .

وقيل : إنه طلب من زوجها أُوريا أن ينزل له عنها وقد كان هذا فى شريعتهم ، ومستساغاً عندهم ، وقيل : إنه أوخذ لأنه حكم بمجرد سماعه لكلام أحد الخصمين ،

وكان عليه أن يسمع كلام الخصم الآخر[1] وقد قيل : إذا جاءك أحد الخصمين ، وقد فقئت عينه ، فلا تحكم له ، لجواز أن يكون خصمه قد فقئت عيناه ، وهذه الأقوال الثلاثة ونحوها لست منها على ثلج ، ولا اطمئنان ، فإنها وإن كانت لا تخل بالعصمة لكنها تخدشها ، ثم هى لا تليق بالصفوة المختارة من الخلق ، وهم الأنبياء ، فالوجه الجدير بالقبول فى تفسير الآيات هو الأول ، فعض عليه ، واشدد به يديك .

(٣٠) الإسرائيليات فى قصة سليمان ـ عليه السلام ـ

ومن الإسرائيليات : ما يذكره بعض المفسرين عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ** ﴾[2] .

وقد ذكر الكثير منها فى تفاسيرهم ، ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، والثعلبى ، والبغوى ، وغيرهم ، وذكر كل ما روى من ذلك من غير تمييز بين الصحيح والضعيف ، والغث والسمين ، السيوطى ، فى « الدر المنثور » وليته إذ فعل نقد كل رواية ، وبين منزلتها من القبول والرد ، وما هو من الإسرائيليات ، وما ليس منها ، قال السيوطى فى « الدر » : أخرج النسائى ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم ، بسند قوى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال :

أراد سليمان ـ عليه السلام ـ أن يدخل الخلاء[3] ، فأعطى الجرادة خاتمه ، وكانت جرادة امرأته ، وكانت أحب نسائه إليه ، فجاء الشيطان فى صورة سليمان ، فقال لها : هاتى خاتمى ، فأعطته ، فلما لبسه ، دانت له الجن ، والإنس ، والشياطين ، فلما خرج سليمان ـ عليه السلام ـ من الخلاء ، قال لها : هاتى خاتمى ، فقالت : قد أعطيته سليمان ، قال : أنا سليمان ، قالت : كذبت ، لست سليمان ، فجعل لا يأتى أحداً يقول له : أنا سليمان إلا كذبه ، حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة ، فلما رأى ذلك : عرف أنه من أمر الله ـ عز وجل ـ وقام الشيطان يحكم بين الناس ، فلما أراد الله تعالى أن يرد على سليمان ـ عليه السلام ـ سلطانه ألقى الله فى قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان ، فأرسلوا إلى

---

(١) الشفا ج ٢ ص ١٥٨ .

(٢) سورة ص : ٣٤ .

(٣) المرحاض .

منه ، فلم يقربهن ، ولم يقربنه[1] .

ونحن لا نشك فى أن هذه الخرافات من أكاذيب بنى إسرائيل ، وأباطيلهم ، وأن ابن عباس وغيره تلقوها عن مسلمة أهل الكتاب وليس أدل على هذا مما ذكره السيوطى فى : « الدر » قال : وأخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : أربع آيات من كتاب الله لم أدر ما هى ؟ ، حتى سألت عنهن كعب الأحبار - رضى الله عنه - .... وذكر منها : وسألته عن قوله تعالى : ﴿ **وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ** ﴾ قال : الشيطان أخذ خاتم سليمان - عليه السلام - الذى فيه ملكه ، فقذف به فى البحر ، فوقع فى بطن سمكة ، فانطلق سليمان يطوف إذ تصدق عليه بتلك السمكة فاشتواها ، فأكلها ، فإذا فيها خاتمه ، فرجع إليه ملكه[2] .

وكذا ذكرها مطولة جداً : البغوى فى تفسيره ، عن محمد ابن إسحاق عن وهب بن منبه[3] .

قوة السند لا تنافى كونها إسرائيليات :

وأحب أن أؤكد هنا ما ذكرته قبل : من أن قوة السند لا تنافى كونها مما أخذه ابن عباس وغيره عن كعب الأحبار وأمثاله من مسلمة أهل الكتاب ، فثبوتها فى نفسها لا ينافى كونها من إسرائيليات بنى إسرائيل ، وخرافاتهم ، وافتراءاتهم على الأنبياء .

سلفى من العلماء فى رد هذا الغثاء :

وقد سبق إلى التنبيه إلى ذلك : الإمام القاضى عياض فى « « الشفا » : « ولا يصح ما نقله الإخباريون من تشبه الشيطان به ، وتسلطه على ملكه ، وتصرفه فى أمته بالجور فى حكمه ، لأن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا ، وقد عصم الأنبياء من مثله »[4] وكذلك الإمام الحافظ الناقد : ابن كثير فى تفسيره[5] قال بعد أن ذكر الكثير منها :

---

(1) الدر المنثور ج ٥ ص ٣٠٩ - ٣١١ .
(2) المرجع السابق ص ٣١٠ .
(3) تفسير البغوى على هامش تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٠١ .
(4) الشفا ج ٢ ص ١٦٢ .
(5) ج ٦ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

نساء سليمان ـ عليه السلام ـ فقالوا لهن : أيكون من سليمان شيء ؟ قلن : نعم ، إنه يأتينا[1] ونحن حُيَّض ، وما كان يأتينا قبل ذلك ! فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له : ظن أن أمره قد انقطع ، فكتبوا كتباً فيها سحر ، ومكر ، فدفنوها تحت كرسي سليمان ، ثم أثاروها[2] ، وقرأوها على الناس ، قالوا : بهذا كان يظهر سليمان على الناس ، ويغلبهم ، فأكفر الناس سليمان ، فلم يزالوا يكفرونه ، وبعث ذلك الشيطان بالخاتم ، فطرحه في البحر ، فتلقته سمكة ، فأخذته ، وكان سليمان ـ عليه السلام ـ يعمل على شط البحر بالأجر ، فجاء رجل ، فاشترى سمكاً ؛ فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم ، فدعا سليمان ـ عليه السلام ـ فقال له : تحمل لي هذا السمك ، ثم انطلق إلى منزله ، فلما انتهى الرجل إلى باب داره أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم ، فأخذها سليمان ـ عليه السلام ـ ، فشق بطنها ، فإذا الخاتم في جوفها ، فأخذه ، فلبسه ، فلما لبسه دانت له الإنس ، والجن ، والشياطين ، وعاد إلى حاله ، وهرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزائر البحر ، فأرسل سليمان ـ عليه السلام ـ في طلبه ، وكان شيطاناً مريداً يطلبونه ولا يقدرون عليه حتى وجدوه يوما نائما ، فجاؤوا فبنوا عليه بنيانا من رصاص ، فاستيقظ ، فوثب ، فجعل لا يثب في مكان من البيت إلا أن دار معه الرصاص ، فأخذوه ، وأوثقوه : وجاءوا به إلى سليمان ـ عليه السلام ـ ، فأمر به ، فنقب له في رخام ، ثم أدخل في جوفه ، ثم سد بالنحاس ، ثم أمر به ، فطرح في البحر ، فذلك قوله : ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً** ... ﴾ ، يعني الشيطان الذي كان تسلط عليه .

وقد روى السيوطي في : « الدر » روايات أخرى ، عن ابن عباس وقتادة ، في أن هذا الشيطان كان يسمى صخراً ، وروى عن مجاهد : أن اسمه آصف ، وأن سليمان سأله : كيف تفتنون الناس ؟ ! فقال الشيطان : أرني خاتمك أُخبرك ، فلما أعطاه نبذه آصف في البحر ، فساح سليمان ، وذهب ملكه ، وقعد آصف على كرسيه ، حتى كان ما كان من أمر السمكة ، والعثور على الخاتم ، ورجوع ملك سليمان إليه .

غير أن في رواية قتادة ، ومجاهد : أن الشيطان لم يسلط على نساء سليمان ، ومنعهن الله

---

(١) يباشرنا .

(٢) أخرجوها .

وهذه كلها من الإسرائيليات ، ومن أنكرها ما قال ابن أبي حاتم حدثنا على بن الحسين ، (قال) : حدثنا محمد بن العلاء ، وعثمان بن أبي شيبة ، وعلى بن محمد ، قالوا : حدثنا أبو معاوية (قال) : أخبرنا الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ** ﴾ قال : أراد سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يدخل الخلاء ... ثم ذكر الرواية التى ذكرناها أولا .

ثم قال : إسناده إلى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قوى ، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ إن صح عنه من أهل الكتاب ، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، فالظاهر : أنهم يكذبون عليه ، ولهذا : كان فى هذا السياق منكرات من أشدها ذكر النساء ، فإن المشهور عن مجاهد وغير واحد من أئمة السلف : أن ذلك الجنى لم يسلط على نساء سليمان ، بل عصمهن الله ـ عز وجل ـ منه ، تشريفاً ، وتكريماً لنبيه ـ عليه السلام ـ ، وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف ـ رضى الله عنهم ـ كسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم ، وجماعة آخرين ، وكلها متلقاة عن أهل الكتاب ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

أقول : كلها أكاذيب ، وتلفيقات ، ولكن بعض الكذبة من بنى إسرائيل كان أحرص ، وأبعد غوراً من البعض الآخر ، فلم يتورط فيما تورط فيه البعض ، من ذكر تسلط الشيطان على نساء داود ـ عليه السلام ـ وذلك حتى يكون لما لفقه ، وافتراه ، بعض القبول عند الناس ، أما البعض الآخر : فكان ساذجاً فى كذبه ، مغفلا فى تلفيقه ، فترك آثار الجريمة بينة واضحة ، وبذلك : اشتمل ما لفقه على دليل كذبه .

ومن العجيب : أن الإمام السيوطى نبه فى كتابه : « تخريج أحاديث الشفاء » : أنها إسرائيليات ، تلقاها ابن عباس عن أهل الكتاب ، وليته نبه إلى ذلك فى التفسير

نَسْج القصة مهلهل :

والحق : أن نسج القصة مهلهل ، عليه أثر الصنعة والاختلاق ، ويصادم العقل السليم ، والنقل الصحيح فى هذا .

وإذا جاز للشيطان أن يتمثل برسول الله : سليمان ـ عليه السلام ـ ، فأى ثقة بالشرائع تبقى بعد هذا ؟ ! وكيف يسلط الله الشيطان على نساء نبيه سليمان ، وهو أكرم على الله من ذلك ؟ !

وأى مُلْك أو نبوة يتوقف أمرهما على خاتم يدومان بدوامه ، ويزولان بزواله ؟ ! وما عهدنا فى التاريخ البشرى شيئاً من ذلك .

وإذا كان خاتم سليمان ـ عليه السلام ـ بهذه المثابة : فكيف يغفل الله شأنه فى كتابه الشاهد على الكتب السماوية ، ولم يذكره بكلمة ؟ ! وهل غير الله ـ سبحانه ـ خِلْقَةَ سليمان فى لحظة ، حتى أنكرته أعرف الناس به ، وهى : زوجته جرادة ؟ ! !

الحق : أن نسج القصة مهلهل ، لا يصمد أمام النقد ، وأن آثار الكذب والاختلاق بادية عليها .

نسبة بعض هذه الأكاذيب إلى رسول الله :

وقد تجرأ بعض الرواة ، أو غلط ، فرفع بعض هذه الإسرائيليات إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ، قال السيوطى فى : « الدر المنثور » : وأخرج الطبرانى فى الأوسط [1] ، وابن مردويه بسند ضعيف ، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ .

« ولد لسليمان ولد ، فقال للشيطان تواريه من الموت ، قالوا : نذهب به إلى المشرق ، فقال : يصل إليه الموت ، قالوا : فإلى المغرب قال : يصل إليه الموت ، قالوا : إلى البحار ، قال : يصل إليه الموت ، قالوا : نضعه بين السماء والأرض ، قال : نعم ، ونزل عليه ملك الموت » .

فقال : إنى أُمرت بقبض نسمة طلبتها فى البحار ، وطلبتها فى تخوم الأرض فلم أُصبها ، فبينا أنا قاعد أصبتها ، فقبضتها ، وجاء جسده ، حتى وقع على كرسى سليمان ، فهو قول الله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾ » .

وهذا الحديث موضوع على رسول الله ـ ﷺ ـ ، وقد يكون ذلك من عمل بعض الزنادقة ، أو غلط بعض الرواة ، وقد نبه على وضعه الإمام : الحافظ أبو الفرج بن

---

(١) يعنى فى كتابه « المعجم الأوسط » .

الجوزى ، وقال : يحيى يعنى ابن كثير ، يروى عن الثقات ما ليس من حديثهم ، ولا ينسب إلى نبى الله سليمان ذلك ، ووافقه السيوطى على وضعه[1] ، ولا يشك فى وضع هذا إلا من يشك فى عصمة الأنبياء عن مثله ، وأحْرِ بمثل هذا أن يكون مختلقاً على نبينا ـ ﷺ ـ ، وعلى نبى الله : سليمان ـ عليه السلام ـ ، وإنما هو من إسرائيليات بنى إسرائيل وأكاذيبهم .

ما هو الصحيح فى تفسير الفتنة ؟ :

والصحيح المتعين فى تفسير الفتنة هو : ما جاء فى الصحيحين ، واللفظ للبخارى ، عن أبى هريرة عن النبى ـ ﷺ ـ قال :

« **قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، تحمل كل امرأة فارساً يجاهد فى سبيل الله ، فقال له صاحبه**[2] : **قل : إن شاء الله ، فلم يقل ، ولم تحمل واحدة منهن شيئاً ، إلا واحدة جاءت بولد ساقط إحدى شقيه ، فقال النبى ـ ﷺ ـ : لو قالها لجاهدوا فى سبيل الله أجمعين** » .

فهذا هو المتعين فى تفسير الآية ، وخير ما يفسر به كلام الله هو ما صح عن رسول الله ، وقد بينت بعض الروايات : أن الترك كان نسياناً ، والمراد بصاحبه : الملك كما جاء فى بعضها .

* * *

(٣١) الإسرائيليات فى قصة ـ أيوب عليه السلام ـ

ومن القصص التى تزيد فيها المتزيدون ، واستغلها القصاصون ، وأطلقوا فيها لخيالهم العنان : قصة سيدنا أيوب ـ عليه السلام ـ ، فقد رووا فيها ما عصم الله أنبياءه عنه ، وصوروه بصورة لا يرضاها الله لرسول من رسله .

فقد ذكر بعض المفسرين عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ**

---

(١) اللآلى المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة ج ٢ ص ٢٢١ .
(٢) يعنى قرينه من الملائكة .

أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ . وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[1] . ذكر السيوطي فى : « الدر المنثور » وغيره ، عن قتادة ـ رضى الله عنه ـ فى قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ... ﴾ الآية ، قال : ذهاب الأهل والمال ، والضر الذى أصابه فى جسده ، قال : ابتلى سبع سنين وأشهرًا ، فألقى على كناسة بنى إسرائيل ، تختلف الدواب فى جسده ، ففرج الله عنه ، وأعظم له الأجر ، وأحسن .

قال : وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن أبى حاتم ، وابن عساكر عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، قال : إن الشيطان عرج إلى السماء فقال : يارب سلطنى على أيوب ـ عليه السلام ـ ، قال الله : قد سلطتك على ماله ، وولده ، ولم أُسلطك على جسده ، فنزل : فجمع جنوده فقال لهم : قد سلطت على أيوب ـ عليه السلام ـ فأرونى سلطانكم ، فصاروا نيراناً ، ثم صاروا ماءً ، فبينما هم بالمشرق إذا هم بالمغرب ، وبينما هم بالمغرب إذا هم بالمشرق ، فأرسل طائفة منهم إلى زرعه ، وطائفة إلى أهله ، وطائفة إلى بقره ، وطائفة إلى غنمه ، وقال : إنه لا يعتصم منكم إلا بالمعروف ، فأتوه بالمصائب : بعضها على بعض ، فجاء صاحب الزرع فقال : يا أيوب : ألم تر إلى ربك : أرسل على زرعك عدوا ، فذهب به ، وجاء صاحب الابل ، وقال : ألم تر إلى ربك أرسل على إبلك عدوا ، فذهب بها ، ثم جاء صاحب البقر ، فقال : ألم تر إلى ربك أرسل على بقرك عدواً ، فذهب بها ، وتفرد هو ببنيه ، جمعهم فى بيت أكبرهم ، فبينما هم يأكلون ، ويشربون ـ إذ هبت ريح ـ فأخذت بأركان البيت ، فألقته عليهم ، فجاء الشيطان إلى أيوب بصورة غلام ، فقال : يا أيوب : ألم تر إلى ربك جمع بنيك فى بيت أكبرهم ، فبينما هم يأكلون ، ويشربون ، إذ هبت ريح ، فأخذت بأركان البيت ، فألقته عليهم ، فلو رأيتهم حين اختلطت دماؤهم ، ولحومهم بطعامهم ، وشرابهم ، فقال له أيوب : أنت الشيطان ، ثم قال له : أنا اليوم كيوم ولدتنى أمى ، فقام ، فحلق رأسه ، وقام يصلى ، فرن إبليس رنة سمع بها أهل السماء ، وأهل الأرض ، ثم خرج إلى السماء ، فقال : أى

(١) ص : ٤١ ـ ٤٤ .

رب ، إنه قد اعتصم ، فسلطني عليه ، فإني لا أستطيعه إلا بسلطانك ، قال : قد سلطتك على جسده ، ولم أُسلطك على قلبه ، فنزل ، فنفخ تحت قدمه نفخة ، قرح ما بين قدميه إلى قرنه ، فصار قرحة واحدة ، وألقى على الرماد ، حتى بدا حجاب قلبه ، فكانت امرأته تسعى إليه ، حتى قالت له : أما ترى يا أيوب : قد نزل بى والله من الجهد والفاقة ما إن بعت قرونى برغيف ، فأُطعمك ، فادع الله أن يشفيك ، ويريحك ، قال : ويحك : كنا فى النعيم سبعين عاماً ، فاصبرى حتى نكون فى الضر سبعين عاماً ، فكان فى البلاء سبع سنين ، ودعا ، فجاء جبريل - عليه السلام - يوماً فأخذ بيده ، ثم قال : قم ، فقام ، فنحاه عن مكانه ، وقال : أُركض برجلك ، هذا مغتسل بارد وشراب ، فركض برجله ، فنبعت عين ، فقال : اغتسل ، فاغتسل منها ، ثم جاء أيضاً ، فقال : أُركض برجلك فنبعت عين أُخرى ، فقال له : اشرب منها ، وهو قوله : ﴿ **أُرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ** ﴾ ، وألبسه الله حلة من الجنة .

فتنحى أيوب ، فجلس فى ناحية ، وجاءت امرأته ، فلم تعرفه ، فقالت : يا عبد الله ، أين المبتلى الذى كان هنا ، لعل الكلاب ذهبت به ، أو الذئاب ، وجعلت تكلمه ساعة ، فقال : ويحك ، أنا أيوب ! ! قد رد الله على جسدى ، ورد الله عليه ماله ، وولده عياناً ومثلهم معهم ...[(1)] .

قال : وأخرج أحمد فى الزهد ، عن عبد الرحمن بن جبير - رضى الله عنه - ، قال : ابتلى أيوب بماله ، وولده ، وجسده ، وطرح فى المزبلة ، فجاءت امرأته تخرج ، فتكتسب عليه ما تطعمه ، فحسده الشيطان بذلك ، فكان يأتى أصحاب الخير والغنى ، فيقول : اطردوا هذه المرأة التى تغشاكم ، فإنها تعالج صاحبها ، وتلمسه بيدها ، فالناس يتقذرون طعامكم من أجلها ، فجعلوا لا يدنونها منهم ، ويقولون تباعدى ونحن نطعمك ، ولا تقربينا ...

وقد ذكر ابن جرير ، وابن أبى حاتم الكثير من هذه الروايات فى تفسيريهما ، منها : ما هو موقوف ، وبعضها مرفوع إلى النبى - ﷺ - وكذلك ذكر ابن جرير ، والبغوى ، وغيرهما ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ**

---

(1) الدر المنثور ج ٥ ص ٣١٥ ، ٣١٦

الرَّاحِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾[1] . الكثير من الإسرائيليات .

فقد رويا قصة أيوب وبلائه عن وهب بن منبه ، فى بضع صحائف ، وقد التبس فيها الحق بالباطل ، والصدق بالكذب[2] .

وقال ابن كثير فى تفسيره عند هذه الآية : « وقد روى عن وهب ابن منبه فى خبره ـ يعنى أيوب ـ قصة طويلة ، ساقها ابن جرير ، وابن أبى حاتم بالسند عنه ، وذكرها غير واحد من متأخرى المفسرين ، وفيها غرابة ، تركناها لحال الطول .

ومن العجيب : أن الحافظ الناقد ابن كثير وقع فيما وقع فيه غيره فى قصة أيوب ، من ذكر الكثير من الإسرائيليات ولم يعقب عليه[3] ، مع أن عهدنا به أنه لا يذكر شيئاً من ذلك إلا وينبه على مصدره ، ومن أين دخل فى الرواية الإسلامية ، ولا أظن أنه يرى فى هذا أنه مما تباح روايته ! !

فقد ذكر أنه يقال : إنه أُصيب بالجذام فى سائر بدنه ، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه ، يذكر بهما الله ـ عز وجل ـ حتى عافه الجليس ، وصار منبوذا فى ناحية من البلد ، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه غير زوجته ، وتحملت فى بلائه ما تحملت ، حتى صارت تخدم الناس ، بل قد باعت شعرها بسبب ذلك ، ثم قال : وقد روى : أنه مكث فى البلاء مدة طويلة ، ثم اختلفوا فى السبب المهيج له على هذا الدعاء ، فقال الحسن ـ يعنى البصرى ـ وقتادة : ابتلى أيوب ـ عليه السلام ـ سبع سنين وأشهرا ؛ ملقى على كناسة بنى إسرائيل ، تختلف الدواب فى جسده ، ففرج الله عنه ، وأعظم له الأجر ، وأحسن عليه الثناء ، وقال وهب بن منبه : مكث فى البلاء ثلاث سنين ، لا يزيد ولا ينقص . وقال السدى[4] : تساقط لحم أيوب ، حتى لم يبق إلا العصب والعظام ... ثم ذكر قصة طويلة .

---

(١) الأنبياء : ٨٣ ، ٨٤ .
(٢) تفسير البغوى على هامش تفسير ابن كثير ج ٥ من ص ٥٠٩ ـ ٥١٨ .
(٣) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٥٠٩ ـ ٥١٨ .
(٤) إن كان السدى الصغير فهو كذاب ، وإن كان السدى الكبير فمختلف فى تعديله .

ثم ذكر ما رواه ابن أبي حاتم بسنده ، عن الزهرى ، عن أنس ابن مالك : أن النبي - ﷺ - قال :

« إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب ، والبعيد ، إلا رجلين من إخوانه ، كانا من أخص إخوانه له ، كانا يغدوان إليه ، ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم - والله - لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين ، فقال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله ، فيكشف ما به ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب - عليه السلام - : ما أدرى ما تقول ، غير أن الله - عز وجل - يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان ، فيذكران الله ، فأرجع إلى بيتى ، فأكفر عنهما كراهية أن يذكرا الله إلا فى حق ، قال : وكان يخرج فى حاجته ، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده ، حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه ، فأوحى الله إلى أيوب فى مكانه : أن اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب » .

وقال ابن كثير : رفع هذا الحديث غريب جداً ، وقال الحافظ ابن حجر : وأصح ما ورد فى قصته : ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير ، وصححه ابن حبان والحاكم ، بسند عن أنس : أن أيوب ... ثم ذكر مثل ذلك .

أقول : والمحققون من العلماء على أن نسبة هذا إلى المعصوم - ﷺ - إما من عمل بعض الوضاعين الذين يركبون الأسانيد للمتون ، أو من غلط بعض الرواة ، وأن ذلك من إسرائيليات بنى إسرائيل وافتراءاتهم على الأنبياء ، والأصحية هنا نسبية ، على أن صحة السند لا تنافى أن أصله من الإسرائيليات ، كما قلت مراراً ، والإمام الحافظ ابن حجر على جلالته ربما يوافق على تصحيح ما يخالف الأدلة العقلية والنقلية ، كما فعل فى قصة الغرانيق ، وهاروت وماروت وكل ما روى موقوفاً أو مرفوعاً لا يخرج عما ذكره وهب بن منبه ، فى قصة أيوب ، التى أشرنا إليها آنفاً ، وما رواه ابن إسحاق أيضاً ، فهو مما أخذه عن وهب ، وغيره .

وهذا يدل أعظم الدلالة على أن معظم ما روى فى قصة أيوب مما أُخذ عن أهل الكتاب الذين أسلموا ، وجاء القصاصون المولعون بالغرائب ، فزادوا فى قصة أيوب ، وأذاعوها ، حتى اتخذ منها الشحاذون ، والمتسولون وسيلة لاسترقاق قلوب الناس ، واستدرار العطف عليهم .

الحق فى هذه القصة :

وقد دل كتاب الله الصادق ، على لسان نبيه محمد الصادق على أن الله ـ تبارك وتعالى ـ ابتلى نبيه : أيوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى جسده ، وأهله ، وماله ، وأنه صبر حتى صار مضرب الأمثال فى ذلك ، وقد أثنى الله عليه هذا الثناء المستطاب ، قال عز شأنه : ﴿ **إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب** ﴾ ، فالبلاءُ مما لا يجوز أن يشك فيه أبداً ، والواجب على المسلم : أن يقف عند كتاب الله ، ولا يتزيد فى القصة كما تزيد زنادقة أهل الكتاب ، وألصقوا بالأنبياء مالا يليق بهم ، وليس هذا بعجيب من بنى إسرائيل الذين لم يتجرأوا على أنبياء الله ورسله فحسب بل تجرأُوا على الله ـ تبارك وتعالى ـ ، ونالوا منه ، وفحشوا عليه ، ونسبوا إليه ما قامت الأدلة العقلية والنقلية المتواترة على استحالته عليه ـ سبحانه وتعالى ـ من قولهم : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ** ﴾[1] وقولهم : ﴿ **يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا** ﴾[2] ، عليهم لعائن الله .

والذى يجب أن نعتقده : أنه ابتلى ، ولكن بلاءه لم يصل إلى حد هذه الأكاذيب ، من أنه أُصيب بالجذام[3] ، وأن جسمه أصبح قرحة ، وأنه أُلقى على كناسة بنى إسرائيل ، يرعى فى جسده الدود ، وتعبث به دواب بنى إسرائيل ، أو أنه أُصيب بمرض الجدرى .

وأيوب ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ أكرم على الله من أن يلقى على مزبلة ، وأن يصاب بمرض ينفر الناس من دعوته ، ويقززهم منه ، وأى فائدة تحصل من الرسالة وهو على هذه الحال المزرية التى لا يرضاها الله لأنبيائه ورسله ؟ .

والأنبياء إنما يبعثون من أوساط[4] قومهم ، فأين كانت عشيرته فتواريه ، وتطعمه ؟ ! بدل أن تخدم امرأته الناس ، بل وتبيع ضفيرتيها فى سبيل إطعامه ! !

بل أين كان أتباعه ، والمؤمنون منه ، فهل تخلوا عنه فى بلائه ؟ ! وكيف والإيمان ينافى ذلك ؟ !

---

(١) آل عمران : ١٨١ .

(٢) المائدة : ٦٤ .

(٣) الجذام : مرض من أخبث الأمراض ، وأقذرها .

(٤) خيارهم وأكرمهم نسبا وعشيرة .

الحق : أن نسج القصة مهلهل ، لا يثبت أمام النقد ، ولا يؤيده عقل سليم ، ولا نقل صحيح ، وأن ما أُصيب به أيوب من المرض إنما كان من النوع غير المنفر ، والمقزز ، وأنه من الأمراض التى لا يظهر أثرها على البشرة ، كالروماتيزم ، وأمراض المفاصل ، والعظام ونحوها ، ويؤيد ذلك : أن الله لما أمره أن يضرب الأرض بقدمه ، فنبعت عين ، فاغتسل منها ، وشرب ، فبرأ بإذن الله ، وقيل : إنه ضرب الأرض برجله فنبعت عين حارة ، فاغتسل منها ، وضربها مرة أُخرى ، فنبعت عين باردة ، فشرب منها ، والله أعلم بالصواب ، وظاهر القرآن عدم التعدد فى الضرب ولا فى نبع الماء .

مقالة الإمام القاضى أبى بكر بن العربى :

ويعجبنى ما قاله الإمام القاضى : أبو بكر بن العربى ـ رحمه الله ـ قال : « ولم يصح عن أيوب فى أمره إلا ما أخبرنا الله عنه فى كتابه فى آيتين : الأولى فى قوله تعالى : ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ** ... ﴾ والثانية فى (ص) : ﴿ **أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ** ﴾ وأما النبى ـ ﷺ ـ : فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله : « **بينما أيوب يغتسل ، إذ خر عليه رجل من جراد من ذهب** ... »[1] الحديث ، وإذا لم يصح فيه قرآن ، ولا سنة إلا ما ذكرنا : فمن الذى يوصل السامع إلى أيوب خبره ، أم على أى لسان سمعه ؟ ! ، والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات ، فأعرض عن سطورها بصرك ، وأصم عن سماعها أُذنيك ، فإنها لا تعطى فكرك إلا خيالا ، ولا تزيد فؤادك إلا خبالا ، وفى الصحيح ـ واللفظ للبخارى ـ : أن ابن عباس قال : « يا معشر المسلمين ، تسألون أهل الكتاب ، وكتابكم الذى أُنزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله ، تقرءونه محضاً لم يشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله ، وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتب ، فقالوا : هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا ، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ، فلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذى أُنزل عليكم »[2] وقد أنكر النبى ـ ﷺ ـ فى حديث الموطأ على عمر قراءته التوراة » .

---

(١) هو ما رواه البخارى فى صحيحه بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **بينما أيوب يغتسل عُريانا خر عليه رجل ـ أى جماعة ـ جراد من ذهب فجعل يحثى فى ثوبه فناداه ربه : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ ، قال : بلى يارب ، ولكن لا غنى لى عن بركتك** » .

(٢) صحيح البخارى ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ـ باب لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء .

وقال الإمام الآلوسى فى تفسيره ، بعد أن ذكر بعضاً مما ذكرنا : وعظم بلائه ـ عليه السلام ـ مما شاع ، وذاع ، ولم يختلف فيه اثنان ، لكن فى بلوغ أمره إلى أن أُلقى على كناسة ، ونحو ذلك ، فيه خلاف .

قال الطبرسى : قال أهل التحقيق : إنه لا يجوز أن يكون بصفة يستقذره الناس عليها ، لأن فى ذلك تنفيراً ، فأما الفقر والمرض ، وذهاب الأهل فيجوز أن يمتحنه الله تعالى بذلك .

وفى هداية المرَيد للَّقانى : أنه يجوز على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كل عرض بشرى ، ليس محرماً ولا مكروهاً ، ولا مباحاً مزرياً ، ولا مزمناً ، ولا مما تعافه الأنفس ، ولا مما يؤدى إلى النفرة ، ثم قال بعد ورقتين : واحترزنا بقولنا : ولا مزمناً ولا مما تعافه الأنفس : عما كان كذلك كالإقعاد ، والبرص ، والجذام ، والعمى ، والجنون .

وأما الإغماء : فقال النووى : لا شك فى جوازه عليهم ، لأنه مرض بخلاف الجنون ، فإنه نقص ، وقيد أبو حامد ـ يعنى الغزالى ـ الإغماء بغير الطويل ، وجزم به البلقينى ، قال السبكى : وليس كإغماء غيرهم ، لأنه إنما يستر حواسهم الظاهرة ، دون قلوبهم ؛ لأنها معصومة من النوم الأخف ، قال : ويمتنع عليهم الجنون ، وإن قل ، لأنه نقص ، ويلحق به العمى ، ولم يعم نبى قط ، وما ذكر عن شعيب من أنه كان ضريراً لم يثبت ، وأما يعقوب : فحصلت له غشاوة وزالت . انتهى .

وفرق بعضهم فى عروض ذلك بين أن يكون بعد التبليغ وحصول الغرض من النبوة : فيجوز ، وبين أن يكون قبل : فلا يجوز ، ولعلك تختار القول بحفظهم مما تعافه النفوس ، ويؤدى إلى الاستقذار والنفرة كما يشعر به ما روى عن قتادة ، ونقله القصاص فى كتبهم ، وذكر بعضهم : أن داءه كان الجدرى ، ولا أعتقد صحة ذلك ، والله تعالى أعلم (١) .

* * *

(٣٢) الإسرائيليات فى قصة إرم ذات العماد

ومن الاسرائيليات : ما يذكره بعض المفسرين : كالطبرى ، والثعلبى ، والزمخشرى ، وغيرهم فى تفسير قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٢٠٨ ط منير .

العِمَادِ الَّتِى لَم يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى البلاد﴾[1] .

فقد زعموا : أن إرم مدينة ، وذكروا فى بنائها ، وزخارفها ما هو من قبيل الخيال ، ورووا فى ذلك : أنه كان لعاد ابنان : شداد ، شديد ، فملكا وقهرا ، ثم مات شديد وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا ، فسمع بذكر الجنة ، فقال : أبنى مثلها ، فبنى إرم فى بعض صحارى عدن ، فى ثلاثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة ، وهى مدينة عظيمة ، وسورها من الذهب والفضة ، وأساطينها من الزبرجد والياقوت ، ولما تم بناؤها سار إليها بأُهب[2] مملكته ، فلما كان منها مسيرة يوم وليلة بعث الله تعالى عليهم صيحة من السماء ، فهلكوا .

وروى وهب بن منبه عن عبد الله بن قلابة : أنه خرج فى طلب إبل له فوقع عليها ــ يعنى ــ مدينة إرم ، فحمل منها ما قدر عليه ، وبلغ خبره معاوية ، فاستحضره ، وقص عليه ، فبعث إلى كعب الأحبار ، فسأله عنها فقال : هى إرم ذات العماد ، وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانه أحمر ، أشقر ، قصير ، على حاجبه خال ، ثم التفت ، فأبصر ابن قلابة ، فقال : هذا والله ذاك الرجل[3] .

وهذه القصة موضوعة ، كما نبه إلى ذلك الحفاظ ، وآثار الوضع لائحة عليه ، وكذلك ما روى : أن إرم : مدينة دمشق ، وقيل : مدينة الإسكندرية ، قال السيوطى فى : « الدر المنثور » : وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبى حاتم ، عن عكرمة ، قال : إرم هى : دمشق ، وأخرج ابن جرير ، وعبد بن حميد ، وابن عساكر عن سعيد المقبرى مثله ، وأخرج ابن عساكر ، عن سعيد بن المسيب ، مثله ، قال : وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، عن محمد بن كعب القرظى ، قال : إرم هى : الإسكندرية[4] .

وكل ذلك من خرافات بنى إسرائيل ، ومن وضع زنادقتهم ، ثم رواها مسلمة أهل الكتاب فيما رووا ، وحملها عنهم بعض الصحابة والتابعين ، وألصقت بتفسير القرآن

---

(١) الفجر : ٦ ــ ٨ .
(٢) جمع أهبه ، والأهبة ــ بضم الهمزة ــ العدة كما فى القاموس .
(٣) انظر الكشاف للزمخشرى عند تفسير هذه الآية ، وتفسير البغوى ، والنسفى ، والخازن عند تفسير هذه الآية .
(٤) الدر المنثور ج ٦ ص ٣٤٧ .

الكريم ، قال ابن كثير فى تفسيره : ومن زعم أن المراد بقوله : ﴿ إرم ذات العماد ﴾ : مدينة إما دمشق ، أو اسكندرية ، أو غيرها ، ففيه نظر ، فإنه كيف يلتئم الكلام على هذا ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ ﴾ إن جعل بدلا أو عطف بيان(١) ؟ ، فإنه لا يتسق الكلام حينئذ ، ثم المراد : إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد ، وما أحل الله بهم من بأسه الذى لا يرد ، لأن المراد : الإخبار عن مدينة أو إقليم ، وإنما نبهت على ذلك لئلا يغتر بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عن هذه الآية ، من ذكر مدينة يقال لها : إرم ذات العماد ، مبنية بلبن الذهب والفضة ، وأن حصباءها لآلئ وجواهر ، وترابها بنادق المسك ... فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين ، من وضع بعض زنادقتهم ، ليختبروا بذلك القول الجهلة من الناس أن تصدقهم فى جميع ذلك ، وقال فيما روى عن ابن قلابة : فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها ، ولو صح إلى ذلك الأعرابى : فقد يكون اختلق ذلك ، أو أصابه نوع من الهوس ، والخيال ، فاعتقد أن ذلك له حقيقة فى الخارج ، وهذا ما يقطع بعدم صحته(٢) ، وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة ، والطامعين ، والمتحيلين من وجود مطالب تحت الأرض فيها قناطير الذهب والفضة ... فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة ، والسفهاء ، فيأكلونها بالباطل ، فى صرفها فى بخاخير ، وعقاقير ، ونحو ذلك من الهذيانات ، ويطنزون بهم .

الصحيح فى تفسير الآية :

والصحيح فى تفسير الآية : أن المراد بعاد : إرم ذات العماد ؛ قبيلة عاد المشهورة ، التى كانت تسكن الأحقاف ، شمالى حضرموت ، وهى عاد الأُولى ، التى ذكرها الله سبحانه فى سورة النجم ، قال سبحانه : ﴿ وأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى ﴾ ، ويقال لمن بعدهم: عاد الآخرة وهم ولد عاد بن إرم بن عوص ، بن سام ، بن نوح ، قاله ابن إسحاق وغيره ، وهم الذين بعث فيهم رسول الله هودا ـ عليه السلام ـ فكذبوه ، وخالفوه ، فأنجاه الله من بين أظهرهم ، ومن آمن معه منهم ، وأهلكهم ﴿ بريحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعجازُ

---

(١) أى لفظ ، إرم .. بدل من عاد أو عطف بيان .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١٩٦ .

﴿نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ ؟ .

وقد ذكر الله قصتهم فى القرآن فى غير ما موضع ، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون ، فقوله تعالى : ﴿ **إرم ذات العماد** ﴾ : بدل من عاد أو عطف بيان زيادة تعريف بهم ، وقوله تعالى : ﴿ **ذات العماد** ﴾ ، لأنهم كانوا فى زمانهم أشد الناس خلقة ، وأعظمهم أجساما ، وأقواهم بطشا ، وقيل : ذات الأبنية التى بنوها ، والدور ، والمصانع التى شادوها ، وقيل : لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التى ترفع بالأعمدة الغلاظ الشداد ، والأول أصح وأولى ، فقد ذكرهم نبيهم هود بهذه النعمة ، وأرشدهم إلى أن يستعملوها فى طاعة الله ـ تبارك وتعالى ـ الذى خلقهم ومنحهم هذه القوة فقال : ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [1] . وقال تعالى : ﴿ **فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ..** ﴾ [2] . وقوله هنا : ﴿ **الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَادِ** ﴾ أى القبيلة المعروفة المشهورة التى لم يخلق مثلها فى بلادهم ، وفى زمانهم ، لقوتهم ، وشدتهم وعظم تركيبهم .

ومهما يكن من تفسير ذات العماد : فالمراد القبيلة ، وليس المراد مدينة ، فالحديث فى السورة إنما هو عمن مضى من الأقوام الذين مكن الله لهم فى الأرض ، ولما لم يشكروا نعم الله عليهم ، ويؤمنوا به وبرسله ، بطش بهم ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ففيه تخويف لكفار مكة ، الذين هم دون هؤلاء فى كل شىء ، وتحذيرهم أن يصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء .

ما رُوى فى عظم طولهم لا يصح :

وليس معنى قوتهم ، وعظم خلقهم ، وشدة بطشهم : أنهم خارجون عن المألوف فى الفطرة ، فمن ثم : لا نكاد نصدق ما روى فى عظم أجسامهم ، وخروج طولهم عن المألوف المعروف حتى فى هذه الأزمنة ، فقد روى ابن جرير فى تفسيره ، وابن أبى حاتم وغيرهما عن قتادة قال : كنا نحدث : أن إرم : قبيلة من عاد ، كان يقال لهم : ذات

---

(١) الأعراف : ٦٩ .

(٢) فصلت : ١٥ .

العماد ، كانوا أهل عمود ، ﴿الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَادِ﴾ ، قال : ذكر لنا أنهم كانوا اثنى عشر ذراعا[1] طولا فى السماء ، وهذا من جنس ما روى فى العماليق ، وأغلب الظن عندى : أن من ذكر لهم ذلك هم : أهل الكتاب الذين أسلموا ، وأنه من الإسرائيليات المختلقة .

وأيضاً : لا نكاد نصدق ، ما روى عن المعصوم – ﷺ – فى هذا ، فقد روى ابن أبى حاتم ، قال : حدثنا أبى ، (قال) حدثنا أبو صالح كاتب الليث ، (قال) : حدثنى معاوية بن صالح ، عمن حدثه ، عن المقدام بن معديكرب ، عن النبى – ﷺ – : أنه ذكر إرم ذات العماد فقال : « **كان الرجل منهم يأتى إلى الصخرة ، فيحملها على كاهله ، فيلقيها على أى حى أراد فيهلكهم** »[2] ولعل البلاء ، والاختلاق فيه من المجهول ، وروى مثله ابن مردويه[3] .

ولعن الله من نسب مثل هذا الباطل إلى النبى – ﷺ – ، ولا نشك أن هذا من عمل زنادقة اليهود والفرس وأمثالهم ، الذين عجزوا أن يقاوموا سلطان الإسلام ، فسلكوا فى محاربته مسلك الدس ، والاختلاق ، بنسبة أمثال هذه الخرافات إلى المعصوم – ﷺ – ، وأنا أعجب لمسلم يقبل أمثال هذه المرويات التى تزرى بالإسلام ، وتنفر منه ، ولا سيما فى هذا العصر الذى تقدمت فيه العلوم ، والمعارف ، وأصبح ذكر مثل هذا يثير السخرية ، والاستنكار والاستهزاء .

الإسرائيليات والخرافات
فيما يتعلق بعمر الدنيا وبدء الخلق ، وأسرار الوجود ، وتعليل بعض الظواهر الكونية

ومن الإسرائيليات والموضوعات التى اشتملت عليها كتب التفسير وغيرها : كثير مما يتعلق بعمر الدنيا وبدء الخلق ، وأسرار الوجود ، وأسباب الكائنات ، وتعليل بعض الظواهر الكونية تعليلاً باطلاً غير صحيح ، وقد جاء معظمه موقوفاً على الصحابة

---

(١) حوالى ستة أمتار أو تزيد .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٨ .

(٣) الدر المنثور ج ٦ ص ٣٤٧ .

والتابعين ، وجاء بعضه مرفوعاً إلى النبي - ﷺ - ، وهنا تكون الطامة ؛ لأن هذه الروايات متهافتة باطلة ، فنسبتها إلى المعصوم - ﷺ - من الخطورة بمكان .

وكأن هؤلاء الذين وضعوها وألصقوها بالنبي - ﷺ - زورا ؛ كانوا يدركون ببعد نظرهم : أنه سيأتي اليوم الذى تتكشف فيه الحقائق العلمية لهذه الأمور الكونية ، ومعرفة التعليلات الصحيحة لسنن الله فى الكون ، فنسبوا إليه هذه الخرافات ، كى يشككوا فى عصمة النبي - ﷺ - ، وأنه ما ينطق عن الهوى ، ويقللوا الثقة بالأنبياء ، وهم قوم من الزنادقة الذين جمعوا بين الزندقة ، والعلم ، والمعرفة ببعض الظواهر ، والعلوم الكونية ، وهم أعظم الطوائف كيداً للإسلام ، لخبث نياتهم ، وإحكام كيدهم .

ولا أدرى ماذا يكون موقف الداعى إلى الله فى المجتمعات العلمية ، والبيئات المتحضرة إذا ووجه بمثل هذه الروايات الباطلة التى تغض من شأن الإسلام وهو منها براءٌ ؟

ولو أن هذه المرويات صحت أسانيدها لربما كان للمتمسكين بها ، والمنتصرين لها بعض المعذرة ، أما وهى ضعيفة أسانيدها ، واهية مخارجها ، فالواجب ردها ولا كرامة ، وأحب أن أقول : إن معظم هذه المرويات فى الأمور الكونية تخالف مخالفة ظاهرة المقررات ، والحقائق العلمية التى أصبحت فى حكم البدهيات والمسلمات ككروية الأرض ، ودورانها ، وسبب حدوث الخسوف والكسوف ونحوها ، والانتصار لهذه المرويات التى تصادم الحقائق العلمية الثابتة ، مما يعود على الإسلام بالضرر والنقض ، وينفر منه المفكرون وذوو العلم ، والمعرفة ، بل هى أضر على الإسلام من طعن أعدائه فيه .

ويعجبنى غاية الإعجاب فى هذا المقام : ما ذكره الإمام : حجة الإسلام الغزالى فى مقدمة كتابه : « تهافت الفلاسفة » ، وسأنقله بنصه لنفاسته ، وعظم نفعه فى بيان ما ينبغى أن يكون موقف المسلم الواعى الفطن ؛ من النظريات والمقررات العلمية قال - رحمه الله - :

« القسم الثانى »(١) ما لا يصدم مذهبهم فيه أصلا من أصول الدين ، وليس من ضرورة تصديق الأنبياء والرسل - صلوات الله عليهم - منازعتهم فيه ، كقولهم : إن

---

(١) يعنى من الأقسام التى يقع الخلاف فيها بين الفلاسفة وغيرهم .

كسوف القمر عبارة عن : انمحاء ضوء القمر ، بتوسط الأرض بينه ، وبين الشمس ، من حيث إنه يقتبس نوره من الشمس ، والأرض كرة ، والسماء محيط بها من الجوانب ، فإذا وقع القمر فى ظل الأرض ، انقطع عنه نور الشمس ، وكقولهم : إن كسوف الشمس معناه : وقوف جرم القمر بين الناظر وبين الشمس ، وذلك عند اجتماعهما فى العقدتين على دقيقة واحدة ، وهذا الفن أيضاً لسنا نخوض فى إبطاله ، إذ لا يتعلق به غرض ، ومن ظن أن المناظرة فى إبطال هذا من الدين فقد جنى على الدين ، وضعف أمره ، فإن هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية ، وحسابية ، لا تبقى معها ريبة ، فمن يطلع عليها ، ويتحقق أدلتها حتى يخبر بسببها عن وقت الكسوفين وقدرهما ، ومدة بقائهما إلى الإنجلاء ، إذا قيل له : إن هذا خلاف الشرع لم يسترب فيه ، وإنما يستريب فى الشرع ، وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقه ، أكثر من ضرره ممن يطعن فيه بطريقه ، وهو كما قيل : عدو عاقل خير من صديق جاهل .

فإن قيل : فقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **إن الشمس والقمر لآيتان من آيات الله ، لا ينكسفان لموت أحد ، ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك : فافزعوا إلى ذكر الله ـ تعالى ـ ، والصلاة** »[1] فكيف يلائم هذا ما قالوه ؟ ، قلنا : وليس فى هذا ، ما يناقض ما قالوه ، إذ ليس فيه إلا نفى وقوع الكسوف لموت أحد ، أو لحياته ، والأمر بالصلاة عنده ، والشرع الذى يأمر بالصلاة عند الزوال ، والغروب ، والطلوع من أين يبعد أن يأمر عند الكسوف بها استحباباً .

فإن قيل : فقد روى : أنه قال فى آخر الحديث : « **ولكن الله إذا تجلى لشىء خضع له** » ، فيدل على أن الكسوف خضوع بسبب التجلى ، قلنا : هذه الزيادة لم يصح نقلها ، فيجب تكذيب ناقلها ، وإنما المروى : ما ذكرناه[1] ، كيف ؟ ولو كان صحيحاً لكان

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما .

(٢) بين الحافظ فى الفتح ـ ج ٣ ص ٤٣٠ ـ أن هذه الزيادة ثابتة من رواية أحمد ، والنسائى ، وابن ماجه ، وصححها ابن خزيمة والحاكم ، وكذا قال غيره إن الزيادة ثابتة ، وقد حاول بعضهم أن يجعل هذه الزيادة مبطلة لقول أهل العلم بالفلك والهيئة أقول : ولو سلمنا ثبوتها فلا ينافى ذلك ما قاله علماء الفلك ، لأن المراد بهذه الزيادة خضوع هذه الأجرام لله ، وجريانها وفق إرادته ، ووفق ما أوجده من الأسباب العادية لحدوثها فهو من التمثيلات العربية البديعة ولعل هذا هو ما أراده الغزالى بالتأويل .

تأويله أهون من مكابرة أمور قطعية ، فكم من ظواهر أولت بالأدلة القطعية التى لا تنتهى فى الوضوح إلى هذا الحد ! ! وأعظم ما يقدح به الملحدة : أن يصرح ناصر الشرع ، بأن هذا وأمثاله على خلاف الشرع ، فيسهل عليه طريق إبطال الشرع ، إن كان شرطه أمثال ذلك ، وهذا : لأن البحث فى العالم عن كونه حادثا ، أو قديما ، ثم إذا ثبت حدوثه فسواء كان كرة ، أو بسيطا ، أو مثمنا أو مسدسا ، وسواء كانت السماوات ، وما تحتها ثلاث عشرة طبقة ، كما قالوه ، أو أقل ، أو أكثر ، فنسبة النظر فيه إلى البحث الإلهى كنسبة النظر إلى طبقات البصل ، وعددها ، وعدد حب الرمان ، فالمقصود كونها من فعل الله فقط ، كيفما كانت »[1] .

وقد سقت هذا الكلام القيم ليعتبر به هؤلاء الذين لا يزالون فى عصرنا هذا ينكرون كروية الأرض ، ودورانها ، وأسباب حدوث بعض الظواهر الكونية كالخسوف ، والكسوف ، وحدوث الرعد ، والبرق ، والصواعق وقانون الجاذبية ، ونحوها : مما لا ينبغى لعاقل أن يرتاب فيه .

وليعتبر به أيضاً هؤلاء الذين ينكرون بعض المكتشفات العلمية التى جدت فى عصرنا كغزو الفضاء ، والوصول إلى القمر ، وانعدام الوزن فى حالات خاصة ، ونحوها ـ باسم الدين ، فإن ذلك كما قال الإمام العظيم الغزالى أضر على الدين من طعن أعدائه فيه .

ولنأخذ بعد هذه المقدمة اللازمة فى بيان الإسرائيليات ، والأكذوبات فى الكون ، وما يتعلق به .

ما يتعلق بعمر الدنيا :

فقد ذكروا فى عمر الدنيا : أنه سبعة آلاف سنة ، وأن النبى محمدا ـ ﷺ ـ بعث فى آخر السادسة ، فقد ورد ذلك مرفوعا إلى النبى ـ ﷺ ـ ، وحكم عليه ابن الجوزى بالوضع فى كتابه : « الموضوعات » ، وأحر به أن يكون مختلقاً مكذوباً على رسول الله ـ ﷺ ـ .

وكذلك : جاء بعض هذه الأخبار موقوفاً على ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، و

(١) تهافت الفلاسفة للإمام الغزالى ص ٤ ، ٥ .

ذكر ذلك فى كتب التفسير ، وبعض كتب الحديث ، وكتب التواريخ ونحوها ، وقد قال السيوطى : إنها صحيحة .

أقول : وعلى فرض تسليم صحتها ، فصحتها عن ابن عباس لا ينفى أنها من الإسرائيليات التى تحملها ابن عباس وغيره ، لما فهموه من الإذن فى الأخذ عن أهل الكتاب الذين أسلموا ، وهذا لا ينافى كونها باطلة فى نفسها ، فمعظم الإسرائيليات من هذا النوع .

ولا أدرى ماذا يقول المنتصرون لمثل هذه الأباطيل ، فيما هو ثابت : من أن عمر الدنيا أضعاف أضعاف ذلك ، حتى أصبح ذلك من البدهيات المسلمات ، وإن التمسك بمثل هذه الروايات : أضر على الدين من طعن أعدائه .

ولو أن النبى ـ ﷺ ـ بعث كما يقولون فى آخر المائة السادسة ، لقامت القيامة من زمن مضى ، فظهر : أن الواقع والمشاهدة يكذبان ذلك أيضاً ، ويردانه .

ما يتعلق بخلق الشمس والقمر :

ومن ذلك أيضاً : ما ذكره ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه والثعلبى ، وغيرهم من المفسرين ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيلِ وجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاَ مِّن رَّبِّكُمْ ، وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلنَاهُ تَفْصِيلا** ﴾ (١) .

فقد رووا عن ابن عباس أنه قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « **إن الله لما أبرم خلقه ، فلم يبق من خلقة غير آدم ـ عليه السلام ـ ، خلق شمسا من نور عرشه ، فأما ما كان فى سابق علم الله أن يدعها شمسا ، فإنه خلقها مثل الدنيا ، ما بين مشارقها ومغاربها ، وأما ما كان فى سابق علمه أن يطمسها ويحولها قمرا ، فإنه خلقها مثل الشمس فى الضوء ، وإنما يرى الناس صغرهما لشدة ارتفاعهما ، ولو تركها الله كما خلقها فى بدء الأمر لم يعرف الليل من النهار ، ولا النهار من الليل ، ولكان الأجير ليس له وقت يستريح فيه ، ولكان الصائم لا يدرى إلى متى يصوم ، ومتى يفطر ، إلى أن قال : فأرسل جبريل ، فأمر**

(١) الإسراء : ١٢ .

جناحه على وجه القمر ثلاث مرات ، وهو يومئذ شمس فمحا عنه الضوء ، وبقى فيه النور ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾ فالسواد الذى ترونه فى القمر هو : أثر ذلك المحو » .

وكذلك : روى هذا الباطل ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وسنده واه ؛ لأن فيه نوح بن أبي مريم ، وهو وضاع دجال ، وقد حكم عليه ابن الجوزى بالوضع والاختلاق[1] ، ومنشؤه من الإسرائيليات التى ألصقت بالنبى زورا ، وفيه من الركاكة اللفظية ، والمعنوية ما يشهد بوضعه على النبى ، وليس عليه شيء من نور النبوة .

وما كان رسول الله - ﷺ - يتعرض للكونيات بهذا التفصيل ، ولما سئل عن الهلال لم يبدو صغيراً ثم يكبر ، حتى يصير بدراً ، ثم يصغر ؟ ، أجاب بالفائدة ، فقال : ﴿ **هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ** ﴾ لأن بالأهلة تعرف السنون ، والشهور ، وعليها تتوقف مصالح الناس الدينية والدنيوية ، فبها يعرفون حجهم ، وصومهم ، وإخراج زكاتهم ، وحلول اجال ديونهم ونحوها ، وليس من الحكمة التعرض لمثل هذه الكونيات بالتفصيل ، فتركها لعقول الناس ، وإدراكاتهم أولى ، ولا سيما أنه لا يتوقف على معرفة الأمة لمثل هذه الأمور فائدة دينية ، والقرآن والسنة النبوية حينما يعرضان للحديث عن الكونيات يكون غرضهما انتزاع العبرة ، والاستدلال بما أودع فيهما على وجود الله - جل وعلا - ، ووحدانيته ، وقدرته ، وعلمه ، وسائر صفاته ولذلك : لا نقف فيما صح وثبت من الأحاديث على مثل هذه التفصيلات التى نجدها فى الآثار الضعيفة ، والإسرائيليات الباطلة .

ويعجبنى فى هذا : مانقله الآلوسى فى تفسيره ، عن بعض العلماء قال : « وذكر بعض الفضلاء : أنه لم يجىء فى ترتيب الأجرام العلوية ، والسفلية ، وشرح أحوالها كما فعل الفلاسفة عن الشارع شيء ؛ لما أن ذلك ليس من المسائل المهمة فى نظره - عليه الصلاة والسلام - وليس المهم إلا التفكر ، والاستدلال بها على وحدة الصانع ، وكماله - جل شأنه - وهو حاصل بما يُحَسُّ منها ، فسبحان من رفع السماء بغير عمد ، ومد الأرض ، وجعل فيها رواسى »[1] .

---

(١) اللآلى المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة ج ١ ص ٢٤ ومابعدها .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ٩٩ ط / منير .

ما يتعلق بتعليل بعض الظواهر الكونية :

ومن ذلك : مايذكره بعض المفسرين ، ومايوجد فى بعض كتب الحديث فى غروب الشمس ، وأنها إذا غربت ابتلعها حوت ، ومايتعلق بالسماوات ، والأجرام السماوية ، ومن أى الجواهر هى : والأرض وعلام استقرت ، وأنها على ظهر حوت ، ومايذكرونه فى تعليل برودة الآبار فى الصيف ، وسخونتها فى الشتاء ، وعن منشأ الرعد والبرق ، وعن منشأ السحاب ، إلى نحو ذلك مما لا نصدق وروده عن المعصوم - ﷺ - ، وما ورد منه موقوفاً ، فمرجعه إلى الإسرائيليات الباطلة ، أو إلى الزنادقة الذين أرادوا أن يظهروا الإسلام بمظهر الدين الخرافى الذى ينافى العلم ، والسنن الكونية .

فقد روى عن أبى أمامة الباهلى : أن رسول الله - ﷺ - قال : « **وُكِّل بالشمس تسعة أملاك ، يرمونها بالثلج كل يوم ، لولا ذلك ما أتت على شىء إلا أحرقته** » رواه الطبرانى .

وفى أحد رواته عقير بن معدان ، وهو ضعيف جداً ، ولَوْ أن الحديث صحيح السند ، أوثابت ، لتمحلنا ، وقلنا : إنه من قبيل التمثيل ، أما وهو بهذا الضعف : فلنلق به دبر آذاننا

وعن ابن عمر ، قال : « سئل النبى - ﷺ - فقيل : أرأيت الأرض على ماهى ؟ قال : « **الأرض على الماء** » قيل : الماء على ما هو ؟ قال : « **على صخرة** » فقيل : الصخرة على ما هى ؟ قال : « **هى على ظهر حوت يلتقى طرفاه بالعرش** » ! ! قيل الحوت على ما هو ؟ قال : « **على كاهل ملك ، قدماه على الهواء** » رواه البزار عن شيخه عبدالله بن أحمد : يعنى ابن شبيب ، وهو ضعيف وعن الربيع بن أنس قال : « السماء الدنيا موج مكفوف ، والثانية : صخرة ، والثالثة : حديد ، والرابعة : نحاس ، والخامسة : فضة ، والسادسة : ذهب ، والسابعة : ياقوت » رواه الطبرانى فى الأوسط هكذا موقوفاً على الربيع ، وفيه أبوجعفر الرازى ، وثقه أبوحاتم وغيره ، وضعفه النسائى وغيره(١) .

وروى الطبرانى فى الأوسط بسنده ، فقال : حدثنا محمد بن يعقوب الأهوازى

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى ج ٨ ص ١٣١ .

الخطيب ، (قال) : حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن عبد الصمد السلمى ، (قال) : حدثنا أبوعمران الحرانى ، (قال) : حدثنا ابن جريج عن عطاء ، عن جابر بن عبدالله ، أن خزيمة بن ثابت وهو ليس بالأنصارى المشهور ـ كان فى عير لخديجة ، وأن النبي ـ ﷺ ـ كان معه فى تلك العير ، فقال له : يا محمد : أرى فيك خصالا ، وأشهد أنك النبي الذى يخرج من تهامة وقد آمنت بك ، فإذا سمعت بخروجك أتيتك ، فأبطأ عن النبي ـ ﷺ ـ ، حتى كان يوم فتح مكة أتاه فلما رآه قال : « مرحبا بالمهاجر الأول » و...

ثم قال : يارسول الله : أخبرنى عن ضوء النهار ، وظلمة الليل ، وعن حر الماء فى الشتاء ، وعن برده فى الصيف ، وعن البلد الأمين ، وعن منشأ السحاب ، وعن مخرج الجراد ، وعن الرعد والبرق ، وعن ما للرجل من الولد ، وما للمرأة ؟ ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : أما ظلمة الليل ، وضوء النهار : فإن الشمس إذا سقطت تحت الأرض ، فأظلم الليل لذلك ، وإذا أضاء الصبح : ابتدرها سبعون ألف ملك ، وهى تقاعس كراهية أن تعبد من دون الله ، حتى تطلع ، فتضيىء ، فيطول الليل بطول مكثها ، فيسخن الماء لذلك ، وإذا كان الصيف : قل مكثها ، فبرد الماء لذلك ، وأما الجراد : فإنه نثرة حوت فى البحر ، يقال له : « الأبوات » ، وفيه يهلك ، وأما منشأ السحاب : فإنه ينشأ من قبل الخافقين ، ومن بين الخافقين تلجمه الصبا والجنوب ، ويستدبره الشمال والدبور ، وأما الرعد : فإنه ملك بيده مخراق(١) يدنى القاصية ، ويؤخر الدانية ، فإذا رفع برقت ، وإذا زجر رعدت ، وإذا ضرب صعقت ، وأما ما للرجل من الولد ، وما للمرأة : فإن للرجل العظام ، والعروق ، والعصب ، وللمرأة اللحم ، والدم ، والشعر ، وأما البلد الأمين : فمكة » .

وقال الهيثمى فى زوائده : رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه يوسف ابن يعقوب : أبوعمران ، ذكر الذهبى هذا الحديث فى ترجمته ، ولم يذكر تضعيفه عن أحد !(٢) .

أقول : والحق : أن الذهبى حكم ببطلان هذا الخبر ، وقال : إن راويه عن يوسف ابن يعقوب مجهول ، وهو محمد بن عبدالرحمن السلمى المذكور ، وأحر به أن يكون

---

(١) المخراق خرق تفتل ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا والمراد هنا آلة تزجر بها الملائكة السحاب .
(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ج ٨ ص ١٣٢

باطلا ، ورحم الله الإمام الحافظ الناقد : أبا عبدالله الذهبي ، الذى أبان لنا قيمة هذه المرويات الباطلة ، من منذ بضعة قرون .

وإليك ما قاله الإمام الذهبي بنصه قال : يوسف بن يعقوب : أبوعمران عن ابن جريج ، بخبر باطل طويل ، وعنه إنسان مجهول واسمه عبدالرحمن السلمى ، قال الطبرانى : حدثنا محمد بن يعقوب الأهوازى الخطيب .

ثم ذكر الإسناد الذى ذكرته آنفا ، وبعض المتن ، إلا أنه قال : « إن خزيمة بن ثابت الأنصارى » .. وقال : ذكره أبوموسى فى الطوالات وروى بعضه عبدان الأهوازى ، عن السلمى هذا[1] .

فكيف يقول الهيثمى ، ذكر الذهبي هذا الحديث فى ترجمته ، ولم ينقل تضعيفه عن أحد ؟! ! إنه ـ والله ـ العجب ! ! وقد وافق الذهبي فيما قاله الإمام : الحافظ ابن حجر فى : « لسان الميزان »[2] ، فقد ذكر ما ذكره الذهبي ، غير أنه قال : عن جابر بن عبدالله : أن خزيمة بن ثابت ـ وليس بالأنصارى ـ ، كان فى عير لخديجة .. وذكر القصة السابقة .

وماذكره الحافظ ابن حجر فى : « لسان الميزان » من أنه ليس بالأنصارى هو الصحيح ، فهو خزيمة بن حكيم السلمى ، ويقال له ، ابن ثابت أيضاً ، كان صهر خديجة أم المؤمنين ، فهو غير خزيمة بن ثابت الأنصارى ، المشهور بأنه ذو الشهادتين قطعاً[3] .

ومما يروى فى مثل هذا : ماروى عن صباح بن أشرس ، قال : « سئل ابن عباس عن المد والجزر ، فقال : إن ملكاً مُوَكلا بناموس البحر ، فإذا وضع رجله فاضت ، وإذا رفعها غاضت » ، قال الهيثمى رواه أحمد وفيه من لم أعرفه ، أقول : والبلاء غالباً ، إنما يكون من المجاهيل .

وعن معاذ بن جبل ، عن النبى ـ ﷺ ـ قال ، « **المجرة التى فى السماء هى : عرق حية تحت العرش** » ، رواه الطبرانى فى المعجم الكبير والأوسط ، وقال : لا يروى عن

---

(١) ميزان الاعتدال فى نقد الرجال ج ٣ ص ٣٣٥ ترجمة رقم ٢٨٦٦ ط السعادة .

(٢) ج ٦ ص ٣٣٠ ط الهند .

(٣) الإصابة ج ١ ص ٤٢٧ ترجمة ٢٢٥٨ .

النبي – ﷺ – إلا بهذا الإسناد ، وفيه : عبد الأعلى بن أبي سحرة ، ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات ، أقول : والبلاء من هذا الذى لا يعرف .

وعن جابر بن عبد الله – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله - ﷺ – : يا معاذ : إنى مرسلك إلى قوم أهل عناد ، فإذا سئلت عن المجرة التى فى السماء فقل : هى لعاب حية تحت العرش ، رواه الطبرانى ، وفيه الفضل بن المختار وهو ضعيف(١) ، أقول : وأحر بمثل هذا أن لا يروى إلا من طريق ضعيف .

وكل هذا الذى ذكرناه ، وأمثاله مما لا نصدق وروده عن المعصوم – ﷺ – وإنما هو من أكاذيب بنى إسرائيل وخرافاتهم ، أو من وضع الزنادقة الخبثاء ، وألصق بالنبى زورا ، وما كان رسول الله – ﷺ – ليتكلم فى الكونيات ، والفلكيات ، وأسباب الكائنات بهذا التفصيل ، كما حققت لك آنفا ، وفى هذه المرويات من السذاجة العلمية ، والتهافات ، ما لا يليق بعاقل ، فضلاً عن أعقل العقلاء ، الذى ما كان ينطق عن الهوى – ﷺ – .

وأيضاً : فهذه التعليلات لا تتفق هى والمقررات العلمية المستقرة الثابتة ، التى أصبحت فى حكم اليقينيات اليوم ، ولا أدرى ، كيف يكون حال الداعية إلى الإسلام اليوم فى البلاد المتقدمة فى العلم والمعرفة إذا لهج بمثل هذه الأباطيل التى تضر بالدين أكثر مما ينال منه أعداؤه ؟ ولو أن هذه المرويات كانت فى كتب معتمدة من كتب الحديث ، والرواية التى تعنى بذكر الأحاديث الصحيحة والحسنة ، لكان للمنتصرين لها بعض العذر ، أما وهى كما علمت غير معتد بها لضعف أسانيدها ، ومخالفتها للعقل ، والعلم اليقينى ، فاضرب بها عرض الحائط ولا كرامة ، وكفى إفسادها العقول والأفكار أحقابا من الزمان ، ورحم الله أئمتنا الأوائل الذين تنبهوا إليها ، ونقدوها وزيفوها .

ما ذكره المفسرون فى الرعد والبرق فى كتبهم :

ومعظم كتب التفاسير بالمأثور وغيره ذكرت : أن الرعد : اسم ملك يسوق السحاب ، وأن الصوت المسموع صوت زجره السحاب ، أو صوت تسبيحه ، وأن البرق أثر من المخراق الذى يزجر به السحاب ، أو لهب ينبعث منه ، على أن المخراق من نار ، وذلك عند

---

(١) مجمع الزوائد ج ٨ ص ١٣٥ .

تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِه وَالمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾[1] الآية ، ويكاد لم يسلم من ذلك أحد منهم ، إلا أن منهم من يحاول أن يوفق بين ظاهر الآية وما قاله الفلاسفة الطبيعيون فى الرعد والبرق فيؤول الآية ، ومنهم : من يبقى الآية على ظاهرها ، وينحى باللائمة على الفلاسفة وأضرابهم ؛ الذين قاربوا أن يصلوا إلى ما وصل إليه العلماء فى العصر الحديث ففى تفسير الخازن[2] ، قال ، أكثر المفسرين ، على أن الرعد اسم للملك الذى يسوق السحاب ، والصوت المسموع منه تسبيحه ، ثم أورد على هذا القول أن ما عطف عليه وهو قوله تعالى : ﴿ والملائكة من خيفته ﴾ يقتضى أن يكون المعطوف عليه مغايراً للمعطوف لأنه الأصل ثم أجاب : بأنه من قبيل ذكر الخاص قبل العام تشريفاً !

وقد بسط الإمام الآلوسى فى تفسيره ـ كما هى عادته ـ الأقوال فى الآية ، وذكر أن للعلماء فى إسناد التسبيح إلى الرعد قولين ، أن فى الكلام حذفا : أى سامعو الرعد أو أن الإسناد مجازى من قبيل الإسناد إلى السبب والحامل عليه ، والباءُ فى « بحمده » للملابسة ، أى يسبح السامعون لذلك الصوت متلبسين بحمد الله ، فيقولون : سبحان الله ، والحمد لله .

ومن العلماء من قال : إن تسبيح الرعد بلسان الحال لا بلسان المقال حيث شبه دلالة الرعد على قدرة الله وعظمته ، وإحكام صنعته ، وتنزيهه عن الشريك والعجز ، بالتسبيح والتنزيه ، والتحميد اللفظى ، ثم استعار لفظ يسبح لهذا المعنى ، وقالوا : إن هذا المعنى أنسب ، وأقعد من الآخر .

وكل هذا من العلماء فى الحقيقة تخلص من حمل الآية على ظاهرها ، وأن المراد بالرعد : الملك الموكل بالسحاب ، ثم قال الآلوسى : والذى اختاره أكثر المحدثين : أن الإسناد حقيق ؛ بناءً على أن الرعد اسم للملك الذى يسوق السحاب ، فقد روى أحمد ، والترمذى وصححه ، والنسائى ، وآخرون عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، أن اليهود سألوا رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا : أخبرنا ما هذا الرعد ؟ فقال ـ عليه الصلاة

---

(١) الرعد : ١٣ .

(٢) ج ٣ ص ٧٠ .

والسلام ـ : « **ملك من ملائكة الله موكل بالسحاب ، بيديه مخراق من نار ، يزجر به السحاب ، يسوقه حيث أمره الله ـ تعالى ـ** » ، قالوا : فما ذلك الصوت الذى نسمعه ؟ قال : « **صوته** » قالوا : « صدقت » .

وهذا الحديث ـ إن صح ـ : يمكن حمله على التمثيل ، ولكنى لا يطمئن قلبى إليه ، ولا أكاد أصدق وروده عن المعصوم ـ ﷺ ـ وإنما هو من إسرائيليات بنى إسرائيل ألصقت بالنبى ـ ﷺ ـ زورا ، ثم كيف يتلاءم ما روى مع قوله قبل : ﴿ **وَهُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبرقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ** ﴾ ، وقوله بعد : ﴿ **وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ** ﴾ ، فالآية فى بيان قدرة الله وعظمته فى إحداث هذه الآيات الكونية على حسب ما خلقه الله فى الكون من نواميس ، وأسباب عادية ! وإنما المناسب : أن نفسر تسبيح الرعد بلسان الحال ، وعطف الملائكة على الرعد يقتضى أن يكون الرعد غيرها لما ذكرنا ؛ وكأن السر فى الجمع بينهما : بيان أنه تواطأ على تعظيم الله وتنزيهه الجمادات والعقلاء ، وأن ما لا يعقل منقاد لله وخاضع لانقياد العقلاء سواءً بسواءٍ ، ولا سيما الملائكة الذين هم مفطورون على الطاعة والانقياد ، ومن الحق أن نذكر : أن بعض المفسرين كانت لهم محاولات ؛ بناء على ما كان من العلم بهذه الظواهر الكونية فى عصرهم جادة ، فى تفسير الرعد والبرق ، كابن عطية ـ رحمه الله ـ فقد قال : وقيل : إن الرعد ريح تخفق بين السحاب ، وروى ذلك عن ابن عباس ، واعترض عليه أبو حيان ، واعتبر ذلك من نزغات الطبيعيين ، مع أن قول ابن عطية أقرب إلى الصواب من تفسير الرعد بصوت الملك الذى يسوق السحاب ، والبرق بضوء مخراقه ، وقد حاول الإمام الرازى التوفيق بين ما قاله المحققون من الحكماء ، وما ورد فى هذه الأحاديث والآثار ، وقد أنكر عليه أبو حيان هذا أيضاً .

ثم ذكر الإمام الآلوسى آراء الفلاسفة فى حدوث الرعد ، والبرق ، وتكون السحاب وأنه عبارة عن أبخرة متصاعدة قد بلغت فى صعودها إلى الطبقة الباردة من الهواء ، ثم تكثفت بسبب البرد ، ولم يقدر الهواء على حملها ، فاجتمعت وتقاطرت ، ويقال لها : مطر .

أقول : وقد أصابوا فى تكون السحاب ونزول المطر ، فآخر ما وصل إليه العلم اليوم هو

هذا ، وأما فى تكون الرعد ، والبرق ، فقد حاولوا ، وقاربوا ، وإن لم يصلوا إلى الحقيقة العلمية المعروفة اليوم ، وبحسبهم فضلاً هذا .

وبعد أن ذكر الآلوسى الردود ، والاعتراضات على ما قاله الفلاسفة ، وهى ـ والحق يقال ـ لا تنهض أن تكون أدلة فى رد كلامهم ، قال : وقال بعض المحققين : لا يبعد أن يكون فى تكون ما ذكر أسباب عادية ، كما فى الكثير من أفعاله ـ تعالى ـ ، وذلك لا ينافى نسبته إلى المحدث الحكيم ـ جل شأنه ـ ، ومن أنصف لم يسعه إنكار الأسباب بالكلية ، فإن بعضها كالمعلوم بالضرورة ، قال : وبهذا أنا أقول (١) . وأنا بهذا أيضًا أقول ، وكون الظواهر الكونية جعل الله نواميس خاصة لحدوثها ، لا ينافى قط أنه سبحانه الخالق للكون ، والمدبر له سبحانه ، فهو ـ سبحانه ـ هو الموجد لهذه النواميس ، وهو الموجد لهذه السنن التى يسير عليها الكون ، فإن بعض هذه النواميس والسنن أصبحت معلومة فإنكارها باسم الدين ، أو التشكيك فيها ـ ومنها تكوّن السحب ، وحدوث الرعد ، والبرق ، والصواعق ـ إنما يعود على الدين بالضعف ، ويضره أكثر من طعن أعدائه فيه ، ولعلك على ذكر مما ذكرته عن حجة الإسلام الغزالى ـ رحمه الله ـ فى هذا المقام .

أقوال الرسول عند سماع الرعد ورؤية البرق :

وقد وردت أحاديث أخرى صحاح وحسان ، تبين ما كان يقوله ـ ﷺ ـ عند حدوث هذه الظواهر الكونية ، وهى تدل على كمال المعرفة بالله ، وأنه سبحانه هو المحدث لها ، وأنها تدل على تنزيه الله ، وتعظيمه ، وحمده : فقد أخرج أحمد والبخارى فى الأدب المفرد ، والترمذى ، والنسائى ، وغيرهم ، عن ابن عمر قال : « كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا سمع صوت الرعد ، والصواعق قال : **اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك** » ، لأن احتمال الإهلاك والتعذيب بهذه الآيات الكونية أمر قريب ممكن .

وأخرج أبوداود فى مراسيله : عن عبدالله بن أبى جعفر : أن قومًا سمعوا الرعد فكبروا ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **إذا سمعتم الرعد فسبحوا ، ولا تكبروا** » ،

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ١٠٦ ، ١٠٧ ط منير.

وذلك : لما فيه من التأدب بأدب القرآن وأسلوبه فى قوله تعالى : ﴿ **وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ** ﴾ ، ولأن دلالته على تنزيه الله من النقص والشريك أولى من دلالته على التعظيم . وأخرج ابن أبي شيبة : عن ابن عباس أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يقول إذا سمع الرعد : « **سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم** » .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير عن أبي هريرة قال : كان ـ ﷺ ـ إذا سمع الرعد قال : « **سبحان من يسبح الرعد بحمده** » .

فهذا هو اللائق برسول الله ـ ﷺ ـ وبعصمته ، لا ما روى : من أن الرعد ملك أو صوت زجره للسحاب ، وأن البرق أثر سوطه الذى يزجر به السحاب .

* * *

رأى العلم فى حدوث الرعد ، والبرق ، والصواعق

وإكمالاً للفائدة : سأذكر ما وصل إليه العلم فى حدوث هذه الظواهر الكونية ، فأقول وبالله التوفيق : يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوى رحمه الله وأثابه ـ فى كتابه « سنن الله الكونية » :

الرياح والكهربائية الجوية :

إن الكهربائية التى تتولد فى الهواء ـ والتى ذكرنا لك بعض مصادرها ـ يكتسبها السحاب عند تكونه على الأيونات التى تحملها تلك الكهربائية فى الطبقات العليا الجوية ، ولا يُدْرى الآن ، كيف يفصل الله الأيونات السالبة ، من الأيونات الموجبة ، قبل تكاثف البخار عليها إن كان هناك فصل لها ؟ أم كيف يكون السحاب عظيم التكهرب إما بنوع من الكهرباء ، وإما بالنوع الآخر ، إذا حدث التكاثف على الأيونات ، وهى مخلطة ، ومهما يكن من سر ذلك ، فإن السحاب مكهرب من غير شك ، كما أثبت ذلك فرانكلن لأول مرة فى عام ١٧٥٢ م وكما أثبت غيره ، عظم تكهربه بشتى الطرق بعده ، وأنت تعرف أن نوعى الكهربائية يتجاذبان ، وأن الموجب والموجب ، أو السالب ، والسالب يتدافعان ، أو يتنافران ، كما تشاء أن تقول .

هذا التدافع أو التنافر من شأنه تفريق الكهربائية ، ثم إذا شاء الله ساق السحاب

بالريح ، حتى يقترب السحاب الموجب ، من السحاب السالب قربًا كافيًا ، فى اتجاه أفقى ، أو فى اتجاه رأسى أو فيما شاء الله من الاتجاهات ، فإذا اقتربا تجاذبا ، ومن شأن اقترابهما هذا : أن يزيد فى كهربائية مجموع السحاب بالتأثير ، ولا يزالان يتجاذبان ، ويتقاربان ، حتى لا يكون محيص من اختلاطهما واتحاد كهربائيتهما أو من اتحاد كهربائيتهما من بعد ، وعندئذ تحدث شبه شرارة عظمى كهربائية ، هى البرق الذى كثيرًا ما يرى فى البلاد الكثيرة الأمطار .

والمطر : نتيجة لازمة لحدوث ذلك الاتحاد الكهربائى ، سواء حدث فى هدوءٍ أو بالإبراق ، فإذا حدث بهدوءٍ ، حدث بين القطيرات المختلفة فى السحابتين ، فتجذب كل منها قرينتها أو قريناتها ، حتى تتحد ، وتكون قطرة فيها ثقل ، فتنزل ، وتكبر أثناء نزولها بما تكتسب من كهربائية ، وما تجتذب من قطيرات ، أثناء اختراقها السحاب المكهرب ، الذى يكون بعضه فوق بعض فى السحاب الركام ، أما إذا حدث الاتحاد الكهربائى فى شدة البرق ، وعنفه ، فإنه يحدث لا بين القطيرات ، ولكن بين الكتل من السحاب ، ويسهل حدوثه تخلخل الهواء ، أى قلة ضغطه فى تلك الطبقات .

والبرق : يمثل قوة كهربائية هائلة ، تستطيع أن تكون فكرة عنها إذا عرفت أن شرارته قد تبلغ ثلاثة أميال ، فى طولها أو تزيد ، وأن أكبر شرارة كهربائية أحدثها الإنسان لا تزيد عن بضعة أمتار .

فالحرارة الناشئة عن البرق لا شك هائلة ، فهى تمدد الهواء بشدة ، وتحدث مناطق جوية عظيمة مخلخلة ، الضغط داخلها يعادل الضغط خارجها ، مادام الهواء داخل المنطقة ساخنًا ، حتى إذا تشععت حرارته وبردت تلك المناطق برودة كافية ، وما أسرع ما تبرد ، خف منها الضغط ، وصار أقل كثيراً من ضغط الطبقات الهوائية السحابية المحيطة بها ، فهجمت عليها فجأة بحكم الفرق العظيم بين الضغطين وتمددت فيها ، وحدث لذلك صوت شديد هو : صوت الرعد وهزيمه ، هذا الصوت قد يكون له صدى بين كتل السحاب ، يتردد ، فنسميه قعقعة الرعد ، أما صوت الشرارة الكهربائية البرقية ، فهو : بدء الرعد ، ويكون ضعيفاً بالنسبة لهزيمه وقعقعته ، لذلك : تسمع الرعد ضعيفاً فى الأول ثم يزداد ، كأنما أوله إيذان بتضخمه ، كما قد تُؤذن الطلقة الفردة بانطلاق بطاريات

برمتها ، من المدافع الضخمة فى الحروب ، فالرعد يحدث لا عند اتحاد الكهربائيتين حين يحدث البرق فقط ، ولكن يحدث أكثره بعد ذلك عند تمدد الكتل الهوائية الهاجمة فى المنطقة المفرغة ، وهى إذا تمددت بردت برودة شديدة ، فيتكاثف ما فيها من البخار ، ومن كتل السحاب ، فينزل على الأرض إما مطرًا ، وإما بردًا ، حسب مقدار البرودة الحادثة فى تلك المناطق ، وهذا هو السبب فى أن الرعد والبرق يعقبهما فى الغالب مطرات شديدة ، سواء أكانت المطرة مائية ، أم بردية ، وقطرات الماء أو حبات البرد تنمو بعد ذلك باختراقها كتل السحاب المتراكم تحت المنطقة التى حدث فيها التفريغ[1] .

الصواعق :

وقد يحدث التفريغ الكهربائى بين السحاب والأرض ، بدلاً من بين السحاب والسحاب ، وهذا يكون عادة إذا كان السحاب عظيم الكهربائية ، قريبًا من الأرض ، فإذا حدث التفريغ ظهر له كالعادة ضوء وصوت ، نسمى مجموعهما بالصاعقة ، أى أن الصاعقة : تفريغ كهربائى بين السحاب والأرض ، إذا أصاب حيواناً أو نباتاً أحرقه ، وهو يحدث أكثر ما يحدث بين الأجسام المدببة على سطح الأرض من شجر أو نحوه ، وبين السحاب ، ولذا كان من الخطأ الاستظلال بالشجر ، أو المظلات فى العواصف ذات البرق ، على أن الإنسان قد استخدم سهولة حدوث التفريغ بين الأجسام المدببة ، والسحاب لوقاية الأبنية من الصواعق ، وذلك : بإقامته على سطوحها قضباناً حديدية أو نحاسية ، مدببة الأطراف ، بحيث يكون طرف القضيب المدبب أعلى قليلاً من أعلى نقطة فى البناء ، والطرف الآخر متصلاً بلوح فلزى مدفون فى أرض رطبة ، ومن شأن الأطراف المدببة : أن يكون كل منها باباً تخرج منه الكهربائية المتجمعة على السطح تدريجًا إلى السحاب الذى يظله ، فيحدث التفريغ ، أى الاتحاد بين كهربائية الأرض ، وكهربائية السحاب تدريجًا ، فيمتنع ذلك التفريغ الفجائى المعروف بالصاعقة ، على أنه إذا نزلت الصاعقة بالبناء رغم ذلك فالأرجح جداً : أنها تصيب القضيب المدبب أول ما تصيب ، وتنصرف الكهربائية إلى الأرض ، بدلاً من أن تدك البناء ، ولذا يسمى مثل هذا القضيب المدبب الواصل إلى الأرض : بصارفة الصواعق ، وقد وجدوا : أن السطح الخارجى

(١) سنن الله الكونية ص ١٥٨ ــ ١٦٠ .

للقضيب هو : الطريق الذى تمر به الكهربائية إلى الأرض ، لذلك : كلما كان هذا السطح أكبر كان الصرف أعظم ، والبناء أحصن ، ولذا كانت الصفائح أفعل فى حفظ الأبنية ، من مثل كتلتها من الأسلاك[1] .

* * *

جبل قاف المزعوم ، وحدوث الزلازل

ومن ذلك : ماذكره بعضهم فى تفسير قوله تعالى : ﴿ ق . وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ : فقد ذكر صاحب : « الدر المنثور » وغيره ، روايات كثيرة عن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ قال : « خلق الله من وراء هذه الأرض بحرًا محيطًا بها ، ثم خلق من وراء ذلك البحر جبلاً يقال له : « قاف » ، سماء الدنيا مرفوعة عليه ، ثم خلق الله ـ تعالى ـ من وراء ذلك الجبل أيضًا مثل تلك الأرض سبع مرات ، واستمر على هذا حتى عد سبع أرضين ، وسبعة أبحر ، وسبعة أجبل ، وسبع سماوات » .

وهذا الأثر لا يصح سنده عن ابن عباس ، وفيه انقطاع ، ولعل البلاء فيه من المحذوف ، ولو سلمنا صحته عنه : فقد أخذه من الإسرائيليات .

وأخرج ابن أبى الدنيا ، وأبوالشيخ عنه أيضًا ، قال : خلق الله تعالى ـ جبلاً يقال له : قاف ، محيط بالعالم ، وعروقه إلى الصخرة التى عليها الأرض ، فإذا أراد الله ـ تعالى ـ أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فيحرك العرق الذى يلى تلك القرية ، فيزلزلها ، ويحركها ، ثم تحرك القرية دون القرية .

وكل ذلك كما قال القرافى لا وجود له ، ولا يجوز اعتماد ما لا دليل عليه ، وهو من خرافات بنى إسرائيل الذين يقع فى كلامهم الكذب ، والتغيير ، والتبديل ، دست على هؤلاء الأئمة ، أو تقبلوها بحسن نية . ورووها لغرابتها ، لا اعتقاداً بصحتها ، ونحمد الله أن وجد فى علماء الأمة من رد هذا الباطل ، وتنبه له قبل أن تتقدم العلوم الكونية كما هى عليه اليوم ، ومن العجيب : أن يتعقب كلام القرافى ابن حجر الهيتمى فقال : ما جاء عن ابن عباس مروى من طرق خرجها الحفاظ وجماعة ممن التزموا تخريج الصحيح ، وقول

---

(١) سنن الله الكونية ص ١٦٢ .

الصحابى فيما لا مجال للرأى فيه : حكمه حكم المرفوع إلى النبى .

وأنا أقول للشيخ الهيتمى : إن تخريج من التزم الصحة ليس بحجة ، وكم من ملتزم شيئاً لم يف به ، والشخص قد يسهو ويغلط مع عدالته ، وأنظار العلماء تختلف ، والحاكم على جلالته : صحح أحاديث حكم عليها الإمام الذهبى وغيره بالوضع ، وكذلك ابن جرير على جلالته : أخرج روايات فى تفسيره ، حكم عليها الحفاظ بالوضع ، والكذب ، ولو سلمنا صحتها عن ابن عباس : فلا ينافى ذلك أن تكون من الإسرائيليات الباطلة ، كما قلت غير مرة .

وأما أن لها حكم الرفع فغير مسلم ؛ لأن المحققين من أئمة الحديث على أن ما لا مجال للرأى فيه له حكم الرفع ، إذا لم يكن الصحابى ممن عرف بأنه يأخذ عن مسلمة أهل الكتاب ، وابن عباس ممن أخذ عنهم .

ثم إنى أقول للهيتمى ومن يرى رأيه : أى فائدة نجنيها من وراء هذه المرويات التى لا تتقبلها عقول تلاميذ المدارس ، فضلاً عن العلماء ؟! ! اللهم إلَّا أننا نفتح ـ بالانتصار لها ـ باباً للطعن فى عصمة النبى ـ ﷺ ـ ، وإذا جاز هذا فى عصور الجهل والخرافات فلا يجوز اليوم ، وقد أصبح رواد الفضاء يطوفون حول الأرض ، ويرونها معلقة فى الفضاء بلا عمد ، ولا جبال ، ولا بحار ، ولا صخرة استقرت عليها الأرض ، فهذه الإسرائيليات مخالفة للحس والمشاهدة قطعًا ، فكيف نتعلق بها ؟!

ورحم الله الإمام الآلوسى حيث قال : والذى أذهب إليه : ما ذهب إليه القرافى ، من أنه لا وجود لهذا الجبل بشهادة الحس ، فقد قطعوا هذه الأرض : برها وبحرها على مدار السرطان مرات ، فلم يشاهدوا ذلك ، والطعن فى صحة الأخبار ، وإن كان جماعة من رواتها ممن التزم تخريج الصحيح أهون من تكذيب الحس ، وأمر الزلازل لا يتوقف أمرها على ذلك الجبل ، بل هى من الأبخرة ، يعنى المتولدة من شدة حرارة جوف الأرض ـ وطلبها الخروج ، مع صلابة الأرض ـ يعنى فيحصل هذا الاهتزاز وإنكار ذلك مكابرة عند من له عرق من الإنصاف[1] ، ولا أدرى لو أن الإمام الجليل الآلوسى عاش

---

(١) روح المعانى للآلوسى ج ٢٦ ص ١٢٠ .

فى عصرنا هذا ، ووقف على ما وقفنا عليه من عجائب الرحلات الفضائية ، ماذا كان يقول ؟ ، إن كل مسلم ينبغى أن يكون له من العقل الواعى المتفتح ، والنظر الثاقب البعيد ما لهذا الإمام الكبير.

وإليك ما قاله عالم حافظ ناقد ، سبق الإمام الآلوسى بنحو خمسة قرون[1] : فقد قال فى تفسيره عند هذه الآية : وقد روى عن السلف أنهم قالوا : (ق) : جبل محيط بجميع الأرض يقال له : جبل قاف ، وكأن هذا ـ والله أعلم ـ من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس ، لما رأى من جواز الرواية عنهم ، مما لا يصدق ، ولا يكذب ، وعندى : أن هذا ، وأمثاله ، وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم يلبسون به على الناس أمر دينهم ، كما افْتُرى فى هذه الأمة ، مع جلالة قدر علمائها ، وحفاظها ، وأئمتها أحاديث عن النبى ـ ﷺ ـ ، وما بالعهد من قدم ، فكيف بأمر بنى إسرائيل مع طول المدى ، وقلة الحفاظ النقاد فيهم ، وشربهم الخمور ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتب الله وآياته ، وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله : « **حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج** » ، فيما قد يجوزه العقل ، فأما فيما تحيله العقول ، ويحكم فيه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه ، فليس من هذا القبيل ، والله أعلم[2] .

قال : وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين ، وكذا طائفة كثيرة من الخلف ، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب ، فى تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم ـ ولله الحمد والمنة ـ ، حتى أن الإمام : أبا محمد عبدالرحمن بن أبى حاتم الرازى ـ رحمة الله عليه ـ أورد هنا أثراً غريباً ، لا يصح سنده عن ابن عباس ، ثم ساق السند ، والمتن الذى ذكرناه آنفاً .

ثم قال : فإسناد هذا الأثر فيه انقطاع ـ أى راو سقط من رواته ـ والذى رواه على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله ـ عز وجل ـ (ق) : هو اسم من أسماء الله ـ عز وجل ـ ، والذى ثبت عن مجاهد ـ وهو من تلاميذ ابن عباس الملازمين

---

(١) الإمام ابن كثير توفى سنة ٧٧٤ هـ والإمام الآلوسى توفى سنة ١٢٧٠ هـ .

(٢) تفسير ابن كثير. والبغوى ج ٨ ص ٣٧ .

له ، الناشرين لعلمه أنه حرف من حروف الهجاء ، كقوله تعالى : ﴿ **ص** ، **ن** ، **حم** ، **طس** ، **آلم** ﴾ ، فهذه تبعد ما تقدم عن ابن عباس - رضى الله عنهما[1]

* * *

الإسرائيليات فى تفسير : ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ ﴾

ومن ذلك : ما يذكر كثير من المفسرين فى قوله تعالى : ﴿ **ن والقلم** ﴾ من أنه الحوت الذى على ظهره الأرض ، ويسمى : « اليهموت » ، وقد ذكر ابن جرير ، والسيوطى روايات عن ابن عباس ، منها : « أول ما خلق الله القلم ، فجرى : بما هو كائن ، ثم رفع بخار الماء ، وخلقت منه السماوات ، ثم خلق النون ، فبسطت الأرض عليه ، فاضطرب النون ، فمادت الأرض[2] ، فأثبتت بالجبال ، وقد روى عن ابن عباس أيضًا : أنه الدواة ، ولعل هذا هو الأقرب ، والمناسب لذكر القلم ، وقد أنكر الزمخشرى ورود نون بمعنى : الدواة فى اللغة ، وروى عنه أيضًا : أنه الحرف الذى فى آخر كلمة : « الرَّحْمٰن » ، وأن هذا الاسم الجليل فرق فى : « الر » و« حم » و« ن » .

واضطراب النقل عنه يقلل الثقة بما روى عنه ، ولاسيما الأثر الأول عنه ، والظاهر أنه افتراءٌ عليه ، أو هو من الإسرائيليات ألصق به .

وإليك ما قاله إمام حافظ ، ناقد ، من مدرسة اشتهرت بأصالة النقد ، وهو : الإمام ابن قيم الجوزية ، قال فى أثناء كلامه على الأحاديث الموضوعة : « ومن هذا : حديث أن قاف : جبل من زمردة خضراء ، محيط بالدنيا كإحاطة الحائط بالبستان ، والسماء واضعة أكنافها عليه » .

ومن هذا : حديث : أن الأرض على صخرة ، والصخرة على قرن ثور ، فإذا حرك الثور قرنه ، تحركت الصخرة ، فهذا من وضع أهل الكتاب الذين قصدوا الاستهزاء بالرسل .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) تحركت ومالت .

وقال الإمام أبو حيان فى تفسيره : لا يصح من ذلك شيءُ ما عدا كونه اسما من أسماء حروف الهجاء[1] .

* * *

الموضوعات وكتب التفسير

وكذلك : اشتملت بعض كتب التفسير على أحاديث موضوعة فى فضائل السور والآيات القرآنية ، وكذلك : فيما يتعلق بأسباب النزول وفيما يتعلق بسيرة النبى – ﷺ – ، كقصة الغرانيق ، وتزوجه ببعض أزواجه ، وهى : السيدة زينب بنت جحش – رضى الله عنها – .

ومن هذه الموضوعات : ما هو خفى دقيق لا يدركه إلّا الحفاظ المتقنون العارفون بقواعد الجرح ، والتعديل ، وتواريخ الرجال ، وهذا النوع راج على بعض الكتاب وأهل العلم ، وتداولوه فى كتبهم ، وأحاديثهم ، وخطبهم ، ووعظهم وتذكيرهم للناس .

ومنها : ما يدركه من ليس له قدم ثابتة فى حفظ الحديث ، ونقده والعلم برجاله وأحوال رواته لمصادمته للمعقول ، ولما أجمع عليه العلماء من عصمة الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – ، عن مثله ، فقد ردوا بعض هذه المكذوبات من جهة العقل والنظر ، ولم يتوسعوا فى نقده من جهة النقل ، والرواية ، فكان على أن أستدرك ما فاتهم ، وأن أتوسع فى نقده من جهة السند والمتن ، أو بعبارة أخرى : من جهة النقد الداخلى ، والنقد الخارجى ، وبذلك لا تبقى هناك أية شبهة فى التمسك بهذه المرويات الواهيات الساقطات عن درجة الاعتبار .

ومن هذه المرويات المختلقة : ما أجمع العلماء على الحكم بوضعه ، واختلاقه ، ولكن الوقوف على كلامهم وكتبهم ليس متيسرًا ، ولا سهلاً على كل قارىء لهذه

---

(١) وهذا الرأى هو الراجح فى فواتح السور من أمثال « الم » و« حم » و« ن » فهى أسماء مسمياتها الحروف الهجائية ، لتكون بمثابة الدليل على إعجاز القرآن كأن الله قال : إن القرآن مؤلف من جنس هذه الحروف ، ومن كلمات من هذه الحروف وقد تحدى به النبى – ﷺ – الإنس والجن فعجزوا وما ذلك إلا لأنه ليس من كلام بشر ، وإنما هو من عند خالق القوى والقدر .

التفاسير ، فمن ثم : وقع فيما وقع فيه الكثيرون من الاغترار بهذه المرويات ، وأمثالها ؛ وزعمهم أن لها أصلاً ، فكان على أن أبحث ، وأنقب ، وأضع بين يدى القارىء ما قاله الأئمة ، حتى يكون على حذر منها ؛ ومنها : ما اختلف فيه أئمة كبار : منهم : من حكم بزيفه ، ومنهم : من حكمت عليه الصنعة الحديثية ، فانتصر لها ، وجعل لها أصلاً ، ولكنه ركب الصعب فى بيان المراد منها ، وذلك : كقصة الغرانيق ، فكان لزاماً على أن أرد عليهم بمقتضى القواعد الحديثية أيضًا التى أخذناها من كتب الأئمة ، وعليها تتلمذنا .

لذلك : رأيت إتمامًا للفائدة ، وإكمالاً للبحث : أن أتعرض لما وصل إليه علمى من الموضوعات بعد الفراغ من الإسرائيليات ، وأكشف عما قاله العلماء فى تزييف هذه الموضوعات ، ومن الله أستمد العون والتوفيق فاللهم أعن وسدد .

* * *

الأحاديث الموضوعة فى فضائل السور والآيات

لقد وضعت أحاديث كثيرة فى فضائل السور والآيات ، وقصد واضعوها ترغيب الناس فى قراءة القرآن الكريم ، وزعموا : أن فى ذلك حسبة إلى الله ـ تعالى ـ ، وقد بينت فيما سبق غلطهم ، وفساد قصدهم ، وبطلان زعمهم ، وأن ذلك داخل تحت الوعيد ، فى قوله ـ ﷺ ـ : « **من كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار** » رواه الشيخان وغيرهما ، وأنه لا فرق بين الكذب عليه ، والكذب له .

١ ـ حديث أُبيٍّ بن كَعْب الطويل :

فمن ذلك : الحديث الطويل الذى يُروى عن أبى بن كعب ، عن النبى ـ ﷺ ـ فى فضائل القرآن سورة سورة.

فقد بحث مؤمل بن إسماعيل ، حتى وصل إلى من اعترف بوضعه ، قال مؤمل : حدثنى شيخ بهذا الحديث ، فقلت له : من حدثك بهذا ؟ قال : رجل بالمدائن ، وهو حى ، فسرت إليه ، فقلت : من حدثك ، بهذا ؟ قال : حدثنى شيخ بواسط ، فسرت إليه ، فقلت : من حدثك بهذا ؟ فقال : حدثنى شيخ بالبصرة ، فسرت إليه ، فقلت : من حدثك بهذا ؟ فقال : حدثنى شيخ بعبادان ، فسرت إليه فأخذ بيدى ، فأدخلنى

بيتًا ، فإذا فيه قوم من المتصوفة ، ومعهم شيخ ، فقال : هذا الشيخ الذى حدثنى ، فقلت : ياشيخ من حدثك بهذا ؟ فقال : لم يحدثنى أحد ، ولكنا رأينا الناس قد رغبوا عن القرآن ، فوضعنا لهم هذا الحديث ، ليصرفوا قلوبهم إلى القرآن[١] .

وقد روى هذا الحديث من طريق على بن زيد بن جدعان ، وعطاء ابن أبى ميمونة ، كلاهما عن زر بن حبيش ، عن أبى بن كعب ، ومن طريق هارون بن كثير ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن أبى أمامة ، عن أبى بن كعب ، ومن طريق آخر ، والحديث بجميع طرقه باطل موضوع[٢] ، وروى عن ابن المبارك أنه قال : أظنه من وضع الزنادقة ، ومن ذلك أيضًا : حديث عكرمة ، عن ابن عباس ، فى فضائل القرآن سورة سورة فقد سئل عنه واضعه : نوح بن أبى مريم[٣] ، فقال : رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن ، واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ، ومغازى محمد بن إسحاق فوضعت هذه الأحاديث حسبة ! ![٤] .

وقد خطأ المحدثون من ذكر هذه الأحاديث من المفسرين فى كتبهم كالثعلبى ، والواحدى ، والزمخشرى ، والنسفى ، والبيضاوى ، والمولى أبى السعود ، ولكن من أبرز سنده ، وذكره كالأولين : الثعلبى والواحدى فهو أبسط لعذره ، إذ أحال ناظره على الكشف عن سنده ، والبحث عن رواته ، وإن كان لا يجوز له السكوت عليه .

وأما من لم يبرز سنده وأورده بصيغة الجزم ، فخطؤُه أفحش ، وعذره أبعد ، وذلك كالآخرين : الزمخشرى ، والنسفى ، والبيضاوى وأبى السعود .. قال الإمام : ابن الجوزى : وقد فرق هذا الحديث أبو إسحاق الثعلبى فى تفسيره فذكر عند كل سورة منه ما خصها ، وتبعه أبو الحسن الواحدى فى ذلك ، قال : ولا أعجب منهما : لأنهما ليسا من أصحاب الحديث ، وإنما عجبت من أبى بكر بن أبى داود فى كتابه الذى صنفه فى :

---

(١) مقدمة ابن الصلاح بشرحها للعراق ص ١١١ ــ ١١٣ .

(٢) اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة ص ١١٧ ، ١١٨ .

(٣) نوح بن أبى مريم لقب بالجامع لجمعه علوماً كثيرة ، أخذ النقد عن أبى حنيفة ، وابن أبى ليلى ، والتفسير عن الكلبى ، والمغازى عن محمد بن إسحاق ، والحديث عن حجاج بن أرطاة ، قيل : إنه كان جامعا لكل شىء إلا الصدق .

(٤) مما ينبغى أن يعلم أن الصحابى ، ومن رواه عنه من الثقات برءاء من اختلاق ذلك على رسول الله ــ ﷺ ــ قطعا وإنما الذى افترى ذلك عليهم وعلى النبى ــ نوح وأمثاله من الكذابين الوضاعين .

« فضائل القرآن » ، وهو يعلم أنه حديث محال مصنوع بلا شك[1] .

طريقة الثعلبي في ذكر هذا الحديث والواحدى :

وقد رجعت إلى تفسير الثعلبي[2] فوجدته يبرز السند كاملا تارة ، وتارة يقول : عن أبي بن كعب ، قال : قال النبي - ﷺ - ومن ذلك : ما ذكره في صدر سورة هود ، قال ، وعن أبي بن كعب ، قال ، قال النبي - ﷺ - : « **من قرأ سورة هود أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق نوحا ، وهودا ، وصالحا ، ولوطا ، وموسى** » .

وفى صدر سورة يوسف قال : وعن أبي بن كعب ، قال : قال النبي - ﷺ - : « **اقرأوا سورة يوسف ، فإنه ما من مسلم تلاها وعلم أهله إلا هوَّن الله عليه سكرات الموت ، وأعطاه القوة أن لا يحسد أحدًا** » .

وكذلك الواحدى : يذكر الفضائل فى أول السورة ، ليكون أدعى إلى عناية القارىء وتنشيطه .

طريقة الزمخشرى ومتابعيه :

أما الزمخشرى ومتابعوه : فإنهم يذكرون الفضائل فى آخر السورة وقد سئل الزمخشرى عن هذا ، فأجاب : بأن الفضائل صفات ، وهى تستدعى الموصوف ، يعنى والموصوف مقدم على صفته ، كما أنهم لا يذكرون شيئاً من السند حتى الصحابى ، وسأضرب أمثلة لما ذكر الزمخشرى وغيره ، من هذا الحديث الطويل عقب كل سورة حتى يكون القارىء على حذر منها ومن أمثالها ، وقد لا حظ واضع هذا الحديث : أن يذكر فيه ما يكون ملائماً لما فى السورة .

فمن ذلك : ما ذكروه فى آخر سورة آل عمران ، حيث قال : « .. وعن رسول الله - ﷺ - « **من قرأ سورة آل عمران أعطى بكل آية منها أماناً على جسر جهنم** » ، وعنه - عليه الصلاة والسلام - : « **من قرأ السورة التى يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة ، صلى الله عليه وملائكته ، حتى تحجب الشمس** » .

---

(١) اللآلىء المصنوعة ج ١ ص ١١٨ .

(٢) هو مخطوط ناقص فى المكتبة الأزهرية .

وقال فى آخر سورة المائدة : وعن رسول الله ـ ﷺ ـ : « **من قرأ سورة المائدا أعطى من الأجر عشر حسنات ، ومحى عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، بعدد كل يهودى ونصرانى يتنفس فى الدنيا** » .

* * *

أحاديث موضوعة عن غير أبى بن كعب

وقد يذكر بعض المفسرين فى فضائل السور أحاديث موصوعة عن غير أبى بن كعب ، وذلك مثل : ماذكره الزمخشرى والبيضاوى فى فضل الفاتحة ، قالا : وعن حذيفة بن اليمان : أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **وإن القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتما مقضيا » فيقرأ صبى من صبيانهم فى الكتاب : « الحمد لله رب العالمين » ، فيرفع الله عنهم العذاب أربعين سنة** .

قال ولى الدين العراق : فى سنده الجويبارى ، ومأمون الهروى كذابان فهو من وضع أحدهما [1] .

وقد يذكر المفسرون فى فضائل الآيات ما لا يعرفه المحدثون ، وذلك مثل : ماذكره الزمخشرى ، وتبعه النسفى وغيره ، فى فضل آية الكرسى [2] من قوله ـ ﷺ ـ : « **ما قرئت هذه الآية فى دار إلا اهتجرتها الشياطين ثلاثين يوما ، ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة ، أربعين ليلة ، يا علىّ علمها ولدك ، وأهلك ، وجيرانك ، فما نزلت آية أعظم منها** » .. وكذا الحديث الذى ذكره بعده ، وهو : أن الصحابة تذاكروا أفضل ما فى القرآن ، فقال لهم علىٌّ ـ رضى الله عنه ـ : أين أنتم من آية الكرسى ، ثم قال : قال لى رسول الله ـ ﷺ ـ : « **يا علىٌّ : سيد البشر : آدم ، وسيد العرب : محمد ولا فخر ، وسيد الفرس سلمان ، وسيد الروم : صهيب ، وسيد الحبشة : بلال ، وسيد الجبال : الطور وسيد الأيام : يوم الجمعة ، وسيد الكلام : القرآن ، وسيد القرآن : البقرة ، وسيد البقرة : آية الكرسى** » ، فقد قال الحافظ فى تخريج أحاديث الكشاف : لم أجدهما .

---

(١) محاسن الصور فى الكشف عن أحاديث السور للمغربى مخطوط .

(٢) الكشاف ج ١ ص ٢٧٩ ط بولاق .

المفسرون قد يذكرون أحاديث صحيحة فى الفضائل

ولا يتوهمن متوهم أن جميع ما ذكره الزمخشرى ، والبيضاوى وأمثالها فى الفضائل موضوع ، فإن هذا لم يقله أحد من أهل العلم بالحديث ، ولا أهل التحقيق ، فقد ذكرا وغيرهما أحاديث فى غاية الصحة ، وذلك مثل : ماذكره الزمخشرى ، من قوله ـ ﷺ ـ : « **من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه** » فقد رواه البخارى ومسلم ، وقوله : « **أُوتيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش ، لم يؤتهن نبى قبلى** » ، فقد أخرجه النسائى ، وأحمد[1] .

وكذا ينبغى أن يعلم : أن كل ما ذكره الزمخشرى وأمثاله عن أبى بن كعب يكون موضوعاً ، كلا ، وحاشا ، فقد يذكر عن أبى بن كعب ما هو صحيح أو حسن ، وذلك مثل : ماذكره فى آخر تفسيره سورة الفاتحة ، حيث قال : وعن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال لأبى بن كعب : « **ألا أخبرك بسورة لم تنزل فى التوراة ، والإنجيل ، والقرآن مثلها ؟ ، قلت : بلى يارسول الله : قال : فاتحة الكتاب إنها السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته** »[1] أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح ، والنسائى ، والحاكم ، وصححه على شرط مسلم .

وتفسير الحافظ ابن كثير أجل ما يعتمد عليه فى أحاديث الفضائل ما صح منها ، وما لم يصح والسور التى صحت فى فضائلها الأحاديث : الفاتحة ، والزهراوان ، والأنعام ، والسبع الطوال مجملة ، والكهف ويس ، والدخان ، والملك ، والزلزلة ، والنصر ، والكافرون ، والإخلاص ، والمعوذتان ، وما عداها لم يصح فيها شىء ، وأصح ما ورد فى فضائل السور هو : ماورد فى سورة الإخلاص : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ .

وكذلك : ورد فى فضائل السور أحاديث حسان ، وأحاديث ضعاف لم تصل إلى حد الوضع ، فكن من ذلك على بينة .

* * *

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٩٢ ط بولاق .

(٢) الكشاف ج ١ ص ٥٩ ط بولاق .

الموضوعات فى أسباب النزول

ومن الأحاديث ، والآثار الموضوعة ، المذكورة فى كثير من كتب التفاسير : ما يتعلق بأسباب النزول ، وسأذكر منها ما تيسر لى الوقوف عليه ، منها : ما لا يتنبه إليه إلا الحافظ ، الناقد المتقن ، ومنه ما يدركه الحافظ وغير الحافظ ، لظهور بطلانها عقلاً ونقلاً ، كقصة الغرانيق ، وقصة زواجه ـ ﷺ ـ بالسيدة زينب بنت جحش ، وسنعرض لبيان بطلانهما فيما يأتى ـ إن شاء الله . فمن ذلك : ما روى فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** ﴾[١] ، فقد روى عن ابن عباس : أنها نزلت فى عبدالله بن أبى وأصحابه ، حينما خرجوا ذات يوم ، فاستقبلهم نفر من الصحابة ، فقال ابن أُبى : انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم ، فأخذ بيد الصديق ، فقال : مرحبا بالصديق : سيد بنى تميم ، وثانى رسول الله فى الغار ، وأخذ بيد عمر ، فقال : مرحبا بالفاروق ، ثم أخذ بيد على ، فقال : مرحبا بابن عم النبى ، وختنه[٢] ، سيد بنى هاشم ما خلا رسول الله ! ! ثم افترقوا ، فقال ابن أبى لأصحابه : انظروا كيف أرد هؤلاء ، فإذا قابلتموهم ، فافعلوا مثل ما فعلت .

وهو من رواية السدى : ـ أى الصغير ـ ، عن الكلبى عن أبى صالح ، عن ابن عباس ، قال ابن حجر فى تخريج أحاديث الكشاف : هو سلسلة الكذب لا سلسلة الذهب ، وآثار الوضع لائحة عليه وسورة البقرة : نزلت فى أوائل الهجرة ، وتزوج علىٍّ بفاطمة كان فى السنة الثانية[٣] .

وقد ذكر هذا السبب الثعلبى ، والواحدى ، والزمخشرى ، والنسفى فى تفاسيرهم ولم يتنبه أحد منهم إليه وتنبه له ابن جرير ، فلم يذكره ، وكذا ذكره السيوطى فى الدر ، إلا

---

(١) البقرة الآية ١٤ .

(٢) يعنى زوج ابنته السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ .

(٣) انظر كيف نقد الحافظ القصة من جهة السند والمتن ، وهذا يرد مزاعم المستشرقين وأتباعهم من أنهم عنوا بنقد السند دون المتن .

أنه قال : بسند واه ، وكان عليه أن لا يذكره ، ما دام سندها واهيا ، وقد سمعت مقالة الإمام الحافظ : ابن حجر فيه .

ومن ذلك : ما ذكره بعض المفسرين فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا** ﴾ الآية[1] .

فقد روى أبو نعيم ـ فى الدلائل ـ من رواية محمد بن مروان السدى عن الكلبى ، عن أبى صالح عن ابن عباس ، قال : « راعنا بلسان اليهود : السب القبيح ، فكانت اليهود تقولها لرسول الله سرًا ، فلما سمعها أصحابه أعلنوا بها ، فكانوا يقولونها ، ويضحكون منها ، فسمعها سعد بن معاذ منهم ، فقال : لئن سمعتها من رجل منكم لأضربن عنقه فنزلت .

قال الحافظ ابن حجر فى تخريجه : السدى الصغير متروك ، وكذا شيخه ، أقول : وهى سلسلة الكذب كما تقدم ، وقد ذكر هذا الزمخشرى ، والبيضاوى ، والآلوسى ، وغيرهم .

ومن ذلك : ما ذكره بعض المفسرين فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبهُم بِالْغَدَاةِ وَالعشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّنْ شيْءٍ فَتَطْرُدَهُم فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾[2] فقد أخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وغيرهما عن خبَّاب بن الأرت ، قال : جاء الأقرع بن حابس ، وعيينة ابن حصن الفزارى ، فوجدا رسول الله ـ ﷺ ـ مع صهيب ، وبلال وعمار ، وخباب قاعدا فى أُناس من الضعفاء فلما رأوهم حول النبى حقروهم ، وقالوا : إنا نريد أن تجعل لنا مجلسا يعرف به العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك ، فنستحى أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد ، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا ، وإذا نحن فرغنا فاقعد معهم ، قال : « نعم » ، قالوا : اكتب لنا كتابا بذلك ، فدعا بالصحيفة ودعا عليا ليكتب ، فنزل جبريل بهذه الآية .

---

(١) البقرة : الآية ١٠٤

(٢) الأنعام : ٥٢ .

وهذا غير صحيح ، فإن الآية مكية ، بل قيل : إنها نزلت كلها جملة واحدة ، والأقرع بن حابس ، وعيينة إنما أسلما بعد الفتح ، وهذان من المؤلفة قلوبهم ، فكيف يعقل نزول الآية بسبب مقالتهم ؟! والصحيح أن القائل هم : المشركون ، ولعل هذا السبب هو ما عناه ابن تيمية بقوله في : « المنهاج »[1] : وكقولهم : إن آية : ﴿ **ولا تطرد الذين** .. ﴾ نزلت في أهل الصفة فإن هذا الكذب مما لا يخفى على غير أهل الحديث .

وقد ذكر هذا السبب الآلوسي وغيره ، ولم ينبهوا إليه ، إلا أن الخازن عقب بما يدل على عدم صحته ، ومن ذلك : ماذكره المفسرون : كالزمخشري والنسفي ، والخازن ، وغيرهم في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ والَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** ﴾[2] فقد ذكروا : أنها نزلت في سيدنا عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ حينما مر به سائل ، وهو في الصلاة ، فطرح له خاتمة ، وقد حكم عليه ابن الجوزي بالوضع ، كما حكم عليه بالوضع أيضاً : الإمام ابن تيمية وأثر التشيع ظاهر عليه ، وجميع أسانيده لا تخلو من ضعف وجهالة[3] والمعروف عن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ : أنهم ماكانوا يشتغلون في الصلاة بغيرها ، بل كانوا في غاية الخشوع والاستغراق في الصلاة ، والركوع هنا على معناه اللغوي ، وهو : الخشوع ، والخضوع .

قصة الغرانيق موضوعة

ومن ذلك : ماذكره بعض المفسرين في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ومَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الحَقُّ من رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾[4]

فقد ذكر بعض المفسرين في سبب ذلك : ما قاله السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير ، وابن المنذر ، من طريق بسند صحيح : (كما زعم) عن سعيد بن جبير ،

---

(١) منهاج السنة ج ٤ ص ١١٥ ـ ١١٦ .

(٢) المائدة : ٥٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٨٣ .

(٤) الحج ٥٢ ـ ٥٤ .

قال : قرأ النبي – ﷺ – بمكة : ﴿ والنَّجْم ﴾ فلما بلغ : ﴿ **أَفرأَيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأُخرى** ﴾ ألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى . فقال المشركون : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم ، فسجدوا وسجد ، فنزلت ، وأخرجه البزار وابن مردويه ، بوجه آخر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس – فيما أحسبه – وقال : لا يروى متصلاً إلا بهذا الإسناد ، وبعد أن ذكر له طرقاً كثيرة قال : وكلها إما ضعيفة ، وإما منقطعة ، سوى طريق سعيد بن جبير الأولى وهذا الطريق وطريقان آخران مرسلان عند ابن جرير هم معتمد المصححين للقصة ، كابن حجر والسيوطى[1] .

وهذه القصة غير ثابتة : لا من جهة النقل ، ولا من جهة العقل والنظر . أما من جهة النقل : فقد طعن فيها كثير من المحققين والمحدثين ، قال البيهقى وهو من كبار رجال السنة : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، وقال القاضى عياض فى : « الشفاء »[2] : إن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل ، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون ، والمولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم ، ومن حكيت عنه هذه المقالة من المفسرين والتابعين ، لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صحابى ، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية ، والمرفوع منها حديث شعبة ، عن أبي البشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب (الشك فى وصل الحديث) : « أن النبى كان بمكة وذكر القصة » : قال أبوبكر البزار : هذا الحديث لا نعرفه يروى عن النبى بإسناد متصل ، إلا هذا ، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد ، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير ، وإنما يعرف عن الكلبى عن أبي صالح عن ابن عباس ، فقد بين أبوبكر أنه لا يعرف عن طريق يجوز ذكره سوى هذا ، وفيه من الضعف ما نبه عليه ، مع وقوع الشك فيه ، الذى لا يوثق به ولا حقيقة معه ، وأما حديث الكلبى : فمما لا يجوز الرواية منه ، ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه أ . هـ . وكذا أنكر القصة القاضى أبوبكر بن العربى وطعن فيها من جهة النقل ، وسئل محمد بن إسحاق بن خزيمة ، عن

---

(١) أسباب النزول للسيوطى على هامش تفسير الجلالين ج ٢ ص ١٤ – ١٦ .
(٢) جزء ٢ ص ١١٦ ومابعدها ط عثمانية .

هذه القصة ، فقال : هذا من وضع الزنادقة ، وصنف فى ذلك كتاباً[1] ، وذهب إلى وضعها الإمام : أبومنصور الماتريدى ، فى كتاب (حصص الأتقياء) حيث قال : الصواب أن قوله : تلك الغرانيق العلى من جملة إيحاء الشياطين إلى أوليائه من الزنادقة ، حتى يلقوا بين الضعفاء وأرقاء الدين ، ليرتابوا فى صحة الدين ، والرسالة بريئة من مثل هذه الرواية .

فها نحن نرى : أن من أنكرها وقضى بوضعها أكثر ممن صححها اعتمادا على روايات مرسلة :

اضطراب الرواية :

ومما يقلل الثقة بالحديث : اضطراب الروايات اضطراباً فاحشاً ، فقائل يقول : إنه كان فى الصلاة ، وقائل يقول : قالها فى نادى قومه ، وثالث يقول : قالها وقد أصابته سِنَة . ورابع يقول : بل حدث نفسه فسها . ومن قائل: إن الشيطان قالها على لسانه ، وإن النبي لما عرضها على جبريل قال : ما هكذا أقرأتك ؟ وآخر يقول : بل أعلمهم الشيطان أن النبي قرأها كما رويت : تلك الغرانيق العلى على أنحاء مختلفة ، وكل هذا الاضطراب ممَّا يوهن الرواية ، ويقلل الثقة بها . والحق أبلج والباطل لجلج .

القصة لم يخرجها أحد ممن التزموا الصحيح :

والقصة لم يخرجها أحد ممن التزموا الصحاح ، ولا أحد من أصحاب الكتب المعتمدة ، والذى روى فى البخارى ـ عن ابن عباس : « أن النبى ـ ﷺ ـ قرأ : النجم وهو بمكة ، فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس » ، وفى رواية ابن مسعود : « أول سورة أنزلت فيها سجدة ، والنجم ، قال : فسجد رسول الله ـ ﷺ ـ وسجد من خلفه إلَّا رجلاً رأيته أخذ كفا من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافرًا »[2] . أما سجود المسلمين : فاتباعًا لأمر الله ، وأما سجود المشركين : فلما سمعوه من أسرار البلاغة

---

(١) هكذا قال الرازى فى تفسيره : إنه محمد بن إسحق بن خزيمة وفى الآلوسى نقلاً عن تفسير البحر : إنه محمد بن اسحق جامع السيرة وقد بحثت فتبين لى أن ابن إسحق جامع السيرة ممن ذكرها فى سيرته فاستبعدت معه أن يكون هو الذى فندها ورجحت الأول . وابن خزيمة من الحفاظ الكبار توفى سنة ٣١١ هـ .

(٢) فتح البارى ج ٨ ص ٤٩٨ .

الفائقة ، وعيون الكلم الجوامع ، مع التهديد والإنذار ، وقد كان العربى يسمع القرآن ، فيخر له ساجدًا ، أضف إلى ذلك : ما فيه من موافقة الجماعة ، والشخص إذا كان فى جماعة يندفع إلى موافقتها من غير ما يشعر ، ولو كان الأمر على خلاف ما يهوى ويحب ، وهذا أمر مشاهد . وفى علم النفس ما يؤيده ، وذكر البخارى فى تفسير سورة الحج قال : وقال ابن عباس : ﴿ **إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ** ﴾ : إذا حدث ألقى الشيطان فى حديثه فيبطل الله ما يلقى الشيطان ، ويحكم آياته ويقال : أمنيته قراءته ، فقد حكى الثانى بصيغة التمريض ، التى تدل على الضعف ، وليس فى هذا ولا ذاك ما يشير إلى ما يزعمون .

المعتمدون للقصة :

ومع ما ذكرنا من قول المحققين فى القصة : فقد حكمت الصنعة والقواعد الاصطلاحية على الحافظ ابن حجر ، فصحح القصة ، وجعل لها أصلاً ، قال فى « الفتح »(١) ، فى تفسير سورة الحج ، بعد ما ساق الطرق الكثيرة : وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف وإما منقطع لكن كثرة الطرق تدل على أن لها أصلاً ، مع أن لها طريقين مرسلين آخرين ، رجالها على شرط الصحيح : أحدهما : ما أخرجه الطبرى من طريق يونس بن يزيد ، عن ابن شهاب ، حدثنى أبوبكر ابن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام ، فذكر نحوه . والثانى : ما أخرجه أيضاً من طريق المعتمد بن سليمان ، وحماد بن سلمة ، فرقهما عن داود بن أبى هند ، عن أبى العالية ، وبعد أن ذكر كلام القاضى أبى بكر بن العربى ، وعياض قال : وجميع ذلك لا يتمشى مع القواعد ، فإن الطرق إذا كثرت وتبينت مخارجها : دل ذلك على أن لها أصلاً ، وقد ذكرت أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح ، وهى مراسيل ، يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل ، وكذا من لا يحتج لاعتضاد بعضها ببعض ، وإذا تقرر ذلك : تعين تأويل ما فيها ممَّا يستنكر وهو قوله : ألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلا ، فإنه لا يجوز حمله على ظاهره ، لأنه يستحيل عليه ـ ﷺ ـ أن يزيد فى القرآن عمدًا ما ليس منه ، وكذا سهوًا إن كان مغايرًا ، لما جاء به من التوحيد ، لمكان عصمته ، وقد سلك العلماء فى ذلك مسالك ، وبعد أن ذكر الكثير

---

(١) جزء ثامن ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥ .

منها ، ولم يرتضه ، ارتضى لتصحيح القصة هذا التأويل ، وهو أن النبي ـ ﷺ ـ كان يرتل القرآن ترتيلاً ، فارتصده الشيطان فى سكتة من السكتات ونطق بتلك الكلمة محاكياً نغمته ، بحيث سمعها من دنا ، فظنه من قوله ، وأشاعها بين الناس : قال : وهو الذى ارتضاه القاضى عياض وأبوبكر بن العربى أ . هـ ، والقاضيان : عياض وأبوبكر رأيهما البطلان نقلاً وعقلاً ولكنهما ارتضيا ذلك تنزلاً على تسليم الصحة .

الذى أجيب به على ما ذكره الحافظ :

١ ـ أن جمهور المحدثين لم يحتجوا بالمرسل ، وجعلوه من قسم الضعيف ، لاحتمال أن يكون المحذوف غير صحابى ، وحينئذ : يحتمل أن يكون ثقة أو غير ثقة . وعلى الثانى : فلا يؤمن أن يكون كذاباً[1] والإمام مسلم قال فى مقدمة كتابه : والمرسل فى أصل قولنا وقول أهل العلم بالأخبار : ليس بحجة . وقال ابن الصلاح فى مقدمته : « وذكرنا من سقوط الاحتجاج بالمرسل والحكم بضعفه : هو الذى استقر عليه آراء جماهير حفاظ الحديث ، وتداولوه فى تصانيفهم » ، والاحتجاج به مذهب مالك ، وأبى حنيفة والشافعى ، بشروط ذكرها فى رسالته ، ونقلها العراقى فى شرح ألفيته ، وقد قالوا فى مراسيل أبى العالية : إنها ، كالريح ، كما فى : « التدريب » وإنى لأذكر الحافظ بما ذكره من البلاء فى الاحتجاج بالمراسيل فى مقدمة كتابه لسان الميزان[2] .

٢ ـ الاحتجاج بالمرسل إنما هو فى الفرعيات التى يكفى فيها الظن ، أما الاحتجاج به على إثبات شىء يصادم العقيدة وينافى دليل العصمة فغير مسلم ، وقد قال علماء التوحيد : إن خبر الواحد لو كان صحيحاً لا يؤخذ به فى العقائد ، لأنه لا يكتفى فيها إلا باليقين ، فما بالك بالضعيف .

---

(١) نزهة النظر شرح نخبة الفكر للحافظ ص ٢٧ ط الاستقامة .

(٢) قال الحافظ ابن حجر فى مدمة « لسان الميزان » روى عن شيخ من الخوارج أنه قال بعد ما تاب « إن هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم ، فإنا كنا اذا هوينا أمرا صيرناه حديثا » قال الحافظ : « وهذه ـ والله ـ قاصمة الظهر للمحتجين بالمراسيل ، إذ بدعة الخوارج كانت فى الصدر الأول ، والصحابة متوافرون ، ثم فى عصر التابعين ، ومن بعدهم ، وهؤلاء كانوا إذا استحسنوا أمراً جعلوه حديثا ، وأشاعوه ، فربما سمعه الرجل السنى فحدث به ، ولم يظهر من حدث به فيحمله عنه غيره ، ويجىء الذى يحتج بالمقاطيع ، فيحتج به ، ويكون أصله ما ذكرت » وهو كلام من الدقة والنفاسة بمكان وأنا لا أؤاخذ الحافظ إلا بما قال .

٣ ــ هذا التأويل الذى ارتضاه ما أضعفه عند النظر والتأمل ، فهو يوقع متأوله فيما فر منه ، وهو تسلط الشيطان على النبى ، فالتسلط عليه بالمحاكاة ، كالتسلط عليه بالإجراء على لسانه ، كلاهما لا يجوز ، وفتح هذا الباب خطر على الرسالات ، وإذا سلمنا أن الشيطان هو الذى نطق فى أثناء سكوت الرسول ، فكيف لا يسمع ما حكاه الشيطان ؟ وإذا سمعها ، فكيف لا يبادر إلى إنكارها ؟ والبيان فى مثل هذا واجب على الفور ، وإذا لم يسمع النبى ، ألم يسمع أصحابه ؟ وإذا سمعوا ، فكيف يسكتون ؟ وإذا لم يسمعوا فهل بلغ من تسلط الشيطان أن يحول بينهم وبين السماع ؟

ومثل هذا : ماذكره موسى بن عقبة فى مغازيه : من أن المسلمين ما سمعوها ، وإنما ألقى الشيطان ذلك فى أسماع المشركين ، فهل كان الشيطان يسر فى آذان المشركين دون المؤمنين ؟ ثم كيف يتفق هذا وما روى : من أن النبى حزن حزناً شديداً ، وأن جبريل قال له : ما جئتك بهذا .

الحق : أن نسج القصة مهما تأول فيه المتأولون فهو مهلهل متداع لا يثبت أمام البحث .

مصادمة القصة للقرآن المتواتر :

فقد أفادت القصة : تسلط الشيطان على النبى بالزيادة فى القرآن ما ليس منه ، وهو مخالف لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾ وأى شخص أحق بهذه العبودية من الأنبياء ــ بله رسول الله ــ ؟ وقال تعالى : ﴿ **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ وأى بشر أصدق إيماناً وأقوى توكلا من رسول الله ؟ ، وقد صدق الشيطان ذلك ، كما حكاه الله ــ تعالى ــ عنه بقوله : ﴿ **فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ بفتح اللام وكسرها ، ومن أحق من الأنبياء بالاصطفاء ، أو من أشد إخلاصاً منهم ؟

وأما بطلان القصة من جهة العقل والنظر :

فقد قام الدليل وأجمعت الأمة على عصمته ــ عليه الصلاة والسلام ــ من مثل ما روى ، إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا ، من مدح آلهة العرب وهو كفر ، أو أن

يتسور عليه الشيطان ، ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ، ويعتقد النبي ذلك ، حتى ينبهه جبريل ، وذلك ممتنع فى حقه أن يقوله من قبل نفسه عمداً وهو كفر ، أو سهوا وهو معصوم ، وقد ثبت بالبراهين والإجماع عصمته من جريان ذلك على لسانه ، أو قلبه ، لا عمداً ولا سهواً ، أو يكون للشيطان سبيل عليه فى التبليغ ، ولو جوزنا ذلك لذهبت الثقة بالأنبياء ، ولوجد المارقون سبيلاً للتشكيك فى الأديان[1] .

ووجه آخر لفساد هذه القصة : وهو أن الله ـ تعالى ـ ذم الأصنام فى هذه السورة ، وأنكر على عابديها ، وجعلها أسماء لا مسمى لها ، وما التمسك بأذيالها إلا أوهام وظنون ، فلو أن القصة صحيحة : لما كان هناك تناسب بين ما قبلها وما بعدها ، ولكان النظم مفككاً ، والكلام متخاذلاً ، وكيف يقع مدح بين ذمين ؟ ، بل كيف يجوز هذا ممن كمل عقله على كل العقول ، واتسع فى باب البيان ومعرفة الفصيح علمه ؟ ، وكيف يطمئن إلى مثل هذا التناقض السامعون ، وهم أهل اللسن والفصاحة ، ومنهم أعداؤه الذين يتلمسون له الزلات والعثرات ؟ ، ولو أن ما روى كان واقعاً لشغب المعادون ، وا. تد الضعفاء من المؤمنين ، ولقامت قيامة مكة ، كما حدث فى الإسراء ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن .

ووجه ثالث : وهو : أن بعض الروايات ذكرت : أن فيها نزلت : ﴿ **وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً . وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً** ﴾[1] ، وهاتان الآيتان تردان الخبر الذى رووه ، لأن الله ذكر : أنهم كادوا يفتنونه ولولا أن ثبته لكاد يركن إليهم ، ومفاده : أن الله عصمه من أن يفترى ، وثبته ، حتى لم يكد يركن إليهم ، فقد انتفى قرب الركون فضلاً عن الركون ، لمكان العصمة والتثبت ، وهم يروون فى أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون ، بل افترى بمدح آلهتهم وهذا ضد مفهوم الآيتين ، وهو تضعيف للحديث لو صح ، فكيف ولا صحة له ؟ ولقد طالبته قريش وثقيف ، إذ مر بآلهتهم أن يقبل بوجهه إليها ، ووعدوه الإيمان به إن فعل ، فما فعل ، ولا كان ليفعل ، فكيف يدعى المتخرصون أنه مدح أصنامهم ؟

ومما يدل على افتعال القصة : ما ذكره الأستاذ الإمام الشيخ : محمد عبده فى رده

---

(١) الشفاء للقاضى عياض ص ١١٩ جزء ثان ط عثمانية .
(١) الإسراء الآيتان ٧٣ ، ٧٤ .

هذه الفرية ، وهو : أن وصف العرب لآلهتهم بالغرانيق لم يرد لا فى نظمهم ولا فى خطبهم ، ولم ينقل عن أحد : أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم ، إلا ما جاء فى : « معجم ياقوت » من غير سند ولا معروف بطريق صحيح ، والذى تعرفه اللغة : أن الغرنوق والغرانيق : اسم لطائر مائى أسود أو أبيض ، ومن معانيه : الشاب الأبيض الجميل ، ويطلق على غير ذلك (راجع القاموس) ، ولا شىء من معانيه اللغوية يلائم معنى الإلهية والأصنام ، حتى يطلق عليها فى فصيح الكلام الذى يعرض على أمراء الفصاحة والبيان ، ولا يجوز أن يكون هذا من قبيل المجاز ، بتشبيه الأصنام والآلهة بالغرانيق ، لأن الذوق الأدبى العربى يأبى ذلك .

زعم مردود :

وقد حاول أحد أعداء الدين ، وهو : « سيرموير » المستشرق : الذى طبل لهذه القصة وزمر ، أن يدعمها بما يزعم أنه صحيح ، وهو ما روى : أن النبى لما قال ذلك ، تهادن المسلمون والمشركون ، وترامى الخبر إلى مهاجرى الحبشة ، فرجعوا إلى وطنهم ، وهو باطل ، والسبب فى رجوع مهاجرى الحبشة ، هو : إسلام السيد الهمام : عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ فقد أعز الله به الإسلام ، وقوى شوكة المسلمين ، فخفف المشركون من غلوائهم مما رغب مهاجرى الحبشة فى الرجوع إلى وطنهم ، وإنضم إلى ذلك : حدوث ثورة فى بلاد النجاشى ، كان اعترافه بأن ما جاء به القرآن فى عيسى وأنه عبد الله ورسوله حق مصدق لما جاء به الإنجيل ، وإيواؤه المسلمين بعض أسبابها ، فآثر المسلمون العودة على المقام بالحبشة ، خشية أن يتطاير إليهم بعض الشرر و الضرر .

وإذا كانت القصة غير ثابتة من جهة النقل ، وهى مخالفة للقرآن المتواتر ، ومناقضة لما ثبت بالعقل ، مع تعذر التأويل ، فلا جرم : أن التحقيق يدعونى إلى أن أصدع بأن حديث الغرانيق مكذوب مختلق وضعه الزنادقة ؛ الذين يحاولون إفساد الدين والطعن فى خاتم الأنبياء .

وإذ قد انتهينا إلى هذه النتيجة الموفقة : فما معنى الآية حينئذ ؟ وللإجابة عن ذلك : أذكر خلاصة ما ذكره الأستاذ الإمام فى تفسيرها . وفى تفسيرها وجهان : الأول ، أن

التمنى بمعنى القراءة[1] . إلا أن الإلقاء لا بالمعنى الذى ذكره المبطلون ، بل بمعنى إلقاء الأباطيل والشبه مما يحتمله الكلام ، ولا يكون مراداً للمتكلم ، أو لا يحتمله ، ولكن يدعى أن ذلك يؤدى إليه ، وذلك من عمل المعاجزين ، الذين دأبهم محاربة الحق ، يتبعون الشبهة ، ويسعون وراء الريبة ، ونسبة الإلقاء إلى الشيطان حينئذ لأنه مثير الشبهات بوساوسه ، ويكون المعنى : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا حدث قومه عن ربه ، أو تلا وحيا أنزل الله فيه هداية لهم ، قام فى وجهه مشاغبون يتقولون عليه ما لم يقله ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، وينشرون ذلك بين الناس ، ولا يزال الأنبياء يجالدونهم ويجاهدون فى سبيل الحق ، حتى ينتصر ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان من شبه ، ويثبت الحق ، وقد وضع الله هذه السنة فى الخلق ليتميز الخبيث من الطيب ، فيفتتن ضعفاء الإيمان الذين فى قلوبهم مرض ، ثم يتمحص الحق عند أهله ، وهم الذين أوتوا العلم ، فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وتخبت له قلوبهم .

ثانياً : أن التمنى : المراد به تشهى حصول الأمر المرغوب فيه وحديث النفس بما كان ويكون ، والأمنية من هذا المعنى : وما أرسل الله من رسول ، ولا نبى ليدعو قومه إلى هدى جديد ، أو شرع سابق إلا وغاية مقصوده ، وجل أمانيه ، أن يؤمن قومه ، وكان نبينا من ذلك فى المقام الأعلى : ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثَ أَسَفًا** ﴾ ، ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ ، ويكون المعنى : وما أرسلنا من رسول ولا نبى ، إلا إذا تمنى هذه الأمنية السامية ؛ ألقى الشيطان فى سبيله العثرات ، وأقام بينه وبين مقصده العقبات ووسوس فى صدور الناس ، فثاروا فى وجهه ، وجادلوه بالسلاح حينًا وبالقول حينًا آخر ، فإذا ظهروا عليه والدعوة فى بدايتها ، ونالوا منه وهو قليل الأتباع ؛ ظنوا أن الحق فى جانبهم ، وقد يستدرجهم الله جرياً على سنته ، بجعل الحرب بينهم وبين المؤمنين سجالا ، فينخدع بذلك الذين فى قلوبهم شك ونفاق ، ولكن سرعان ما يمحق الله ما ألقاه الشيطان من الشبهات ، وينشىء من ضعف أنصار الآيات قوة ، ومن ذلهم عزة ، وتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ليعلم

---

(١) هذا التفسير ورد فى صحيح البخارى تعليقاً إلا أنه جعله مرجوحاً لا راجحاً وكذلك أشار إلى الوجه الثانى وهو تفسير التمنى بالتشهى ، وجعله هو الراجح (صحيح البخارى كتاب التفسير- باب تفسير سورة الحج) .

الذين أوتوا العلم أن ما جاء به الرسل هو الحق ، فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم . هذا هو الحق ، وما عدا ذلك فهو باطل .

٣ ـ إبطال ما ورد فى قصة السيدة زينب بنت جحش

رضى الله عنها

ومن ذلك : ما ذكره بعض المفسرين فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً** ﴾ (١) .

فقد روى عن قتادة وابن زيد (٢) أن رسول الله ـ ﷺ ـ ذهب إلى بيت زيد فى غيبته فرأى زينب فى زينتها ، وفى رواية . أن الريح كشفت عن سِتر بيتها ، فرآها فى حسنها ، فوقع حبها فى قلبه فرجع وهو يقول : سبحان الله العظيم ، سبحان مقلب القلوب ، فلما حضر زيد أخبرته بكلام رسول الله ، فذهب زيد ، وقال : بلغنى أنك أتيت منزلى ، فهلا دخلت يا رسول الله ، لعل زينب أعجبتك ، فأفارقها ، فقال له رسول الله : أمسك عليك زوجك ، واتق الله ، فنزلت الآية . وقد ذكر هذا السبب فى تفسير الجلالين ، وفسر المفسر الجلال الآية على هذه الرواية ، فيقول : وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ـ تظهره من محبتها ـ وأن لو فارقها زيد تزوجتها ، وذكر مثله الزمخشرى ، والنسفى ، وابن جرير ، والثعلبى ، وغيرهم ، إلاَّ أن ابن جرير ذكر بجانب هذا الباطل المدسوس رواية تتفق مع الواقع والحق ، وذكر مثل هذه الروايات الباطلة ، التى ليس لها من شاهد من نقل ولا عقل ، غفلة شديدة ، وإن كان من أبرز سنده تبعته أخف ، وهذه الرواية إنما هى من وضع أعداء الدين ، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم متهم بالكذب ، والتحديث بالغرائب ، ورواية الموضوعات ، ولم يذكر هذا إلاَّ المفسرون والإخباريون المولعون بنقل

---

(١) الأحزاب : ٣٧ .

(٢) هو عبدالرحمن بن زيد بن أسلم كما بين ذلك الحافظ ابن حجر فى تخريج أحاديث الكشاف .

كل ما وقع تحت أيديهم من غث أو سمين ، ولم يوجد شيءٌ من ذلك فى كتب الحديث المعتمدة التى عليها المعول عند الاختلاف ، والذى جاء فى الصحيح يخالف ذلك ، وليس فيه هذه الرواية المنكرة ، روى البخارى فى صحيحه ، عن أنس بن مالك ، أن هذه الآية : ﴿ **وتُخْفِى فِى نَفْسِكَ** ﴾ : نزلت فى شأن زينب ابنة جحش ، وزيد بن حارثة واقتصر على هذا القدر ، وليس فيه شيءٌ من هذا الخلط ، وقال الحافظ ابن حجر بعد ذكر رواية قتادة : « ووردت آثار أخرى ، أخرجها ابن أبى حاتم ، والطبرى ، ونقلها كثير من المفسرين ، لاينبغى التشاغل بها ، وما أوردته هو المعتمد » ، وهذه شهادة لها قيمتها ، والذى أورده هو ما أخرجه ابن أبى حاتم عن طريق السدى فى هذه القصة ، فساقها سياقاً واضحاً حسناً ، ولفظه : بلغنا أن هذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش ، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب : عمة رسول الله ، وكان رسول الله أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه ، فكرهت ذلك ، ثم رضيت بما صنع رسول الله ، فزوجها إيَّاه ، ثم أعلم الله ــ عز وجل ــ نبيه بعد ، أنها من أزواجه ، فكان يستحى أن يأمر بطلاقها ، وكان لا يزال بين زيد وزينب مايكون بين الناس ، فأمره رسول الله أن يمسك عليه زوجه ، وأن يتقى الله ، وكان يخشى أن يعيب عليه الناس ، ويقولوا : تزوج امرأة ابنه ، وكان قد تبنى زيدًا . وهذا هو السبب الصحيح ، وروى ابن أبى حاتم أيضًا والطبرى ، كل بسنده ، عن على ابن الحسين بن على ، قال : أعلم الله نبيه : أن زينب ستكون من أزواجه ، قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد يشكوها وقال له : اتق الله ، وأمسك عليك زوجك ، قال الله : قد أخبرتك أنِّى مزوجكها ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه (١) . وقال ابن كثير فى تفسيره (٢) عند قول الله ــ تعالى ــ : ﴿ **وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مبْدِيه وَتَخْشَى النَّاس وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ** ﴾ : « ذكر ابن أبى حاتم وابن جرير ههنا آثارًا عن بعض السلف ــ رضى الله عنهم ــ أحببنا أن نضرب عنها صفحًا ، لعدم صحتها فلا نوردها » .

التفسير الصحيح للآية :

وهاك تفسير الآية الذى يساير روحها ونصها ، وتشهد له الرواية الصحيحة ، وتتجلى

---

(١) فتح البارى ج ٨ ص ٤٢٥ ط الأزهرية .

(٢) جزء ٦ ص ٥٦٠ ط المنار .

فيه حكمة الله العالية ، ذلك : أن العرب كان من عادتها التبنى ، وكانت تلحق الإبن المتبنى بالعصبى ، وتجرى عليه حقوقه فى الميراث ، وحرمة زوجته على من تبناه ، وكانت تلك العادة متأصلة فى نفوسهم ، كما كان كبيراً أن تتزوج بنات الأشراف من موال ، وإن أعتقوا ، وصاروا أحراراً طلقاء ، فلما جاء الإسلام ، كان من مقاصده : أن يزيل الفوارق بين الناس التى تقوم على العصبية ، وحمية الجاهلية ، فالناس كلهم لآدم وآدم من تراب ، وأن يقضى على حرمة زوجة الابن المتبنى ، وقد شاء الله أن يكون أول عتيق يتزوج بعربية فى الصميم من قريش هو زيد ، وأن يكون أول سيد يبطل هذه العادة ـ حرمة زوجة الابن المتبنى ـ هو رسول الله ، وما على بنات الأشراف أن يتزوجن بعد الموالى ، وقد قبلت السيدة زينب اقترانها بزيد ، وما على سادات العرب أن يتزوجوا بأزواج أدعيائهم ، وقد قضوا منهن وطرًا ، وإمام المسلمين ، ومن يصدع بأمر الله ، قد فتح هذا الباب ، وتزوج حليلة متبناه بعد فراقها ، وقد كان كل ما أراد الله ، فرسول الله يخطب زينب لزيد ، فتأبى ويأبى بعض أهلها ، ويكرر رسول الله الطلب ، وينزل الوحى بذلك : **﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً ﴾** فلم يبق إلا الإذعان من زينب وأهلها ، ولكن زيدًا وجد منها تعاظماً ، فيرغب فى فراقها ، ويستشير الرسول ، فينصحه بإمساكها ، وكان جبريل قد أخبر رسول الله بأن زينب ستكون زوجة له ، وسيبطل الله بزواجه منها هذه العادة ، ولكن النبى وجد غضاضة على نفسه أن يأمر زيدًا بطلاقها ، ويتزوجها من بعد ، فتشيع المقالة بين الناس : أن محمدًا تزوج حليلة ابنه ، وبذلك : يصير عرضة للقيل والقال من أعدائه ، وهو فى دعوته إلى دين الله أحوج إلى تأييد المؤيدين ، فهذا المقدار من خشية الناس حتى أخفى ما اخبره الله به ـ وهو نكاحها ـ هو ما عاتبه الله عليه ، وقد صرح الله فى كلامه بالسبب الباعث على هذا الزواج فقال : **﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ﴾** ، هذا هو التفسير الذى يتفق مع الحق والواقع .

وقد نسج المستشرقون ، والمبشرون ، أعداء الدين ، من تلك الروايات المختلقة الواهية

---

(١) الأحزاب الآية ٣٦ .

ثوبًا من الكذب والخيال ، وصوروا السيدة زينب وقد رآها النبى الطاهر ، كما يصور الشباب الطائش إحدى غادات المسرح ، وطعنوا فى غير مطعن . فالروايات ليس لها أساس من الصحة فبناؤهم على غير أساس .

يقول الدكتور هيكل فى « حياة محمد »(١) :

ويطلق المبشرون والمستشرقون لخيالهم العنان ، حين يتحدثون عن تاريخ محمد فى هذا الموضوع ، حتى ليصور بعضهم زينب ساعة رآها النبى ، وهى نصف عارية أو تكاد ، وقد انسدل ليل شعرها على ناعم جسمها ، الناطق بما يكنه من كل معانى الهوى ، وليذكر آخرون : أنه حين فتح باب بيت زيد لعب الهواء بأستار غرفة زينب ، وكانت ممدودة على فراشها فى ثياب نومها ، فعصف منظرها بقلب هذا الرجل الشديد الولع بالمرأة ومفاتنها ، فكتم ما فى نفسه ، وإن لم يطق الصبر على ذلك طويلاً ! ! وأمثال هذه الصور التى أبدعها الخيال كثير ، تراه فى موير وفى دِرِمِنْجِم وفى وَاشِنْطُنْ ارْفِنْج ، وفى لامنس . وغيرهم من المستشرقين والمبشرين .

وثمة حجة دامغة تذهب بالقصة من أساسها ، فالسيدة زينب هى : بنت أميمة : بنت عبد المطلب ، بنت عمة رسول الله ، وقد ربيت على عينه ، وشهدها وهى تحبو ، ثم وهى شابة ، وله بحكم صلة القرابة معرفة بها ، وبمفاتنها ، ولا سيما : والنساء كن يبدين من محاسنهن ما حرم الإسلام منه بعد ، وهو الذى خطبها على زيد مولاه ، وكرر الطلب ، حتى استجيب له ، روى ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله - ﷺ - لزينب : إنى أريد أن أزوجك زيد بن حارثة ، فإنى قد رضيته لك ، قالت : لكنى لا أرضاه لنفسى ، وأنا أيم قومى ، وبنت عمتك ، فنزلت الآية : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ** ﴾ قالت : قد أطعتك ، فاصنع ما شئت ، فغير معقول ، والحال كما ذكرت ، ألا يكون شاهدها ، فلو كان يهواها ، أو وقعت من قلبه ، فأى شىءٍ كان يمنعه من زواجها ، وإشارة منه كافية لأن يقدموها له وما ملكت ؟ فمثله وهو فى الذروة من قريش نسباً وخلقاً وديناً ، ما كان يُقدَع أنفه(٢) . ومن بعد ذلك ، فحياة رسول الله من

---

(١) حياة محمد ص ٣٠٨ .

(٢) مثل يضرب للرجل الكفء الكريم ، والأصل فيه أن الفحل من الإبل إذا كان غير كريم ضربوا أنفه ودفعوه حتى يبعد عن الناقة ، فإذا كان كريماً تركوه فصار مثلا « هذا الفحل لا يقدع أنفه » .

صباه إلى كهولته إلى أن توفى ؛ ترد هذه الفرية ، فحياته لم تكن حياة حب واستهتار ، ولا عرف عنه أنه كان زير نساءٍ ، ولا صريع الغوانى ، وانما كانت حياة الشرف والكرامة ، ما عرفت الدنيا أطهر ذيلاً منه ، ولا أعف منه ، ولا لمست يده قط يد امرأة لا تحل له بشهوة ، وكيف يكون على هذا الحال الذى افتروه من خاطبه من يعلم السر وأخفى ، بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ولو كان رسول الله صاحب هوى ، أو غرام ، لأشبع رغبته وهو فى ميعة الصبا وشرخ الشباب ، أيام أن كان الغيد الكواعب من بنات الأشراف تشرئب أعناقهن إلى أن يكن حليلات له ، ولكنه قضى شبابه مع سيدة تزيد على الأربعين ، ورضيها زوجاً له ، حتى توفاها الله ، ومهما قيل فى جمالها : فهناك غيرها من الأبكار الشابات من يفقنها فى الجمال ، وللأبكار ما لهن من جاذبية وروعة ، ومن قضى بغير ذلك : فقد خالف سنة الله فى الفطرة ، واتبع شواذ العادات .

ولم يكن زواج رسول الله بزوجاته إلّا لحكم ومقاصد سامية : فزواجه بعائشة وحفصة توكيد للعلاقة بينه وبين وزيريه ، وزواجه بالسيدتين : سودة وزينب بنت عبدالله تكريم لهما ، وللعقيدة القوية فى شخص زوجيهما[1] ، وزواجه بالسيدة : أم سلمة جبر لكسرها ، وتعويض لها عن فقد عائلها ، وعرفان لتضحياتها وتضحيات السيد : أبى سلمة زوجها ، ومهما قيل فى أم سلمة ، وأنها كانت ذات جمال فى شبابها ، فقد كان فى كبر سنها وما مرت به من أحداث جسام ، من الهجرة إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة ، وما أنجبت من أولاد ، وما رزئت به فى فقد الرجل الذى ما كانت تظن أن هناك من هو خير منه ـ لقد كان فى كل ذلك ما يذوى بهذا الجمال ، إن لم يذهب به ، ثم أليس فى غيرها من بنات المهاجرين والأنصار الأبكار من تفوقها جمالاً ، وشبابا ، وثروة ، ونضرة ؟!

وزواجه بالسيدة : أم حبيبة بنت أبى سفيان ، حفظ لها من الضيعة وهى فى بلاد نائية عن بلادها ، فقد تنصر زوجها : عبيدالله بن جحش ومات على نصرانيته ، وثبتت هى على إيمانها ، وتحملت آلام الوحدة والغربة ، فلم يكن ثم شيء أجمل مما صنعه الرسول

---

(١) فقد هاجرت السيدة سودة مع زوجها إلى الحبشة فمات هناك ، وأما السيدة زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبدالله فكانت تحت عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف أحد شهداء بدر ، وقيل كانت زوجة عبدالله بن جحش شهيد « أُحد » .

معها ، وقد تزوجها النبي وهي بالحبشة ولم يدخل بها إلا عام سبع بعد خيبر ، فكيف يكون هذا حال من أولع بالنساء ، وصار همه إشباع رغباته الشهوانية ونهمه الجنسي ؟!

وزواجه بالسيدة : زينب بنت جحش ، لإبطال هذه العادة ، ويطول بي القول لو استقصيت الحكم في زواجه ـ ﷺ ـ فلذلك مقام آخر . والعجب من هؤلاء الطاعنين إذا وقعوا على ما يشفي غليلهم من باطل الروايات ، تمادوا في قلب الحقائق ، وأنكروا عقولهم ، وتجاهلوا الظروف والملابسات ، والبيئة ، وأحكامها ، والعادات ، وسلطانها ، إلى غير ذلك مما يتفيهقون به ، بينما يطيشون بالحكم على روايات في غاية الصحة بأنها موضوعة ولا حامل لهم في الحالين إلا الهوى والتعصب . وبعد : فإذا كانت القصة كما رأيت ، لاسند لها من جهة النقل ، وحياة رسول الله تكذبها ، وطبيعة البيئة التي جرت فيها تجلَّت أصولها ، فلم يبق إلَّا أنها موضوعة .

* * *

٤ ـ سبب نزول مشهور على الألسنة وهو موضوع

ومن ذلك : ما يذكره غالب المفسرين في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيماً وَأَسِيرًا** ﴾ : فقد روى عن ابن عباس : أن الحسن والحسين مرضا ، فعادهما جدهما رسول الله ، ومعه أبوبكر وعمر ، وعادهما من عادهما من الصحابة ، فقالوا لعليٍّ ـ كرَّم الله وجهه ـ : لو نذرت على ولديك فنذر علي ، وفاطمة ، وجارية لهما إن برءا أن يصوموا ثلاثة أيام شكراً لله ، فألبس الله الغلامين ثوب العافية فاستقرض سيدنا علي ثلاثة آصع ، فجاء بها ، فقامت السيدة فاطمة إلى صاع ، فطحنته ، وخبزت منه خمسة أقراص على عددهم ، فوقف بالباب سائل ، فقال : السلام عليكم يا أهل بيت محمد ، أنا مسكين ، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة ، فآثروه ، وباتوا لم يذوقوا شيئًا ، وفي اليوم الثاني : جاء يتيم فأعطوه الأقراص الخمسة كذلك ، وفي اليوم الثالث : جاء أسير فعل مثل الأولين ، وقد اشتمل الخبر على شعر ركيك ، فهبط جبريل على النبي ، فقال : خذها يا محمد ، فأقرأه : ﴿ **هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ** ﴾ السورة . وقد أخرج هذا الخبر معظم المفسرين ، ويكاد لم يسلم تفسير منه ، حتى إن الحافظ السيوطي ذكره في : « الدر » مع أنه وافق على ضعفه في اللآلي : وقد نبه على وضعه : الحكيم الترمذي ، والحافظ ابن الجوزي ، وابن حجر في :

« التخريج » ، وقال : آثار الوضع لائحة عليه لفظاً ومعنى ، فبناء سيدنا على بالسيدة فاطمة كان بالمدينة فى السنة الثانية ، مع أن السورة مكية ، كما روى عن ابن عباس والجمهور(١) فليس من المعقول أن يكون هذا هو السبب ، ومن العجيب : أن الإمام الآلوسى قد حاول إثبات الخبر بالخلاف فى مكيتها ومدنيتها ، وبأن ابن الجوزى متساهل فى الحكم بالوضع . ومعظم التفاسير ذكرت هذا السبب ، لأن الحكم بوضعه يخفى إلّا على الحافظ الناقد البصير.

* * *

٥ - سبب نزول عليه أثر العصبية السياسية

ومن ذلك : ما يذكره بعض المفسرين : فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ** ﴾ : قال السيوطى فى « الدر المنثور » : أخرج الترمذى ، وضعفه ، وابن جرير ، والطبرانى ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن يوسف بن مازن الرؤاسى ، قال : قام رجل إلى الحسين بن على ، بعد ما بايع معاوية ، فقال : سودت وجوه المؤمنين ، فقال : لا تؤنبنى - رحمك الله - ، فإن النبى رأى بنى أمية على منبره ، فساءه ذلك فنزلت : ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ** ﴾ ، ونزلت : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ** ﴾ يملكها بنو أمية ، يا محمد ، وقد حكم عليه ابن الجوزى بالوضع ، وقال فيه ابن كثير ، إنه منكر جداً ، وحكم ببطلان هذا التأويل أيضاً : ابن جرير فى تفسيره ، حيث قال بعدما ذكر هذا الحديث ضمن أقوال ذكرها ، قال : وأشبه الأقوال بظاهر التنزيل من قال : عمل فى ليلة القدر خير من عمل فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، وأما الأقوال الأُخَر ، فمعان باطلة لا دلالة عليها من خبر ولا عقل ، ولا هى موجودة فى التنزيل(٢) ، وهذا الحديث معناه غير صحيح ، فإن معاوية بن أبى سفيان - رضى الله عنه - استقل بالملك حين سلم إليه الحسن سنة ٤٠ هـ ، واستمر ملكهم إلى سنة ١٣٢ هـ ، لم يخرج عن ملكهم إلا الحرمان ، والأهواز ، مدة ابن

---

(١) هذا يدل على أن المحدثين كانوا يعنون بنقد المتون عنايتهم بنقد الأسانيد ، وهذا يرد ما تقوله عليهم المستشرقون وأتباعهم .

(٢) تفسير الطبرى ج ٣٠ ص ١٦٧ .

الزبير وهى تسع سنين ، وخروج بعض الجهات عن ملكهم فى هذه المدة لا يكون مبررًا لإنقاصها من ملكهم ، فمدتهم إذًا : اثنان وتسعون عامًا ، وهى أكثر من الألف ، ولو سلمنا إنقاص مدة ابن الزبير ، فمدتهم لا توافق الألف وإن كانت تقرب منها فالحديث المزعوم كيفما حملناه ، فمعناه غير صحيح ، مع أن لوائح الوضع ظاهرة عليه ، والترمذى قال فيه : حديث غريب لا نعرفه إلَّا من حديث القاسم ، وهو ثقة ، وشيخه مجهول ، والبلاءُ غالباً من المجاهيل . ومما يوهن الحديث ويدل على وضعه ، أنه سيق لذم دولة بنى أمية ، ولو أريد ذلك لم يكن بهذا السياق ، فإن تفضيل ليلة القدر على أيامهم لا يدل على ذم أيامهم ، وأيضاً : فإن ليلة القدر شريفة ، والسورة الكريمة نزلت لبيان شرفها ، فكيف تمدح بتفضيلها على أيام بنى أمية ، وهى مذمومة بمقتضى هذا الحديث ، فالحديث لا يعطى ما أراده الواضع من ذم أيامهم ، كما يعارض ، ما دلت عليه السورة من شرف هذه الليلة ، مما لا ينبغى أن يختلف فيه اثنان ، وقديماً قيل :

ألم تر أن السيف ينقص قدره ... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

ما ذكره بعض المفسرين فى تأييد رأى أو بيان معنى

« المعدة بيت الداءِ ، والحمية رأس الدواء »

فمن ذلك : ما ذكره الزمخشرى فى كشافه ، وتابعه النسفى فى تفسيره ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾[1] .

ويحكى : أن الرشيد كان له طبيب نصرانى ، حاذق ، فقال لعلى بن الحسين بن واقد : ليس فى كتابكم من علم الطب شىءٌ ، والعلم علمان : علم الأديان ، وعلم الأبدان ، فقال له : قد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابه ، فقال : وما هى ؟ قال ، قوله تعالى : ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا** ﴾ ، فقال النصرانى : ولا يؤثر عن رسولكم شىءٌ فى الطب ؟ فقال : قد جمع رسولنا ـ ﷺ ـ الطب فى ألفاظ يسيرة ، فقال : وما هى ؟ قال : فى قوله : « المعدة بيت الداء ، والحمية[2] رأس الدواء ، واعط

(١) الأعراف : ٣١ .
(٢) الامتناع أو التقليل من الطعام .

كل بدن ما عوَّدته » ، فقال النصرانى : ما ترك كتابكم ، ولا نبيكم لجالينوس طبا .

أقول : ولئن أصاب فى الآية ، فقد أخطأ فى ذكره الحديث ، فإنه ليس من كلام النبى - ﷺ - ، وإنما هو من « كلام الحارث بن كلدة » طبيب العرب[1] ، فنسبته إلى النبى كذب واختلاق عليه ، نعم هناك من قول النبى - ﷺ - ما هو أدق ، وأوفى من هذا ، وهو قوله - ﷺ - : « **ما ملأ ابن آدم وعاءً شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم أكلات - أى لقيمات - يقمن صلبه ، فإن كان ولا بد ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه** » ، رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

وقد كان الإمام البيضاوى على حق حينما ذكر القصة التى ذكرها الزمخشرى ، ولكنه اكتفى بالآية ، ولم يذكر الحديث ، فقد علمت أنه ليس من كلامه - ﷺ - .

* * *

٧ - حديث : أنا « ابن الذبيحين »

ومن ذلك : ما ذكره الزمخشرى فى كشافه ، وتبعه النسفى فى تفسيره ، وغيرهما ، عند قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** ﴾ الآيات[2] فقد ذكرا فى الاستدلال على أن الذبيح : إسماعيل : ما روى عن النبى - ﷺ - أنه قال : « **أنا ابن الذبيحين** » يعنى جده الأعلى : إسماعيل ، وأباه : عبد الله بن عبد المطلب .

وهذا الحديث لا يثبت عند المحدثين ، قال الإمامان : الزيلعى ، وابن حجر فى تخريج أحاديث الكشاف : لم نجده بهذا اللفظ ، وقال الحافظ العراقى : إنه لم يقف عليه ، ولا يعرف بهذا اللفظ ، وأما حديث الأعرابى الذى جاء إلى النبى - ﷺ - طالباً العطاء : فقال فيما قال : « فعد على مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين ، فتبسم رسول الله - ﷺ - ، ولم ينكر عليه » ، فهو حديث حسن ، بل صححه الحاكم ، وقد ورد من طرق عدة يقوى بعضها بعضًا[3] .

(١) كشف الخفاء ومزيل الإلباس ج ٢ ص ٢١٤ .
(٢) الصافات ١٠١ - ١٠٧ .
(٣) كشف الخفاء ومزيل الإلباس ج ١ ص ١٩٩ .

٨ ـ تفسير شيعي

ومن ذلك : ماذكره بعض المفسرين : كابن جرير فى تفسيره ، والسيوطى فى : « الدر المنثور » ، ومفسرو الشيعة فى تفاسيرهم ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ من رَّبِّه إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُل قَوْمٍ هَادٍ** ﴾[١] فقد فسروا المنذر : بالنبي ـ ﷺ ـ ، والهادى بأنه عليٌّ ـ رضى الله عنه ـ ، والجمهور من المفسرين سلفًا وخلفًا على أن المنذر والهادى هو رسول الله ، وكذلك : ما روى عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ** ﴾[٢] من أن المراد بها : أُذن عليٍّ ، فقد رووا : أن النبي ـ ﷺ ـ لما نزلت الآية أخذ بأذنه وقال : « **هى أُذنك يا عليّ** » ، وفى رواية : « **اللهم اجعلها أُذن عليٍّ** » ، وهما موضوعان كما نبه على ذلك شيخ الإسلام : ابن تيمية ، وغيره من الأئمة .

* * *

٩ ـ بعض القراءات الموضوعة

ومن الموضوعات التى اشتملت عليها بعض كتب التفسير : كالزمخشرى ، والنسفى ، القراءات الشاذة التى تنسب إلى الإمام أبي حنيفة ، وهو برىء منها ، ولكنها اختلقت .

وقد بين ذلك الإمام الخطيب فى تاريخه ، والإمام الذهبى فى : « طبقات القراء » ، وابن الجزرى فى « الطبقات » أيضًا .

وواضعها هو : محمد بن جعفر الخزاعى ، المتوفى سنة سبع وأربعمائة ونقلها عنه أبو القاسم الهذلى ، قال الذهبى فى الميزان فى ترجمة : « محمد بن جعفر » هذا : ألف كتابا فى قراءة الإمام أبي حنيفة ، فوضع الدارقطني خطه عليه ، بأن هذا موضوع لا أصل له ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ** ﴾ برفع لفظ الجلالة ، ونصب لفظ العلماء ، وإذا كانت موضوعة فلا حاجة للتكلف بتصحيح معناها كما فعل الزمخشرى فى تفسيره[٣] .

---

(١) الرعد : ٧ .

(٢) الحاقة : ١٢ .

(٣) فقد فسر الآية بأنه يجلهم ويعظمهم فهو تفسير باللازم .

خاتمة الكتاب

١ ـ ها أنذا قد انتهيت ـ ولله الحمد ـ من هذا الكتاب الذى نرجو أن ينفع الله به المسلمين ، وأن يبصرهم بحقيقة كتاب ربهم ، ويوقفهم على الدخيل الذى دخل كتب التفاسير ، وكان جناية على الإسلام والمسلمين .

ولست أدعى أنى استقصيت كل ما فى كتب التفسير من إسرائيليات وموضوعات ، فذلك يحتاج إلى عمر طويل ، وجهد جهيد ، ولكننى ـ ولله الحمد والمنة ـ قد وفقت إلى التنبيه إلى معظمها ، والكثير منها ، ولا سيما ما يخل بتوحيد الله وصفاته ، أو ما يطعن فى عصمة الأنبياء ، أو ما يصادم الحقائق العلمية ، أو ما يباين المعقول ، أو يخالف الصحيح من المنقول .

ولن يكون هذا بآخر المطاف فى هذا الموضوع المهم الخطير ، ولكنى سأُتابع الدرس ، والسهر ، والبحث ، والتنقيب ، حتى آتى على آخر المستطاع من الإسرائيليات والموضوعات ـ إن شاء الله تعالى ـ .

٢ ـ لقد بذلت غاية الجهد ، فى الوصول إلى الحق والصواب ، ولم يكن من شأنى ـ علم الله ـ التساهل أو التسرع ، وإنما كان دأبى التثبت والتروى ، ثم التروى ، حتى يطمئن قلبى ، وينشرح صدرى ، وترتاح نفسى إلى ما وصلت إليه .

ومن الحق والإنصاف أن أقول : إن الكثير مما وصلت إليه قد تنبه إليه العلماء المحققون ، والأئمة الحفاظ النقاد المتقنون ، من سلف هذه الأمة الإسلامية الخالدة ، التى تكفل الله ـ جل جلاله ـ بأن يبعث لها على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها .

وقد حرصت على أن أُبين سلفى من العلماء فيما قلته ، فلست ممن يستسمى بما ليس فيه ، ولا ممن يجحد فضل علمائنا من سلف الأمة ، وخلفها ، ولست أيضًا ممن يرتفع على أنقاض غيره ، وجحود فضل غيره ، ومن المؤسف : أن هذه اللوثة قد أصبحت سمة من سمات الكثيرين من الباحثين ، والكاتبين ، والمؤلفين فى هذا العصر الأخير ، ورحم الله امرءًا عرف قدر نفسه ، وأما ما اختلف فيه بعض الأئمة الكبار بالإثبات ، والنفى ، والحكم بالوضع ، وعدم الوضع ، كقصة هاروت وماروت ، وقصة الغرانيق مثلاً ، فقد

سلكت فيه مسلك الترجيح من إبداء الحجة والبرهان ، مهتدياً فى ذلك بقولة الإمام الكبير : إمام دار الهجرة : « مالك بن أنس » ــ رحمه الله تعالى ــ : «كل أحد يؤخذ منه ، ويرد عليه ، إلا صاحب هذا المقام » ، وأشار إلى قبر النبى ــ ﷺ ــ ، فقد خالفت فيهما رأى إمامين كبيرين : الإمام الحافظ ابن حجر ، والإمام الحافظ السيوطى على جلالتهما ، والحق فى الإسلام لا يعرف بالرجال ، وإنما يعرف الرجال بالحق ، ورضى الله تبارك وتعالى ــ عن سيدنا علىٍّ حيث قال : « اعرف الحق تعرف أهله » ، وحسبى فى كلا الحالين : ما وافقت فيه ، وما خالفت أنى مجتهد ، والمجتهد مأجور أصاب أم أخطأ ، وصدق المبلغ عن رب العالمين ــ ﷺ ــ حيث قال : « **إذا اجتهد الحاكم ، ثم أصاب فله أجران ، وإذا اجتهد ، ثم أخطأ فله أجر** » رواه مسلم فى صحيحه .

٣ ــ لم يكن من خلقى إذا ما خالفت عالماً مهما كان رأيه ، أو مرويه : أن أتطاول عليه ، أو أجهل ، فليس ذلك من خلق العلماء فى الإسلام ، وإنما هو من سمات الأدعياء ، المغرورين ، العاجزين ، وإنما كان ديدنى : النقد الذاتى ، الموضوعى ، فأُقابل الحجة ــ إن كانت بالحجة ، والبرهان بالبرهان ، والشبهة بالحق واليقين ؛ لأن علماءنا ، وأئمتنا الأوائل ــ عفا الله عنا وعنهم ــ حسناتهم أكثر بكثير من سيئاتهم إن كانت ، وصوابهم أوفى من خطئهم ، وحقهم أعظم بكثير من باطلهم ، وهم ليسوا بمعصومين ، وإنما العصمة لله ــ عز وجل ــ ولرسله الكرام .

فمن ثم : كنت رفيقًا غاية الرفق بالمفسرين الذين ذكروا ، الإسرائيليات والموضوعات فى تفاسيرهم من غير تنصيص عليها ، وكنت أغلب جانب الاعتذار عنهم ، على جانب التثريب ، والاستنكار ، كما كنت فى غاية الأدب مع الصحابة والتابعين الذين رووا هذه المرويات . وحاولت الاعتذار عنهم غير مرة : بأنهم إما رووها تحسينًا للظن برواتها فيما هو محتمل للصدق والكذب ، أو رووها ، ولم ينبهوا إلى ما فيها من أكاذيب ، وخرافات ، وأباطيل اعتمادًا على ظهور ذلك لقارئها ، أو أنهم رووها على سبيل الاستنكار لما فيها ، ولكن الراوى عنهم لم ينقل لنا ذلك ، أو أن هذه المرويات قد دست عليهم فيما دس فى المرويات فى الإسلام ، ومحاولة الاعتذار عنهم هو الأليق بأهل القرون الفاضلة الأولى بشهادة النبى ــ ﷺ ــ .

وإذا استساغ المستشرقون ، والمبشرون ، ومتابعوهم ، لأنفسهم السفاه ، والتجنى فى النقد على السلف الصالح ، ولا سيما أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ، الذين زكاهم الله ورسوله ، فكيف يستسيغ كاتب مسلم لنفسه ، فضلاً عن عالم أن يسفه هو الآخر عليهم ، ويصمهم بأقبح الصفات وهو الكذب ؟! أو يجاريهم فى نقل سفاههم ، وتجنيهم عليهم ، إنه ـ وأيم الحق ـ للأمر العجب ، والخطب الجلل .

إن هؤلاء السلف الصالح مهما كانت عليهم مؤخذات ، ففضلهم عظيم ، وخيرهم كثير ، ونفعهم عميم .

٤ ـ إن الكثيرين ، أو الكثرة الكاثرة من القراء حينما يقرءون ما كتبت ، فسيقدرون جهدى ، وتعبى ونصبى ، حتى أخرجت لهم هذا الكتاب ، وسيوافقوننى ـ على ما أظن ـ على كل ما قلت ، أو معظم ما قلت .

وقد تكون هناك فئة أخرى لا توافقنى على كل ما قلت ، وقد تخالفنى فى بعض ما قلت ، وربما يتصايحون : أين هذا المؤلف من فلان ، وفلان من العلماء ، يرد أقوالهم ، ويفند مروياتهم ، ويتعقبهم فيما يذكرون ، ويستدرك عليهم ما فاتهم !!

وأحب أن أقول لهذه الفئة ـ إن كانت ـ : إن معرفة الحق ليست قصرًا على شخص دون شخص ، ولا على جيل دون جيل ، والعلم ليس قصرًا على أحد ، وهو فضل من الله يؤتيه من يشاءُ ، وأحب أن أقول لهم أيضًا : اقرأوا الكتاب مثنى ، وثلاث ، ورباع ، ثم لتتفكروا ولتتفكروا ، وسيظهر لكم بعد التروى ، والتأنى ، والهدوءُ ما ظهر لى ، فإن أبوا إلَّا التمسك بآرائهم : فبحسبى أننى ذكرت : ﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ** ﴾[1] ، وبحسبى أننى حذرت : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ** ﴾[2] . وبحسبى : أننى بلغت : ﴿ **وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ** ﴾[3] ، وبحسبى أننى مجتهد ، وللمجتهد ـ إذا أصاب ـ أجران ، ـ وإذا أخطأ ـ أجر ، وبحسبى : أننى لا أُريد إلَّا الخير لهذه الأُمة ، وإصلاح ما فسد من أمرها : ﴿ **إِنْ**

---

(١) الغاشية : ٢١ ، ٢٢ .

(٢) المائدة : ١٠٥ .

(٣) النور : من الآية ٥٤ .

أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[1] .

٥ ـ ليعلم من لا يعلم تحدثًا بنعمة الله ـ تعالى ـ على : ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾[2] لا افتخاراً ، ولا تمننًا ـ ، فالمنة لله ، ولرسوله ـ : أننى قد وقفت حياتى لخدمة القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، والذب عن رسول الله ـ ﷺ ـ ، وعن صحابته الطيبين الطاهرين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، وأنى قد وجدت فى ذلك لذة دونها كل لذة ، وشرفًا دونه أى شرف ، وجاهًا دونه أى جاه ، وأنى قد ألفت فى ذلك بعض الكتب[3] التى انتفع منها طلاب العلم والمعرفة ، وأرجو : أن يتقبلها الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وأنا ـ ولله الحمد والفضل ـ أغير على الأحاديث والسنن من نفسى ، وأهلى ، وولدى وعرضى ، وأنها من أحب الأشياء إلى نفسى ، وأبعد ما يظن بى : أنى أتسور على القرآن الكريم ، فأفسره بغير الوارد عن السلف ، وأنى أتهجم على الأحاديث ، والسنن فأردها ، وأُبطلها ، وأنى أصدر فيما قلت عن هوى ، أو شهوة ، أو حب جاه ، فمعاذ الله ، ثم معاذ الله ، أن أكون أحد أولئك .

وفى الحق : أننى حينما اجتهدت وحكمت ، فإنما كنت دائمًا أصدر عن قول الرسول الكريم : « **من كذب على متعمدا ، فليتبوأ مقعده من النار** » رواه الشيخان وغيرهما ، وقوله : « **من حدث عنى بحديث يُرى أنه كذب ، فهو ، أحد الكاذبين** » ، رواه مسلم ، فقد كان غرضى ، ذب الكذب عن رسول الله ـ ﷺ ـ ، وعن صحابته ، والرد على ما يثار حول الرسول ، وصحابته ، من طعون بسبب هذه الإسرائيليات والموضوعات ، والرد على ما يثار على الإسلام من شبه وتجنيات عليه بسببها .

٦ ـ ومع كل هذا : فأنا أفسح صدرى لكل نقد نزيه مبرا من الهوى ، والشهوة ، والرجوع إلى الحق إذا ظهر لى ، فإنى من المؤمنين بقولة الفاروق : عمر ـ رضى الله عنه ـ ، وكلمته الحكيمة فى كتابه الجامع لسيدنا أبى موسى الأشعرى ، هذا الكتاب الذى يعتبر من أُصول القضاء فى الإسلام ، قال ـ رضى الله تعالى عنه ـ : « .. ولا يمنعك قضاء

---

(١) هود : ٨٨ .

(٢) والضحى : الآية ١١ .

(٣) منها : المدخل لدراسة القرآن الكريم ، ودفاع عن السنة ، ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين ، وأعلام المحدثين ، والسيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة .

قضيته بالأمس راجعت فيه نفسك ، وهديت فيه إلى رشدك ، أن ترجع عنه ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل .. » .

والحمد لله فى النهاية ، كما حمدناه فى البداية ، وصلى الله ـ تبارك وتعالى ـ على إمام الهدى والتقى ، ومعلم الدنيا ، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور سيدنا ، ومولانا ، ونبينا ، محمد ، وعلى آله وصحابته ، ومن تبعهم بإحسان ، إلى يوم الدين ، وأعنا معهم بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين ، ويا أكرم الأكرمين ، اللهم آمين .

كتبه

خادم القرآن والسنة

محمد بن محمد أبو شهبة

غفر الله له ، ولوالديه ، وللمؤمنين ، والمؤمنات

مراجع الكتاب

(١) القرآن الكريم..

(٢) تفسير ابن جرير الطبرى .... ط بولاق

(٣) تفسير الثعلبى .... مخطوط ناقص بمكتبة الأزهر الشريف

(٤) تفسير البغوى .... مطبوع على هامش تفسير ابن كثير

(٥) تفسير الكشاف .... مطبوع

(٦) تفسير النسفى............................ مطبوع

(٧) تفسير البيضاوى............................ مطبوع

(٨) تفسير ابن كثير .... مطبوع ط المنار

(٩) تفسير الفخر الرازى .... مطبوع

(١٠) تفسير أبى حيان .... مطبوع

(١١) تفسير الخازن .... مطبوع

(١٢) تفسير أبى السعود العمادى............................ مطبوع

(١٣) تفسير الخطيب............................ مطبوع

(١٤) تفسير «الدر المنثور» للسيوطى .... مطبوع

(١٥) تفسير القرطبى .... مطبوع ط دار الكتب المصرية

(١٦) تفسير الآلوسى............................ مطبوع

(١٧) صحيح الإمام أبى عبدالله البخارى .... مطبوع

(١٨) صحيح الإمام مسلم بن الحجاج القشيرى............................ مطبوع

(١٩) مسند الإمام أحمد بن حنبل .... مطبوع

(٢٠) موطأ الإمام مالك بن أنس .... مطبوع

(٢١) سنن أبى داود السجستانى .... مطبوع

(٢٢) سنن الترمذى............................ مطبوع

(٢٣) سنن النسائى............................ مطبوع

(٢٤) سنن ابن ماجه .... مطبوع

(٢٥) سنن الدارقطنى .... مطبوع

(٢٦) مستدرك الحاكم أبى عبدالله .... مطبوع بالهند

(٢٧) فتح البارى بشرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر .... ط عبد الرحمن محمد
(٢٨) مقدمة فتح البارى للحافظ ابن حجر .... مطبوع
(٢٩) شرح صحيح مسلم للنووى .... مطبوع
(٣٠) البرهان فى علوم القرآن للزركشى .... ط محمود توفيق
(٣١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى .... مطبوع
(٣٢) مقدمة فى أصول التفسير للإمام ابن تيمية .... مطبوع ط الاستقامة
(٣٣) الشفا للإمام القاضى عياض .... مطبوع ط اسطنبول
(٣٤) شرح المواهب اللدنية للإمام الزرقانى .... مطبوع
(٣٥) زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم .... مطبوع
(٣٦) مقدمة العلامة ابن خلدون .... مطبوع
(٣٧) محاسن الصور فى الكشف عن أحاديث السور للمغربى .. مخطوط بدار الكتب المصرية
(٣٨) تخريج أحاديث الكشاف للحافظ ابن حجر.... مطبوع مع التفسير فى بعض الطبعات
(٣٩) القول المسدد فى الذب عن مسند أحمد .... مطبوع
(٤٠) منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية .... مطبوع
(٤١) علوم الحديث لابن الصلاح بشرحها للعراقى .... مطبوع
(٤٢) اللآلى المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة للسيوطى .... مطبوع
(٤٣) الموضوعات الكبرى للشيخ على القارىء .... مطبوع ط الأستانة
(٤٤) تدريب الراوى شرح تقريب النواوى للسيوطى .... مطبوع
(٤٥) الباعث الحثيث إلى علوم الحديث للحافظ ابن كثير .... مطبوع
(٤٦) نخبة الفكر بشرحها للحافظ ابن حجر .... مطبوع
(٤٧) تذكرة الحفاظ للذهبى .... مطبوع
(٤٨) ميزان الاعتدال للذهبى .... مطبوع
(٤٩) لسان الميزان للحافظ ابن حجر .... مطبوع
(٥٠) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .... مطبوع
(٥١) البداية والنهاية لابن كثير .... مطبوع
(٥٢) التفسير والمفسرون للدكتور الشيخ الذهبى .... مطبوع
(٥٣) مناهل العرفان لأستاذنا الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقانى .... مطبوع
(٥٤) منهج الفرقان فى علوم القرآن الشيخ محمد على سلامة .... مطبوع
(٥٥) مقالات العلامة الشيخ زاهد الكوثرى .... مطبوع
(٥٦) الوضع فى الحديث ، وآثاره السيئة فى كتب العلوم للمؤلف .... مخطوط

(٥٧) السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة جزءان للمؤلف .... مطبوع
(٥٨) ظفر الأمانى شرح مختصر الجرجانى للشيخ اللكنوى .... مطبوع بالهند
(٥٩) الموضوعات الكبرى للحافظ ابن الجوزى .... مخطوط
(٦٠) تحذير المسلمين من الأحاديث الموضوعة للشيخ ظافر الأزهرى .... مطبوع
(٦١) الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيثمى .... مطبوع
(٦٢) تحذير الخواص من أكاذيب القصاص للسيوطى .... مطبوع
(٦٣) تخريج أحاديث إحياء علوم الدين للحافظ العراقى .... مطبوع على هامش الإحياء
(٦٤) دلائل النبوة للإمام البيهقى .... مطبوع
(٦٥) الفرق بين الفرق للبغدادى .... مطبوع
(٦٦) التبصير فى الدين ، والفرق بين الفرق الناجية والهالكين لأبى المظفر الإسفراييني مطبوع
(٦٧) الآثار المرفوعة فى الأحاديث الموضوعة للشيخ اللكنوى .... مطبوع بالهند
(٦٨) الملل والنحل للشهرستانى .... مطبوع
(٦٩) الفصل فى الملل والنحل لابن حزم الظاهرى .... مطبوع
(٧٠) الصواعق المحرقة لابن حجر المكى .... مطبوع
(٧١) أسباب النزول للحافظ السيوطى .... مطبوع على هامش تفسير الجلالين
(٧٢) تفسير سورة الفاتحة ، وإبطال قصة الغرانيق وقصة زواج النبى بالسيدة زينب بنت جحش للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .... مطبوع ط المنار
(٧٣) سنن الله الكونية للدكتور محمد أحمد الغمراوى .... مطبوع
(٧٤) مجمع الزوائد للهيثمى .... مطبوع
(٧٥) تفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا .... مطبوع
(٧٦) القول السديد فى علم التوحيد للشيخ محمود أبو دقيقة .... مطبوع
(٧٧) رسالة فى الأحاديث الموضوعة للإمام ابن تيمية .... مطبوعة
(٧٨) الإصابة فى تاريخ الصحابة للحافظ ابن حجر .... مطبوع
(٧٩) مختصر مستدرك الحاكم للإمام الحافظ الذهبى .... مطبوع مع المستدرك
(٨٠) فجر الإسلام وضحاه للأستاذ أحمد أمين .... مطبوع
(٨١) كتب العهد القديم (التوراة والأسفار) .... مطبوع
(٨٢) القاموس المحيط للفيروزابادى .... مطبوع
(٨٣) المصباح المنير للفيومى .... مطبوع

فهرست الكتاب

من مطبوعات مكتبة السنة

كتب من تأليف أو تحقيق المحدث الكبير العلامة :

أحمد محمد شاكر

- **نظام الطلاق فى الإسلام** : بحث علمى دقيق ، على الأساس الإسلامى الصحيح ، فى التمسك بالكتاب والسُّنة ، وفى آخره مشروع قانون دقيق لشئون الطلاق على هذا الأساس .
- **الكتاب والسُّنة (يجب أن يكونا مصدر القوانين)** : وهو قسمان ، الأول : فى الدعوة إلى وجوب أخذ القوانين من الكتاب والسُّنة ، ورسم الخطة العملية لتنفيذ ذلك . والثانى : بحث دقيق عنوانه « الشرع واللغة » فى الرد على عبد العزيز فهمى « باشا » فى مشروعه لكتابة العربية بالحروف اللاتينية ، وفى عدوانه على الإسلام وأئمته .
- **كلمة الفصل فى قتل مدمنى الخمر** : بحث علمى دقيق ، فى الحديث النبوى وبيان حكم قتل شارب الخمر فى الرابعة ، وبيان علل الأحاديث الواردة فى هذا الباب ، وبيان الصواب فيما قيل حول نسخ هذه الأحاديث ، وفيه دعوة إلى الإصلاح الاجتماعى .
- **لباب الآداب** : للأمير أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ) :

  تحقيق النص ، وتصحيحه ، مع شرح متوسط ، ومقدّمة ، وفهارس .
- **الحلال والحرام عن خير الأنام (محمد عليه الصلاة والسلام)** : للإمام عبد الغنى المقدسى الحنبلى (ت ٦٠٠ هـ) : تحقيق النص ، وتصحيحه ، مع بعض تعليقات مهمة ، وفهارس .
- **ألفية الحديث** : للحافظ العراق (ت ٨٠٦ هـ) ، وهى غير ألفية السيوطى المشهورة : ضبط النص ، وتحقيقه ، وتصحيحه .

  ومعها شرحها الكبير : « **فتح المغيث بشرح ألفية الحديث** » للمؤلف نفسه ، الحافظ العراق ، فى مجلد كبير بطباعة جيدة .
- **كلمة الحق** : وهى كلمة للحق فى مواقف الرجال ، ففيها منافحة عن القرآن ، ومحافظة على أعراض المسلمين ، وفيها حديث عن السياسة العليا للأمم الإسلامية ، وفيها تحرير لعقول المسلمين وقلوبهم من روح التهتك والإباحية ، ومن روح التمرد والإلحاد ، وفيها محاربة للنفاق والمجاملات الكاذبة ، مع أبحاث نفيسة فى العقيدة والحديث والفقه والتاريخ واللغة .
- **أحكام التجويد** : للشيخ محمد المحمود ، تحقيق النص ، وضبطه ، وتصحيحه .
- **الكتب والمؤلفون (نقد وتعريف)** : مقالات وأبحاث هامة فى النقد العلمى لأهم ما أصدرته المطابع خلال أربعين سنة مع تراجم مؤلفيها وتوجيههم ، تجد فيها أبحاث هامة فى الحديث الشريف وفى التاريخ واللغة والأدب وفى العلوم الشرعية عامّة ، مع مقالات أخرى نادرة ونفيسة .

  أشرف عليها واعتنى بها العلاّمة **عبد السلام محمد هارون** ـ شيخ المحققين والأمين العام لمجمع اللغة العربية .

نصوص تراثية

- **كتاب التفسير** : للإمام الحافظ أحمد بن شعيب النسائى ، المتوفى ٣٠٣ هـ ، « صاحب السنن » ـ فى مجلدين ـ ينشر للمرة الأولى فى الدنيا عن نسخه المخطوطة ، على أحسن الأساليب العلمية فى تحقيق النصوص .
- **صريح السُّنة** : للإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، المتوفى ٣١٠ هـ ، وهو من الكتب المتقدمة فى بيان اعتقاد السلف الصالح أهل السنة والجماعة والرد على أهل البدع والأهواء ينشر عن نسخه المخطوطة بصورة علمية فريدة .
- **المواعظ النبوية** : للإمام أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى . المتوفى ٥٩٧ هـ ، تحقيق أبى الفداء السيد بن عبد المقصود الأثرى .
- **الأحاديث العوالى** (من جزء الحسن بن عرفة العبدى) المتوفى ٢٥٧ هـ ـ رواية شيخ الإسلام ابن تيمية ، المتوفى ٧٢٨ هـ ، انتقاء الحافظ الذهبى المتوفى ٧٤٨ هـ . تحقيق الدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائى .
- **تخريج أحاديث مختصر المنهاج (فى أصول الفقه)** ـ للحافظ العراقى (ت ٨٠٦ هـ) ، بتحقيق العلامة صبحى البدرى السامرائى .
- **العواصم من القواصم (فى بيان موقف الصحابة بعد وفاة النبى ﷺ)** : للإمام أبى بكر بن العربى (ت ٥٤٣ هـ) . خرج أحاديثه وعلق عليه محمود مهدى الاستانبولى ، مع تعليقات العلامة محب الدين الخطيب . نشرة جديدة موثقة عن ثلاث نسخ مخطوطة .
- **القضاء والقدر** : للإمام الحافظ أبى بكر أحمد بن الحسين البيهقى (ت ٤٥٨ هـ) ، بتحقيق أبى الفداء الأثرى السيد بن عبد المقصود ـ مع أسئلة وأجوبتها فى القضاء والقدر من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ومن مؤلفات تلميذه الإمام ابن القيم رحمهما الله .
- **الأحاديث القدسية** : للعلاّمة على بن سلطان الهروى القارى ـ الملاّ على القارى ـ (ت ١٠١٤ هـ) .
- **أسس تحقيق التراث العربى ومناهجه** : للدكتور بشار عواد معروف ، والدكتور شكرى فيصل ، والدكتور فؤاد سزكين ، والعلامة محمد بهجة الأثرى ، وآخرين .
- **وصية النبى ﷺ لابن عباس رضى الله عنهما** : للحافظ أبى الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلى (ت ٧٩٥ هـ) بتحقيق أبى الفداء الأثرى .
- **٢٠٠ سؤال وجواب فى العقيدة** : للعلامة الشيخ حافظ بن أحمد الحكمى (ت ١٣٧٧ هـ) أول نشرة محققة من هذا الكتاب الهام ومعتنى بها .
- **الجامع فى الحديث والآثار** : للإمام الحافظ عبد الله بن وَهْب المصرى ، المتوفى ١٩٧ هـ ، « تلميذ الإمام مالك » فى مجلدين ، ينشر لأول مرة كاملاً عن نسخ عِدَّة من مكتبات العالم وعلى أسس التحقيق القويمة ، من قِبَلْ مركز السنة للبحث العلمى .
- **كتاب الأدب** : للإمام الحافظ أبى بكر بن أبى شيبة ، المتوفى ٢٣٥ هـ ، « صاحب المصنَّف » ـ بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائى .
- **الكلام المنتقى مما يتعلق بكلمة التقوى : لا إله إلا الله** : للعلامة سعيد بن حجى الحنبلى ، فى تحقيق معنى لا إله إلا الله ، ومقتضياتها ، وأحكامها ، وفوائدها ، وفضائلها ، ومعه مختصر رسالة الحافظ ابن رجب الحنبلى فى « تحقيق معنى كلمة الإخلاص » . بتحقيق : أبى الفداء الأثرى .

بحوث ودراسات

- **الإسرائيليات والموضوعات (فى كتب التفسير)** : للأستاذ الدكتور الشيخ محمد بن محمد أبو شهبة رحمه الله ، قد تتبع فيه المؤلف ـ رحمه الله ـ الإسرائيليات المدسوسة فى كتب التفسير ، وأوضح فيه خطورة هذه الإسرائيليات مع بيان الأحاديث الموضوعة فى كتب التفسير المشهورة ، وفى الكتاب تعريف عام بكتب التفسير على جميع أنواعها .
- **الإسراء والمعراج** : للأستاذ الدكتور الشيخ محمد بن محمد أبو شهبة ، وفيه تصدى المؤلف رحمه الله لمنكرى هذه المعجزة الكبرى ، وساق الروايات الصحيحة فى هذا الموضوع مع بيان فوائد الإسراء والمعراج .
- **بحوث فى السُّنة المشرفة** : للأستاذ الدكتور الشيخ عبد الغنى عبد الخالق ـ رحمه الله ـ ، وهو بحث أصولى حول منزلة السنة بالقرآن والاحتجاج بالسنة وفى مسألة نسخ السُّنة بالقرآن وغيرها .
- **أسماء الله وصفاته الحسنى** : للعلاّمة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين ، وفيه بيان أهم القواعد التى يفهم بها هذا الجانب المهم من العقيدة الإسلامية ـ مع بيان الأدلة الشرعية فى تجلية هذه القواعد .
- **تحذير الراكع والساجد من بدعة زخرفة المساجد** : لأبى الفداء السيد بن عبد المقصود الأثرى .
- **فتاوى مهمة تمس إليها الحاجة** : أجاب عليها العلاّمة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين ، وهى مسائل يحتاجها المسلم فى يومه وليلته فى العقائد والعبادات والمعاملات وشتى أنواع الأحكام الشرعية .

  اعتنى بها ورتبها أبى الفداء السيد بن عبد المقصود الأثرى .
- **الأذكار** : محمد بن إبراهيم الشيبانى .. من الكتب ذات الأهمية فى هَدْى النبى ﷺ فى الذكر خلال اليوم والليلة وعلى كل أحواله .

كتب من تأليف أو تحقيق العلامة الكبير

عبد السلام محمد هارون

- **تهذيب سيرة ابن هشام** : طبعة جديدة خاصة بمكتبة السُّنة ، ذات زيادات ومقدمة وتنقيحات وفهارس مهمة .
- **الميسر والأزلام** : دراسة تاريخية اجتماعية أدبية ودعوة إلى إصلاح اجتماعى .
- **حول تحقيق النصوص (مدخل .. ودراسات نقدية)** : أثر علمى نفيس قدّم فيه المؤلف ـ حفظه الله ـ تجربته مع التراث وأراؤه حول نشر هذا التراث وأثره فى تقدم المسلمين مع نقد الكتب التراثية التى أخرجتها المطابع فى زهاء خمسين عاماً .
- **تحقيق النصوص ونشرها** : وهو المرجع الأول لكل من يقوم بتحقيق نص تراثى أو التعليق عليه وقد نال من إعجاب وثناء أهل العلم ما هو قمين باقتناءه والاطلاع عليه ـ وتمتاز هذه **الطبعة الخامسة** بزيادات وشروح وفوائد مهمة تزيد عن نصف الطبعات السابقة .
- **الرد على النصارى** : لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ـ محققاً تحقيقاً علمياً عن نسخه الخطية فى مكتبات العالم ـ وهو أول نص فى المقارنة .

٦٧٧

كُتُب للمرأة المُسلِمَة

- **عشرة النساء** : للإمام الحافظ أحمد بن شعيب النسائى (٣٠٣ هـ) صاحب سنن النسائى الشهيرة . محققاً تحقيقاً علمياً عن نسخ الكتاب المخطوطة . يطبع للمرة الأولى فى الدنيا .
- **الحجاب والسفور (فى الكتاب والسُّنة)** : للعلاّمة الشيخ عبد العزيز بن باز ، ومعه رسائل مهمة لجماعة من أهل العلم حول فرضية النقاب وغيره .
- **المرأة المسلمة** : للشيخ حسن البنا ـ رحمه الله ـ راجعه وخرّج أحاديثه وعلق عليه محمد ناصر الدين الألبانى ، ومعه مجموعة رسائل مهمة لجماعة من العلماء : الدكتور محمد محمد حسين والدكتور محمد الصباغ والدكتور عمر سليمان الأشقر والشيخ عبد الله بن زيد آل محمود والأستاذ منير محمد الغضبان .
- **المرأة المسلمة** : للشيخ أبو بكر جابر الجزائرى ، كتاب فقه وعبادات ومعاملات وأخلاق وأدب .
- **المشاكل الزوجية (فى ضوء الكتاب والسُّنة) الطرق الشرعية لحل المشاكل الزوجية** : للشيخ سليمان الحميضى القاضى والدكتور تقى الدين الهلالى .
- **الترغيب فى الزواج (وبيان يُسر الإسلام فيه)** : لأبى الحارث أشرف بن عبد المقصود الأثرى ، فى بيان أدلّة الكتاب والسنة فى تيسير الإسلام على المسلمين الزواج وتحذير ولاة الأمور عن المغالاة فى المهور ـ وفيه صور مشرّقة من هدى السلف الصالح فى هذا الموضوع .
- **صفة الزوجة الصالحة (فى الكتاب والسُّنة)** : للمؤلف السابق ـ أيضاً .
- **تحريم الاختلاط بين الرجال والنساء** : للدكتور مصطفى السباعى والدكتور محمد الصباغ والعلاّمة عبد العزيز باز وآخرين .
- **إليك أيتها الأخت المسلمة (رسائل موجهة لطالبات الجامعة)** : للشيخ محمد طارق محمد صالح .

رقم الايداع ١٩٨٨/٣٠٤١م

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة ـ الفجالة
جمهورية مصر العربية تلفون ٩٠٤٣٤٣ ـ ٩٠٥٢٩٦